مَجْمُوعُ مَنَاقِبِ وَمَوَاعِظِ وَوَصَايَا الإِمَامِ

الحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ البَحْرِ الجِفْرِيِّ

(١١٩٣ - ١٢٧٣ هـ)

وَمَعَهُ مُكَاتَبَاتُهُ وَقَصَائِدُهُ

الجُزْءُ الأَوَّلُ



قلادة النحر

في مناقب الحسن بن صالح البَحْر

(١١٩١-١٢٧٣هـ)

تأليفُ الفقيه المعلِّم

عفيف الدين عبد الله بن سَعْد بن سُمَير الحضرمي

(١١٩٠-١٢٦٥هـ)

[نص كتاب «قلادة النحر»]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعينُ، على ما نرومُه ونقصِدُه ونريده أمور الدنيا والدين، ونسأله أن لا يجعلَ ما أجراهُ وأظهرَه على أيدينا، وأبرزه من لدينا حجةً علينا تدخلنا في حيِّز المبْعَدين، بل يجعلُه سُلَّماً لنا إلى السلامة، وموجباً لدخولنا دار الكرامَة، ومجاورة النبيين والصديقين، مع أنا نحمدُه كثيراً على ما منَّ به علينا منًّا كبيراً، من محبتنا وانتمائنا إلى أولياهُ الأكرمينَ، شموس الاهتداءِ [١/]، وأقمار الاقتداءِ، وإنسانِ عينِ العوالم أجمعين، مع مُباينتنا لصالح أعمالهم، ومخالفتِنا لسديد أفعالهم، وكوننا في سِلك الغافلين المذنبينَ، لولا الترجِّي لنفحةٍ من نفحاتهم، تغمرُنا بدعوة من دعواتهم، لوقع الإياسُ، وتحقَّق الإفلاسُ، والعياذ بربِّ الناسِ من الخسران المبينِ.

ونصَلِّي ونسلمُ على إمام الشريعة والحقيقة، وشمس الطريقة للخليقة، سيدنا محمدِ الأمين، وعلى آله الهداةِ، سفينة النجاة، وأمان العالم وضياه، وورثة سرِّ الكتابِ المبين، وصحبه الأبطالِ [٢/] الدامغين لكل باطلٍ، الصادقينَ الصابرين، وتابعيهم على النهج السويِّ والسَّنَن المرضيِّ، من الهداة المهتدينَ، وعلينا معَهم وفيهم يا ربَّ العالمينَ.

وبعد؛

فإنه طالما يخطُر ببالي البالي، ويجول في خَلَدي الخالي، أن أقيدَ ما علمتُه ورأيته من مآثر وأخلاق وسيرٍ وأفعَال وأقوالٍ ومعاملاتٍ وكراماتٍ، سيّد الساداتِ، وقدوة القاداتِ، وإمام أهل الولاياتِ، يَتيمة عقدِ الأكابر، وصدر صُدور الأوائل والأواخر، وخليفة جدِّه الرسول الطاهر، الذي شمِلتْ بركتُه ودعوته الباديَ والحاضر، وغَمر نداهُ وجُودُه الأكابرَ والأصاغرَ، وتطَأطأتْ لعلوِّ مفْخَره أولو المفاخِر، ورجعَ القَهْقَرى عن شأوِ رتبتِه المجِدُّ بالعَدْوِ والسّائرُ، الذي أقعدَ مَنْ قبله بمجاهَداتِه، وأعجز من بعده عاداته، أويس الاسْتتار في ذاتِه، جلي الاشْتِهار بما عَمَّ وسارَ من حُسنِ صفاتِه، الشريفِ ذاتاً وصفاتاً، الحسينيِّ السنيِّ، حاوي السيادَة والتقدُّم في العلمِ [/ ٣] اللدُنِّي، سيِّدنا ومولانا ووسيلتنا في نيل طلبنا إلى عَالم سريرتِنا، الحسَنِ بن صالحٍ، البَحْر اسماً ومسَمَّى، الجفريِّ العلويِّ، نفع الله به الإسلام والمسلمين؛ إلى أن حصَلتِ الإشارةُ، وأتبعتُها بالاستخارةِ، حتّى حصل العزمُ على الابتداءِ في ذلك يومَ السبتِ ثالثَ عشر الـحجّة الحرام، آخرَ شهور سنة ١٢٤١هـ، إحدى وأربعين ومائتين وألفٍ.

وأرجُو المعونةَ، من الخزائن المكنُونة، لكون أحواله، نفع الله به، البحَارَ التي لا تجارَى، والسحبَ الهواطلَ التي لا تمارَى، كما قيل في جدِّه الأستاذ الأعظم الفقيه المقدَّم:

* وأحوالُه قد أبهرَتْ كلَّ عارفٍ *

فما فسَّروا فيها بتفسيرٍ مقنعٍ. وأستغفرُ الله من الجراءةِ على ذلكَ، مع عدم

الأهلية لما هنالكَ، والبعْدِ عن التشبه بـهم، فضلاً عن ذوق مشاربهم، لكنّي حملني عليه خوفُ الضَّياع لتلك الـمآثر الشريفَة، فيقع عدَمُ الانتفاع بتلك المحاسن المنيفة، كما قيلَ:

تموتُ الخبايَا في الزوايَا ومَا لهـا [٤/] من النَّاسِ بين الناسِ في النّاس ذاكِرُ
تفـوتُ كرامَـاتُ الرِّجـالِ شَـوارداً إذا لم تقيِّـــدْها علينَــــا الـــدَّفاتِرُ

وقالَ سيدنا إمام الأشراف، عمر بن سقاف: «إنّ أنفع شيء للسَّالك الذاكِرِ، وأولَى ما يتنبهُ ويتيقّظ به الغافلُ القاصِرُ، ذكر سِير الصَّالحينَ من المتقدمينَ والمتأخرينَ، خصوصاً صُلَحاء الأعْصَار القريبةِ، لكونهم أقبلوا على الله في زمَان الإدبار، وبصَّرهم الله حين عميت الأبصَار، وزهدوا وقنِعُوا باليسير لما عَمَّ الحرْصُ والطمع في هذه الدار».

وقال الإمامُ الشليُّ في «المشرع»: «اعْلَم أن من أعظَم العلوم نفعاً، وأكثرِها لخيرِ الدنيا والآخرة جمعاً، وأشدِّها في حياة القلُوب وقعاً، معرفَةُ سير الأولياءِ العارفينَ، الذين بأفعالهم وأقوالهم على الله دالينَ، فيحصُل بذلك حسْنُ الظنِّ لهم، ومحبتهم الموصلة إلى أعلى الرتبِ، لقوله ﷺ: «المرْءُ مع من أحَبَّ»، انتهى.

وشواهدُ ذلك كثير، لا نطيلُ بها لشهْرتها. وسيدُنا، نفع الله به، لا شكَّ في كونِه بدراً [٥/] طالعاً، بل شمساً ساطعاً، قد ملأ الآفاقَ بوصَاياهُ وإجازاتِه، وحَثَّ الخلائق على مكارمِ الأخلاقِ بلسانه ومكاتباته، لكن لا يخلو نقلُ معَاملاته، وما ظهر من صَريح كراماته من فوائدَ جمةٍ، كما ذُكِر، ونجعل ذلكَ في أبوابٍ.

* * *

الباب الأولُ

فيما جاءَ من أهل الكشفِ الخارقِ، من البشَارة بظهُوره، قبل إبراز طُورِه، وما بَشَّر به بعضُهم مع أوانِ طفوليته من عُلوِّ رتبته، وما يؤول إليه من إعطَاء رغبتِه، وكمال مشْيَختِه، وفي تربيته، وابتداء أمْره، وما يظْهَر عليه من لوائح الولايةِ ورعيِه بعَين الرعاية، قبل ابتدائه في الأعمال الموجبة لذلكَ والمجاهدات المثمرة بها هنالكَ، وغير ذلِكَ.

فنقولُ:

[ذكرُ والده السيد صالح البحر]:

اعلمْ أن والده الصالح العالم العامل صالح بن عيدروس المعروف بالبحر الجفري العلوي من القبيلة المعروفة من أهل البيت المصون الذين من أبناء سيدي أحمد بن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم كما هو واضح جلي.

أنه أي والده سافر إلى جهة جاوة وأقام بها سنين عديدة إلى أن دخل [٦/أ] في سن الشيخوخة، حتى جاوز الستينَ، بل قارَب السبعينَ، وتزوج هناكَ، وخرج بِبُنيَّاتٍ لحقْنَ له هناكَ، ومراده إيواءَهن بوطنه الحضرميّ، ورُجوعه إلى الحرَمين، والإقامَة بها إلى الوفاة. فخرج في عصر سيدنا الشيخِ الإمام، جعفر ابن أحمد بن زين الحبشيِّ، وبنى بيتاً بـ(خَلْع راشد)، جِوارَ المذكورِ، وأقام بأهله وبناته به.

ثم توجه لحج بيت الله الحرام وزيارة جدّه رسول الله ﷺ. فلما أراد الاستيداعَ من سيدنا جعفر المذكور، قال له: إني أريد الإقامة هناك إلى الوفاة. فقال له: لا نراكَ إلا تخرُج وتتزوّج، ويأتونك أولاد، أي ذكور، إن شاء الله. فسافر وحجَّ وزارَ، ونوى الإقامة بالمدينة فرأى سيدنا جعفر المذكور يأمره بالخروجِ، فلم يجدِ معه، ثم رآه الليلة الثانية فلم يجدِ كذلك، ثم رآه الثالثة كذلك يتهدَّده بآلة حديدٍ إذا لم يخرج!.

فعزم على الخروجِ، فخرجَ، ووجد سيدنا جعفر قد توفي، فتزوَّج والدة سيدنا الحسَن، الشريفةَ [٧/] الصالحة سَيْدة بنت السيد الولي عيدروس بن أبي بكر الجفري، فحملت في الحالِ بسيدنا الحسَن.

فلما كان ابتداءُ حملها به، رأتْ السيدةَ العارفةَ بالله، سلْمى بنت سيدنا الشيخ أحمد بن زين، تناولها شَبْطاً، قِرْطاسَ طيبٍ، فلما قبضَته منها، قالت لها: ما هو لكِ، إنما هُو لحسَن!. فتعجّبتْ من ذلكَ، وتبين لها الحالُ لما ولدَتْ بهِ، وسمَّوه حسناً، وتوفي أبوه المذكور وهو لم يكْمل السَّتينِ[١]، ووالدتُه حاملٌ بأخيه محمدٍ، عاشَ سنينَ يسيرةً، وتوفي من الجدَري، وأوصى به أبوه إلى جدِّه لأمه المارِّ ذكرُه.

* * *

[تربية أمّه وأبيها له]:

فبعدَ وفاة أبيه رجعَتْ به أمُّه إلى بيتِ وَصيِّه، أبيها المذكور، بسَواد (ذي

---

(١) سنة ١٢٩٣هـ.

أصْبح)، وتربَّى على نظرِه، وهو من خواصِّ أصْحاب سيدنا جعفر، حتى أنه بقيَ بعده يحبُّ السماعَ، ويروح بسيدنا الحسن معه، حتى أنه لما ميَّز في السنِّ نحو ستِّ سنينَ، راح به معه على عادته، فلما ابتدوا في السماع بقَصيدةٍ للشيخ عمر بن عبد الله بامخرمة [٨/أ]، أولها:

* يا ابْركِ اليوم يومَ الله فتَحْ قفْل بَابِه *

فلما استمرُّوا فيها، غلبَ على سيدنا الحسَن البكاء، فلما ذكروا ذلك لَه في كبره، ذكرَ: أنه أحسَّ بشاشةً خالطَتْ باطنه أثَّرَتْ معه، حتى غلبَ عليه البكاءُ.

* * *

وكان ميلادُه سنةَ إحدى وتسعين ومائة وألفٍ، وتربى على سنيِّ الخصَال، ومحاسنِ الأفعالِ، ما يرى أحداً من أهل الفضل وهو يلعَبُ مع الصبيانِ، إلا ذهبَ من بينهم وقبَّل يدَه، حتى أنه فعل ذلك يوماً مع سيدي الشيخ أحمد بن جعفر، فقال: سبحان الله! في ولد السيد صَالحٍ هذا شيءٌ ما هو في غيره، أو ما هذا معناه.

ولم تزل من صغره رياحُ العناية عليه هابَةً، ومحبةُ الخير وأهْله على ظاهرِه وباطنِه غاليةً، حتى أن جدَّه ووالدَته وجَّهُوا به إلى تعليم القرآن العظيمِ، حتى بلغ من اجتهادهما في ذلكَ أنهم يطلعوه إلى (خَلْع راشد)، عند المعلم الفاضل عبد الرحمن بالسُّعود، وأخيه عبد الله، أخذَ برهةً، وحفظ بعْض السُّور [٩/أ] من أخريات المصْحفِ نظراً، ثم قدَّر الله بسابقِ عنايتِه، أن أقمنا أنا ووالدتي بمكَانِنا (شربان)، جوارهم، فجاءوا به إليَّ، وطلبوا تعليمَه عندي، فحصل الفتوحُ،

ووقعَ ختمُه على يديَّ، فلا أرْجَى الآن عندي من عَودِ ذلك عليَّ بمَحْو ذنوبي، وسَتْرِ عيوبي، والبركة في ذريتي، وإن كان قد أفاضَ علينا بعد تأهُّله بها لا نقدِر قدْرَه، لا نضبط حصْرَه، ديناً ودنيا، وإلى الآنَ لا زال كذلك في زيادة، إلى الخَتْم بحُسنى والشهادة، والخلود في دار أهلِ السعادة.

* * *

وكان أوانَ تعلُّمِه حالُه حالَ أهلِ الكمالِ، من كُمَّلِ الرجالِ، كان إذا أعطوه أهله فاكهةً أو إداماً طيباً، كلحْمٍ وغيرِه، ضمَّه حتى يأتي للتعليمِ، فيأتينا به، تطهيراً لنفسِه أولاً، ونبذاً للشهواتِ، ومحبةً لنا، ورغبةً في الخيراتِ، وكان في تلك المدة وقبلها لا يأكلُ من القُوت إلا اسماً لا يذْكَر، حتى أن والدتَه يشقُّ عليهَا ذلك، فشَقَّ عليه اشتغالُ والدته من ذلكَ، فكانَ إذا أُتِيَ بقوته [/١٠] يتوارَى منها، ثم يعطيه أفْرار البيت، ثم يأتي إليها بالإناءِ خالياً تفريحاً لها بأنه أكلَه!.

* * *

وكان مدَّة تعلمِه ملازماً للبيتِ عندنا، لا يروح إلى أهله إلا وقتَ القُوت والنَّيل، ملازماً حتى خدمة بيتنا من نفسِه، مع غاية الفَرَح الظاهرة على أساريرِ وجهه، إذا بدت لنا حاجة يمكنُه قضاهَا، ولَو نجْوَ الاستنجاء[١]، أو إلى مكانٍ بعيد كالغُرفة كذلك.

وإذا حضر عندنا أحَدٌ من أهلِ الفضلِ وتذاكرنا في العلم الشريفِ، أقبلَ بكُنْه همَّتِه على استماعِ ذلكَ، مع كمالِ الاستلذاذِ والفرح أكثرَ منَّا جدًّا، مع غايَة

---

(١) أي: حجر الاستجمار.

صِغَره وابتداءه في التعليم، أعرفُ ذلك أنا منه، ظاهراً عليه. وإذا أردتُ الطلوعَ إلى (شبام)، لمدَرِّس مولانا الإمام عمر بن زين بن سميطٍ، تهيّأ للطلوع معي، من غير أن أقول له ذلكَ، ويطلع ويحضر من أول الدرس إلى آخره، مع كمال الأنسِ بذلك، والفرَح بما هنالكَ، أكثر من الكبار من طلبة العلمِ، مع أن جدَّه المذكور يسيرُ به معه عند الأكابر، ويطلب منهم طرح النظر [١١/] عليه.

* * *

وكان أوانَ تعلُّمِه أيام والدته في بيت زوجِها بعد أبيه، السيد الشريف علي بن عبد الله الجفري، قريباً من بيت جدِّه، ومؤنتُه من تحت نظَر جدِّه، مما خلفه له أبوه تركةً، وهو في بيت السيد علي عند والدته.

ومما أرجُو بركَته أيضاً: أني لما عزمتُ على التزوُّج أيامَ تعلُّم سيدي الحسَن عندي، أقرضَني جدُّه من مالِه غالبَ ما أصدَقْتُ زوجتي، فلما ختَمَ سيدي الحسنُ أسقطَه عني، وكان بعْضُ صداقِ أم الأولاد منه، نفع الله به وفي ذلك إشارة بارتباطِهم ونسبتهم إليه.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه في تلك المدّةِ وقبلها، يرَى أنه طار في الهواءِ، إشارةً إلى ما يحصُل له من السلوك والوصول، وكان زوجُ أمِّه المذكور قد يسَافر به معه إلى بعْض البنادرِ في تلك المدّة، يسوقُ معه بقَراً يشتريها من هناكَ، وقد يعنَفُ عليه إذا قصَّر، فشكوتُ ذلك على شيخِنا الإمام عمر بن السقافِ، فقال: دَعْه يعلمْهُ الصّبر!. تعرف ما رآه أهلُ الله مما هو مرادٌ به.

ودخلَ يوماً مع السيّد علي المذكُورِ سُوقَ البلد (شبام)، فجَاء إلى السيد

عليٌّ، الشيخُ المكاشفُ الصوفي، معروفُ بن محمد باجمال، فقال: ما يكونُ لكَ هذا السيدُ الصّغير؟ فأجابه بانتسابه إليه، فقال: سبحان الله! يكونُ له شأنٌ كبير جداً، وأتى بكلام عالٍ، فتعجّب السيدُ علي من ذلك!.

* * *

ومن أعجب الأشياء: أنه، نفع الله به، لما ختم عندي القرآنَ، لم أقدِر أتأهّل لتعليمِ غيره، ويحصلُ لي إذا أردتُ ذلك ضجرٌ وحرجٌ في صَدري، ولم أحتمله. حتى أولادي لما بلغوا حدَّ التعليم لم أقدِر على تعليمِ أحدٍ منهم، بل بعضُهم استأجرتُ له معلماً، وبعضُهم علّمه والدي، رحمه الله، فوقعَ في قلبي: أنّ هذا إشارةٌ إلى أنه لا يأتي بعْده من يقرأ القرآنَ حقَّ تلاوته، ويقومُ بأوامرِه، ويقفُ عند حدودِه، مثلَه.

وذلك حقيقٌ، عندما تقفُ على ما سألقي عليكَ من عظيم مجاهداتِه، وحُسْن معاملاته، تعرِفُ [١٣/] ذلك وتحقّقه.

وفي اليومِ الذي ختمَ فيه القرآنَ؛ ابتدأ في قراءة كتُبِ العلم الشريفِ، بل في المجلسِ الذي ختمَ فيه، ابتدأ في «رسالةِ سيدنا الإمام أحمد بن زين»، أو «المختصر الصغير» لبافضل، وبعد أيامٍ سار لزيارة (تريم)، وأقامَ أياماً يحضُر درْس سيدنا عبدالرحمن بن الحامد، ومولانا عمر بن أحمد الحداد، مع الإقبال على الطّاعة، والامتلاءِ، والإقبال على زيارَة أسلافه الأكابر. ورجع من (تريم) وقد أشرق عليه من الأنوارِ ما لا يوصَفُ، حتى أنه دخلَ عليَّ مع وصُوله، بُهتُّ لما رأيْته ظاهراً عليه، وحِزتُ، ورجعَ على قراءتِه التي ابتدأ فيها.

* * *

ثم سار يوماً لحضور درس مولانا وشيخنا عمر بن السقاف، ولم يمكنني ذلك الحضورُ، فرجع، وقال: ابتدأتُ عند الحبيب في القِراءة، فظننته في شيءٍ من الكتب الموافقة للصِّبيانِ، لأنه لم يكْمِل قراءةَ شيءٍ منها عندي، فقالَ: ابتدأت في «منهاج الطالبين» للنووي. فقلتُ له: ما يمكن ذلك!. فقالَ: إن الحبيب عمر [١٤/أ] أشار بذلك. فتعجبت من ذلكَ، وبقي ببالي مراجَعةُ الحبيب عمر في ذلك.

فلما سرنا معاً إلى للدّرس الآخر، فقرأ في «المنهاج»، وإذا به يقرأُ ويذاكر بما زادَ به على الطّلبة الذين قرؤوا في الفقه مؤلفاتٍ كثيرةً. وقصر نَظَرَه على سيدنا عُمر في مشيخة التحكيم، وإلقاء القيادِ، وأقبل عليه سيدُنا عُمر إقبال كلي، حتّى أن بعضَ الحاضرين يتعَجّبُ من إقباله عليه بالمذاكرة والمحاورة، والنظر بعين التعظيم والإجلالِ، مع ما يَرى سيدي الحبيبُ عليه من السكوتِ وقلّ الجواب للحبيبِ، ظنًّا منه أن ذلك بلادَةٌ، ولم يشْعروا بما هو مختصٌ به، ومنطوٍ عليه، إلا بعْد زمان.

* * *

ولم يزلْ على الطلبِ فقهاً ونحواً، يقرأ عندَ شيخنا الأستاذِ العلامة، علي ابن عمر بن قاضي، في «اختصاره على تحفة الشيخ ابن حجر»، حتى أنه أوقفَه على مسائل فيه استَشْكلها، فصحّ استشكالُه له لها، وبانَ أنه سبقُ قلمٍ من الشيخ، فأصلحَها.

وقرأ في النّحو عليه في «شرح متممة الآجروميّة»، ولم تـمض أشهرٌ إلا

وقد أمسكَ [/ ١٥] ملكةً تامةً في الفقه والنحوِ، حتّى صِرنا نستضيءُ بفَهمه، ونكِلُ حكم المسائلِ إلى علمِه.

* * *

ثم عادَ إلى (تريم) ثانياً، وأقامَ نحو العشرين اليومَ، وهو يقرأ في «فتح الجواد» عندَ سيدنا عبدالرحمن بن الحامد، وسيدي عمر بن أحمد الحداد، والسيد العلامة عبدالرحمن بن علوي بن الشيخ علي.

وأقام في بلد (سيون) أياماً كذلكَ، بأمر سيدنا عمر بن السقاف، لمغانَمة مجالسِه في بلد (سيون). وأما مدارسه في (الطائف)[١]، فنأتي لها من بلَدنا أنا وهو. وقرأ أيام إقامته بـ(سيون)، على مولانا عَلوي بن السقاف، وقال: أن يترك القراءة على أحدٍ من المتصدرين للتدريسِ. وقرأ على سيدنا الشيخ أحمد ابن جعفر الحبشي في «الجامع الصغير» للسيوطي. وعلى السيدِ الأفضل سَالم ابن حسين الجفري في الفقه والنحو، غير أنه نال في كلّ ذلك الدرجةَ العالية، والمنزلة الساميةَ، في أيام قليلةٍ، من غير أن يكمِلَ قراءة كتابٍ.

* * *

ثم بعد أيام وصلَ إلى بندر (الشِّحْر) والدي [/ ١٦]، من جهة (جاوة)، وكتَب لي أن أسافر إلى عنده، ونسير نحجّ البيتَ معاً، فعزَم سيدي الحسنُ للنهوضِ للحج، لما قد داخلَ قلبه من النزُوعِ لذلكَ، ولمشقة التخلّف عليه بعدَ سفري، فقدَّر الله سبحانه أنه لم يقدَّر لي السفَرُ في ذلك العامِ، وعزمَ هو،

(١) كتب في هامش الأصل: «يعني السوم».

نفع الله به، على السفَر، لأنه قد هيّأ نفسه، ولكونِ التوفيق في جميعِ أحواله دليلُه، وعناية الله معينه، فحجَّ، ورجعَ آخر محرّم عاشُورا، وهو عندنا بالجهةِ.

* * *

[تحوله من الخلاء إلىٰ ذي أصبح]:

وشقّ عليه محلّته الخلاء لبُعدِه عن البلد، وكثرة تردّده لكلِّ فرضٍ إلى البلدِ للجماعةِ، فطلعَ وحلَّ ببلدِ (ذي أصْبَح)، لسعادة أهلها الدينية والدنيوية، كما يأتي. وكما قلتُ في بعض القصائدِ بعدَ ذلك:

سَعْدنا يا آل ذي أصْبَحْ بابنِ صَالحْ قَـد دعانَـا إلى جميـعِ المـصَالحْ

مـن أجابَـه لا شَـكَّ فـائزٌ ورابِـحْ

إلى آخرها. وقلتُ في أخرى :

قد سَعدتُم يا أهلَ ذي أصبحٍ بـهِ[/١٧] وبلَـدكُم فـاخرَتْ أمَّ القُـرَى

* * *

[ذكر زواجه]:

وتزوّج بنتَ السيد أحمد بن عيدروس بن الحامدِ، أمَّ ولدِه الأفضل صالح، وحجَّ ثانياً، وزار جدَّه عليه الصلاة والسلامُ، في حياة سيدنا الشيخ عمر[١]، وتزوجَ بالمذكورة مع رجوعه من الحجّ المذكور، ومع وصُول خبره أنشأ شيخُه سيدُنا أبياتَه التي أولها:

(١) أي: شيخه، عمر بن سقاف (ت ١٢١٦هـ)، وكان عمر صاحب المناقب عند موته ٢٥ عاماً.

أهــلاً وسَــهلاً بالــشَّريف المــؤتمنْ　　ذِي السرِّ والأسْرارِ والوصْفِ الحسَنْ
أهــلاً وســهلا بــابنِ صَــالح نــسبةً　　وحقيقــةً فــوقَ المــسمَّى فاســمَعنْ

إلى آخرها.

وزواجُه المذكور وهو بالخلاءِ، وطلوعُه البلدَ إلا وقَد وُجِدَ ولدُه صالح، وإلى الآنَ هو بها، إلا أنه قد أخذ برهةً في بلدِ (الغرفة)، وبرهةً في بلد (شبام)، كلّ واحدةٍ نحو سنةٍ، لأمورٍ اقتضَتْ ذلك، دينيةٍ، تأتي. وفي محلّته (شبام)، تزوج بابنةِ السيد أحمد بن عبد الله العيدروس، وخرج بها إلى (ذي أصبح)، وألحقت له ابنتَه مُزنة. وتزوج بعد ذلك بنْتَ الفقيه [/١٨] العلامة محمد بن عبد الرحمن السقاف، ببلد (سيون)، وألحقَتْ له ولدَه عبد القادر، وابنته لؤلؤ، ويختلفُ الآنَ بين (سيون)، و(ذي أصبح).

* * *

وأنشأ في حجَّته الثانيةِ قصيدتَه التي في شيخه سيدنا عمر، التي أولها:

غنَّى الحمامُ على غـصُونِ البَـانِ　　فتمايلتْ من وَجْـدِها أغْـصَاني

ولم يكتبها إليه، ولم يوقفه عليها، حتى أتى سيدُنا عمر، فلما كان الليلُ ونحن نسْمُر، أعلمْتُ أنا سيدي عُمرَ بها، فقال له: هاتها يا حسَن. فأسمعه إياهَا بصوتٍ لطيفٍ، لا يسمعه إلا من ألقى إليه السمْعَ جدًّا، كما هي عادتُه معه خاصةً، من شدة الاحترامِ، ومع غيره، من عدم الفرَح بالكلام، ويأتي ذلك في ذكْر أخلاقِه بعدُ، واستعظمها سيدُنا جدًّا، وأجابَ عليها بقصيدَته المثبتة في «ديوانه»:

هبّــتْ نــسيمُ القــرْبِ والإحْــسَانِ　　وصَفتْ كؤوسُ الوصْـلِ في الأدْنَـانِ

وابتدأ فيها في الحالِ، وأسمعنا بعْضَها بكرةً مع الاستيداعِ منه، وقد سمعَ له قبْل ذلك [/١٩] بيتينِ أجابَ بهما السيدَ علويَّ بن عبد الله الحبشي، فسمعتُهُ يُمْلي في بيت الحبيبِ حسن، وما يتبين عنه.

* * *

ولم يزل سيدي الحسنُ يتردّد لحجِّ بيتِ الله الحرام، وزيارة جدِّه أفضَل الأنام، وكانتْ وفاةُ شيخه عُمَر في حجَّته الثالثة، وحججتُ بعد ذلك معَه مرتينِ، ولله الحمدُ.

وسيأتي في معاملاته، وذكْر علومه وكراماته، فيما جرى له في حجاته نحو السبع ومع ابتدائه في الطلب واستمراره وتردده في أسفاره

* * *

والغالبُ عليه المحبةُ، والميل إلى أرباب العلومِ الباطنة، والشغفُ بأقوال أهل الذوقِ والتَّوق، حتى أنه يأمر في بعْض مجالسِنا الخاصّة بشَلّ الغِناء مناقلةً[1]، ويظهر عليه الأثَرُ والاتعاظُ، وإشراق النورِ، مع أول بدوِّ أمره. ومرَّ يوماً ببعْضِ المَقابر في صِغَره، قبل تطلعِه على شيءٍ من العلوم الظاهرة، قال: فجرى على لساني بيت، وهو:

على الناسِ لا تسألْ وسَالْ عن نفسكْ   ودم في تفانيهــا ولا تــنْسَ رمْــسَكْ

فجعلتُ له بيتاً توطئةً، وأتممت عليه [/٢٠] أبياتاً، ولم أصلح لفْظ فعل الأمْر في قولِه: «وسَال»، من نشؤها من فيضَان الأنوارِ، الناشئة عن صَفاء الأسرار.

---

(١) أي: الإنشاد بصوت جماعي.

البابُ الثاني

في ذكر شمائله المرضية، وسيرته العلية، ومجاهداته العظيمة، وطريقته المستقيمة، وأخلاقه الكريمة، وعلومه الوافرة وأياديه المتكاثرة، وصدقه وإخلاصه لمولاه، والجد لأخراه، وما يتبعه مما يبهر العقولَ، كما يأتي عليك منقول.

فأقولُ:

وما زالَ عليها بالاجتهاد والزيادة، حتى نالَ رتبة السيادة، حتى أن سيدنا الإمامَ علويَّ بن السقاف، إذا حضر سيدي الحسنُ، ووقعت القراءةُ في الكتب الفقهية، وحصل إشكالٌ في بعض المَسائل العويصاتِ العبارات، إذا حلَّها سيدي الحسنُ وبيَّنَها قال، أعني سيدنا علوي: «الله أعلم! هذا مِنْ قوَّة الفهمِ وغَزارة الفقْهِ، أو مِنْ قَبيل الكَشف!». لأنه غلبتْ عليه العلومُ الباطنة اللدُنيةُ، بسبب كثْرة المجاهداتِ [/ ٢١] الآتي ذكرها. وقد سبقَ أنه أوقفَ الشيخَ عليَّ بن قاضي، معَ بدُوِّ أمرِه، على عباراتٍ خالفَت المقصُودَ في «اختصَاره التحفةَ»، فما بالُكَ بما صار إليه بعدُ!.

* * *

وأما ما فُتحَ على قلبه من ثمراتِ مجاهداته، من التوسع في معاني القرآن الباطنة، والحديثِ، وكتب الصوفيةِ، وأهل الإشاراتِ والذَّوقِ فشيءٌ لم يسبَق

إليه، ولم يعثر أحدٌ قبله عليه، يعرفُه من يجالسُه ويسمع مذاكرَته، أو نظَر وصَاياه ومراسلاته، فيما يصلحُ المذاكرةُ فيه. وكان إذا ذاكرَ في معاني الفَاتحةِ، أتى بما يبهر العقُولَ، ويحير ألبابَ الفحول، وكل مجلسٍ يذاكر في معانيها، يأتي بكلامٍ غيرِ ما ذاكرَ به سابقاً، ودائماً على ذلكَ.

[سبب تأليفه رسالة «صلاة المقربين»]:

ومن وقفَ على كلامه في ذلكَ، من الأئمة الجامعينَ، والعلماء المتوسّعينَ، عرفَ في ذلك رتبته. حتّى أن الإمام الجامعَ، بحْرَ العلومِ، عبدَ الرحمن بن سليمان الأهدل[(١)]، لما اجتمع به في الحرمينِ، وعرفَ رتبته في العلوم اللدنية الربانية، طلبَ منه أن يصنف كتاباً في صِفَة صلاة المقرَّبينَ، فانقبضَ أولاً عن ذلكَ، وبعدُ طابتْ [/ ٢٢] نفسُه بسبَب صلاح نيّة ذلك الإمام عبد الرحمن. ابتدأ في المذاكرة معَه فيها بعضُ تلامذته المتبحّرينَ، فزجرهُ، وقال: هذا شيءٌ لسْتَ من أهله، العارفين معانيه، واستعظمها جدًّا، وهي حريةٌ بذلكَ.

وقرئتْ بين يدي مفتي الغَرْبِ، ثم (مكّة)، الإمامُ ظاهراً وباطناً، الشريف أحمد إلياس الحسني[(١)]، فقال بعضُ تلامذته الحاضرين: ما أظنّ يا سيدي أن أحداً يقْدِرُ يصلي صلاةً على هذا الوصْفِ، حتى قائلُها!. فقال: أمّا قائلُها فإن الوعاءَ لا ينضَحُ إلا بما فيه.

يعني: لم يصْدُر منه هذا الكلامُ إلا بعدَ ما طالَ عمَلُه بذلكَ، وفعلُه لما

---

(١) توفي سنة ١٢٥٠هـ.

(١) المقصود، هو: السيد أحمد بن إدريس، المتوفى سنة ١٢٥٣هـ بصبيا. ولعل وهما دخل على المؤلف أو الناسخ، والله أعلم.

هنالكَ، لأن العلومَ الباطنة لا تتأتّى بمذاكرة اللسانِ، ولا يتّسِمُ بها من حظُّه منها المذاكرَةُ والهذَيانُ، بل هي مشاربُ ذوقيةٌ، وأسرارٌ ربّانيةٌ، كلٌّ له منها قدْرُ استعداده واجتهاده، وترويضِ نفسه بالمجاهداتِ، وقمعها عن الشهواتِ. وسيدُنا، من عرَف عن مجاهداتِه، لم يستكثرْ ما صدَر منه من كثيرِ كَراماته، وغريبِ باهِرِ عبارَاته.

* * *

ولما بلغَ رضِيَ الله عنه في تلك العلومِ الدرجةَ العاليةَ، [/٢٣] والمنزلة السّاميةَ، تسارع العلماءُ الكبارُ إلى أخذها عنه، وسماعِ بيانها منه، وردّ ما أشكل منها إليه، وعرض ما استصعبَ عليهم منها عليه، فيميطُ لهم عن ذلك النقابَ، ويرفع الحجابَ، حتى أن الذين أخذَ عنهم صاروا عنه يأخذون، ومنه يستوصون، فمنحَهم الوصايا العجيبة، وأوضح لهم مناهج مسافات تلك العلوم الرحيبة، ببياناتٍ تبهر العقلَ، لم تُصَادف لنقلٍ.

[شرحُه لعبارة الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان]:

وسأله سيدُنا العلامة، بهجةُ الزمانِ، عبد الله بن أحمد با سودان، عن قول الإمام الغزالي: «ليس في الإمكانِ أبدعَ مما كان». فأتى له بمعاني واضِحة البرهان، ببينة المعاني، إلا أني لم أحفَظْها مع حضُوري المجلسَ، وسماعي لها، لِقِصَر نيَّتي من دَرك ذلك المقام، غير أني سمعتُ سيدي عبد الله يقولُ له بعدَ ما أملى عليه: «كلامكُم هذا أحسَنُ وأوضحُ مما أتى به الشيخ ابنُ حجرٍ في خطبة «تحفته»، فإنه تكلّمَ على هذه المقالَة، وأوضح مقصُودها، ورد زعم بعضهم استشكالها».

وكذلك مرةً أخرى أسمعه يتكلّم بمعاني هذه المقالة العظيمَة، بمعان كثيرة عظيمة واضحةٍ جلية، حفظت منه يوماً أنه قالَ: «أبدَعُ مما كان؛ لأنه مظهَرُ [/ ٢٤] الأسماءِ والصفاتِ». وأطال المذاكرة إلى أن قال: «مثالُه: خلقُ الحبّةِ؛ أولاً زَرْعةٌ، ثم تأخذ في القُوة، فتكون منها السنبلةُ، ثم تكون وعاءَ الحبِّ. والقدرَةُ تَتَّسعُ لظهور حبٍّ ووجودِه بلا زراعةٍ ولا سنبلةٍ، فلا تقولُ إن هذا أبدَعُ من هذا التركيب العَجيب، والأسْلوبِ الغريب، وقد قالَ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ إلى أن قال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية، فلا تقولُ: إن الأشياء أبدعُ مما أنبتته القدرَةُ، لعلْم العبادِ بحقِّ الربوبية، ولو كَان ما كانَ». ويتعجّبُ ممن يستشكلُ هذه المقالةَ، وقد يستشهدُ بها بعدَ مذاكرتِه وإملاه بكلامٍ طويلٍ، فيقولُ: «ليس في الإمكان أبدَعُ مما كانَ».

غير أنها لما كانت مذاكرته بديعة المعاني عزيزة المباني بعيدة الغَورِ، لم تحفَظْ لي بعد مفارقَة المجلسِ، لِقِصَر مرتبتي، وضعف همتي، وإلا فقد قرأتُ عليه كتاب «عوارف المعارف» مرّتينِ، و«رسالة القشيري»، و«شرح الحكم»، لابن عبادٍ، وغيرها. ويأتي من المعاني والمذاكرات بما لا يقْدَرُ وصفُه، لأن قراءتي قصْدُ عمارة الوقْت، وتسليةٌ له، ومذاكرته، نفع الله به، كأنها [/ ٢٥] كما قال سيدنا عبد الله الحداد: «مجالسنا قد نذاكِرُ في علومٍ ما تناسِبُ لأهل المجلس، لكن لها متقبّلين من رجال الغيب»، وسيدي الحسنُ كذلكَ، له كثيرٌ متعلقينَ باطناً، ظهر ذلك في وقائعَ، يأتي بعضُها فيما بعدُ.

* * *

وكذلك قرأت عليه مرة في «شرح الحكم العطائية»، للشيخ علي باراس،

الذي قال فيه سيدنا عمر العطاس لما رآه: «إنها بكرٌ، لما يفتضَّها إلا أنت»، يعني: الحِكَم، فلما قرأتُ، تكلم سيدُنا الحسَن على بعْض الكلماتِ بكلامٍ غَير كلامِ الشيخ، يعرِفُ من سمعه، أو لَهُ أدنى معرفةٍ، أنه أظهَرُ في المعنى، وأقرَبُ في المقصود، مع غوره وعزته، ويظهر منه التعجّبُ من اقتصار الشارح على ما أبداهُ فقط، وهذا حاله وديدنه في تفسير القرآن ومعاني الحديث وكلام أئمة الصوفية، وسيأتي عليكَ شيءٌ من ذلك في وصاياهُ، وما حُفِظ من كلامه، إن شاء الله.

* * *

وأجابَ على كتابٍ لبعضِ أهل المجاهداتِ، من أهل الفضلِ، ولم يكن متَّسِعاً في ذلك العلمِ، قال في كتابه لغَير سيدي: «ذاكرونا في علم كذا»، يُشِير إلى بعض العلومِ الدقيقة [٢٦/]، فأتى الذي إليه الكتابُ إلى سيدي، وطلب الجوابَ منه، فأجابه، نفع الله به: «إن المذاكرة في هذه العلوم الدقيقة لا يسمَحُ بها أهلها في كتابٍ، بل تكونُ مشافهةً من ألسِنَة أهلها إلى آذان أهلها، من أولي الأنوار، الحافظينَ الأسرار، وحملَك على ما فهتَ به، فيضَانُ أنوار المجاهدات، الناشئُ عنه الشَّوق والذَّوق»، انتهى بمعناه.

وستقفُ على قوله في «وصاياه»: «قد حَسُنَ ها هنا قبضُ العنانِ». إذا امتدَّ به الكلامُ، وبلغ به الفهم والكشْفُ إلى علومٍ تضيقُ عنها العبارَة، وتدق إليها الإشارة، وذلك حالُه مع القراءة عليه في تلك العلُومِ.

وعادتُه لا يستصعِبُ كلام أحدٍ من العلماء، وإذا استشكلوا كلامَ أحدٍ من الصوفيةِ إلا رأيته إذا ذُكِر الاستشكـالُ تبسَّم، ويقولُ: «هذا شيء واضح!». فيتكلم في معانيها بما يريكَها شمساً ساطعاً، خصوصاً كلامُ الإمام ابن الفارضِ،

وخصوصاً تائيتُه التي حيَّرت العلماءَ، وأفحَمت الحكماءَ، حتى آلَ بهم الحالُ إلى أن فسَّقوه [٢٧/]، بل زندَقُوه، مع عظم حاله، نفع الله به. وأهلُ المعرفة بذلكَ المقامِ، أوَّلُوا تأويلاتٍ، بعضُها يقاربُ، وبعضُها تكلفٌ. وسيدُنا يأتي به واضحَ المعاني في الحقائق، بل يصيرُ مفهوماً في الطرائقِ حتى لمن دخلَ له في ذلك، وسيأتي بعضُ ما حُفظ من كلامِه على بعْض أبياتِ «التائية» المذكورة، وكذا كلامُه في معاني كلامِ غير المذكورِ، كالشيخ عمر بن عبدالله بامخرَمة، وفي كلام أئمة الدّعوة الجامعين بين الشريعَة والحقيقة، كقطب الإرشاد الحداد، إذا تكلّم على معاني كلامِه حيَّر الألبابَ، وأتى بالعجَبِ العُجاب.

* * *

وسمعتُ منه كلاماً كثيراً على معاني بعضِ قصائد سيدِنا المذكور[1]، خصُوصاً: «نسيم حاجِز، يا نسيم حاجِز»، يأتي في معانيها بما لا يهتَدي إليه الفهمُ، ولا يدركه من له في تلك العلومِ رسْمٌ واسْمٌ.

ووقعتْ في مجلس سيدِنا الإمام علوي بن سقاف مذاكرَةٌ في بيتٍ من تلكَ القصيدة، وهو قوله: «حيثُ المنادَى يسمَعُ المنادي»، وتعجَّبوا من كونِ المسمُوعِ على ألسنة العلماء [٢٨/] السابقين «المنادِي»، باسم الفاعلِ، في الأول والثاني، والذي يُفْهَمُ أنّ «المنَادَى» الأول بالألف، باسم المفعولِ الذي لم يسمَّ فاعلُه، وتفكَّرُوا أهلُ معرفة تلك العلوم في المجلسِ، فلم يظهر لهم وجْهُ كون الأول باسْم الفاعلِ، مع كونه المسموعَ عن العُلَماءِ.

---

(١) يعني: الإمام الحداد.

فذاكرتُ سيدنا الحسَن في ذلكَ، فقال: ذلكَ الصوابُ؛ أنها باسم الفاعلِ، وفسَّر ذلك بكلامٍ، حاصله أن قالَ، نفع الله به: «إن السالكَ لا يزالُ في سلوكه من حالٍ إلى حالٍ، تهتف به الهواتفُ الربانيةُ من كل حالٍ، هاتفٌ المعبّر عنه بالمنادِي، وتختلف أحوالُ الناسِ في ذلك. منهم من إذا بلغَ درجةَ حالِ الابتداء في السُّلوكِ إلى الحالِ الآخر، قبْلَ أن يهتف به منادي الحال الثاني، ولا يحصلُ له سماعُ الهاتفِ إلا بعْدَ سلُوكِه وشُروعِه في قطْعِ المسافة التي بين الدرَجتينِ. وبعضُهم يساعدُ في سلوكِه، فيهتف به الهاتفُ الآخَر مع وصُوله إلى الذي قبلَه، فيسمع الهاتفَ الأولَ. والهاتفُ الثاني وهو الذي عبَّر عنه سيدُنا الحدادُ بقوله: «حيثُ [/٢٩] المنادِي يسْمعُ المنادِي»، وكان ذلكَ مع تشوّقِه وتذكّرِه لأيامِ الإقبال والسلوكِ، ومساعَدة الأقدارِ، مع كونه في رُتبة الكمالِ والوصُول. وللصّوفية في ذلك اصطلاحاتٌ وتعبيراتٌ معروفةٌ عندَهم».

وأتى بكلامٍ، نفع الله به، بيّنٍ، هذا حاصلُه، فأخبرتُ به بعْضَ من حضَر المجلس من الأئمةِ فاستحسنوه، وبان لهم صوابُه، وتحيَّروا في عظيمِ ما مُنِحَ به سيدُنا الحسنِ من الغَوص على تلك المعاني الدقيقة. وشرع في شرْحِ «بشِّرْ فؤادك بالنّصيب الوافي»، واستمَرَّ فيه بإملاء العلوم اللدنية، وتوقف بعدُ، وأظنه توقفَ لما يرَى من بعْدِ الناسِ عن تلك العلومِ.

* * *

وقرأتُ يوماً على سيدنا العلامة الفاضلِ، عبدالرحمن بن علي بن عبد الله السقافِ، مكاتبةً من سيدنا الحسن لسيّدنا الإمامِ أحمد بن عمر بن سميطٍ، مع بدُوِّ أمْرِ سيدي الحسن وشبابِه، فلما سمعَ ما شملتْه من الإشاراتِ والعباراتِ، بُهِتَ، حتى بكَى وتعجّبَ، وامتلأ [/٣٠] سيدي غاية الامتلاءِ.

وكذلك حضرتُ درْس السيدِ عبد الرحمن المذكور يوماً، فمرّتْ في القراءة مقالةُ سيدي الرّباني، عبدالقادر الجيلاني، نفعنا الله به، وهي قوله رضِيَ الله عنه: «أنت تكذبُ عندَ نفسِكَ، وتصدقُ عند ربّك». وذلك مع جمعٍ عظيمٍ، فتحاورُوا في معناها، فلم يظفر أحدٌ بشيءٍ، فأعرضُوا عنها، فذكرتها لسيدي الحسن نفع الله به، فرفع حجابَها، وأزاح نقابها، حالاً.

وحاصلُ ما قاله: «إن جميع ما يجري من حرَكات العبَاد وسكَناتهم، وأفعالهم وأقوالهم، خيراً وشراً، طاعةً ومعصيةً، أمرٌ مقدَّرٌ سابقٌ، يجري الآن على وفْقِ ما قُدِّر في الأزلِ، فظهر لي المعنى: بأن العبْدَ قد يكذِبُ الكذبةَ، ويحقّقُ لديه أنها كذبةٌ، فهو كاذبٌ عند نفسِه، وفي الحقيقةِ، حالَ كونها مقدَّرةً سابقةً بتقدير الله، فهي صدق عند الله، لكونها جرَتْ على وفق تقديره، وإن كانت معصيةً معاقبٌ عليها إن لم تمحها التوبةُ».

وكثيراً ما أسمعُه يذاكر في الحقائق حتى أدتْ به المذاكرة يوماً [/ ٣١] إلى قريبٍ من ذلكَ، حتى قال كما قالَ الشيخُ عبد القادر: «أنت تكذِبُ عند نفسكَ، وتصدق عند ربك»، انتهى.

* * *

وكتبَ الشيخُ الأنور، ذو المجاهداتِ العظيمة، جنيد بن سَالم الوزيريُّ[1]، إلى سيدنا الإمام الحسينِ بن محمد بن أحمد بن زين: «ذاكروا في علمِ كذا»، فأمر سيدُنا الحسينُ مولانا الحسَن أن يجيبَ، فقالَ: «المذاكرة في هذه العلومِ

---

(١) هو الشيخ جنيد بن سالم باوزير (من هامش الأصل).

لا يسمحونَ بها أهلُها في الدفاترِ، بل مشافهةَ من أهلها إلى أهلها، لأنها علومٌ ذوقيةٌ، ملقاة بأسرارٍ ربانيةٍ، وأنوارٍ لدُنية»، أو ما هذا معناه، إلى أن قال: «وأنت حملَك على هذا[1] الأنـوارُ الـحاصِلة لديكَ، من ثمرة المجـاهداتِ، وكَسْـر الشهواتِ، ففُهْتَ بها فُهْتَ، وقلْتَ ما قلْتَ»، إلى آخر ما طوّل به وحرّره. ولم يحضرني الآنَ. فلما سمعه سيدُنا الحسينُ ضحكَ، وقال: «ذلك إليكَ يا حسنُ، لا يظنّ بي الشيخ ظنًّا فيجِدُني عند الاتّفاقِ خليّ!»، من شدة اعترافِه بنفسه، نفع الله به، مع ما هو فيه وعليهِ من حسْن الحالِ، والتحلي بمكارم الخلالِ.

* * *

وذاكَرني يوماً في المحبةِ، مع أوائل أمره، وقبل كثرة تطلّعه على كتُب الصوفية، وأتى [/ ٣٢] بكلام طويلٍ، فيض نور المجاهداتِ، ونحن طالعون إلى بلَد (شبام)، لزيارَة سيدنا أحمدَ بن عمر بن سميطٍ، ووافقنا القراءة في «كتابِ المحبّة» من «الإحيَاء»، فإذا بالسياق من الكتَابِ، أي: على حسَبِ مذاكرته في الطريقِ، مع كونه لم يطّلعْ عليه، فضحكتُ، حتى قال لي سيدي أحمدُ: ما بالُكَ؟ فأخبرتُه، فتعجّبَ، من ذلكَ، مع كوني لستُ أهلا للمذاكرَة في ذلكَ، لكنّ له بها انشراحٌ، كما يقع لغيره، نفع الله به.

* * *

[تفسيرُه لبعْض الآيات الكريمة]:

ومن كلامِه في تفسير القُرآنِ من طريق الإشارَة الباطنة، في قوله تعالى:

---

(١) في حاشية الأصل (ذلك)

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قال: «قلبُ المؤمن»، يشيرُ إلى قوله في الحديثِ القدسي: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسِعَني قلبُ عبديَ المؤمن».

وقال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: «يشير إلى عالم الرّوحِ، عقلاً بلا شهوةٍ. قال له: أقبلْ، فأقبلَ. ثم قالَ: أدبِرْ، فأدبرَ. قبِلَ العهد بالوحدانيةِ، والإقرارَ بالربوبية، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، أي: بإضافته إلى الجسَدِ المظلمِ، المخلوق من الطينِ، المائل إلى الشهْوة البهيميةِ، بعد أن كان مجاوراً للحضَائر العِنْدية، المشار [/٣٣] إليها ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الذائبينَ فيما خلِقُوا له من العبادة، حتى يرجعوا بدوامهم عليهَا إلى ما كانوا عليهِ، المشَارِ إليه ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾». انتهى بمعناهُ، وقد يأتي في ذلكَ ببسطٍ وتطويلٍ، لم يحفَظْ لي لعزَّته.

* * *

وقالَ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قالَ، نفع الله به: «معنى التوبةِ: الرجوعُ إلى الله، وطلبُ الإقالةِ من قبائح الأفعالِ والأقوال والاعتقاداتِ التي نهى الله عنها، وقد عمَّم الله سبحانه بالتّوبة جميعَ المؤمنينَ، خاصَّهم وعامَّهم، فإذاً تنقسِمُ التوبةُ على ثلاثة أقسامٍ: توبَةُ الوقايَة، وتوبَةُ الهداية، وتوبةُ الرِّعايةِ. وإن شئتَ قلْتَ: توبةُ السعادة، وتوبة الإرادة، وتوبة الشّهادة. وإن شئتَ قلتَ: توبةُ السلامة، وتوبة الاستِقامة، وتوبة الإمامة. وإن شئتَ قلتَ: توبة السداد، وتوبة الرشاد، وتوبة الوداد وإن شئت

قلتَ: توبةُ الصلاح، وتوبةُ الفلاح، وتوبةُ النجاح». ثم أخذَ، نفعَ الله به، يتكلمُ عليها من أولها، فقالَ:

«أما توبة الوقاية: فإن صاحبها [/٣٤] يتوقّى ما ألفَتْ نفسُه من مخالفتها، ويقمَعُ ما أدمنَتْ عليه من حظُوظها وشهواتها، ويجاهدها بالصّبر عن مألوفاتها».

هذا ما وُجدَ مما تكلمَ به، فعسى يقدّر الله ونطلبُ منه إكمالَ ذلكَ، لأنه، رضِيَ الله عنه، قد يبتدئ في مذاكرةٍ في شيءٍ، ثم يعِنُّ له التّرْكُ فيمسكُ، وذلك لما قدّمناه أنه في كلّ أحواله يراعي أفعالَه وأقوالَه على الحال الأكمَلِ، والأمر الأفضلِ، فلا يتكلّمُ إلا لله وبالله، ولا يكفُّ إلا كذلكَ، نفع الله به، كما سيأتي في هذا فيما يتعلقُ بإكرامه الفقراءَ، فيما بعدُ.

* * *

ومن شدّة محبته وميله إلى المساكينَ والمستضعفينَ، أنه لا يصبِرُ إذا علم أن أحداً من الظَّلمة ذوي الشَّوكة آذى أحداً منهم، حتى يأتي إلى ذلك الجنديِّ، ويتشفع فيه، ويقاومُه مقاومةً عظيمةً، ويتوعده بالمواعيد المفزِعة المفجعة. وله في ذلك حكاياتٌ يطول ذكرُها، ويتعذّر حصرها، وفي باب كراماته من ذلك شيءٌ كثيرٌ، فاطلبه منه.

ومن ذلك: أنه خرج إلى بعضِ الجندِ يطلبُ منه تركَ ما توعّد به بعْضَ المستضعفين، فكأنّ ذلك استنكفَ من كلامه، فأنشد [/٣٥] قصيدته العظيمة التي أولها:

الله أكبر خابَ من يكَابرْ وغابَ نجمُه بانقطاعِ دابِرْ

ونُحِسَتْ نجومُه الغَوابِرْ وأدبَرتْ أيامُه الزَّواهِرْ

إلى أن قال:

ما يعلم أنا نصرَةُ المساكينْ وأنه بنا بنا يظهِرُ الله الدينْ

ويكبِتِ أهلَ البغي والشَّياطينْ يؤولُ كلّ البغي طَيفَ عابِرْ

* * *

ومن كلامِه رضِيَ الله عنه: «الجسْمُ لولا الجسَدُ لكان جماداً، والجسَدُ لولا النفْسُ لكان بهيمةً، والنفْسُ لولا العقلُ لما عرَفتْ مضارّها من منافعها، والعقل يتلقّى بتوفيقِ الله من الرُّوحِ الربانيِّ، والرُّوحُ الربانيُّ يتلقّى عن الحقِّ. ومنه قولُ الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ الدرجاتُ: الأنبياءُ، والعرْشُ: نبيُّنا محمدٌ ﷺ». وسمعتُه يقولُ في قول الله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: هو النبيُّ محمدٌ ﷺ.

وقالَ رضِيَ الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: هو قلبُ المؤمنِ، أي: ويشهد له الحديثُ [/٣٦] القدسي: **«ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»**.

ومن كلامه رضِيَ الله عنه: «راتبُ سيدنا عبدالله الحداد وضْعُ ترتيبِ كلماتِه على درجاتِ السلوك»، وأخذ يتكلمُ في أسرارِ ذلكَ، بما يعسر ضبطُه، وعسَى يقدر الله لي جمعَ ذلكَ لينتفع به من هو أهله.

* * *

[الباب الثالث]

ذكر عباداته نفعَ الله به ومجاهداتِه العظيمَة التي يقصُر عن حملها الأطوادُ، وتعجَزُ عن القيامِ بمُشْرِها الفحولُ الأمجادُ

كان نفع الله به من بدوِّ شبابه مجدًّا في العبادَة، ما يسمع بخصلةٍ من الخير إلا وبادَر إليها، ولا من حرام أو مكروه إلا وفرَّ منها، وزجر من قرُب لدَيها، ولم يزل يزيدُ في العبادَة شيئاً فشيئاً، حتى بلغ الغايةَ التي لا تُرْتَقى، لأنه فتح الله فيها باباً مغلقاً، كما ستراهُ فيما يلقى عليك، ويسطَّر لديك.

فكان نفع الله به، ما يصلي منفرداً، بل في الجماعة الكبرى الأولى، حضَراً وسفراً، بل كان في أوائلِ أمره مع إقامتِه في الخلاءِ، يأتي إلى البلد للجَماعة لكل فرضٍ، إلا أن يكونَ عندَه أحدٌ من أهل الفضل فيصَلي معه في بيتِه، مراعاةً للضيفِ، لكون ذلك أفضَلُ [/ ٣٧] لبعْد المكانِ.

ووقع لي مرةً في رمضانَ، وهو ببلدِ (ذي أصبح)، أن حضرَتْ صلاةُ الظهرِ، فكرهتُ أن أوقِظَه، لعلمي بما كابده من تعبِ السهَر، فصلينا. وقلتُ: إذا مرَّ زمنٌ بعد الصلاةِ يقومُ ويصلي مع من حَضر بعْدُ، فلما انتبه وعلم بذلك حزِنَ جدًّا، وظهرت عليه آثارُ التحسّر، ولو كان غيري أمر بذلك لعنَفَ عليه جدًّا، ومع ذلك فالوقتُ فيه سعةٌ، الذي سيصلون معه جماعةٌ، واستمر معه

الحزنُ والتحسّر بقية يومِه، ودخل معي ذلك غايةُ الحسرةِ، لما رأيتُ ما حصل معَه، وكظْمه عليَّ، مراعاةً لي، نفع الله به.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يأتي على الصَّلوات المسنونةِ بكَمالها، مؤكدا أو غيره، فمن عادتِه يقرَأ في سنة الظهْر القبلية في كلّ ركعة من الأربعِ، بعد الفاتحةِ، آيةَ الكرسيِّ المعظّمة، ومقرأ من سورة يس المكرّمة، وثلاثاً من سورة الإخلاصِ، كما هو عملُ جملةٍ من أكابرِ أسلافه العلويينَ. ويصلي سنَّةَ الظهر البعديّةَ أربعاً، وقد يصلي صلاةَ الزوالِ التي ذكرَها الإمامُ الغزاليُّ، يأتي فيها بمائتَينِ من سُورة الإخلاصِ [/٣٨]، حسْبَ مساعدة الوقتِ، ويقرأ في سنةِ العصر سُورةَ الزلزلة في الأولى، والعَادياتِ في الثانية، والقارعة في الثالثةِ، وألهاكُم في الرابعة، كما هو ديدَنُ سيدنا الحدادِ، وأظنّ فيه أثراً.

ويصلي الأوابينَ عشرينَ ركعةً دائماً، حتى في السَّفرِ، إلا أن يحول حائلٌ شديدٌ، ويقرأ في سنة العشاء البَعْدية في الأولى: الم السَّجدة، وفي الثانية: تبارك الملك، ويصَلي بعدَها أربعَ ركعاتٍ، صلاةَ الحفْظِ والكفايةِ المعروفَة، ويترك الوتْر إلى آخِر الليلِ، وكان قيامُه نحو القيامِ الداوديِّ المشْهُور، لا يكاد يتركُه سفراً ولا حضراً.

فمع بدُوِّ الأمْر يقرأ ما يحفَظُه، ثم بدَا له أن يقرأ في صلاتهِ في المصْحفِ نظراً، بقرْبِ مصباحٍ يفعله، واستمرَّ على ذلك حتى شَاع بين من لهم جِدٌّ في العبادَةِ، فعملوا به كثيرونَ، ليلاً ونهاراً، إلا أنهم يأتون في القراءة حسْبَ طاقتهم، وأما هو فيأتي بالوتر على كماله إحدَى عشر ركْعةً، وإذا غلبه النومُ

يسمَع هاتفاً يدعُوه، بدُوَّ أمرِه وإقباله على الجدّ، حتى أنه ليلةً سمعه يقول بيتاً وهو:

* تغانَمِ الصَّفْو يا سيدي قبْلَ الكدَر *

[/ ٣٩] ومرةً مع إقامته في الغرفة ليلةَ عيدِ الفطر، ومن عادته إحياؤُها بالصلاة، قالَ: «فأردتُ أن أنامَ قليلاً وأقومُ، فإذا بضربةٍ في رجْلي، فسكتُّ، وقلتُ: إن كانَ هذا داعي رحماني فسيعودُ، فعادَ فضربني ضربةً أثخن من الأولى، فتغطيتُ بثوبي، وقلتُ: أريدُ الثالثةَ، لأتحققَ، فدخل معي تحتَ الثوبِ، فإذا هو شخصٌ ذو شعورٍ، فجعلتْ شعُوره تؤثِّر في صَدري ووجهي، فقمتُ!.

* * *

وقد تبلغُ قراءتُه في قيامه الخمسةَ عشر جزءً، وقد تزيد وقد تنقصُ، ولا أقدر أسأله عن ذلكَ، إلا أنه قد يجري على لسانه مع المذاكرة مع خَلوتي معه، وقد أرَى ذلك، كما وقعَ ونحنُ بمكّة المشرفة، حُمَّ، نفع الله به، ليلاً وعجز عن القيامِ، فليلةً حصل معه النشاطُ، خرجْنا آخر الليل إلى الحرَمِ، نصلي بقرْبِ قنديلٍ، ونقرأ نظراً، فابتدأنا بسورَةِ الفرقانِ، ثم اختتم في ركعته الأولى من الوتْرِ، وذلك نحو اثني عشر جزءً، مع غاية الركَّة معه، وضعفِ الأعضاء من الحمى.

وكذلك أيام إقامته في بلد (الغرفة)، كانوا يقومون جماعةً آخر الليلِ في مسجد باعلوي، مسجد مولانا أحمد بن زين [/ ٤٠] الحبشي، ويقوم هو معهم، يقرئون نحو ثلُثِ القرآن تلاوةً، وبعضُهم يصلي ساعةً، ويتلو أخرى. وكان هو، نفع الله به، لا يأتي وقتُ قيامِهم إلا وقد صلَّى، وقرأ نحو نصْف القرآنِ في

في صلاته، وبعضَ الأحيانِ ثلثه، فكأنه تأخَّر ليلةً عنهم قليلاً، واستغرق في صلاته، فلما خرج إليهم عاتبه السيدُ الأفضلُ، الحسين بن محمد، وقالَ: ما يصلح تتخلّف إلى هذا الحينِ، وتنامُ إلى هذا الوقت، فقبلَ عتابه واستحسنه، ولم يخبره بحالِه، نفع الله به. وفي ذلكَ من وجُوه الفضائلِ ما لا يحصَى، على من له بعض فهمٌ.

* * *

وبلغَت به الزيادةُ في العبادة بأن صَار يقرأ ختمةً كاملةً في ركعة واحدةٍ، وذلك يومَ الجمعة، يبتدئ فيها بعد شرُوق الشمس، ويختم بين الأذانينِ، حسبما ذكر الإمام الغزاليُّ، ويصلي بعدَها سنة الجمعة القبليةِ، وقد يصلي مع سَعة الوقتِ صلاةَ التسبيحِ. وكذلك في إحياء ليلتي العيدَينِ، يأتي بختمة في ركْعةٍ.

مكثَ على ذلك دهراً، ثم صار إذا أعاقه عن الختمة عائقٌ، خصوصاً وجعُ عينيهِ، يأتي يوم الجمعة بألفِ [٤١/أ] من سورة الإخلاصِ في عشر ركعاتٍ، كلَّ ركعةٍ مائةَ مرة بعد الفاتحةِ، وقد ذكر الإمامُ الغزالي أن ذلكَ أفضل من ختمةٍ، هذا غالبا في شهر رمضانَ دائماً، وغيرَه حسب النشاطِ، وإلا فالغالبُ مبادرتُه إلى الجامعِ من بعد شُروق الشمسِ. وشاع فعلُ الألفِ مرةٍ من هذه السُّورة على هذه الكيفيةِ عنه رضِيَ الله عنه، وكأنها لم تعرَفْ إلا من لديهِ، مع كونها مذكورة في «الإحياء»، وعمل بها في أيامِ جُمع رمضانَ جماعةٌ ممن لهم رغبةٌ في الخيرِ، لما علِمُوها عنه رضِيَ الله عنه.

وكذلك الأربعُ ركعاتِ التي ذكرَها في «الإحياء» أيضاً، يومَ الجمعة، يقرأ في الأولى: سورة الأنعامِ، والثانية: الكهف، والثالثة: طه، والرابعة: الم

السجدة. وأما الدخانُ والمُلكُ، إذا لم يقرأ ختمةً، يأتي بها قبلَ العشر التي يأتي فيها بالألفِ من الإخلاص.

* * *

وكان في رمضانَ، غالبُ ليلِه قياماً، وبعضَ الأحيان كلَّه، بما لا يُقدَرُ قدرُه، فكان أولاً يعتكفُ العشر الأواخر، مع كونه في غيرها لا يخرجُ من المسجدِ إلا وقتَ العشاء والسحور، ثم صار يعتكفُ الشهر كله، من أول ليلةِ إلى ليلةِ العيدِ [/ ٤٢]. وقبل أن يعتكفَ؛ إذا صلى المغرِبَ بقي في المسجدِ يصلي الأوابينَ، إلى أن يدخُلَ وقتُ العشاء، فيصلي العشاء أولَ الوقتِ، ويصلي سنته حسْبما سبقَ، ويضطجع قليلاً ينامُ نحو ساعةٍ، ثم يقومُ إلى الصلاة، ويتهجَّدُ على عادتِه، ثم يصلي التراويحَ، والثلاثَ آخر الوترِ مع الجماعةِ. لأن تهجده قبل ذلك الثمانُ ركعاتٍ من الوتر، كما يفعلُه سائرَ السنة.

وأولُ بدوِّ الأمْر لا ينامُ في ليالي العشر الأخيرةِ، بل كل ليلِه صلاةٌ، وبعْد السّحور قد ينامُ قليلا الآنَ. وأما قبلُ؛ مع صحة عينيه، فلا!. بل يحيي إلى أن يصلي صلاة الإشراقِ، إذا صلى الصبحَ استمَرَّ في التلاوة نظراً، إلى أن تطلع الشمسُ، وهو على حالةٍ واحدةٍ، لا يظهر عليه أثر النومِ، ولا ينعَسُ. وإحياءُ بعدَ صلاة الصبحِ ديدنُه كلَّ العمْرِ، حيثُ ما كانَ إلى أن يصلي أربعَ ركعاتٍ من الضحَى، إلا إن كان عنده ضيفٌ من أهلِ الفضل، ورأى عليه مشقةً من طولِ الجلوسِ، يقوم إلى البيت مراعاةً لما يراه أفضَلَ، ويصلي كمالَ الضحى ثمانياً مع ربع النهار، فإن كان رمضانُ، يقرأ في صلاته أجزاءً مضبوطةً عندَه، نظراً من المصحفِ، وغير رمضان [/ ٤٣] يخففها.

* * *

وبلغ به الحضورُ في الصلاةِ إلى حالاتٍ عزيزةٍ، واستغراقاتٍ عظيمةٍ، حتى أنه مرةً ليلةَ العيد، عزم على أن يحييَ الليلَ بقراءةِ ختمةٍ في ركعَةٍ، فصلى العشَاءَ أول الوقتِ، وأخذ يصلي معَه الجماعةُ، وشرع في الختمَة نظراً، على عادتِه قبل اجتماعِنا، فأتينا المسجد فظنناه على العَادة يصلي إلى أن تقيمَ صلاةُ العشاءِ ويصلي معنا، فأحييناه بالقراءة إلى قريبِ ثلُثِ الليلِ، فلما أردنا الصلاةَ أمرتُ من يقربُ إلى محله الذي يصلي فيه، ويقول له: صَلاة!. فقال له، فارتقبناهُ قليلاً، فبقي على حالهِ، فقلتُ له: اضرب في كتفِه، فضربَ، وهو على حاله!. فقرُبت إليه، وتأملتُ في المصحَف بيده، فظهَر لي أنه يقرأ، ومراده ختمةً في ركعةٍ، فحزنتُ جدًّا، من تكثيفِنا بالدعاء عليه[1]، وضرب كتفه، فصلينا، وقرأنا المولد، فلما أكمل قرْبَ الصباحِ، جاء إلينا، فأخذْتُ أعتذر إليه من ذلكَ، فتعجّبَ، وقال: لم أشعر بشيء من ذلك!.

وغير ذلكَ، كثيرٌ، يأتي مع ذكر تلاوته، وقد يغلبُه البكاءُ مع قراءة الفاتحةِ، إما معَ افتتاحها، وإما مع ختمها، لما ينازلُ قلبَه [/٤٤] من المنازلات الربانيةِ، والتفكر في المعاني الحاصِلة لأهل الفهُوم الصَّفائية، والجولان والعوم في بحار العلوم اللدنية.

* * *

وصلَّى مرةً صلاة خسُوفِ القمرِ وحْدَه في بيته، فقرأ حسبَ الأفضلِ، في الأولى: البقرة، وفي الثانية: آل عمرانَ، وفي الثالثة: النساء، وفي الرابعة:

---

(١) أي: مناداته، بالدارجة.

المائدة. فاتباعُ السنةِ ديدَنُه ودأبُه، في مجيئه وذهابه، والمجاهدَةُ حرفتُه واكتسابه، يعلو فيها كلَّ عالٍ، ويركبُ الأهوالَ، ولا يهوله صعوبةُ حالٍ.

قال لي يوماً: إنني سمعتُ السُّراةَ من السَّناوَة في الزرعِ يحدُونَ. فقلتُ في نفسي: هؤلاء يريدونَ سهرَ الليلِ كلّه بتعبٍ عظيمٍ، لطلب شيء تافهٍ من القُوتِ، فكيف بمن مرادُه طلبُ المنازِلِ العلية، والمراتب السامية، فقمتُ كلَّ الليل بسُهولةٍ وفرحٍ. أو ما هذا معناه. وكأني سألته عن أثَرٍ من التعَبِ أصبح ظاهراً عليه، فأجابني بذلكَ، نفع الله به.

وإلا فقلَّ أن يظهر شيئاً من أمثال ذلك إلا نادراً. وقد يجرُّه الكلامُ. مع غلبَة جانب التوحيدِ عليه، وعدم رؤية الخلقِ، إلى أن يفصِحَ بشيء من ذلكَ، لأني إذا رأيتُ عليه آثارَ الانشراحِ قد أزيدُ في البحْثِ [٤٥/]، ولا أبالي بكونه من سُوء الأدبِ، لعلمي بسَعته واحتماله، نفع الله به، خصوصاً من مثلي، ومراعاته لما هو الأصْوبُ، إخباراً أو إمساكاً، من غير مبالاةٍ، فيحمِلُني ذلك على الفحْصِ، ويأتي من ذلك كثير إن شاء الله.

* * *

وأما تلاوتُه القرآنَ في غير الصلاة؛ فيأتي فيها بجميع آدابها الشّرعية المذكورةِ في كتب الأئمة، مع ما حظيَ به ونالَه من سعَة العلومِ فيها، وغلبة الحضور والاستغراقِ، خصوصاً إذا كان يتلو وحْده. وأما مع المدارَسة فتكثُر منه المذاكرَة في العلُوم الباطنَةِ، خصوصاً إذا وجد أهلاً لذلكَ، أو من له بعضُ فهمٍ، وكمالُ حسْنِ ظنٍّ.

ولما تأذَّى بوجَع عينيه، كان غالبُ تلاوته في نهار رمضانَ مدارسةً، وإذا

تأذى بنظَر المصْحَفِ، اكتفى بالاستماعِ، وجلوسِه في حلقة التلاوةِ، ويذاكر في علوم التفسير الظاهرَة والباطنةِ، وقد يطلب حضُورَ التفسيرِ والنظرَ فيه، وأما العلومُ الباطنة اللدنيةُ، فحسبما سبق في ذِكْر علومه.

* * *

وأتت إليه والدتُه ليلةً بعَشاءٍ إلى المسجدِ، وهو معتكفٌ في رمضَان أولَ العِشاء، وهو جالسٌ يتلو في المصْحفِ، فجلسَت تجاهَ وجْهه [/٤٦] وكلّمتْه، فلم يشعُرْ بها، ولم يرها، مع كَونها قريباً منه، ومع قوّة نظرِه، فأخذتْ مدةً وهو على حَاله يتلو ويقِفُ متفكراً، ولم يشعُر بها إلا بعدَ حينٍ، لشدّة استغراقه، نفع الله به.

* * *

ومع المدارَسة تغلبُ على المجلسِ الأنوارُ، حتى أن الحاضِر لا يودُّ أن يقومَ، وذلك من شدّة أنوارِه ومعارفه. وقد يغلبه البكاءُ مع التلاوةِ، وكذا مع المذاكرة، حتى قد يمتنعُ عن القراءةِ، ويبقى يستمعُ لشدّة العَبْرة والبكاءِ.

ولم يجعل للتلاوة في غير رمضان وقتاً يخصُّه، بل حَسب الاتفاقِ، ونظَر أدب الوقْتِ، فقد يتلو مدارسةً بعد صَلاة الظهرِ، خصوصاً إذا حضر أحدٌ ممن له بهم انشراحٌ، من أهل الفضل، وخصوصاً مع صَومه، وقد يكون في غير هذا الوقتِ، ولا يقرأ إلا مرتّلاً مجوّداً، وكذلك من يدارسُه، ويحصُل من التلاوة شيءٌ كثير، كمن يحدُو ويستمِرّ، شاهدت ذلك مراراً منه، نفع الله به، مع غاية التأني والترتيلِ، وطُولِ المذاكرة، وهذا من الخوارقِ الواقع مثلُها لكثيرِ من السلفِ من أمثالِه [/٤٧]، نفع الله بهم.

* * *

وأما درْسُ الكتبِ العلمية؛ فلم يخصَّها بوقتٍ معروفٍ كغيره من العلماءِ، لشدة استغراقه بما هو أهَمُّ وأولى، مع أنها لم تزل القراءَةُ لديهِ، والأخذُ عنه من أهل الفضْلِ، خصوصاً الطارقينَ من غير بلدِه، من أهل الجهة وغيرهم، وبعضهم يرتب القراءَةَ في كتابٍ معروفٍ، كلما جاء إليه قرأ على ترتيبهِ، حتى يكملَه، غير أنه، نفع الله به، لم يعيِّنْ للدّرسِ وقتاً، بل حسب الاتفاقِ، إما أولُ النهارِ بعد الشروقِ إلى نومَة القيلولة، وإما آخر النهار بعد العَصْر إلى الغروبِ، وهذان الوقتَانِ أكثر ما تكون القراءَةُ فيهما للكتبِ.

وقد يجعلُ بدلَ القراءة مذاكرةً، لأن مذاكرتَه رضِيَ الله عنه أولَى لدى المستفيدِ من سَرد القراءةِ، إلا أنه قد يطرقُه بعضَ الأحيانِ في المجلس الهيبةُ، التي هي نهايَةُ القبضِ، فيسكتُ، فلا يقدِرُ أن يسأله أحدٌ، فيستدعي انبسَاطه ومذاكرَته بالقراءَة، لأن من خلُقِه العظيمِ لا يرُدّ سؤالَ من سألَ، إذا طُلبت منه القراءةُ [٤٨/]، ورأى الطالِبَ معوِّلاً عليها، إجابةً موافقةً له، وإن كان الأليقُ عندَه ذلك الوقتَ ما هو فيه من فكرٍ أو ذكرٍ.

* * *

ويأتي بعد ذلكَ ذكرُ أخلاقه. ومذاكرَتُه، رضِيَ الله عنه، تحير الفحُولَ، وتبهر العقولَ، كما ستراها بعدُ، وكما مرَّ في علومِه طرفاً من ذلكَ، هذا في وقته الآن، وأما أوائل أوقاتِه: فقد يخلو آخر النهار في المسَاجد المهجُورةِ، ويجلسُ إما على تلاوته، وذكرٍ أو فكرٍ، وينتجُ من ذلك من الفُهومِ بالعجب العُجَابِ، وقد يلغبُه القبضُ، وتارةً البسْطُ، حتى يعقد مجلساً من صلاة العصر إلى الغروبِ، قراءةً في الكتب، ولا يبالي بمن حضَر، قلَّ أو كثُر.

وقد قرأتُ عليه في تلك الأوقات السالفةِ، بحمدالله: «رِسالة القشيري»، و«عوارف المعارفِ»، مرتين، و«شرح الحكم» لابن عبادٍ، و«تيسير الأصول»، في الحديث للديبعِ، وغيره مساعدةً في عمارة الوقت له. وإلا فأينني من هذه المرتبة؟. مع أنه يأتي مع المذاكرة من العلوم اللّدُنية بما يبهر العقلَ، ولا يتأتى بالنقل، ولكن لم يصادفْ أهلاً، وكأنّ ذلك بأمر قهريٍّ، لأنها علومٌ دقيقة [٤٩/] كما ترى في «وصَاياهُ»، لمن له فهمٌ في علومِ الباطنِ، فعسى تشملنا بركتُها وتؤوينا دعوتها.

* * *

وأما دوامُ الذكْر والدعواتِ؛ فهو ديدنه الدائمُ على ممرِّ الساعاتِ، وتكرار الأوقاتِ، وجُلُّ عُدَّته على قطعِ المسافاتِ، المبلّغ إلى أعلى الدرجاتِ. فأما الدّعواتُ النبوية؛ فيأتي على غالبها، فغالبُ أوقاتِه، يقرأ فيها بين الصبحِ وطلوعِ الشمس: «الحزْبَ الأعظَم» للمُلاّ علي قاري الحنفيّ، وهو جامعٌ جلَّ الدعواتِ النبويةِ الواردةِ، صباحاً ومساءً، وغيرها. وهذه عادته في جميعِ عباداتِه، يتهجَّمُ من أعالي الأمُور أشقَّها وأثقلَها على النفسِ، كما هو واضحٌ فيما مرَّ وما يأتي؛ وقد يلازم ذكراً واحداً غالِبَ النهارِ، خصوصاً كلمةَ الإخلاص (لا إله إلا الله)، أكثر ذلك مع أوائل مجاهداتِه وإقبالِه.

* * *

وكذلك قد يرى الفتُوحَ في بعْض الأذكَارِ التي ذكرَها السادةُ الصوفيةُ، فيلازمه، وتظهر له منه الآثارُ، وتنشَر عليه الأنوارُ، وتنازل باطنَه المنازلاتُ الربانيةُ، وتبدو له الكشوفاتُ الفتحيةُ الحقيّة.

كما وقع له مع [٥٠] مسيرنا سابقاً، مع إقبالِه، إلى (تريم)، هو وأنا ووالدي رحمه الله، وكان بكورُنا أولَ النهار من بلد (بور)، إلى أن وصلنا (تريم)، ونحن، الجميعُ، نمشي، وكلما أردتُ أن أكلِّمه في الطريق وجدتُه مستغرقاً، ظاهرةً عليه آثارُ الهيبةِ، وقد يأخذ في جانبِ الطريقِ يبعُد منَّا، مع غاية الاستغراقِ، وقطَعْنا الطريقَ ولم يلفظ بكلمَةٍ لنا ولا لغيرِنا، من طلوع الشمْس إلى قريبِ نصْف النهارِ، فلما وصلنا انبسَط معنَا، ومع الناسِ، وانشرح للإقبالِ على الصلواتِ والزيارَات، والتهجُّدِ، ومذاكرة العلوم مع أهلها. فقدَّر الله بعد مدةٍ أن وقعتْ مذاكرةٌ في تلك الزيارَة، وذكر استغراقَه في الطريقِ، فأخبرني: أنه فتَح الله له في الذِّكر المشْهُور عن السريِّ للجنيدِ، وأنه كرَّره في الطريقِ، وكشُفَ له مع ذلك عن مقاماتِ جميع الأولياءِ، ورأى كلا منهم في مقامه الذي أقيمَ فيه، منهم المتساوونَ، ومنهم الأرفَعُ على غيرِه. فقلتُ له: وكل واحد منهم ظهَر لك؟ قال: نعَم!. وأخذ يشير إلى مقام الشيخِ عبدالقادر الجيلاني، نفع الله به.

والذكرُ المذكور، هو، مع ما زادَ فيه: «الله [/٥١] معي، الله شاهدي، الله حاضري، الله ناظرٌ إليَّ) وقد يبدلها بـ«الله يراني». وبقي يجيز بهذا الذكْر الآخذينَ عنه، حتى ظهرت آثارُه في جماعةٍ منهمْ، من أدى به إلى تعطيل السببِ، ومنهم من بلغَ إلى أن قالَ له: «إني لا أقدِر أكشِفَ عورتي للغُسلِ، من الحياء!».

* * *

ووقفَ مرةً مع إقبالِه، على ذكْر على كتاب «مفتاح الفلاح»، للشاذلي، فوجده مناسباً لحالِهِ الذي هو فيه، فلازَمه. ووقعت لنا همةُ الزيارة إلى (تريم)،

فكأنه ذَهِل عنه [في] السفر، فلما وصل هناك نسيَه، ومجلسُنا في دُوَيرة با علوي، المشهورة ببلَد (تريم)، فوق المسجد العلوي، فجلس بعد الظّهر في المخضرة الصغيرة، موضع الدرسِ، وخدَه، قال: فدخل عليَّ ثلاثةُ أدياكٍ، ووقفنَ بين يديَّ، فتقدم إلي واحدٌ منهنّ، وقرأ الذكْر المعروفَ جميعه، فذكرنيه.

* * *

وعادَته، نفع الله به، ملازمة الذكْر ابتداءً وانتهاءً، والغالِبُ عليه مع حضُور الجموعِ عدَمُ الخوض أصلاً، فقد يحضُر شيئاً من الجمُوعِ، كتشييع جنازَةٍ، ولو حلفتَ أنه ما نطَق بكلمةٍ مع إنسانٍ، لم تحنثْ. هذا مع ابتداءِ الأمر؛ فقد راقبتُه في ذلكَ، وجربته مراراً، والآن لما كثر تعلقُ الناسِ به، وانتقالهم إليه، كذلك الغالب عليه الصمتُ والاشتغالُ بالذكْرِ، إلا أنه يجيبُ من كلَّمه، لأنهم لا يتركونه ونفْسَه لتعويلهم على طلبِ الدعاء منه، والتبرك بكلامه. وهو كذلك ملآنٌ حُسْنَ الظن بهم، إلا أنه يؤْثرُ عدمَ الخوضِ إلا قصْد الإيناسِ، وإلا كانت هناك قراءةٌ عليه، فيذاكرُ، أو اقتضَى تذكيرٌ، وأمراً ونهياً، وتعيَّن عليه كما سيأتي في ذكر دَعوته إلى الله، وإلا فالصمتُ سجيتُه عندَ خاصٍّ وعامٍّ، من بدُوِّ أمره، فلهذا أُعينَ في سُلوكه، ووصَل إلى مطلوبِه من غير عائقٍ. وإن كان حمَّلَ نفْسَه من المجاهداتِ ما لا تحملُه الليوثُ الأبطالُ، من كمَّل الرجالِ، كما مرَّ ويأتي.

وكم له من حثٍّ على الذكرِ في «وصَاياهُ» المسطّرة، من له إلمام بها.

وله من الدعواتِ المختَرَعة ما لا يحصَى، ويحير فيها من بلغَ من تلك العلوم الأقصَى، أكثرُها تطلَبُ منه، يأمر كل أحدٍ بما يليقُ بحالِه، وإن كان من السالكينَ [/٥٣] على مَا يصلحُ لما علمَه، مما وصله وبلغَ إليه، وأمرَه بطلبِ

الزيادة والثباتِ والإعانَة، ويذكرُه في دعواته التي يأمرُه بالدّعاء بها، وهي تشبه الدعواتِ النبويّة، وحوَت من البلاغَة والسجْع والجمْعِ من غير تكلفٍ ما لا يخفَى، وسأملي منها ما وجدتُ الآنَ، لأنها كثيرةٌ جدًّا. وبالجملة؛ فلا يخلو نفَسٌ من أنفاسه عن الذكرِ والقرْبِ إلى مولاهُ، إلا أنه، خصوصاً بعْد وصوله إلى رياضِ المعارف، وحَظْوته بالأسرارِ والأنوارِ واللطائف، يتنقلُ في فعْل القُرَب بالأليقِ، بحكم الأدَب، كما هي طريقةُ الأكابرِ من العارفينَ، أهل عين اليقين، وحق اليقينَ، كما قيل: العارف ....[1].

* * *

وإذا سمع نظماً يتعلقُ بالسَّير إلى الله، والذكر، والذوق لأهله، والتشبيب والتعريض، لم يتماسَك من البكاء، ويذاكر بالعَجب العجابِ [/ ٥٤] من المذاكرة، حسبما تقدم.

وإذا قرئ عليه في الكتُب التي فيها ذكرُ السَّير، وما يقع لأهله في كل مقام من الكشُوفات، وظهور المثبطين عياناً، رأيته يتعَجَّبُ ويضحكُ، لكونه جرَى له من إقباله قبلَ أن يسمعه. وذلك لما قرأتُ عليه كتاب «السير والسلوك»، وذلك قبل أن يقفَ عليه، كلما ابتدأتُ في وصْفِ نفَسٍ من الأنفُسِ السبع، وذكر عوالمها وأطوارها، وما يقعُ لها، يتقدمُني ذلكَ ما لم أقره له، ويذكرُه كما هو، لخبرته به. وقد يسبق على لسانه ذكرُ شيء مما وقع له مع ذلكَ، إلا أن الغالبَ عليه إذا بدأ، يتخبرني أُمسِكُ، فأتحسَّرُ، ولم أقدر على البحْثِ عنه. من ذلك: لما ذكَر في النفْس الثالثة، المسماة بالملْهَمة، أن صاحبها تظهَرُ له كنوزُ

---

(١) بياض في الأصل بمقدار حوالي سطرين.

الأرض، ويسمَعُ تسبيحاتِ الجمادات، فذكَر لي: أنه مرةً سائرٌ بجنْب زرعٍ في محلٍّ عيَّنه لي، قال: فسمعتُه كله بلسَانٍ طلقٍ يلهَجُ بـ(لا إله إلا الله). وقد ذكره لي سابقاً ونحن قريبٌ من ذلك المحلِّ، ثم قالَ: «وهذا ليس من درجة أهلِ الكمال، فإن ذلك يسمعُ تسبيحَ كلِّ شيءٍ بما يليقُ بحاله». فلما قرأتُ ذلك الوصْفَ عرفتُ أنه ذلك الوقتَ بتلك الصفة.

* * *

وكذلك؛ ليلةَ [/ ٥٥] خرجتُ معه من بلد (الغُرفة) بعد العشاء، إذ غلب عليه قبضٌ شَديد ظهرَتْ عليه آثارُه، وتأثرتُ أنا مما يكابدُه، وبقي يتلفَّتُ إلى وراءه، وينظر إلى الأرضِ الذي خلفَ عقبه، ثم يصير كالفَارِّ الهارب من شيء يطلبُه، ويلهج بالذكْر، إلى أن وصَلنا بلدَنا. وبعد مدَّةٍ سألتُه عن ذلك؟ فقال: «ذاك الشيطانُ، يريد أن يثبطني». ويظهَر عليه آثارُ الفرَح بأن الله نصرَه عليه، فتذكرت قول سيدنا الحداد:

* يا آخِذاً مني بأذيالي * في بكري أيضاً وآصالي *

وأخبرَني: أنه مع ابتداءِ أمره يرَى الشيطانَ في باطنه، نحْو قلبه، في صُورة ديكٍ. قال: «فآخذُ في الذكْرِ فيضعُفُ، حتى يصير ماء عدماً».

* * *

وساعده الله بالإسْراع في سُلوكه، إذ لم يقف مع عارضٍ من العوارضِ التي تعرضُ لأهل السَّير في سيرهم، فبعضُهم يرجِعُ على عقبيه، وبعضهم يقفُ في محلِّه أعوام، خصوصاً في النفْس الملهَمة، التي تُظهِر لصاحبها كنوزَ الأرضِ، يأخذ منها ما أرادَ، والمعرِضُ عنها يصل إلى غاية المرادِ، من الوصُول

إلى النفسِ المطمئنةِ، إلى الراضية، إلى المرضية، إلى الكاملَة، المعبَّر عنها بالمقام الرابعِ [/ ٥٦]، وأعلاها بالمقَام العاشرِ، مما هو مذكور في محله، ومعروف لدى أهله، ونستغفر الله من الجراءةِ. وذلك مما سمعتُه من لسانِه، نفع الله به، في وصف هذا الشأنِ. ومع المسَاعدة المذكورة فقد تحملَ من صُنوف العباداتِ، وأنوارِ المجاهدات والرِّياضاتِ، ما لا يدخلُ تحتَ القياسِ، ولا تحتمله الحواسّ، كما مرَّ ويأتي.

* * *

ولما وصلنا (تريم) في بعض الزياراتِ، أيام تدرُّعه بدِرْع المجاهداتِ، من الصوم والصلوات، ورأى ذلك شيخُه الإمام عبد الرحمن بن حامد، وعرف ما تحمَّله، مما لا يطاقُ، قال له: «يا حسن؛ إن هذا أمرٌ قد طويَ بساطُه، واليومَ الأليقُ ما تطيقُه النفْس من حضُور الجماعاتِ، وإحياء الأوقاتِ الفاضِلة، كبين المغرب والعشاء، وبعد الصبحِ، بالأورادِ وصَوم الأيام الفاضلة فقَط»، فقلتُ له: «ماذا رأيتَ فيما قالَ لك سيدُنا؟»، قال: «زادني نشاطاً وقوةً فيما أنا فيه»، فزاد في ذلك جدًّا واجتهاداً، حتى صاروا أشياخُه يطلبون منه الإمدادَ، كما هو ظاهر واضحٌ.

* * *

[شيء من دعواته الخاصة]:

ولما كان رضي الله عنه لعلوِّ همتِه [/ ٥٧]، مطلبُه العلا، والحلول بالدرجة العليا، ولم يقنعْ بالأدنى. كان جلُّ دعواته المختَرَعةِ لطلَبِ ذلكَ، كما سمعتُها. فمنها: «اللهُمَّ حُلَّ عني وثائق الشهَواتِ الموانع، واكشف عني حجُبَ الأغيارِ

القواطع، وجَلِّني ببوارق الأنوار اللوامع، وأشرِقْ فيَّ نور معرفتك الساطع، وحيِّرني في فضَاء أحديَّتك الواسع، ودُلَّني إلى مقام عبوديتك الجامع، وعلمني من لدُنكَ كُلّ ما لا يدرَكُ بغَوص الفِكَر وإلقاء المسَامع». قالَ نفع الله به: «دعوتُ بهذه الدعواتِ على البديهة، فلما تأملتها وجدتها على مراتبِ السلوك»، أي: أولها وظيفَةُ صاحب النفسِ الأمّارة، والثانيَة لصاحب اللوامَة، والثالثَة لصاحب الملهَمة، وهكذا إلى الكاملة.

* * *

ومنها: ما أمرَ به بعْضَ المريدينَ: «اللهُمَّ اشرحْ صدري بنوركَ الذي تنزله من عَالمِ الجبروتِ، وتمدُّه بوَصفِ الرَّحموت، حتَّى تتلاشَى من ظُلماتِ النَّاسُوت، وأكمل به بصَر بَصِيرتي لتدركَ حقائق اللاهُوت، حتى تمتلئ فرحاً واستبشاراً عند تلاوة آيات ليل أوصاف الرَّغبوت، وتخرَّ ساجدةً، وتبكي خاشعةً [/٥٨]، وتسكن خاضِعةً عند تِلاوة آيات نهار أوصَاف الرَّهبُوتِ، يا حنان يا منانُ، يا رحمنُ، يا من هو حيٌّ لا يموتُ، اكفني بعلمك عن السؤالِ، وبرحمتك لي عن تحبير المقَالِ، وبجُودك العظيمِ عن استشرافي على بلوغي أقصَى المطالبِ والآمال، يا من كلَّتْ عن كثرَة إفضَاله وعَظيم نوالِه ألسنةُ الطامعينَ الراغبين عن السُّؤالِ، يا من لا يدرَكُ وصفُه بحَدٌ ولا مثالٍ، يا الله يا الله يا الله، استجِبْ لنا كما وعدتَنا، يا كريمُ، بجَاهِ حبيبكَ وَحيد ذاتك المنتَجلي معنى أسمائِكَ وصفاتِكَ، صلى الله عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلينَ، وعلى آله وأصحابه الأكرمينَ، وعلينا معهم أجمعين».

* * *

ومن أدعيته: ما يدعُو به ويوصي بعد صلاة الضُّحى، بعد ما يأتي بالدعاء المتعارف: «اللهم بك أحاولُ..»، الخ. «اللهُمَّ أنعش قلبي بآداب المراقبة، حتى أحاسب نفسي أفحَص المحاسبة، وأطالبها أكمل المطالبة. اللهُمّ اجعل حركاتي وسكناتي محفوظةً على أحسن الاتّباع لنبيّك المختار، وجوارحي وجوانحي ملجمةً بلجام التوفيق في الاسترسال والامتناع، ساعيةً على سبيل رضوانك [٥٩/١] بأحسنِ المساعِ.

اللهم دُلّني بك على ....[1]، حتى لا أخجلَ يوم الوقُوفِ بين يديكَ، ولا تضلني مدلهماتُ الفتنِ قبل الوصُول إليكَ. اللهُمَّ اشرَحْ صَدري بنور الاستبصارِ، حتى أخرُجَ عن التَّدبير والاختيارِ، وأتحلى بحلْيةِ الاعتبار والادِّكار، وأستأنس بشُهودِ جمالِكَ في الظهور والاستتارِ، راضياً مسلماً لما سبقتْ به الأقضيةُ والأقدار، راغباً عند الوعدِ لأصفيائكَ بالنعيم المقيمِ بدار القرارِ، راهباً عند الوعيدِ لأعدائكَ بالعذابِ الأليمِ بدار الخزْي والبوار، إنك حليمٌ غفَّار، جوادٌ ستّار. وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم. اللهُمَّ اجمع همومي عليكَ، واجعل جميع توجهاتي إليكَ، وأسعدني بالقرْبِ والزُّلفَى لديكَ، واجعل شُغلي بجوامعِ وكواملِ محابِّك ومراضيكَ»، انتهى.

• • •

ومن أدعيته: «اللهُمَّ إني أسألُكَ أنساً بكَ في الخلوات والجلواتِ، وسلوةً بك عن الشهواتِ، والتزاماً لما يقرّبُ إليكَ ويُدَّخر عندكَ من الباقياتِ الصَّالحاتِ، ونظراً إلى جَلالك وجمالكَ في جميع المقدُوراتِ والمكنوناتِ،

---

(١) طمس في النسخة الأصل بقدر كلمة.

ورجوعاً إليكَ عن [/ ٦٠] ملاحظةِ البرياتِ، وشوقاً إليك يوم القدُوم عليك عند الميقاتِ، والنظر إلى وجهك الكريمِ، والخلودِ الدائم في فراديس الجناتِ. وصلى الله على سيدنا محمدٍ أفضَل الصلواتِ، وعلى آله وصحبه إلى يوم الميقاتِ. وسلم كثيراً».

* * *

ومنه أيضاً: «اللهُمَّ حَلِّني بحلية التقوى والورَع، وزيِّني بزينَة الصدقِ والإخلاصِ، واجعل همتي في امتثالِ ما أمرْتَني به، واجتناب ما نهيتَني عنه، وأغْنِني اللهُمَّ بتدبيركَ لي عن تدبيري، واختيارك لي عن اختيارِي، وسلمني بمحْض الكرَم منكَ من الفتن والمحن، وأصلِحْ منِّي ما ظهر وما بطنَ. اللهُمَّ آنسني بقربكَ، وأشغِفْني بحبِّكَ، وأدخلني في خاصَّة الأولياءِ من حزبِكَ، واحفَظْني فيما وهبْتني من سلبِكَ، فإن السعيدَ من سبقتْ له العنايةُ والرعايَة في سابقِ علمِكَ، والشقيَّ من حقَّتْ عليه الكلمةُ بخُذْلانك وخزْيِك».

* * *

وهذا دعاءٌ ألقيَ عليه، عظيم النفع وهو: «اللهُمَّ فرجَكَ القريبَ، اللهُمَّ سترَكَ الحصينَ، اللهُمَّ عوائدَكَ الحسنة الجميلة[1]، يا قديمَ الإحسان، إحسانُك القديم، يا دائمَ [/ ٦١] المعروف، معروفُك الدائمُ الدائمُ الدائمُ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، برحمتك يا أرحَم الراحمينَ، وصلى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلم»، انتهى.

* * *

---

(١) في الأصل: الحسن الجميل. وتم التصويب بما يوافق قواعد اللغة العربية (مصحح).

[ذكر أحواله في الصيام]:

وأما الصَّومُ فله منه الإكثارُ بما لا يضبَطْ بمقدارٍ، من بدوّ أمرِه وصِغَرِ سنه، فيصومُ الأيامَ الفاضلةَ، كعرفة وعاشوراءَ وتاسُوعاءَ، وستَّ شوالٍ، والاثنين والخميس والجمعَة. ثم بدا له إحياءُ السنَّة التي هي أفضَلُ الصيام، وذلك صومُ يومٍ، وفطر يومٍ، وهو الصَّومُ الداوديُّ، فمكثَ عليه سنينَ عديدةً، ومدة مديدةً، وشاع عنه واشتهَر، وتبعَه على العمل به بعضُ طلابِ الربِّ الأكبَرِ.

وكان لا يتركُه إقامةً ولا سفراً، في الجهة القُرْبى، حتى مع وصُول أحدٍ إلى عنده، أو زيارته للبلدانِ، يكابدُ أولاً المكابداتِ العظيمةَ، حتى صار كأنه عُجِّل له من الجنان النعيمَة، بأن صَار ينبسطُ يومَ صومِه، ولا يظهر عليه أثرٌ، لا يعرفَ أنه صائمٌ إلا من علم واختبرَ، وذلك من بدوِّ أمرِه، قبل توسُّعِه في العلمِ، حتى أنه أولَ يوم في أيام التشريقِ مرةً أصبح صائماً [/٦٢]، ظاناً أنه كنصفِ شعبانَ لا يحرُم بوِرْدٍ، فأتيته فوجدتُه صائماً، فأخبرته بالحرْمَة، فحزِنَ، ثم قال: «الله لا يحرمْني الثوابَ»، وأفطر. فتعجبتُ مما تحمَّله من المكابدَة في رضَاء الله، مع صغر سنه، وغفلتنا مع كبرنا!.

وأما في السَّفر الطويلِ، فيصومُ على عادته كذلكَ. إلا أني إذا كنتُ معه أظهِر له ما ينازلُني من التكلّف من صيامهِ، رحمةً له، فيفطِر أخذاً بخاطِري إذا رأى ذلكَ، وظهر له أنه أفضَلُ، ثم لما كثُر عليه الصيام وحصلَ معه الزّعلُ من وجع عينيه، وضعُفَت قواهُ بكثرة الرياضاتِ، كما يأتي. جعل يصُوم الاثنينَ

وخميسٍ وجمعةٍ، إلا أنه إذا أتى أحدٌ من الخواصّ، ووافق صومَه، ورأى عليه مشقةً، يفطر موافقةً. وقد يفطر وهو قد شرع في الصّوم لمراعاة الأفضل.

* * *

ورأيتُه يومَ وفاةِ سيدنا محمدِ بن السقافِ، لما أفَضْنا من الدفنِ وهو صائمٌ، وقد سِرْنا أنا وهو من مكانه أولَ النهارِ، وحضرنا الصّلاة والدفنَ، وكان المفاضُ إلى بيتِ سيدنا [/ ٦٣] محمدٍ المذكورِ، وحضر جمعٌ من السّادة، فأخذوا يديرونَ الماءَ، فناوله الدائر الإناءَ الذي فيه الماءُ، فأخذه وشرِبَ، وكان ذلك نحواً من وقتِ الظهر.

* * *

وقد أراهُ إذا همَّ على الإفطارِ أثناءَ النهار لسببٍ، يتوقفُ قليلاً يفكّر، فأعرف أنه يراعي ما ظهَر له مما هو الأفضَلُ: الإمساكُ أم الإفطارُ. فمرةً يفطِر بعدَ فكرِه، وأخرى يطرَحُ الإناءَ ويبقى على الصَّوم. وقد يفطر بأمرٍ من والدتِه إذا رأت منه ضعفاً، أو مع عيدٍ، فيراجعُها قليلاً، فإن أبتْ إلا الإفطارَ أفطَر. وكذلك الآنَ إذا أضافه بعضُ المتعلقينَ به، وجاء صومُه وهو عندَه، إذا طلب أن يفطِر، ورأى له خيراً بذلك يفطِرُ، رأيتُ ذلكَ مراراً منه، نفع الله به. ويأتي في دعوته إلى الله: مراعاتُه جانبَ الله بما هُو الأولى والأفضَلُ لدى الله شرعاً.

* * *

[ذكر أحواله في حج بيت الله الحرام]:

وأما الحجُّ؛ فقد حجَّ، تقدّم أنه سبعُ مراتٍ، وإلا كلَّ وقتٍ يحصلُ معه النزوعُ والهمّة، ولكن لما كان يراعي جانبَ الله، وما جاء منه [/ ٦٤] وقدّره، إذا

وقعَ بعضُ عائقٍ تركَ، وخصوصاً لما تكاثفَ من وجَع عينيهِ، وظهور حرارة الطبْعِ، وكونُ الحجّ هذه الأوقاتِ الأخيرة يأتي في شدّة الحرِّ، وكان لا يأخذُ أجرةً لحجّه، إلا إذا حصل معه العزمُ، وجَدَّ على السفرِ مطلقاً يقبلُها، وأما العزْمُ لأجلِ الأجرَة فلا!، من أوائل أمرِه.

كما وقع سابقاً؛ أنّ سيدي عبدَالرحمن بن علي السقاف السيونيَّ، عرضَ عليه أن يحُجَّ للرجُل المنوَّر عبد الرحمن بن أحمد محامد، وقال: «إذا كان حسنُ يحجّ، نزيدُ في الأجرة»، وكان ذلك في شعبانَ، فقالَ: «لا همةَ لي الآنَ، يعطُوها الغير». فلما كان شوالُ، طلعتُ أنا معه إلى (الغرفة)، نهنيءِ السيدَ الأفضلَ الحسين ابن محمد الحبشيَّ بالعيدِ، ووافقنا القِطارَ في الطريقِ، ووقتُ السفَر إلى الحجِّ متسعٌ. فقَال: «اشتاق قلبي للسفر للحَجّ مع هؤلاء»، فقلتُ له: «كيف! وقد جئنا إلى (الغرفة)، وراجعين، نقولُ لوالدتك: مسافر، يشُقّ عليها!». قال: «لا؛ إن العزْمَ قويَ في قلبِي، ومعي شوقٌ».

وظهر عليه آثارُ الفرَح بالعزْم، وغلبةِ الشوق، وبيده شيءٌ يسيرٌ من الدّراهمِ، وصّى [/ ٦٥] بعض الناس يأخذُ به طعاماً يكونُ في زادِه، فعرفتُ أنه لا سبيلَ إلى ترك السّفر، لما رأيتُ عليه ذلكَ، حتى أمر أناساً في (الغرفة) يجعلونه دقيقاً، لقرْب نفُوذ القطَار، فلما طلعْنا على السيدِ حسين، أخبرناه بذلكَ، وأنه لا يمكن تخليفُه، فقال لي: «لعلّ أجْرةَ محامد باقيةٌ عند السيد عبد الرحمن»، فقلتُ له: مستبعَدٌ ذلكَ، بقَاها إلى الآن!. قال: «لا؛ ابعثُوا إليه باعث»، وسيدي حسن كلّه سواءٌ عندَه، حصولها وتركها، لجَدّه على السفرِ، لما هو أعزُّ من ذلكَ، وتوكّله على الله، فسار الشيخُ معروف باجمال متنبئٌ من ذلكَ بكتابٍ مني، وما مضَتْ

ساعتانِ إلا ورجعَ بحوالةٍ من جملتها إلى (الغرفة) خمسةٌ وعشرون قرشا فقبلَها لما كانتْ تابعةً لعزْمه، وذلك كثيراً يقعُ له، نفع الله به.

وتحملَ هناكَ من العبادَة ما لا يوصَفُ، فغالبُ أوقاتِه يطوفُ، إلا بعد صلاة الصّبحِ يجلسُ على عادته للأذكارِ، حتى يصلي الإشراقَ، ثم يخرج إلى التنعيم للإحْرام بالعمرة، [/٦٦] فإذا فرغَ من عمَلها يطوفُ أسابيعَ أولَ النهارِ، لكونها كعمرَةٍ، وسبعةً آخره، هذا بالضبطِ، ويطوف ما شاء الله من غير ضَبطٍ.

وقد يرتّبُ قراءةَ ختمةٍ من القرآنِ في طَوافه حتى يكملَها، يقرأ نظراً في المصْحف. وفي بعض حَجاتي معه أهدَى ثواب ختمةٍ مما به ختمَهُ في طوافه لوالدِه، وأخرَى لشيخه سيدنا عمر بن السقاف، وقد يكرّر في طوافِه بعض الأحيان سورَة الإخلاصِ، كما وردَ، والغالبُ مراعاة أذكارِ الطواف ومستحباته وآدابه.

وكان السيدُ العلامة، مدرِّس الحرم المكي، يجلس مع طواف سيدي الحسَن في مقام مالكٍ، لقصد النظر إليه، كما أخبر هو، ورأيته، نفع الله بالجميع. ويأتي في سخائه وكراماته مما وقع له هناكَ شيء كثير.

* * *

وكان يبادر إلى الحرَم من بعد نصفِ الليلِ، يتهجّد ويطوفُ إلى الصباحِ، حتى أنه أخبرَني مرةً: أنه دخل الحرَم آخرَ الليلِ، ولم يكن به إلا نحو اثنينِ يطوفَان، فأخذ بيده تركيٌّ، وقبضَه قبضاً عنيفاً، مع تهدّد [/٦٧] وهو لا يعرف لغتَه، إلا أنه عرف أنه يريدُ الفتْكَ به، قال: «فلم أقدِرْ أراجعْه، لعدم معرفته بلغتي، ولم أنازعه لكون السّلاح بيده، فلم يبق معي إلا التفويضُ، وبقيتُ أتبعه،

إذ برجلٍ آخر كلّمه وعرَّفه شأني، فتركني حمايةً من الله، وهو ظنني سارقاً، لأنه ربما سُرِق عليه شيءٌ من الحرَم، فبقي يترقّبُ من يدخلُ مع الخلوةِ، فوافق دخولي!».

وذلك لشدّة مبادرته إلى الحرَم، نفع الله به، لكَون وقته هناكَ كلَّه عبادةٌ، حتى أنا كنَّا بين الظهر والعصر نقعُد معه نتدراسُ القرآنَ في محلٍّ في الحرَم معروفٍ، فكان أهلُ الفضل يأتونَ إليه للطلبِ منه والتبركِ باجتماعه، فشقَّ عليه ذلكَ، فجعل يتحرَّى المحلّ الذي لا يعرَفُ به. وكان مع إقباله إلى (مكّة) بعد الإحرامِ لا يتركُ التلبيةَ، يكثر منها جدًّا، خصوصا مع الأسحارِ، وتخنقه العَبْرَةُ وهو يلبّي كثيراً، ويأتي على جميع سُنَن الحجّ غالباً، قلَّ أن يترك سنةً إلا لعذرٍ.

* * *

وكذلك في زيارة المصطفى ﷺ ، يبقى ملازماً الجدَّ والاجتهادَ، من الصومِ والصلاةِ [٦٨/] والقراءة والذكْر، والخروج إلى مسْجدِ قباء، وزيارة سيدنا حمزةَ والبقيع، إلا أنه ينبسطُ مع العلماء وأهل الفضلِ بـ(المدينَة)، أكثرَ من (مكّة)، قلَّ أن يكون مشهورٌ بالفضْل من أهلها أو غريبٌ، إلا وأتى إلى سيدي وطلبَ منه الفاتحةَ، لما يرون عليه من لوائحِ أنوار الولاية، وآثار الكمالِ، والاتّسام بمكارم الخلالِ.

* * *

[ذكر زهده وجوده وكرمه]:

وأما زهده في الدنيا الدنية، وجودُه وكرَمُه بما دخلَ عليه في يدِه منها، وتوكله على الله دون سببٍ من أسبابها، فأمرٌ مشهورٌ، وحالٌ بين الناس معروفٌ

مذكور، لأن كرمَه رضِيَ الله عنه وجودَه غمرَ كلَّ موجودٍ، وسار في كل الوجُودِ، وجمعتْ ذكرَ زهدِه وجُودِه وكرمه وتوكّله مقالاتٍ فيهنَّ له رضِيَ الله عنه حكاياتٌ كثيرةٌ، وقصص وأشياء عزيزَة، يطول ذكرُها، ويعسر ضبطها وحصرها، الواحدَةُ منها تجمَع اتّصافَه بتلك الأوصَافِ المذكورة كلها، لأن له في جميع ذلك اليدُ الطولى، والحظُّ الأعلى.

وكان ذلك صفتُه من حينِ ميَّز وبقيَ في زيادةٍ، بزيادة سنِّه وعلمِه، حتى أنه [/٦٩] لما حجَّ أولَ حجَّةٍ بعد بلُوغِه لما وصلَ خرج يهنيه بالحجِّ إلى بيته سيدُنا الشيخُ أحمد بن جعفر، ولم يكن معه إلا شيخُنا المعلم عبدالرحمن بالسُّعود، وذلك بكرةَ النهارِ، فذبحَ لهما رأسَ غنمٍ، وضيافةً تكفي الجماعة، استعظاماً لسيدنا أحمدَ، واختياراً لما اتفق.

وبقي يترقَّى، حتى أنه لما أراد التزوّجَ، أراد أن يكونَ ذلك عند بعْض أهلِ المظَاهرِ، الذين لا يمكن التزوج عندهم إلا لصاحبِ يدٍ ومالٍ، فشقَّ ذلكَ على أهل مشُورته، لقلة ذاتِ يده، وعدم قدرته على ما يُعتاد بذلُه لأمثالهم، وكنتُ ممن لم يستحسنْ ذلكَ، فكتبَ إليَّ بأبياتِ البهْلُول، وزاد فيها بقوله:

أنــا عبــدُ ربٍّ لــهُ قــدْرةٌ كَلَـوني إلى كـلِّ أمـرٍ عَـسيرْ

فإن كنتُ عبداً ضعِيفَ القُوى فـربي عـلى كُـلِّ شيءٍ قَـديرْ

فكيـف أخـافُ وبـه ثِقَتـي دعُـوني بـرَبي ونعْـمَ النّـصيرْ

فـما اللّـومُ عنـدي بمـستمَع ولا العـذرُ لا والعلـيمِ الخبـيرْ

فتحققَ عندي كبر همتِه، وقوة ثقته، فأجبتُه بأبياتٍ أولها:

أيـ قـائـلَ الـنظم نلْـتَ المنَـى بنظمِـكَ قـد بـاذَ مـا في الـضميرْ

[٧٠/] طويتَ النَّوى واطَّرَحْتَ السُّوى

الخ. ثم لم يتمكنْ من الذين نواهُم، إلا أنه تزوج من نظرائِهم من أهل المظاهرِ، وبذلَ لهم، وأنفق في الزواج وبعدَه ما لم يقدَر عليه وتسمحْ نفسُ غيره، لا من أهل كثيرِ الثروات في الأموالِ، ولا من أهلِ الجاهات والإقبالِ، وفتح بابَ الـجودِ، حتى فاق حاتمَ الذي لذلك مقصود، واتصفَ بحال العدَني العيدروسِ قطب الوجود، وقد وقعتْ في ذلك إشاراتٌ وبشاراتٌ، وإن كانت صَوادرُه الظَاهرَةُ لا تحتاج أماراتٍ.

* * *

من ذلكَ: أني جلستُ معه عند ضريحِ سيدنا القطْبِ العدني المذكور، مع رجوعِنا من حجِّ بيتِ الله، مع كوني متولياً وظيفةَ الحكْمِ بـ(هينَن)، وأنا مكتَرِبٌ من ذلكَ، ومستبعد الخروجَ منها. فقلتُ لسيدي في ذلكَ المجلسِ عند ضَريح ذلك الإمام: «سبحان الله؛ كلما خطَر في قلبي من أحوالِ سيدنا أبي بكر العدَني وجدتُه فيكُم عياناً، ولله الحمدُ». فقال: «نرجو من الله يمُنَّ علينا بكرَمه»، أو كما قالَ. وأخذ يرتب الفاتحةَ بذلك القصْدِ، فقلتُ له: «وأريد الخروجَ من تلك الوظيفةِ بوجهٍ سالمٍ من الأذَى [٧١/]»، قال: «وكذلكَ. رتب الفاتحة على ذلك». أي: ما قصدَه مما ذكر من حالِ الشيخِ، وما قصدتُه من الخروجِ من الوظيفةِ. فلما وصلنا وسرنا إلى (هينن) أنا، لأنّ أهلي وأولادي بها، لم ألبثْ إلا نحْو خمسة أيام وأخرجَني الله منها بشيءٍ لم أحتسبْهُ، ولم يكن لي على بالٍ، فتحققَ لي قبولُ ذلكَ الدعاء.

وبعدَ ذلك زارَ، نفع الله به، الشيخ سعيد بن عيسَى العموديَّ، فرأى بعضُ المنورين الشيخَ سعيد خرجَ من قبره، وكأنه يقولُ: «أريد أن أعطي السيدَ حسنَ بن صالحٍ مقامَ الشيخ أبي بكر العدني»، انتهى.

قلتُ: وسيدي الحسنُ متصفٌ بتلكَ الأوصافِ قبل ذلكَ، كغيرها من أوصافِ الكمالِ، حتى أنه في تلك الحجة لما كنّا في (مكة المشرَّفة)، ولم يبق معه إلا يسيرٌ من زادِه، فلما كان يومُ تاسوعَاء من المحرّم، قال: «أودُّ الليلةَ أن أفعلَ ضيافةً، إني رأيت الغرباءَ عليهم الضعفُ بادٍ، خصوصاً السادة»، فقلتُ له: «إن الذي معك لا يكفي لذلك»، محاورةً مني معَه، وإلا فإني أعلمُ من حالهِ أنه ينالُ ما نواه. فقال: «نستقرضُ إلى (جدّة)»، فقام في الحالِ، وساعده الله سبحانه، وفعل ضيافة عظيمةً، واجتمعَ من السّادة وغيرهم من المحتاجينَ [/ ٧٢] المساكينَ خلقٌ كثير، وأشبعَهم من الرّزِّ واللحْم، حتى سرْنا بباقيهِ على السؤَّال في الشّوارعِ، ولم يدعُ من معَه كفايةٌ من السادَة وغيرهم، بل خصَّ بذلك الفُقَراء والمساكينَ، ولم يعطه في ذلكَ أحدٌ شيئاً، وذلك عادته، نفع الله به، إذا قام في ضيافةٍ للفقراء والمساكين، وإن أتاه أحدٌ بشيءٍ معونةً فيها يردّه، ويقول له: «افعَلْ لهم من نفسك»، مع كونه يقبلُ إذا كانَ مع خلافِ ذلك. فلما وصل (جدّة)، ردَّ ما استقرضَه.

وأعطاهُ بعضُ الناسِ أربعةَ قروشٍ في (جدة) أيضاً، فقالَ: «خذُوها واشتروا بها في زادِ جميع أهل الخيرة»، ولم يختصَّ بها، وكأنه أعطَاه وبعضُهم في المجلسِ، فرأى كونها هديةً، فجعلها للجميعِ لشدّة ورَعه، وصِغَر المال في عينه.

وفتحَ في الضيافات باباً مغلقاً، وحلّ فيها رتبةً لا ترتقي، خصوصاً مع المجاعة، يقوم للمساكين والسؤّال في ضيافاتٍ يزيدُ في التأنق فيها على ما يفعله الأغنياءُ لبعضهم بعضاً، فيذبحُ لهم الغنم السمينة، الغالية الثمينة، ويجعل معها من البُرّ والأرز، وعزيز الأقوات، ويجمع عليها الفقراء والمساكين، وقد يأمر بالنداءِ في بعْض الأحيانِ لأجل ما يبقى أحدٌ [/ ٧٣] من المستضعفينَ، ويطعمهم ما يكفيهم من ذلكَ وزيادة، مع فرح وانبساطٍ عظيم، وكذلك في رمضان يفعلُ ضيافةً لهم مرّةً ومرتينِ وثلاث، حسب ما يقتضيه الوقتُ.

وإذا وقعَ عنده موجبُ ضيافةٍ، إما لزواجٍ أو غيره، فرحٍ، لأجل يفعل معه دعوةَ الضعفاء، فإذا دعا المستوجبين ذلكَ من أهل الكفاياتِ، إما الجوارِ أو نِسْبةٍ، أو من جانبِ الزواجِ، قامَ مع ضيافتهم بضيافَةٍ للفقراءِ، ونبَّا عليهم، ويجعل ناساً مختصينَ يخدمون ما هُو للفقراءِ في جانبٍ، وما هو للباقين في جانبٍ، ولا يحضُر ولا يحرِّضُ إلا على ما هو للفقراء، ويحضُر فعْلَه، ويتأنق في زيادته على ما هو لأهْل الكفاياتِ، ويقولُ: «يجدون في بيوتهم خيراً منه». ولا يميلُ حتى يطْعمَ جميعُ من حضر من المساكينِ، يطلّعهُم البيتَ، ويزيدهم في القُوتِ والإدامِ على غيرِهم، عكْسَ ما الناسُ عليه.

وله في ذلك حكاياتٌ كثيرةٌ، وقد يفيضُ الناسُ من الضيافةِ، وليس في البيت شيءٌ من المأكولاتِ، لا طعاماً ولا تمراً، فأحواله غريبةٌ، وأوصافه عجيبةٌ، أحيى معالم [/ ٧٤] السنَنِ، وأوضَح خفيَّ السَّنن، نفع الله به.

* * *

وكانت الأقواتُ تتضاعفُ بركتُها لديهِ، ويظهر وفُورها بين يديهِ، إذا فعلَ ما يكفي المائتينِ كفَى أضْعافَها، ويزيد الزائدُ، وإذا استذمُّوا شاةً مما يريدُ ذبْحَه،

زاد على ذلكَ بأضعافِ ضعفِه، لصدق نيته، وكبر همته، وكذلك يفعلُ صنوفَ الإكرامِ، لكلِّ من قصَده من أهل دوائر الإسلام. يكرمُهم بطيبِ الأقواتِ، والفواكه المشتهياتِ، وأحسَن الإدامِ، المصاحِب للطعامِ، إلا الظلَمَة من الجندِ الطَّغام، فلا يدعُوهم ولا يقدرونَ يقصِدُونه، لعلمهم بما صادرَهم به، من التحْذيـر والتعنيفِ، بل لا يفتحُ بابَه لـمن علِمَ تأبِّيه بعدَ عتابه، وإذا وقعت الضيافةُ لبعْضِ الوافدينَ عليه، وحضر بعضُ الضعفاء، ساوَى بينهم، ولم يميز غنياً لغناه، ولم يشمئزَّ الغنيُّ عندَه من الفقيرِ، بعضُهم بأمر قهريٍّ، وبعضهم خوفاً منه، نفع الله به، لما يعلمُ ما للفقَراء عندَه، فهو الجديرُ بما وصف به الصدِّيقُ الإمامُ، بأنه أبو الضّعفاء والأيتام.

* * *

وكذلك قد يخصّ اليتامَى الصّغار بضِيافةٍ وحدَهم، [/ ٧٥] يجمعهم، ويكونون كثيراً جدًّا، فيذبح لضيافتهم من الغنمِ السمينةَ، مع الأقوات الطيبة، وقد يطلعُ بهم الشعْبَ، لزيادة فرَحهم، ويجعل لهم من اللحْم المطبيّ ما يكفيهم، ولا معهم أحدٌ من الكبارِ، إذا خصّهم، إلا من يخدِمُهم في إصلاح الضيافة، ويطلع هو بنفسِه، وقد يطلعُ معهم وهو صائمٌ.

ووصلتُ يوماً إلى عنده إلى (سيون)، فوجدتُ معه رأسين سِمانٍ، ذبحهما، وهو طالعٌ بالأيتام إلى الشّعْبِ، فكأنه أحسَّ مني استقالاً لضرورةٍ حالةٍ في ذلك الوقتِ، فقال لي: «إني ما فعلتُ ذلك إلا لأني أحسَستُ بقساوةٍ في قلبي»، وحاشاه من ذلكَ، نفع الله به.

* * *

وإن كانت ضيافته عامةً، فيكون الأيتامُ وغيرُهم من الكبار من المحتاجين سواءً، وله بالضيافة رضي الله عنه للمستضعفين اعتناءٌ تامٌ، ويودّ أنها كلّ يومٍ، حتى أنه مرّ وهو بالشام على آنيةٍ كبارٍ، يسقون فيها الخيل، من النحاس، فقال: «أودّ لو أن لي مثل هذه الآنيةِ أملأها من الرزّ للمساكين».

ولما أتى السلطانُ جعفرُ بن عليٍّ من الجهة الهنديةِ، رأى سيدي معه قدْراً من النحاسِ كبيراً جدًّا [/ ٧٦]، قال: فوقعَ في قلبي،أن لو كان لي لضيافة المساكينِ، وكان ذلك في بدوّ أمره، سنة ثمانيةَ عشر ومائتين وألفِ. فقدّر الله أن توفي السلطانُ، وآل الأمر إلى أن اشترى ذلك الطسْتَ منهم سيدي، وصار إليه الآنَ، ومدَّ فيه قيمةً ضابطةً، وفرح به جدًّا، لأنه قد يهمُّ على الضيافةِ، فيثقل عليه الإتيانُ بالأوعيةِ لها، ففرِحَ بذلك جدًّا، ولم يبالِ بما سلّمه في قيمته، مع احتياجه إليه في مهماتِ نفسه، فسبحان من وهبه هذه المقاماتِ العليةَ، والمواهبَ السنيةَ، وصدْقَ النيةِ. كيف! وقد خطَر له سرًّا ذلكَ الطستُ أولَ وقته، مع كونه بيد السلطان ذي سعَةٍ وقوةٍ وثروةٍ، فحقق الله آماله، وأعطاه سؤاله، وآل إليه بعد خمسٍ وعشرينَ سنةً.

وذلك عادته، رضِيَ الله عنه ما يظهر لهُ ويلوحُ بأمرٍ فيه استعانةٌ على القُرَب الذي هو بصدَدِها إلا جدَّ في تحصيله، وإن كانَ يستبعدُه المختبِر حالَه أنه لا يصله، لما يقتضيه العقلُ، لكن لما كانت همته كبيرةً، ومنزلته خطيرةً، برؤيته ما بيد الله أقرَبَ مما بيدِه [/ ٧٧]، لم يهوله هائلٌ، ولا يستجهمُ ما جلَّ صاعداً أو نازل، كما أجابني مرةً أوائلَ أمره، لما أردت ردّه عن أمرٍ استثقلتُ قدرته عليهِ، بأبياتِ البهلول التي أولها:

أنـا عبـدُ ربٌ لـه قـدرةٌ … كلوني إلى كلّ أمـرٍ عَسيرْ

الخ وزادَ عليها، وسيأتي إن شاء الله.

* * *

[ذكر عزيمته وهمته وآثارهما]:

وإذا عزم على أمرٍ من القُرَبِ، خصوصـاً ضيافـاتِ الأراملِ والأيتام والمساكينَ، تواتَتْ أسبابها، وفتحَت أبوابُها، بعزيمته الخطيرة، وهمته الكبيرَة، وصِدْقِ نيته.

عزمَ يوماً في رمضَان على ضيافةِ للفُقراء، ولم يكن بيدِه إلا ما يكفي الطعامَ، وعزمَ على أن يكون الإدامُ من اللحْمِ ديناً عليه. فوصف له بعضُ محبيه أنّ مع أحَد الموسِرين كبشاً كبيراً، بقيمة ثلاثة قروشٍ، فوصّاه له، وقال: «يصبر بها علينا أياماً قليلةً، ونوفّيه إيّاها إن شاء الله». فسار إليه وأخبره بكَلام سيدي، فأبى إلا أن تكُون في الحالِ. فقالَ سيدي: «خيرةٌ في ذلكَ». مع كونه حريصاً على فعل ضيافة تلكَ الليلة لشَرفها، فما لبثوا يسيراً [/٧٨] إلا وجاءت لسيدي ثلاثةُ قروشٍ من بعض المتعلقين به حوالةً على ذلِكَ الرجُل صاحبِ الكَبش، ففرح جدًّا، وقام في الضيافة تلكَ الليلة للفقراء والمساكينَ، وبلغه الله أمله.

* * *

ومن علوِّ مقامه ورسُوخ طود يقينه؛ أنه لم يكن له حرفةٌ معاشيةٌ أبداً، لا حراثةٌ، ولا تجارةٌ، ولا غيرُها. وراثةً لجدّه المصطفَى ﷺ بعد النبوّة. وهو رضِيَ الله عنه ينفقُ الإنفاقَ الكثير، ويطعِمُ الجمَّ الغفير، ويتصدق على الفقير

والمسكين، مرةً بدراهمَ، ومرةً بطعامٍ، ومرةً بكسَاءٍ، من غيرِ ما ذكرناه من الضيافةِ، ويؤنسُ الغرباءَ، ويكرمُهم، ويكافئ الأغنياءَ ويكرِمُهم ويفحِمُهم، لصِغَرِ الدُّنيا في عينِهِ، وحسْنِ ثقته بربه.

جلستُ معه ليلةً آخرَ النهارِ مع أضيافٍ عنده، فوفدَ فقيرٌ ممن حَالهم السؤالُ، أو يوشِكُ، فظهر عليه أثر السُّرورِ بوفودِ ذلك الفقيرِ، فقال: «طابَ خاطري، وانشرحتُ جدا بوصُول فلانٍ»، يشيرِ إلى ذلك الفَقيرِ.

* * *

[الباب الرابع]

ذِكرُ اعتراف الأئمة من مشايخه وأقرانه له ببلوغ الرتبة العليا وحلوله بالمنزل الأعلى من ابتداء أمره

وبقي يزيدُ بزيادةِ ترقيه، إلى أن صَار إلى ما هو فيهِ، مما لم يتأت جمعُه [٧٩/] بذكرٍ وتَنْويهٍ. من ذلكَ: قولُ شَيخِه الإمام عُمر بن السقافِ، نظماً، مع علمِه بوصُوله من بعضِ حجَّاته في ابتداءِ أمرِه وصِغَر سنِّه:

أهــلاً وسَــهلاً بالــشَّريفِ المــؤتَمنْ ذي السِّر والأسْرارِ والوَصْفِ الحسَنْ
أهْـلاً وسـهلاً بـابنِ صَـالح نـسبةً وحقيقَــةً فــوق المــسمَّى فاسْــمعَنْ

إلى آخر الأبياتِ.

وقال أيضاً في جوابه لأبياتٍ وردَتْ عليه من سيدي الحسَن، قال في أثناء الجواب الطويل: «وسمعتُ من وزن القريض، وما به يشفي المريض، وينشطُ الثكلان:

من نظمِ من صـدَقَ الـودادَ بهمـةٍ ولــه قــوافٍ محكــماتُ معــانِ
حَسنِ الفِعَال المرْتقي رُتَب الكَمالِ

الخ القصيدة.

وقال أيضاً في وصيةٍ طلبَها منه الأفضلُ حسنُ بن عبد اللـه الـحداد:

«والوصية لكُم، وللسيد الصفي الأصْفَى، الآخذ من الفَضل بالمكيالِ الأوفى، الحسن بن صالح البحر».

* * *

وأخبرني الحبيبُ الفاضل عمر بن زين الحبشي، قال: «لما زار سيدُنا الحسن [/ ٨٠] (دوعَن) بعض زياراته، وتوفي في (دوعن) بعضُ السادة، شاع الخبر أن المتوفَّى سيدنا الحسَنُ، وبقي الأمر يرُوج بينَ مصدقٍ ومكذِّبٍ، فلم يقرَّ لي قرارٌ حتى عزمْتُ أن أصلَ إلى جهته، نصفي الأخبار، وبي من الكآبةِ والحزْن مما لا أقدِرُ أن أصفَه، فمررتُ على سيدي الشيخِ الكبير، الإمامِ طاهر ابن الحسين، ووجدتُ مَن عنده يخوضُون في ذلكَ، فلما رأى ما عليَّ من الحزن امتازَ بي إلى خلوةٍ، وقالَ: «لا نظنّ أن شيئاً من هذا الحادثِ بسيدي الحسَن، إن حسناً ليس حالُه بقليلٍ حتى يخفى موتُه، إنه أحدُ السبعَةِ الحرَّاس في السبعة الأقاليم».

قلتُ: وقد بقيَ سيدي في الزّيادة، والترقي في السيادة، إلى ما لا يقدَّرُ قدرُه ولا يضبط، من فضل المولى الذي لا غايةَ له ولا نهايةٌ، كما قالَ هو شاهد لنفسِه بنفسه، نظماً:

نلنــا المنَــى وانزاحَــت الـسَّتائرْ حبيبنــا أمْــسَى لنـا مـسَامرْ [/ ٨١]

يــا سَــعدَنا هــذا عيــانٌ ظَــاهِرْ حقَّــتْ لنــا كــوامنُ البَـشائرْ

أضْـحى بنـا كـلُّ الوجُـود عَـاطِرْ مـاذا بِنـا؟ قـد خبْـتَ يـا مُنَـاكرْ

بــلْ سِــيدُنا أجــلَى لنــا المظَــاهرْ مــا قَــصدُنا أنّــا لــشيء نفَــاخرْ

هــو حَــسبُنا كــلُّ الوجُــود عَــابرْ مــا وصْــفُنا إلا عَــديمٌ قَــاصرْ

لكننـــا سُـــدْنا بـــه العَـــشائرْ هـــذا لنَـــا بـــالرَّغم للمُـــدابرْ
قـد خـصَّنا مَـنْ لـيسَ لـه مُـؤَازرْ ولا لفَـــضْله حَـــائرٌ وحَـــاصرْ

* * *

قـــد خـــصَّنا بالوصْـــلِ والأمَـــاني بشْرَى لنا هـذا النعيمُ هَـاني [/ ٨٢]
خطابُنـــا لطـــائفُ المثَـــاني شرابُنـــا مـــن خمْـــرَةِ التَّـــداني
محبُّنَـــا مـــسْغُوف بالأمَـــاني حمـــدِي لـــه في بـــاطنٍ وظَـــاهرْ

وسمعته رضِيَ الله عنه يقولُ: «فاضت عليَّ هذه الأبياتُ وأنا مسافرٌ إلى (المدينة) لزيارة الرسُولِ ﷺ، مع كوني راكباً على البعيرِ، فترددَتُ بعد فيضِها في إثباتها كتابةً وتركِه، وبعْدُ عزمتُ على أنه إن أتتني الآن محبرةٌ وأنا راكبٌ فذلكَ إذنٌ لي في إثباتها، [/ ٨٣] مع كونِ ذلك مستبعداً مع السَّير، فحال خطَر لي الخاطرُ، ناداني الأخُ أحمد بن علي الجنيد: «تريدُ محبرةً تكونُ عندك؟»، وأظنه قال: «فتعجبتُ!، وأثبتُّها».

* * *

وكان سيدُنا الإمامُ أحمد بن عمر بن سميط رضِيَ الله عنه إذا أطلقَ لسَانه على علماء الزمان بتقصِيرهم في نشْر الدّعوة بعضَ الأحيانِ، يقولُ: «ولا بانسَلّم لأحدٍ منهم، إلا الحسن بن صالح». وذلك لعلمِه أنه ما يتركُ فضيلةً [/ ٨٤] إلا للاشتغالِ بأفضلَ منها، كما هو مشاهد من حاله.

وكان مولانـا علامةُ الزمانِ، علوي بن السقـافِ، ليلةَ صواعقٍ وريحٍ شديدةٍ وقعت، ونحن وسيدي حسَن ببلد (سيُون) عندهم، يقول: «خفتُ جدًّا من ذلكَ، لكن لما ذكرتُ أن الولدَ حسن بن صالحٍ في البلَدِ سكنَ خَوفي»، فانظر وتأمل!.

قلتُ لسيدنا الشيخ محمد بن أحمد الـحبشي: «إني متعجبٌ من سيدِنـا الـحسنِ، في كونه في أوقاته لا يضيفُ الضيفَ على ما يـحصُل على متقضى بالوقْتِ، بل يتعنّى في تحصيلِ طيّب الطعَام والإدام، حتى بالإرسال إلى مكانٍ غير بلدِه، مع كَون الضيفِ في بعض الأحيان ممن هو كثيرُ الترددِ عليه، غايةً!». قال: «إنه بنَى أمورَه وأفعالَه على الأخْذ بأعالي الأمورِ في كل أحوالِه، فلا يضيفُ ضيفَه إلا بما هو أعلَى وأغلى»، أو نحو ذلك.

* * *

وفي بعض زياراته السابقة إلى (وادي دوعن)، وزرتُ معه، طلع، نفع الله به، إلى السيد الصّوفي المكاشَفِ عُمر بن طه بن عمر البار، في عزلته المختَلي فيها، وطلعتُ معه فسُرَّ سيدي غايةً، غير أنه حصَل مع سيدي الحسنِ [/ ٨٥] استغراقٌ جدًّا، لم يكلم السيد عُمر بغَير التحيةِ، فلما جلسْنا قليلاً طلبَ الإذْن من السيد في الخرُوجِ، فعجبتُ لكوننا حينَ جلسنا، لكن قال السيد عمر: «لا خروجَ إلا عن ذَوقٍ».

ولما وردَ على سيدي مما هُو أهله من الهيبةِ والأنوار الباهرة، أقبل عليَّ، أعني سيدي عُمر، يذاكرني في مسائِل الفقه الظاهرة، وخلَّى سيدي على ما هو فيه. فلما فرَغْنا من عندِه، سُئلَ عن سيدي الحسن؟ فأجابَ بقوله: «السيدُ حسن صاحبُ غيبةٍ واستغراقٍ، في حالة قد بهرت عينَ بصيرته سطعاتُ الجمالِ، وسطواتُ الجلالِ، رأيته في الحضرة مطرقاً برأسِه، لا يفهم خطاباً ولا يردّ جواباً، ناظراً إلى ما يرِدُ من جنابِ الأزلِ على مشاعرِه وإحساسه الظاهرة والباطنة، طالباً من الله المزيدَ، وهو بعد في مقامِ الترقّي، وإنما الكاملُ أن يكون كذلكَ، إلا أن له غيبةً في حضُورٍ، وحضُوراً في غيبةٍ، فلا يحجبُه الخلقُ عن الحقّ، ولا

الحقُّ عن الخلقِ، كائنٌ مع الناسِ ظاهراً بالشريعة، بائناً عنهم باطناً بالحقيقة، ويرْجَى من مثل هذا السيدِ، إن شاء الله [/٨٦]، وأمثالِه، الرجوعُ من الحقِّ إلى الخلقِ بالحقّ، وهذا هو الكمالُ الحقيقي. وتحت هذه الألفاظِ سرٌّ غامضٌ، يفهمه ويدريه من ذاقَه، أو أشرفَ على مذاقِه، من أهل الاستعداد الرباني، والله يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيلَ»، انتهى ما أجاب به السيدُ المذكورُ وعبّر.

فإن سيدي قد بلغَ الغاية القصْوَى من المقاماتِ العلية، والرتب السامية، كما هو مشاهدٌ من كلامِه وكلامِ غيره، وتقتضيه ذاته وعلاماته، فكم بعْدَ هذا الكلامِ، قد حازَ مقام، ونشرتْ له في رتبِ الوصول أعلام، بفضْل الملك العلام، وهو قطبُ زمانه، رضِيَ الله عنه، ونفعنا به آمين.

* * *

ورُؤيَ سيدنا الحسنُ رضِيَ الله عنه: كأنَّ قائلاً يقولُ له: «قل أنا قطبُ دائرة الوجودِ ورأسُ رقبته»، قال: «فكأني ثقُلَ عليَّ ذلك، ولم أقل. فبقي يلحّ عليَّ حتى قلتُه»، انتهى.

وسببُ إعلامِه لنا به: حضُور مجلسٍ معه، نحن وسيدنا الفاضل علوي ابن عبد الله العيدروس، فذكر غالبُ الحاضرينَ وقوعَ رؤيا له، فقال هو رضِيَ الله عنه: «رأيت رؤيا، لكن لا أصلَ لها»، أو نحو ذلك [/٨٧]. وسكتَ عنها، فطلبناه يخبرنا بها، فلم يفعل. فبقي سيدي علوي يلحّ على الطلب من سيدي يخبرنا، فلما ثقُلَتْ عليه أخبرنا، وقال: «الإنسانُ أدرَى بنفسِه، وهذه إلا رؤيا»، اعترافاً منه بالتقصير، وإلا فلا شكَّ في وقُوع هذا لمنْ له إلمامٌ، ورأى معاملاته على تكرر الليالي والأيام، انتهى.

* * *

ومن كراماته الخارقةِ، نفع الله به: أنه كان في (مكّة المشرفة)، في الشهر الحرامِ، بعد الحجّ، فوقعَ قحطٌ عظيم، وحضَر منْعَ الشريفِ من الخروج جميعَ الناس، وأدى بهم الجوعُ إلى الموت والمَرضِ. فمرَّ سيدي، نفع الله به، مع خروجه من مجلسِ الشريف الفاضل عُمر بن شيخ البار، إلى الحَرَمِ، على أناسٍ يئنّون من شدة الجوعِ، لعدم الغَيث، فحزنَ جدًّا، وكان ذلك اليومَ يومُ فتوحِ البيت العتيق. قال: «فلما دخلتُ البيتَ، وبي من الحزنِ ما يجلُّ عن الوصْفِ، فتوجهتُ بخالصِ الدعاء، فنازلني في باطني فرحٌ عظيمٌ، وسرُور جسيم، وغلبَ على ظاهري وباطني، حتى تحققتُ على وقوعِ الفَرَج في الحالِ، وأنشأتُ أبياتاً منها:

يــا أيهــا العبــدُ الــذليلْ　　اشْهَد إلهكَ لا تحيلْ [/٨٨]

وارْضَ بحكمِـه يـا رَذيـلْ　　فــإنّ ألطافــه قريــبْ

* * *

خَـلِّ التبـرُّمْ والـضّجرْ　　فإنّــه محــضُ الــضرَرْ

واشْــهدَ تـصَاريفَ العِبـرْ　　يبدُو لـك الـشأنُ العجيبْ

* * *

ذاك المحـــلُّ الأبــرَقُ　　فيــه الجمـالُ المطلَـقُ

قــومٌ إليــه قَــد رَقُــوا　　أهــلُ مـصَافاة الحبيــبْ

* * *

ذاك الهَنَـا كــلّ الهنَــا　　ذاك الغِنَـى كـلّ الغنَـى

ذاك المنَـى كــلّ المنَـى　　لا يــستَريبُ المـستريبْ

* * *

قد نزهت أسرارهم | وتبلجت أسرارهم
لما حصل إحضارهم | في حضرة الرب القريب

* * *

منه لا تخل عن شكره | واشرب بصافي ذكره
فالكل تحت قهره | يجزل أجورك والنصيب

* * *

لطائف الله أقبلت | بحل عقدي بشرت
يا سعد قلبي إن دعت | روحي إلى الحي الرحيب

* * *

جاءت بتفريج الكروب | أيضاً وتسهيل الصعوب
من بتكفير الذنوب | نسكن بمغناها الخصيب

قال: «ثم رجعتُ إلى عندِ السيد عمر، فظهر له ما رأى عليَّ من الأنسِ بالله والفرح، فقال: «أخبرني بما بدا لكَ، إن ظهر لك شيءٌ»، فأخبرتُه، فاستبشر جدًّا، وحصلت الرحمةُ بساعتها، لم أشعر [إلا [/ ٨٩] والناسُ يزدحمونَ على الماءِ النازلِ من ميزابِ الكَعْبة ووقعتْ رحمةٌ سابغة، عمّت جميع الجهات»، انتهى.

وهذه صفةُ العارفينَ بالله، يتلذذون مع البلاءِ بنظَرِ الله واطّلاعه، ويفرحون بها منَ الله، فيدعُونه مع ذلك التجلّي، فيفيضُ على قلوبهم أنوارَ المعارفِ، ويتحفهم بهباتِ اللطائف، نفع الله بهم.

* * *

وهذه عادة سيدي إذا دعَا بأمرٍ مهمٍّ مع شدة وحاجةٍ، يعرِفُ آثار الإجابة

من نفسه قبل الوقوع، وقد يخبر بذلك، كما يأتي كثيراً مما هنالك. منها: ما وقعَ له أيام إقامته في مدينة (شبام)، أنه وعظَ الناس يوماً بعد الصلواتِ على عادته، وهم في غاية القحطِ لعدم الغيثِ، فقال في آخر تذكيره: «وأما الرحمةُ فتخرُج إن شاء الله غداً، نستَسْقي وتقع الرحمة». فلما كان رجوعُه إلى البيتِ حصلَ معه من ذلك قبضٌ وحزنٌ، وقال: «جزمتُ لهم بوقوعِ الرحمة، وذلك شيء بيد الله، ما حملني على ذلك؟!».

وكأنه نوى تأخيرَ الخروج للزيارَة بنيةِ الاستسقاءِ، فلما جاء الغدُ، فإذا بالناسِ متأهبون [/ ٩٠] للخروجِ، قابضينَ على ما قاله، فأخبر بذلك فقال: «نخرُج على بركة الله»، فلما كان في أثناءِ الزيارة قال لبعض الخواصّ: «إن الله استجاب الدعاء بالرّجُل الصّالح سالم با صهي»، وكان حاضراً، في الجمعِ، فعمّم الله الجهةَ بالرحمة ببركته، نفع الله به.

* * *

ومنها: ما رأى، نفع الله به، وهو في (المدينة المشرَّفة) على مشرِّفها أفضل الصلاة والتسليم، أنه في جمعٍ عظيم من السّادة، وكأن رجلا مغربياً مقبلاً عليهم، عليه آثار النور والصلاح، وكأنه يريد أن يثني عليه، أي سيدي الحسن، قال: «فكأني أردتُ أن أشير عليه أن يسكُتَ، فلما وصل إلينا، قال بعضُ السادة الجالسين: دعْهُ يتكلم بما معه، فقال: إن الله يغِلّ الوهابي ويكسِرُه بالسيد حسنِ ابن صالح. وذلك مع ظهُور قوّتِه وسطوةِ دولته. فآل الأمرُ إلى ما ترى من اضمِحْلاله بالكليةِ، مع خروج الأمير من طرَفه إلى (حضرموت)، ناجي بن قملا، في عساكر كثيرة.

رأى سيدي ليلة تَصْبيحهم إلى نواحي (شبام)، أنّ حيةً قصيرةً سوداء، المسماة بالهام، يسير بين خلقٍ كثيرٍ، هو فيهم [/ ٩١]، نفع الله به، وكأنه يريدُ يلسع رجْلَ من ظَفِر به منهم، وهم يتداخلونَ في بعضهم بعضاً خوفاً منه، قال سيدي: «فكان بيَدي سيفٌ في غمدِه، وكأني ضربته به فقتلته». فأخبرني في الحال، فقلتُ له: «كأنّ ذلك يكون عليه الغلبةُ والقهر والطردُ، بسببِ باطنه، الدالّ عليه غمدُ السيفِ، وذلك بمحض الدعاءِ فصبّحُوا الصبح، ووقع الحربُ، ووقعَتِ عليهم الغلبةُ والنصر لأهل الجهةِ، ببركته، وآلَ بهم الأمرُ إلى ما اشتهر وظهَر من الدمار والفواتِ.

* * *

ومن كشُوفاته الخارقة: أنه أصبحَ يوماً صائماً، فجلستُ معه بعد طلوعِ الشمْس تحتَ بيته بـ(ذي أصبح)، ثم قال: «أريد أن أفطِر وأزورَ أخاً في الله، إما الأخ حسن الحداد، أو الأخ عبدالقادر بن محمد». ثم عزم إلى (الغرفة)، لزيارة سيدي عبدالقادر المذكور، فسارَ وبقيتُ جالساً مع أناسٍ، فأخذْنا قليلاً، إذْ رجع من أثناءِ الطريقِ، وقال: «خطر لي خاطرٌ بالرجوع». فجلسنا قليلاً، فإذا بسيدنا الإمامِ أحمدَ بن عُمر وصل من (شبام) إليه، لا قصْدَ [/ ٩٢] له إلا زيارته، والرجوع إلى (شبام)، فعرَفْنا أن رجُوعَه كشف منه، نفع الله به، آمين.

* * *

ومنها؛ قريباً من المتقدمة، وهي: أنه بعْد حضُوره دفنَ المعلم الفاضل عبدَ الله بالسُّعود، إمام جامع (خَلع راشد)، طلب من سيدنا أحمد بن عمر الخروج معَه إلى بيته بـ(ذي أصبح)، فقال سيدي أحمد: «يكون في حالٍ ثاني إن

شاء الله». فخرَجْنا، فلما سِرْنا قليلاً، قال: «لعلك ترجع وتشوف الحبيب أحمد، لعله همَّ على الخروجِ معنا».

فقلتُ له: «أما سمعته يعتذر، وقالَ: ساعةً أخرى؟». قال: «لكني أريدك ترجِع»، فرجعتُ فوجدتُ سيدي أحمد يتوضّأ في الجابية، فجلستُ تحته، حتى خرجَ، فلما رآني، قال: «عادك هنا؟. إنا عزَمْنا على الخروج إلى عند الحبيب حسن». فقلتُ له: «ردَّني من الطريقِ لذلك». فتعجّب! فعرفتُ أنه حين خطَر لسيدي أحمد خاطرٌ، قُدِحَ في قلب سيدي الحسن، لتعارُفِ أرواحهما، وائتلاف قلوبهما، وذلك كرامةٌ لهما جميعاً.

وكان سيدي الحسنُ قبلَ ذلكَ اليومِ فعلَ ضيافةً لسيدنا الإمام طاهر بن حسين [/ ٩٣]، فقال لنا: «أبقُوا شيئاً من اللحْمِ نيئاً»، فعجِبْنا إذ ليسَ من عادته الأمرُ بالإبقاءِ مع الضيافاتِ عنده بل يشقُّ عليه ذلك، فامتثلنا أمرَه، وأبقينا ما أمرَ به، فوقع إداماً لغداءِ مولانا أحمد، نفع الله بهما.

* * *

ومن خوارقِ عاداته: أنه مع خروجِنا من الحجّ، لما وافَيْنا غُبّة الصّفاريات، بين (المخَا) و(الحديدَة)، أقبل علينا الريحُ، حتى رجَعْنا إلى مرْسى، رسَينا به قريب (الحديدة)، فما لبثنا إذ جاء الرسولُ من والي (الحديدة)، يطلبُ دخول الدّو مع السّنجارِ الذي معنا إلى (الحديدة)، وذلك آخر النهار.

فتأهب أهلُ السّنجار، ونواخذُ الدّاوّ، والذي نحنُ فيه لم يمكنه الدخولُ، لخوفه، فلما سَار السّنجَار إلى (الحديدة)، جاء إليَّ النوخَذا ومعلّم الدّاو، وقالا: «نريدُ كرامةً من هذا السيد»، فقلتُ: «رُوحوا إليه، وألحوا عليه». فكلماه، وقالا

له: «إن حصلت كرامة شمال يبلغنا (المخا)، وإلا فلا سبيل غداً لوقوف هذه، بل نرجع بكم [/ ٩٤] إلى برّ عَجَم». فقالَ: «دعُوني أتوضأ وأركعْ ركعتين. وأدعو الله»، فقام وفعلَ ذلك، وأطالَ في الدعاءِ.

وقالَ: «استجاب الله؛ إني أعرفُ آثار الاستجابةِ، يحصل الفَرَجُ بكرةً إن شاء الله»، فلما أصبحنا إذْ بالريح الأزْيَب الذي علينا في قوّةٍ وزيادةٍ، فحزنوا جدًّا، وهو، نفع الله به، قابضٌ على الفَرَج، فلما أشرقَتِ الشمسُ، وبعضُ أهلِ الدّاو في سَنْبُوق مقبلون بحطَبٍ من البرّ، إذ هم يصيحونَ علينا: «دارَ الريحُ، دارَ الريح»، أنْ شِلّوا، فإذا بالريحِ شمالاً، فشَلّينا، فلما بلغنا مرْسَى (المخَا) انقبضَ الشمالُ، ورجعَ الأزْيَبُ، حتى أن الذي شَلّوا من (الحديدة) خلفَنا بذلك الريحِ، انقطعَ بهم قبل البلوغِ، ولم يصِلُوا إلا بعدَ مدّةٍ، وبتعَبٍ كثير، وذلك عظيم كراماته، وخوارق عاداته، نفعنا الله به، آمين.

* * *

ومنها: أنا لما كنا ببندر (المخَا)، مع طلوعنا للحجّ في هذه السفرَة، وصلت أخبارٌ إلى (المخَا) بشِعةٌ، من جانب الموهّب، ونحن بـ(سنجار)، نحْوُ ثلاثة عشر سفينةً، فلما تهيأنا للسّفر من (المخَا)، قالَ نفع الله به: «إني استوحشتُ من هذه السفرَة مع هذه الأخبارِ، [/ ٩٥] واستخرتُ التأخيرَ، وليس ذلك كشفاً مني على حالٍ يكونُ، من أرادَ منكم السفر فلا يضيع السّنْجَارَ، وإنما أنا أبقَى، تغلّبَ عندي خاطرُ ترْكِ السفَرِ.

فسار السنجارُ، وتخلفنا معَه. فلما كان نحوُ الستة والعشرينَ في القَعدة، بعد مسيرةِ السنجارِ بنحو ثمانية أيامٍ، وصل داو مزْرُوع، مسافرٌ إلى (جدّة).

فقالَ نفع الله به: «انشرحَ الخاطرُ الآن للسّفر». فقيل له: «ضاق الوقتُ». فقال: «لكنا نسيرُ على بركةِ الله فتحقق لديَّ حضُور الحجِّ، وأنّ التأخير لأمرٍ نسلَمُ منه، لما أعلمُه من حالِهِ، فسافرنا، وحصَل التيسيرُ، حتى وصلنا (جدّة) على نحوِ سبعة أيامٍ.

فلما أقبلنا؛ إذ السّنجارُ المتقدّمونَ علينا داخلونَ إليها!، فوقعَ دخولُنا معاً، فلما كنّا بالبرِّ سألناهم، فأخبرونا: بأنه خالفَ عليهم الريح وتأذَّوا جدًّا، حتى ردّهم إلى (برّعجَم)، وبعضهم تمزّق شراعُه، وكالفوا أذًى عظيماً، وكان دخولنا (مكّة) بكرةَ اليوم الثامنِ من ذي الحجة، فعُدَّ ذلك من أكبر الكراماتِ والكشوفاتِ له، نفع الله به.

* * *

ومنها: ما وقع له مرةً أخرَى، قريباً منها، وهو: أنه في سفرةٍ [/٩٦] قبلها إلى الحجّ في داوِ بعْضِ السادةِ، مع معارفَ مجلّينَ له ومحترمينَ غايةً، فلما كان في بندر (المخا)، وصل داوٍ للقَواسمة، مع إقبالهم على طريقَةِ الموهَّب، وبغضِهم للمسلمينَ، خصوصاً السادَة، فلما قرُبَ السفرُ، حصلَ معه انقباضٌ واهتمامٌ من السَّفر في الدّاو الذي هو فيه، وحصل معه انشراحٌ بالسّفر في داوِ القواسِمة، فكلما أخبر أحداً من السادة أو غيرهم عنَّفُوا عليه في ذلكَ، وقالوا له: «الناسُ خائفونَ منهم وأنت تترُكُ معارفَ معتقدينَ، وتتبعُ غرباءَ خُصوم!»، قالَ: «فبقي الانقباضُ يزيدُ عليَّ، وإذا نظرْتُ من البرِّ الداوَ الذي أنا فيه اهتممتُ، وأراه مسودًّا، وإذا نظرت إلى داوِ القواسمَة انشرحتُ».

فقدَّر الله أن وافقَ نُوخَذُ القواسمة، فتكلّم معه في الطلوعِ، فأنعَم له من

قبلِ أن يسمعَ أحدٌ من أصحابه، فبقي ساكناً مراعاةً لأصحابِه المعنفينَ عليه. خصوصاً فيه أخوه سقّاف، صحبه في السَّفر، فخرج يتنزّه هو وأخوهُ المذكور على الساحلِ، إذ بداوِ القواسِمة المذكورَة، عزم على سفرٍ قبلَهم، وإذا [/ ٩٧] بالشيخ حُسَين بن محمد إبريق على السَّاحل، معه زادُه، مسافرٌ معَهُم. فقال له: «يا سيدي أودُّ السفرَ في هذا الـدّاو»، فقالَ: «الفضلُ للـه ثم لكَ». قالَ له: «لكن زادنا هناك، إلا أنّ معي دراهم»، فقال له: «والزاد معي». فشَقَّ على أخيه سقاف، فقال له: «أشقَّ عليك ذلكَ؟ الزادُ هذا كله لَك، واركبْ مع أصحابنا، واتركني على انشراح خَاطري». فسارَ معهم.

قالَ: «فلما كُنا في السنبوقِ، حصلَ معي حزنٌ من تخلُّفِ سقافٍ أخي، كأنه لم يكنْ مسافراً خلفي، وسار معهم». ولم يشقَّ عليه حالٌ أبداً، بل صار كالّذي هو مَعهم أوّلاً بالزيادة، وبلغَ الحجَّ معهم، وقدّر الله الدَّاوَ الذي منع من السفر فيه، لم يبلغْ إلا بعد الحجِّ بزمانٍ، لعوائقَ عاقته في البحْر، ولم يقدَّر لأخيه حجُّ ذلك العام.

ومثلُ هذه وقائعُ له، نفع الله به، ولم يصرِّحْ بذلك اتهاماً لنفسِه، وطلباً للخمُول، وردّ الأمرْ إلى مقدرةٍ، وغيرِ ذلكَ، مما لا تصِله أفهامُنا، نفع الله به الوجُودَ، ولا زال منهالاً مورود، وكفاً مقصود، وغوثاً للوجود، آمين.

* * *

ومنها: أنه في بعضِ سفراته إلى الحجِّ، أيضاً، سافرَ في بعض السفُنِ مع أناسٍ لم [/ ٩٨] يعطوهُ بعضاً من الأدبِ والامتثالِ، فلما كانوا نواحي (مَرْسَى إبراهيم)، سُرِقَتْ الدراهمُ التي معَه لزاده ونفقته، نحْوُ خمسة عشر قرشاً، جعلها

طوى عليها ثيابه تحت هنذولِه، فلما فقدَها، أخبر رئيس الدَّاو، فأخذ يلومُه، وقال: «ما بايسرقها، إنما أنتَ مضيعٌ». ووجهوا باللَّومِ عليه غالبُ الذي في المركبِ. فقال لهم: «لم أخبركمْ أريدُ شيئاً منكم، وأنا غنيٌّ بالله». فبقُوا على ما هم عليه من التشنيعِ عليه، فأخذَتْهُ العزَّةُ بالله، والاكتفاءُ بتدبيرِهِ، حتى قال لهم: «أخرِجُوني في هذا البرّ، ولا عليكُم منّي».

وشدَّدَ عليهم في ذلكَ، فكأنهم أولاً أبوا، لكون البرّ ليس محلاً عامراً، ما به أحدٌ، وبعدُ شقَّ عليهم إلحاحُه، ومرادَّتُه لهم، حلَّ في قلوبهم البغضُ له، والعياذُ بالله، فقالَ بعضُ شياطينهم: «أخرجوه». فأخرَجُوه، وتركوه وحْدَه، ومضَوا.

قالَ نفع الله به: «فلما صرتُ إلى البرِّ وحدِي، حصل معي فرحٌ وأنسٌ بالله، إذ صرتُ وحْدِي في أرضٍ خاليةٍ، لا زادَ ولا راحلة، فاستَرَحْتُ بالخلوة مع الله، ورحت أسيرُ بجانبِ جبلٍ، فلما سرتُ برهةً، إذ أنا راجعٌ إلى جانبِ ساحل البحْر، فإذا بداوٍ [/٩٩]، ويخرجون منه أهله أفواجاً في الزَّورقِ إلى السَّاحلِ، فأخذتُ نحوَه، فإذا بواحدٍ منهم يتلقَّاني، فإذا هو من السَّادة أهل (تريم)، فلما عرَفني، تعجَّبَ، وقال: من أين؟ فقلتُ له: «خرجْتُ من داوٍ هنا مسافر». فقالَ: «نحنُ خرَجْنا نريدُ نسير إلى (مكة)، وأنتَ رَديفي على الرّاحلة، وصَاحبي في السفر، وهنا خلفي جمعٌ من السَّادة خارجينَ من السفينةِ، فيهم الحبيبُ طاهر بن حسينٍ، وأخوه عبدُ الله، ربما يبلغُوني ويأخذوكَ معَهم في خُبْرتهم، تحمّل لي أن لا توافقَ أحداً غيري». فقلتُ له: «أما أنا فما خرجتُ إلا وأنا ضيفُ الله، أينَ أرادني وقعْتُ». وقدّر الله أن كنتُ مع السيدِ المذكورِ في الركُوبِ والمؤَن، والسفَر مع السادة وأصحابِهم الجميعُ في أنسٍ وسرُور.

فلما وصلَ، نفع الله به، معهم مكة المشرفة وجد السيد أحمد بن جعفر الجفري السيوني فقال له: معي لكَ إرسالٌ من (جاوة)، من أحدٍ يعرِفُ أباكَ أيام إقامته بجِهة (جاوة)، فإذا بالإرسالِ أكثرُ مما فاتَ عليه في المركب، ولم يعتدْ قبلَ [/ ١٠٠] ذلك شيئاً من تلك الجهَة، ولا لحقَ له بعد ذلك له منها شيءٌ، فسبحان اللطيفِ بأوليائه، المتَوليهم بحُسْن ولائه.

* * *

ومنها: أنه مع خرُوجِه في بعضِ أسْفاره للحجّ مرةً، مع ظهور اسير[1] بأتباع الوهابي، ونهبهم الناسَ، وقتلهم، ولا يمرُّ أحدُهم على بلَدهم (الخسعة)، إلا مع سنجارٍ قوي، أو بليلٍ في الغُبة، لكونهم متأهّبين بداواتٍ لنهْب المسلمينَ وقتلهم، فقدر الله أن وقعَ سفرُه نفع الله به مع أناسٍ في داوٍ لم يكن به معلّمٌ ماهر، ومرادهُم حين قاربوا تجاهَ البلدة المذكور المذكورَة يمرُّوا في الغُبة بليلٍ، فلم يشعروا إلا وقَدْهُم فوق بلدهم (الخسعة) عند الداواتِ التي ينهبوا بها، فحارُوا وفزِعوا، إن سافروا ما يمكن في ذلك البحر القريب البرِّ سفرُ الليلِ لكثرة جباله، وإن بقُوا فاتَوا حالاً ومالاً، منهم مَن هُم على العوم إلى البرّ، ويبعد عنهم، ويشرُد بالليل، والأكثر أخذتهم الحيرَة.

فقال لهم سيدي: «شلوا الشّراعَ، ورُدّونا إلى البحر». فقالوا: «نفوتُ ولا نستهدي أحَد بالليل». فقال: «الملائكة تقوده!». فامتثلوا أمره منهم [/ ١٠١] اعتقاداً، منهم من هو مستقربُ الهلاك، لكن عنده هلاكُ البحْر أهوَنُ من قتل

---

(١) كتب في الهامش: (عسير)!.

أولئكَ، فشَلّوا الشراعَ، ورجعوا إلى البحْرِ، فسلمهم الله وحفظهم، ولم يصْبِحُوا إلا بعيداً من ذلك المحل جدًّا، ببركته نفع الله.

* * *

ومنها: أن بعْضَ الـجند من المجاورينَ له، قلَّ الأدبَ، واستجرأ جدًّا بضرب امرأةٍ مسكينةٍ تحتَ بيت سيدي، وهي من جيرانه أيضاً، فاغتاظَ سيدي، لأنه بلغَ من ضرب المرأة أن قاربَت الفواتَ. فقال له بعضُ الحاضرينَ: «أرسل إلى فلانٍ»، يشير إلى بعضِ الجندِ ممن له مقدرةٌ على الضارِب للمرأة، فقالَ: «بل أرسلُ إلى الله». وراضَ، لأنه قد همَّ على النُّقْلة من بلده لأجلِ ذلكَ، ثم ذهب في الحال إلى المسجدِ، وركعَ ركعتينِ، وابتهل بعدَهما إلى الله. قال لي بعد ذلك: «إني رأيتُ الرجل سقطَ ميتاً بين يديَّ».

ثم سار بعد ذلكَ إلى بيت الرّجل المنوّر سعيد دقيل، بعْضُ المعتقدين فيه، فجلسوا يطبخونَ قهوةً، فلما لبثوا قليلاً إذ سمعُوا ضربةَ بندُقٍ [/١٠٢]، فقال سيدي: «قُضِيت الحاجة». ثم زاد الصّياحُ، فخرجوا فإذا به قَد قُتلَ، تلاقى هو وجنديٌّ آخرُ، فطعَن أولاً الجنديَّ الآخر فقتله، فرآه عبدٌ معه، ذلكَ المقتولِ، فضربه بالبنْدُق، ومات في الحالِ.

والواقعة كلها في نحو ساعتين. وقوله لما سمع البندق: «قُضِيت الحاجة». قال: «لأني لما كنتُ أركعُ في المسجدِ، رأيتُه سقط....[1] العجب، واعرف المطلبَ، لعل تقضَى بك الهمة، نحو ما هو لذلك سبب، وهو الدوب على مراضي الربّ، وأشباهُ هذه قد شاهدتُه بمجامعَ كثيرةٍ من الظلمةِ.

* * *

---

(١) بياض بقدر كلمة.

ومنها: أن بعض الجند جارَ وظلمَ على بعض المساكين، في طلب مالٍ منه، وهو منسوبٌ إليه، أي الجندي، فطلبَ المسكينُ الشفاعةَ من سيدي، فأرسل سيدي إلى الجنديِّ مع كونه لا معرفةَ له به، لكن لا يمنع الشفاعةَ عند من كانَ.

وأجابه الجنديُّ بثلاثةِ شرائطَ:

الأولى: أن لي زوجةً مريضةً يشفيها الله.

والثاني: أنه طالتْ مدّتها ولم تحمل، أريدُها تحمل بولد ذكرٍ!.

والثالثة: أن لي ولداً بجهة (جاوة)، له سنين [١٠٣/] ولم يأتِ منه كتابٌ ولا إرسالٌ. أريد يأتيني منه كتاب وإرسالٌ. إذا حصلَ ذلك رفعتُ الصّدر من المسكين بالكلّيةِ. فأجابه سيدي: «بأن الأمر كله يحصُل، وأنت ارفَع الصدر من المسكينِ. وأنا متحملٌ ذلكَ»، فوقع كل ذلك، بأن شفيت زوجتُه، وأتت بولدٍ ذكرٍ. ولم تمضِ أشهرٌ قليلةٌ حتى وصلَ الكتابُ والإرسالُ من ولده، فلم تمضِ السنة إلا بوقوعِ ذلك كله، نفع الله به.

* * *

ومنها: أنه مرةً في البحْر في بعضِ أسفارِه، ومن عادته وسجيته أنه يكرَهُ أن يأكلَ من غير زاده في السفَر، ويتكفُ من الأكل من عند الناسِ، خصوصاً النواخيذ وأهل الدنيا، فكلفُوا عليه يوماً أن يأكُلَ معهم، وناخُوذ المركب وبعض التجار المسافرينَ، فوافقهم على البديهة، عادته في سلاسة القيادِ، فلما قرَّبوا العيشَ وابتدءوا في الأكلِ، ثقُلَ عليه ذلك غايةً، إذ سقط على رأسِه رغيفُ خبزٍ، فابتدروا يتسابقونَ عليه حتى أخذُوه بينهم قليلاً قليلاً، لعلمهم أنه [١٠٤/] من جانب الخارقة.

* * *

ومن كشوفاته الخارقة: ما أخبرني به السيدُ الأفضلُ، العلم الأنبلُ، شيخ ابن طه بن شيخ الصافي، قال: «كنتُ ليلةً عند سيدي الحسن، فذاكرني، نفع الله به، بما يحير العقولَ، ثم سكتَ، فرُحْت أفكِّر في مصنوعات الله وهو ساكتٌ، فالتفتَ إليَّ، وضربَ بيده عليَّ، وهو يضحكُ، وأنشدني ارتجالاً لما كشَف عليَّ ما أنا فيه من الفكرِ، بقوله:

يا شَيخ غيِّبْ فؤادكَ عن جميعِ الوجُودْ ... وقُمْ بقلبٍ عميدٍ غارقاً في الشّهودْ

فهاهنا هامَتِ الأرواح لأهلِ الورُودْ ... واستجمَعوا بعْد تفريقِ الهمَم والقصُودْ

وخلّوا الكَون وأهله إذ رأوهُم قيودْ ... حَظوا بحضْرة عظيمِ الشأن نعْمَ الوفودْ

سقاهمُ من رحيقِ القرْب مولًى ودُودْ ... واسعفْهمُ بالذي يهوون يومَ الخلودْ

في نعمةِ الوصْل دائمْ ما يرَون الصدُودْ ... حماهمُ الله وأبقَاهم لنَا في الوجودْ

حتى تنوَّر المسالك والمواهب تعُودْ ... ويرغَم إبليس وأتباعُه وكلّ حَسُودْ

وتعتمِر بالهدَى مع اجتنابِ الحدُودْ ... بأذن ظهُور الذي من نسلِ سَاكن زرودْ

* * *

ومن كراماته، نفع الله به: أنه يوماً وفد عليه أهلُ السماعِ إلى بيته، وأخذوا في السماعِ، ومن عاداته، نفعَ الله به، لا يترك التبخير بالعُود مع السَّماع، ويعوِّلُ عليه جدًّا، فلما أخَذُوا في السماع لم يجد شيئاً من العودِ، أي الدخُون المشهور، فتَش في جيبه ولم يجدْ شيئاً، فحصلَ معه من ذلك قبضٌ واهتمامٌ واشتغالٌ، إذ سقط من السقْفِ فوقَه قِرطاسٌ مملوءٌ من الدخون، العود الطيِّب، فظهر عليه

سرورٌ وفرح بذلكَ، أي استدلَّ به على عناية الله به، في إزالة ما يهمّه، حتى من الأمور السهلة، فما بالك بغيرها، والله يتولى الصالحينَ، والله أعلم(١).

* * *

ومن كلامه في التفسير:

على قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ [العصر: ٣].

قال نفع الله به: «فالحق جامعٌ لجميعِ ما جاء عن الله من الأوامر المقرِّبة إليه، ومن وظائف العبادات البدنية، وهي متسعةُ الأوصاف، متباعدةُ الأكناف، وهي أجسامٌ، وإنما أرواحها وجودُ الإخلاص فيها، فمتى وجدَتْ أرواحُها طارت إلىٰ حضرة الحق، وآبتْ إلىٰ سرٍّ مهديها بتجليات الأنوار، وغرائب العلوم والأسرار، وأنهضت همته إلىٰ حلبة السباق، فلا يزالُ يتحرى الإخلاص، إلىٰ أن ينيخَ به جوادُ همته في حضرة التلاق، فحينئذ تحصل له الطمأنينة والوفاق، ويزولُ عنه التلوينُ والاضطراب، ويصْفو له الشراب، ويسمع الخطاب، ويتلذَّذ بالعتاب، ويفنَى عن نفسه وعن جميع مراداته والآراب، فيأتيه نداء رفيع الجناب: ارجعْ بنا إلىٰ تلك المعالم، فقد رفعنا عنك الحجاب، فتنعَّم بنا في داخل [١٠٨/أ] الفؤاد، وادخل في غبراء سائر العباد.

فحينئذ تتأصل في القلب شجَرة اليقين، تسقَى من عين الحياة بأربعة أنهار: نهر الزهد، ونهر الصبر، ونهر الخوف، ونهر الرجاء، ثم تطلع تلك الشجر أربع ثمرٍ، من كل نهر ثمرةٌ. فنهر الزهد: يطلعُ ثمرةَ التوكل. ونهر الصبر: يُطلع

---

(١) إلىٰ هنا ينتهي نص النسختين الأولى، والرابعة، والزيادة التالية من نسخة الأحقاف (الثانية).

ثمرةَ الرضا. ونهر الخوف: يطلعُ ثمرة الجلال. ونهر الرجاء: يطلع ثمرة المحبة. وإذا نضجت تلك الثمار عُصِرت في حانةِ القلب، في أربع كأساتٍ.

من الرضا: كأسُ الأنس والاستبشار وإجمال الطلب. ومن الجلال: الهيبةُ والخمود تحت سلطان الرهَب، ولزوم بُدِّ الأدب. ومن المحبة: الاشتياقُ والاحتراق بنيران الهجْر والفراق. ومن التوكّلِ: الالتذاذُ بإرسال النظر إلىٰ الرحيم الخلاق.

ثم يُبْنَى من تلك الشجرة وأثمارها سورُ التمكين، فلا يبينُ منها شيء إلا لربِّ العالمين. وبهذه الشجرة وأنهارها وأثمارها قامَتْ العوالم أجمعين.

* * *

ومنه على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢]؛ قال أمتع الله به:

«ما أعلاه من مفخر، وما أربحَه من متْجَر، فمن تذكّر ذهاب أجله، سارع في اغتنام عمله، وهربَ من وجود زلَلِـه، ومن تذكر أن هذه الدنيا ليست له بدار، أعرض عنها استحقاراً لها، واستصغار. ومن تذكر أن الآخرةَ هي دار القرار، بادرَ بالاستعداد لها مع وجود الفرح والاستبشار. ومن تذكّر يوم الحسابِ، خاف من سوء المنقلب والمآب. ومن تذكر دار الجحيم، أقلع عن كل خلق ذميم. ومن تذكر أن مولاه يراه، اشتد منه حياه، وسارع إلىٰ ما يحبه ويرضاه، ولم يلتفت إلىٰ غيره شغلا به عمن سواه، وراقبه في سره ونجواه، وآثره على مراده وهواه، فجعل رسيسَ المراقبةِ على قلبه، فلم يزل يقطع عقبات النفسِ في قُربِه، ويحل عنه كلَّ نسبِ غيرِ نسبِه، ويبطِلُ كل سبب غير سببه، ويحرقُ بنار وجْدِه علاقةَ كل محبوبٍ يشغله عن حِبّه.

فحينئذ يكمُل تعلقه بمولاه، ويذكره ولا ينساه، ويصرف في مراضيه أوقاته وساعاته بل حركاته وسكناته، بل لحظاته وخطراته، وينسى ما ترك لأجله من مألوفاته. فلا جرم حينئذ تظهر عليه شواهد الإحسان، وتلوحُ على صفحات وجهه دلائلُ الرحمة والرضوان، وتتلاطم في سره أبحرُ المعرفة والإيقان، وتغوص فيه لطائف سرّه، فتطلع جواهرُ يأبى أن يبيعها بنفائسِ عرائس الأكوان، ثم تتحملها سفينةُ لطيفةِ [/ ١١٠] النفسِ في سوق ترجُمان اللسان، فتتلقاها سَماسرة القلوبِ المطهّرة من الأرجاس والأدران، فيا له من شأن أي شأن، ومزية يخضع لها كل عال ودان.

فتعطَى من أول عطاءِ سُكّان الجنان، وهو بإذن الله قول (كن) فكان، فهذا من معنى قوله ﷺ: «**لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل**»، الخ. وهو أن يغلُبَ الوصفُ على الوصف، أعني: يغلب الوصفُ الباقي في العمَل الباقي. ولنقبضِ العنانَ في هذا الميدان، فإنه من السرِّ المصون، والعلم المكنون.

فما أعظم غفلة المعرض عن هذا الشّأن العظيم، مع وجود القابليّة، المشغول بغرض زائل عن تلك المزايا القدسية، القانع بالحضِيض الأسفل الأسفل، في مرتبة البهيمية والشيطانية، ولم يطلب الحضائر العندية، والملة الإبراهيمية، والهداية المحمدية، ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، بترك الطاعات سَفِه نفسه، وبوجود الغفلات سفِهَ نفسَه، بإضاعة [/ ١١١] نفائس الأوقات في الترّاهات سفِهَ نفسه، بتضييع الأنفاس التي تدرك بها الدرجات سفِه نفسَه، بعدم تطلعه لقرب رب الأرضين والسماوات سفِه نفسَه، بإتعابها في طلب ما ضُمِن لها وتركِها ما طُلِب منها وأنزلَ بها الآيات البينات»، انتهى.

وكل كلامه نفع الله به على الآيات والأحاديث على هذا المنحى، وأغور منه كثير، وفي وصاياه وإجازاته ما لا يحصى، ولا يمكن جمعه في هذه الكراريس لسعته وتدوينه، ومقصودنا الآن الإشارة إلىٰ ما يدل جاهله على علو مقامه، كما هو عادة كتب المناقب.

* * *

ونأتي الآن من كل شيء بما يدل الواقف على ما هناك، وإن كان حالُه أعزَّ من أن يثقب الواصف جدارَه، أو يسطِّر أخبارَه، بل ما يطيقُ بحواشيه لعزّة ما حازه، وكم فيه كما قال لي سيدي الصفي الصوفي عمر بن زين الحبشي، لـمـا وقف على بعض ما ذكرت في وصف مقام سيدي الحسن: «مليحٌ ما ذكرتَ وسطرتَ، وإن كان ذلك [/ ١١٢] دورانٌ على الحواشي، بالنسبة لعلوِّ مقام سيدنا»، أو نحو ذلك.

* * *

وقال في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]. قال: أي مواقع القضاء والقدر. يعني: من إحياءٍ وإماتة، وإعزاز وإذلالٍ، وإغناء وإفقارٍ، وإمراضٍ وإصحاحٍ، وغيرها، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦][/ ١١٣][١].

[تـمت المناقب]

---

(١) إلىٰ هنا تنتهي الزيادة التي في النسخة الثانية.

تذييلٌ
على مناقب الإمام البحر

ولما كان مقصود هذا المجموع إيرادُ كل ما له تعلق بحياة السيد الإمام، وأخباره وتراجمه التي وردت عند المؤرخين والكتاب وأرباب الأقلام، وما قيل فيه من مدائح في حياته، وما رثي به بعد مماته، من قصائد لمحبيه وتلاميذه ومعاصريه، مما يدل على مكانته ومنزلته الكريمة بين أهل عصره.

واشتمل هذا التذييل على الآتي:

(١) ترجمته من كتاب «عقد اليواقيت الجوهرية» بقلم تلميذه العلامة الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي (ت ١٣١٤هـ).

(٢) ترجمته من كتاب «إدام القوت»، لمفتي حضرموت السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف (ت ١٣٧٥هـ).

(٣) ترجمته من كتاب «تاريخ الشعراء الحضرميين»، للسيد الأديب المؤرخ عبد الله بن محمد السقاف (ت ١٣٨٧هـ).

(٤) ثم تأتي المراثي والمدائح، نقلاً عن ديواني تلميذيه: الشيخ أحمد بن عمر باذيب (ت ١٢٦٨هـ)، والحبيب محسن بن علوي السقاف (ت ١٢٩١هـ)، وغيرها.

* * *

الترجمة الأولى

من كتاب «عقد اليواقيت»
للعلامة الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي

قال العلامة الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، رحمه الله تعالى[1]:

«الشيخ الخامسُ: الإمام الحسن بن صالح البحر

سيدنا القطب، الغوث الفرد، الجامع لأسرار الصديقية، الناشر لواء الدعوة التامة لكافة البرية، الحسن بن صالح بن عيدروس البحر الجفري، رضِيَ الله عنه.

أخذتُ عنه أخذاً تاماً وقرأت عليه، وأجازني إجازاتٍ متعددةً على سبيل العموم، في جميع العلوم، تفسراً وحديثاً وفقهاً وغيرها، وأجازني بالخصوص في وصاياه ومكاتباته، وكتب لي إجازة ووصية سيأتي نقلها.

[شيوخه]:

وقد أخذ عن أشياخ عظام، وأئمة كرام، أجلهم: شيخ مشايخ الأشراف، الحبيب بالعارف بالله عمر بن سقاف، وأخوه الإمام علوي سقاف، والحبيب شيخ بن محمد الجفري، والحبيب عبد الرحمٰن بن علوي (مولى البُطَيحا)، والحبيب

(١) في كتابه «عقد اليواقيت الجوهرية»: ١/ ٤٩٤.

عمر بن عبد الرحمٰن البار (صاحب جَلاجل)، والحبيب عبد الرحمٰن بن حامد ابن عمر، والحبيب عمر بن أحمد بن حسن الحداد، والحبيب سقاف بن محمد الجفري، والحبيب عبد الرحمٰن بن سميط، والسيد أحمد بن علي البحر اليمني، وغيرهم.

وهذا صورة ما كتبه إجازةً، رضِيَ الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله جامعِ الظواهر والسرائر، وعلى ما يحبه ويرضاه الأول والآخر، حتى ترفع عنها الستائر، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار البصائر، وتقبل بكليتها على من هُو الباطن الظاهر، لترتقي بعين عنايته ورعايته إلى تلك الحظائر، ولم تزل تعتلي بعمارة ظواهرها وسرائرها، بها تشاهده تلك النواظر، وتتجلى وراء ما هو آفلٌ وغابر، حتى تشاهد الجمالَ المطلق بقيومية مَن هو فوق عباده قاهر، حتى يأتيها النداء: إن هذا جمالٌ لا أولَ له ولا آخر، فارجعي إلى تلك المشاهد والمشاعر، وادخلي جنة العرفان في حضرة الملك القادر، راضية مرضية، واجتني من ثمرة العرفان التي تحيى بها الظواهر والسرائر، قائمة بوظيفة العبودية، شاهدة بمشاهد جمالِ الحي القيوم في مقتضيات الأوائل والأواخر، وذلك وظيفة من تخلى عن الكبائر والصغائر، وتحلى بالأخلاق الحميدة التي من سلكها، بعون الله، بكل المطلوب والمرغوب ظافر، صبوراً على البلاءِ للنعماء شاكر، لهِجاً بذكر الحي القيوم سامعاً له وإلى رحمته وقدرته في عالم الخلق والأمر سَامعاً صاغياً وناظر.

فمن هاهنا تنكشفُ عن السالك الحجبُ السواتر، ويرى النور المطلق

الذي أبرز به الكائنات وأخرجها من العدم في ظلمات الدياجر، معرضاً عما يفنى مجتهداً فيما يبقى من أرباح تلك المتاجر، فلا يزال على المعاملات المرضية مثابر، داعياً إليها بالرحمن والشفقة للعباد آمر، متجنباً للمناهي لكل من تلبس بها ناهٍ وزاجر، وهذا الذي أنزلتْ به الكتبُ بالنذارة والبشائر، سالكاً سبيل سيد الأوائل متبوعه الذي هو أول الأنبياء بَداءةً وهو لهم الختامُ الآخر، كما أمره مولاه بالاقتداء بهم وأدبه بأحسن التأديب، بما عرفهم به من أحواله لما هو لهم به شاكر، وأحسن تعريفه وتأديبه الحكيم القادر، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطاهر، وصحبه أئمة الهدى وأنجمه الزواهر، وعلى من تبعه بإحسان من كل منيبٍ إلى ربه صابر وشاكر.

أما بعدُ؛

طلب مني الوصية ذو الفطرة الطيبة والنفس الزكية عيدروس بن عمر ابن عيدروس الحبشي علوي، بلغه الله الآمال، وحلى ظواهره وسرائره بصالح الأعمال، فأسعفته بذلك، وغن كنت قاصر الباع عن تلك المسالك عسى أن نكون من المؤمنين الذين استثناهم الملك الحق المبين، من جسن الإنسان الذين وسمهم الله سبحانه بالخاسرين، بقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فالوصية لي ولك: بالتزام ذكر الله في كل حال، والعكوف على طاعته بالغَدايا والآصال، ومجانبة أهل الغفلة المشغولين بالمحال، المفتونين بدار الزوال. قال تعالى لنبيه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾. والذكرُ على مراتب شتى، كلها جامعةٌ للخيرات، رافعة للدرجات، مبشرة بطلوع السعادات.

ومما يشيرون به لحصُول الفتح: ذكرُ المعية والحضور والقرب، بقولك: (الله معي، الله حاضري، الله قريبٌ مني). وبملازمة هذا الذكر إن شاء الله يشرق في القلب نور الاقتراب، فيثمر له الحياءَ من الكريم الوهاب، فينفي عنه رؤية الأغيار والأسباب، وربما ينقله هذا الذكر إلى ما هو أدنى من شهود واجب الوجود، فينفي رؤية المجاز من كل موجود، ثم يبقى به في حضرة القرب في السابق الأول في علة وجود مظهر المبتدى والمحدود، ثم يرى الحاضرين في حضرة الرب عند الإله المعبود، مذعنين لمولاهم بالخضوع والركوع والسجود، بعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين بإذن الله الرحيم الودود، فيرى الكائنات: الجزئيات والكليات خاضعة بالإذعان له بالتسبيح والسجود.

وربما يوصله إلى الحضرة المحمدية، فيراه منتصباً في محراب الحضرة الذاتية، ويرى خلفه المصلين من النبيين والمرسلين وسائر الأولياء المكرمين، ويرى امتدادهم من الحضرة المحمدية، ويرى سرايتها إليه من ذواتهم وفيضانها منهم إلى العوالم الحسية والمعنوية، فلا يزغ منه البصر، ولا يطغى بما ظهر، ويلزم بدَّ عبوديته اللازم، وفقرَه الدائم، إلى من هو على كل نفس قائم، فيلزم اتباع الرسول الأمين دائماً على ذلك ملازم، إن قرَّبُوه شكر، وإن بعّدُوه خضع وخشع واستغفر، فيبقى معه وعنده فيما يفيضُ عليه في البواطنِ والظواهر، فعند ذلك ينتظر الإذن بأن يرجعَه إلى الخلقِ بالدعوة المحمدية مبشراً ونادر، ويقعده في مقعد الصدق حاضراً مع مولاه في ظواهره والسرائر»، انتهى.

[مقروءاته عليه]:

ثم إنّ مما قرأته على سيدي الحسن رحمه الله: من فاتحة «البخاري» أبواباً،

وأول «تيسير الوصول» إلى (باب بر الأولاد والأقارب)، وكتاب «رسالة المعاونة» لسيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد، بتمامه. وكتاب «معارج الهداية» لسيدنا الشيخ علي بن أبي بكر السكران، وكتاب «الجذبات الشوقية إلى المقاعد الصديقية» لسيدنا الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي، وكتاب «الرسالة» للشيخ عبد الكريم القشيري، وكتاب «الرحيق المختوم من علم القَوم» للشيخ عمر بن محمد السهروردي. وقرأت عليه: «شرح الحكم العطائية» لابن عباد. وقرأت عليه: أيضاً (البابَ السادس) من كتاب «غاية القصد والمراد من مناقب الشيخ عبد الله الحداد» و(الباب الثامن) من كتاب «قرة العين بذكر مناقب الحبيب أحمد بن زين»، كلاهما لسيدنا الحبيب محمد بن زين بن سميط، وقرأت عليه «شرح منظومة الشيخ عمر بن عبد الله مخرمة: لطائفُ الله أقبلَتْ» لشيخنا الإمام عبد الله بن أحمد، وقرأت عليه في كتاب «الفيوضات الحسنى من مشاهد الحبيب الأسنى» للشيخ حسين بن عبد الشكور المدني إلى قوله: (وجُدْ باللقا في كل حينٍ وحالةٍ)، وغير ذلك كثيراً، وسمعتُ عليه شيئاً لا يحصى.

وكان رضِيَ الله عنه قد ألبسني الخرقة ليلة الاثنين ثاني ربيع الأول من سنة ١٢٥٢ اثنين وخمسين ومائتين وألف، وأعطاني قلنسوته.

ولما كان ليلةُ الثلاثاء وستٌّ وعشرين خلت من شهر شعبان سنة ١٢٥٢هـ سبع وخمسين ومائتين وألف، لقنني الذكر بهذه الصيغة: (لا إله إلا الله، لا معبود إلا الله، لا مشهود إلا الله). وألزمني باستحضار معنى هذه الكلمات وأجازني بالمداومة على هذا الذكر بالخصوص.

وألبسَني الخرقة مرة ثانية في يوم الجمعة وستة عشر جماد الآخر سنة

١٢٦٠هـ ستين ومائتين وألف، بعد أن طلبت منه فألبسني بقلنسوته ثلاث مرات، وكلما وضعها على رأسي دعا لي بقوله: ألبسَكَ الله من حقائق الإيمان والإحسان والإيقان، وأشهدَكَ من شهود العيان. وسألني في ذلك المجلس عن مجلسنا بالروحة: في أي مكانٍ تجعلونه؟ فقلت له: كنا أولاً نجلس في مسجد باعلوي، والآن نجلس في محل هيأناه، فقال: أحسنتم، وهل شيء كتاب يقرأ فيه؟ فأخبرته بما يقرأ فيه من الكتب منها كتاب «الحديقة» لبحرق، فاستحسن ذلك وأقرنا عليه، وقال: انوُوا التعلم والتعليم.

وفي يوم الثلاثاء وخمسة عشر القعدة الحرام سنة ١٢٦٠هـ ستين ومائتين وألف، قرأت عليه خطبة (كتاب رياضة النفس) من «الإحياء»، وأخبرته بوقوع الإجازة لي من سيدنا وشيخنا القطب أحمد بن عمر بن سميط في كتب وطرائق وأوراد ثلاثٍ من الأئمة وهم: الغزالي والشعراوي وسيدنا الحبيب عبدالله الحداد، وطلبت منه الإجازة في ذلك، وخصوصاً في مطالعة كتاب «الإحياء»، فقال: قد «الإحياء» حياة، فأجازني في ذلك والحمد لله.

ويوم الاثنين وعشرين شهر المحرم عاشور سنة ١٢٦١هـ واحدة وستين ومائتين وألف، أمرني بترتيب سورة الواقعة كل ليلة، وقال لي: إني أرتبها في الغالب في سنة العشاء القبلية. ومرةً سألتُه أن يرتِّبَ لي حزْباً من القرآن أداوم عليه كل يوم، فقال: اقرأ الذي يتيسر أولاً ثم داوم عليه، ويكون في صلاة بعد الزوال لفعله صلى الله عليه وآله وسلم أو الصبح حسب التيسير.

وفي يوم الخميس وأربع شهر رمضان المعظم سنة ١٢٦٢هـ اثنين وستين ومائتين وألف، أطلعته على أبيات قلتها متوسلاً به وممتدحاً له بها أولها:

سألت إله العرش يقبل توبتي

وطلبت منه أن يقول: أنتَ منا وفينا صلةٌ متصلة في الدنيا والآخرة، فقال: إن كانَ هناك شيء فنحن مشتركون فيه، ولقنني الذكر بكيفيته المار ذكرها وقال: لا بأس تقدم لا موجودَ، ولا مشهود. وأملى علي هذا الدعاء النبوي: «اللهم إني أسالك ثواب الشاكرين، ونزل المقربين، ومراقبة النبيين، ويقين الصديقين، وذلة المتقين، وإخبات الموقنين، حتى تتوفاني على ذلك يا أرحم الراحمين».

ويوم الثلاثاء، لعله عشرين شهر صفر الخير سنة ١٢٦٢هـ اثنين وستين ومائتين وألف، أملى علي دعاءه هذا وهو: «اللهم اجمع همومي عليك، واجعل جميع توجهاتي إليك، وأسعِدْني بالقربِ والزلفى لديك، واجعل شغلي بجوامع وكوامل محابّك ومراضيك، واحرسْ ظواهري وسرائري بثباتِ التوكل عليك، حتى أكون بك منك إليك، دائم الوقوف بصفة العبودية بين يديك»، انتهى.

ويوم السبت، ستة عشر ربيع الأول سنة ١٢٦٢هـ اثنين وستين ومائتين وألف، ألبسني الخرقة كوفية ابتداءً منه وقال لي: أجزتك في حزوبك وأورادك والدعوة إلى الله، وفي التفسير والحديث والفقه وغيرها.وأجازني أيضاً في المكاتبات والوصايا له، نفع الله به ورضي عنه. انتهى.

وفي ويوم السبت، ثمان وعشرين من صفر سنة ١٢٦٣هـ ثلاثٍ وستين ومائتين وألف؛ كتبت إليه ألتمس منه الإجازة بقولي بعد خطبة المكتوب: «أما بعد؛ أعلمُكم سيدي أن مرادي فضلكم وإحسانكم أن تكتبوا لي الآن إجازةً عامة في كل ما لكم وعنكم، واشتملت عليه مكاتباتكم ووصاياكم، نظماً

ونثراً، وما لكم من الأدعية والأذكار: المطلقة والمقيدة، وفيها أعمله وأعلمه حسب مقدرتي، مع جهلي وضعفي وبلادتي. وفي الحقيقة لا يحسن مني أن أتلمس مثل ذلك لكوني لم أكن من سالكي تلك المسالك، لكن لما فاتني التحقق والتخلق، رجوت أن يكون ذلك من التعلق..»، إلى آخر ما كتبت. فأملى ذلك الحين ما جعله إجازةً: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله جامع الظواهر والسرائر.. »، المتقدم نقلها.

ويوم السبت تسع رمضان سنة ١٢٦٣هـ ثلاث وستين ومائتين وألف، ألبسني الخرقة، وذلك أنه خلع علي قميصه ابتداءً في مكاشفة منه لي؛ لأني كنت وددت أن يلبسني قميصاً أو عمامة، وأن يدعو لي بدعوة جليلة، فوقع لي ذلك منه ودعا لي عند إلباسه لي بقوله: ألبسَك الله من ملابس الإيقان.. الدعاء المتقدم إلى آخره، والحمد لله رب العالمين.

وفي بكرة يوم السبت ستة عشر جماد الآخر سنة ١٢٦٤هـ أربع وستين ومائتين وألف، ألبسني عمامة بعد أن اعتم بها، وكرر لي إلباسها ثلاث مرات، يدعو في كل مرة بالدعاء المذكور، بعد أن التمست منه ذلك، وقصصت عليه رؤيا رأيتها حاصلها: كأن شيخه سيدنا الحبيب العارف شيخ بن محمد الجفري يقول لي: إن أجزتك في كل حرفٍ كذا وكذا مرةً، أظنها ثمانٍ وعشرين.

وفي يوم الخميس واحدٍ وعشرين ربيع الأول سنة ١٢٦٥هـ خمس وستين ومائتين وألف، أجازني في هذا الذكر وهو: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الله هو لا هو إلا هو، أخبرني أنه حصلت له فيه واقعة قال: فأخبرت العم حسين بن محمد بذلك فقال: إن الكيلاني، أو قال: تلميذه قال: إن أجمع الطرائق في

الذكر هذا. وأجازني في الطريقة العيدروسية في الذكر واختصار السلوك به بالخلوة المذكورة عن الشيخ العيدروس المتقدم ذكرها، بعد أن أطلعته على مقالة سيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد في بعض مكاتباته. وهي ما قال رضِيَ الله عنه: «وكان سيدنا الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس باعلوي يشير كثيراً إلى خلوة مختصرة، وهي أن يتخلى المريد ليلة الجمعة ويومها مع ملازمة الجوع والسهر والصمت، وترك المخالطة للناس، مع إدمان التوجه إلى الله تعالى، والعكوف على الذكر والتلاوة، فإن رأيتم أن تعملوا على ذلك فدونكم، فإنه مبارك نافع، والشيخ نفع الله به من أجلاء المحققين المطلعين من أسرار الله تعالى على أشياء خفيت على المتقدمين». انتهى.

ولما كان يوم الجمعة يومين من صفر سنة ١٢٦٧هـ سبع وستين ومئتين وألف، ألبسني الخرقة ودعا لي بدعواتٍ جليلة، فقال عندما ألبسني: لكل أجل كتاب، أو قال: لكل شيء وقتٌ. وذاكرني في معنى التسبيح بأدنى الكمال الذي هو ثلاث مرات في الركوع والسجود؛ في المرة الأولى: من حيث الفعل، والثانية: من حيث الاسم، والثالثة: من حيث الصفة، واختصاص الركوع بـ(العظيم) لشهود العظمة بالخضوع، و(الأعلى) بالسجود ليشهد العلو في الدنو مع عدم رؤيته الغير، وبهذا يكون القرب كما في الحديث وهذا معنى مذاكرته. وذاكر في معنى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من الأزل وعلم السابق فيهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما مرجعهم إليه من الشؤون، وكل ما أتى من ذكر: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ على هذا. وأما قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾:

﴿وَمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما هم عليه من التقصير والمخالفة، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما فعلوه في الماضي، مما شأنهم التوبة منه، فلم يروا أنهم فرطوا فيه، فلم يتداركوه بالتوبة. انتهى.

وفي يوم السبت أحد عشر شهر شوال سنة **١٢٧٢**هـ اثنين وسبعين ومئتين وألف، قرأت عليه الأسماء الإدريسية العربية، وقرأت عليه الأثر المحكي عن الحسن البصري، في نسبتها وكيفية قراءتها، المتقدم ذكره في ترجمة الحبيب أحمد بن عمر بن سميط وطلبت منه الإجازة فيه، فأجازني، والحمد لله. توفي شيخنا الحبيب رضِيَ الله عنه في شهر القعدة سنة **١٢٧٣**هـ ثلاث وسبعين ومائتين وألف»، انتهت.

* * *

الترجمة الثانية

من كتاب «إدام القوت»

للعلامة السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف

قال العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف (ت ١٣٧٥هـ) رحمه الله، في كتابه «إدام القوت»[1]، عند ذكره أعلام بلدة ذي أصبح، وتاريخها:

«وبذي أصبح سكنَ قطبُ الجود، وكعبة الوفود، سيدنا الإمام حسن ابن صالح البحر، لقد كان علَمَ هدًى، ومصباح دجًى، ومناط آمال، وحمال أثقال، وغرّة زمانٍ، وحرز أمان، ومعقل إيمان، عقل الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل تدريسٍ ورواية. أما العبادة؛ فيبيتُ صافاً قدميه إذا استثقلتْ بالمؤمنين الوسادة:

يبيت يجافي جنبَه عن فراشه إذا استثقلت بالمخلصينَ المضاجعُ

فلو زلزلت الأرضُ زلزالها، لم يشعر بشيء مع استغراقه بالتهجد، ولقد جرت له في ذلك أخبارٌ لا نطيلُ بها، من جنسٍ ما وقع لابن الزبير؛ إذ صبّوا على رأسه الماءَ الشديد الحرارة، لما اتهموه بالرياء، وهو ساجدٌ، فما أحسّ به!.

ولقد كان يصلي مرةً، ومن ورائه الحبيب محمد بن أحمد الحبشي، وأخوه

---

(١) في ص ٥٨٨ ـ ٥٩٦، من طبعة دار المنهاج.

صالح، وعتيق، السابق ذكره، الذي كان لا يجازف قيدَ شعرةٍ في تصوير الرجال.
ولما فرغوا، قال عتيق: لقد تمثلتُ واحداً نثَر أمامنا صُرّة من الريالاتِ ونحن نصلي، فقلتُ في نفسي: أما حسنٌ فلن يشعر بها أصلا، وأما صالحٌ فسيطاعن عليها، وأما محمدٌ فسيجمَع بيديه، ويقول: سبحـان الله، سبحان الله!. فبكى محمد، وقال: لقد جعلتني شرّهم؛ إذ تلك سمة المنافقين؛ وما تفرسه عتيق هو عين الحقيقة.

أما الإمامُ البحر فقد زمت التقوى أموره، وامتلك الإحسان شعوره، فما هو إلا ملك في المعنى وإن بقي إنساناً في الصورة.

فـما دهـرُه إلا جهـادٌ يقـودُه ... لإحقاقِ حقٍّ أو صلاةٌ يقيمُها

كلما حزَبه أمرٌ فزعَ إلى الصلاة، فيصيرُ عندها الجبلُ الخشامُ كرملِ الفلاة.

وأما الشجاعة: فقد رادى جبال الجور فأزالها، وكان لهاشمٍ في النجدة مثالها:

رسَـا جـبلاً في الـدين فهـو بنـصره ... إذا مـا تراخـى الـصادقون مكلـفُ
تـــرى ملكـــاً في بردتيـــه وتـــارةً ... ترى الليث من أعطافه الموتُ ينطفُ
إذا ســار هــزَّ الأرضَ بأسـاً وقلبُـه ... إذا قامَ في المحراب بالـذكر يرجُـفُ
يلـــوح التَقـــى في وجهـــه فكأنّـــه ... ســـنا قمَـــرٍ أو بـــارقٌ يتكـــشفُ

فكثيراً ما قاد الكتائب للطعان، ونصب صدره للأقران.

فلقد صدَّ عاديةَ قومٍ في غربيِّ شبام، جاؤوا ليجتاحوا حضرموت، وأوقع بهم شر هزيمة، وقد أشكل عليَّ أمر أولئك أولاً، يمكنُ أن يكونوا المكارمة

الذين جاؤوا في سنة ١٢١٨هـ والناس يقولون: إنهم الوهابية. ولكن بعض أهل حضرموت يطلقون على المكارمة الباطنية لقبَ: الوهابية؛ لأنهم لا يفرقون بينهم، على ما بينهم من البَون. فالصواب كما يعرف من بعض المسودات: أنهم المكارمة، جاؤوا هاجمين مرةً أخرى غير الأولى فكسرهم.

ولكن الذي نقلـه والدي عن الأستاذ الأبر: أن بعض آل كثير قاوَموا الوهابية، وساعدهم بعض السادة، وحملوا السلاح، وجرح السيد شيخ بن عبد الله الحبشي جرحاً خطيراً، فشفاه الله بدعاءِ سيدنا الحسن. ولم يفصح سيدي الوالد فيما كتبه: بأنَّ أميرَ القوم إذ ذاك هو سيدُ الوادي مولانا الحسن البحر، ولكنني سمعتُ من لسانه ذاتِ المراتِ أنه هو، وقد مرت الإشارةُ إليه في (حَوره).

وكان سيدنا الحسن البحر لا يقرّ على كَظّة ظالم، ولا على سغَبِ مظلوم، ولقد جمع كلمة الشنافر بعد جهد جهيد على رد الحقوق وإقامة الحدود، وأخذ منهم العهود والرهائن، حتى توجه على رئيس منهم قصاصٌ في قتل، ولما صمّم على استيفائه احتالَ بعضُهم على امرأة المقتول، وكانت أجنبية، فعفَت، فدخل الوهن على تلك الجمعية؛ لأن أكثرهم بسطاء لا يفهمون، ولو أنه اطّلع على قول بعضهم بتحتم القصاص إذا التزمَ الكاملون من الورثة بنصيب القاصرين، أو الذين يعفون من الدية؛ لأخذَ به؛ لأنه مع قوة عزيمته كان من أهل الاجتهاد والترجيح.

وكان لا يقومُ أحدٌ لغضبه إذا انتهكت حرمةُ الله، أو اعتدي على من لا ناصر له سواه، وكان لا يخاطبُ عبدالله عوض غرامة فمن دونه من الرؤساء

في المعتبة إلا باسمه، مجرداً عن كل صفة، يسكت لغرامة على آرائه الوهابية؛ لأن بعضها يوافق ما عنده من تجريد التوحيد، ولكن لا هوادةَ له عنده متى انبسطتْ يده في ظلم من لا ناصر له إلا الله. فهو ركنُ الإسلام، وموئل الأنام.

ترى الناسَ أفواجاً إلى بابِ داره كأنهم رِجْلا دبًى وجرادِ

قلّما تجدُ جذعاً من النخيل الحافاتِ بدراه، إلا مربوطاً بها، في أيامه، حصان أو حمار. ولقد رأى كثرة الوفود مرةً ببابه، فخرج بمنجَله يحتطب، ثم جاء أمامهم بحزمةٍ على رأسه، وقال لبعض خاصته: لقد أعجبتني نفسي فعمدتُ إلى وقْذِها، وما زال بها حتى أماتها، كما فعل ابن الخطاب، رضِيَ الله عنه.

وإن كان ليقوم بالمصحف في الجامع، فقال له السيد عقيل الجفري، وكان آية في الإخلاص والنصح: نعم هذا لو كان في بيتك، فما أجابه إلا بقول ابن الفارض:

فأبثثها ما بي ولم يكُ حاضري رقيبٌ لها حاظٍ بخلوة جَلوتي

فاقتنع؛ إذ كان لا يختلجه أدنى ريبٍ في صدقه.

وبحقّ يقولُ فيه الإمام المحضار:

ومن في (ذي صبح) أصبحْ وذبّاحٌ بها يذبحْ

وطبّاخٌ بها يطبخْ وبو صَالحْ بها ينضَحْ

بلا عُجْبِ ولا كبرِ

* * *

وكان في الجود آية، وفي الشفقة بالآيامى واليتامى والضعاف غاية، وإن

كان جاهه الضخم في آخر أيامه ليدر عليه بالأموال الطائلة من شرق الأرض وغربها، ثم لا يبيت عنده دينار ولا درهم، ولقد أراد جماعة من محبيه أن يشتروا له عقاراً فغضب عليهم. ووورده مرةً ألفُ ريالٍ، فلم يمس منه شيء.

جـودٌ يحـركُ منـه كـل عاطفـة ورحمة رفرفتْ منه عـلى الأمـم

ولقد كان مع وقارِ ركنه يطيرُ طرباً، عندما تمثّل له جدِّي في مناسبةٍ، بقول جَوبة بن النضر:

إنــا إذا اجتمعــتْ يومــاً دراهمُنــا ظلــتْ إلى طـرقِ المعـروف تـستبقُ

لا يعرف الدرهمُ المضروب صُرَّتنا لكــن يمُــرُّ عليهــا وهــو منطلــقُ

لأن ذلك حاله رضوان الله عليه، لا ينزل موضعاً إلا عمه نوراً، وملأه سروراً.

إن ضنَّ غيثٌ أو خبَا قمرٌ فجبينُــه ويمينُــه البــدلُ

* * *

وله من التحنن على الفقراء ما من أمثلته: أن جدي المحسن طلبَ يد بنته بهية، فعملَ لهم ضيافة حسبَ العادة، وبينما هو في انتظارهم أطل من النافذة؛ فإذا الدار محفوفٌ بالنظارة من المساكين، فأمرَ بإدخالهم وتقديم الطعام لهم، ثم لما أقبل جدي بخيوله ومركبه وطبوله، استأنف لهم الذبائح والطبخ.

وله من هذا النوع أمثالٌ كثيرة.

يعظّم أهل الدين، ويكرم الفقراء والمساكين، وإن كان الأغنياء والرؤساء في مجلسه لأذلَّ منهم في مجلسِ سفيان الثوري، وأخرج أبو نعيم بسنده إلى عيسى

ابن يونس قال: «ما رأينا الأغنياء والسلاطين في مجلس قطُّ أحقَر منهم في مجلس الأعمش، وهو محتاجٌ إلى درهم». ولئن صحَّ هذا، أو لا؛ فقد جاء العيان بسيد الوادي فألوَى بالأسانيد.

مناقبُ يبديها العيانُ كما ترَى ... وإن نحن حدَّثنا بها دفعَ العقلُ

وقد اعترفَ السيد أحمد بن علي الجنيد، وهو من أقرانه، بالعي عن وصف ما شاهده من أعماله واجتهاده في سفره. فكيف بمثلي؟! وهو بذلك جدير؛ إذ الإمام البحر أكبر من قول أبي الطيب:

لم أجْرِ غايةَ فكري منه في صفةٍ ... إلا وجدتُ مدَاها غايةَ الأبدِ

على أنني لا أريدُ من عدم النفادِ إلا ضيقَ العبارة عن سَعة المعاني، وإلا فكل شيء في الحياة نافدٌ ما عداه جل جلاله.

* * *

وكان جدّي المحسن كثيراً ما يقول: إننا لا نعني الجوارحَ إلا بطريق المجاز عندما نقول: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا». وأما على الحقيقة فلا نقصد إلا حسن بن صالح، وأحمد بن عمر بن سميط، وعبد الله بن حسين بن طاهر، فهؤلاء الثلاثة هم أركانُ الإسلام والشرفِ لذلك العهد، فلله در البحتري في قوله:

فأركانهم أركانُ رضوَى ويذبلُ ... وأيديهم بأسُ الليالي وجودُها

وقد كان بينهم من التصافي والاتحاد ما يشبه امتزاج الماء بالراح، والأجسام بالأرواح، وكل واحدٍ منهم أمة تنكشف به الغمة.

لعمرُك ما كانوا ثلاثـة إخـوةٍ ولكنهم كانوا ثـلاثَ قبائـل

والمفاضلةُ بينهم لا تليق بمثلي، ومن دون ذلك الفلواتُ الفيحُ، والعقبات الكأداء، غير أن ما يتفضل به علينا التاريخ من يوم إلى آخر يجعلنا لا نعدل بالحبيب حسَنٍ أحداً، لا في شهامته، ولا في شدته في الله، ولا في قوة ثقته به وفرط توكله عليه وتفانيه مع مواقع رضاه.

وبهذه المناسبة ذكرتُ شيئين:

أحدهما: ما رواه غير واحدٍ أن الإمام أبا حنيفة سئل عن الأسود وعلقمة وعطاء أيهم أفضل؟ فقال والله ما قدري أن أذكرهم إلا بالدعاء والاستغفار؛ إجلالاً لهم، فكيف أفاضل بينهم!. هذا ما يقوله أبو حنيفة عن هضم للنفس فيما نَخال، وإذا نحن قلنا نحوه في أمثال هؤلاء، فإنما نتحدث بالواقع، ونخبر عن الحقيقة؛ لأن الحكمَ بالشيء فرعُ تصوره.

والأمر كما قال البوصيري:

فورى السـائرين وهـو أمـامي سـبلٌ وعـرةٌ وأرض عـراء

والثاني: ما ذكره ابن السبكي في «طبقاته» ويا قوت في مادة (المقدس) من «معجمه» وغيرهما عن بعض أهل العلم قال: «صحبت أبا المعالي الجويني بخراسان، ثم قدمت العراق، فصحبت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، فكانت طريقته عندي أفضل من طريقة الجويني. ثم قدمت الشام فرأيت الفقيه أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، فكانت طريقته أحسن من طريقتهما جميعاً».

وقد ميّلتُ بين الجويني والشيرازي في «العود الهندي» قبل اطلاعي على

هذا بزمانٍ طويل، بما لا يبعد عنه، وما ظني بالرّاوي ولو اطلع على ثلاثتنا إلا تفضيلهم في التقوى والدين، وإن كان أولئك أغزَر في العلم.

فما كان بين الهضْبِ فرقٌ وبينهم ... سوَى أنهم زالوا وما زالتِ الهضْبُ

وكلا والله لم يزولوا، ولكنهم انتقلوا فعُولوا، وقد جاء فيها يقولوا:

وإذا الكريمُ مضى وولى عمرُه ... كفلَ الثناءُ له بعمْرٍ ثاني

وما أحسنَ قول أبي القاسم ابن ناقياء، في رثائه لأبي إسحاق الشيرازي:

إن قيل ماتَ فلم يمت من ذكره ... حي على مر الليالي باقي

والله أعلم بحقائق الأمور والمطلع على خفيٍّ ما في الصدور. ولما توفي في سنة ١٢٧٣هـ بقرية ذي أصبح، عن عدّة أولاد.

* * *

[ابنه الحبيب عبد اللاه بن حسن البحر]

لم يرِثْ حاله منهم إلا ولده عبْدِ الله، وكان يسميه قرة العين، بسبب: أنه وصل له مالٌ دثْرٌ، فقال لأولاده: خذوا ما شئتم، فكلٌ أخذَ من الريالات ما يقدر على حمله، إلا عبْدِالله، فإنه اقتصر على طلب الدعاء بالثبات على الإيمان، فقال له: قرّت بك عيني يا ولدي. فأطلقَ عليه ذلك اللقبَ من يومئذ، فكان هو خليفتَه، ووارث سره.

أبقى لنا العباسُ غرّةَ ابنه ... مرأى لنا وإلى القيامةِ مسْمعَا

لقد كان ركنَ إسلام، وطَود تقوى، وعمود محراب، وثمال أيامى، وموئل يتامى، ومعاذَ مظلوم، وحاميَ حمًى، وحارسَ حدود.

مزايدُ نفسٍ في تقى الله لم تدَعْ ... لـه غايـةً في جـدِّها واجتهادِهـا

فما مالت الدنيا به حين أشرقَت ... له في تناهي حسنها واحتـشادِها

لسجّادةُ السجادِ أحسنُ منظراً ... من التاج في أحجَاره واتقادِهـا

لقد كان يستجهر الناسَ بوسامته، وما على جبينه من آثار القبول وارتسامه، ولاسيَّما إذا قام في محفل يذكّرهم بالجلالة، بوجهٍ جميل، عاليه جلالة، وتغشاه من الأنوار هالة.

مـن البـيضِ الوجُـوه بنـي عـليٍّ ... لو أنـكَ تستـضيء بهـم أضـاءوا

هـم حلَّـوا مـن الـشرف المعـلّى ... ومن كرَم العشيرة حيـثُ شـاءوا

تزيده تلك السجادة نوراً، فتمتلئ بمرآة القلوب سروراً، وما زال كأبيه علم المهتدين، وأسوة المقتدين، ومنهل الشاربين، ومأمن الخائفين.

إلى أن دعاه الحِمام، وهو يرددُ كلمة الإسلام، بقريته (ذي أصبح)، في سنة **١٣١٩هـ**، عن غير أولادٍ ذكور»، انتهى.

* * *

الترجمة الثالثة

من كتاب «تاريخ الشعراء الحضرميين»[1]

للسيد عبد الله بن محمد السقاف

«نسبه: حسن البحر بن صالح بن عيدروس بن أبي بكر بن الهادي بن سعيد ابن شيخان بن علوي بن عبد الله التريسي بن علوي بن أبي بكر الجفري ابن محمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن الفقيه المقدَّم محمد بن علي بن محمد صاحب مرباط بن خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن المهاجر أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين ابن فاطمة الزهراءِ ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

أحدُ الأئمة الأحبار، وشيوخ الإسلام، والدعاة المرشدين، والعلماء المتسعين، ذوي الزَّعامات الدينية والصوفية، والاجتماعية والسياسية.

مولده بمدينة خَلْع راشد (الحوطة) عام ١١٩١ من الهجرة، ويشاء ربك أن تخطف المنية أباه من هذه الوجود، في أيام رضاعه فيكفله مع أمّه أبوها السيد عيدروس بن أبي بكر الجفري، فنشأ مترعرعاً في كنفِه، بمسكنه الكائن بضاحية قرى ذي أصبح، حيث مسكنُ الشيخ عبد الله بن سعد بن سُمَير، مع والدته.

(١) ٣: ١٤٥.

والمفهومُ أنه شبَّ في وسطٍ محدود، ومحيط خالٍ من مشوبات الاختلاط، فكانت تربية صافية. وما غمضت الأيام على سنواتٍ دونَ قبضة اليدين؛ حتى كان جارُهم المعلمُ عبد الرحمٰن بالسُّعود يلقنه القرآن الحكيم. غير أن هذا التلقين لم يستدَم ممتداً، لظروفٍ، فيتولى الشيخ عبد الله بن سعد بن سمير إقراءه، حتى إذا ختم دراسته كله، وحفظَه عن ظهر قلبٍ، كانت ميوله إلى الحياة العملية ثائـرةً، فيندفع فيها اندفاعاً على أشدِّ ما يتصـوره المتصور من رغبـة ومثابرةٍ واكتناز.

ويقول العلامة الشيخ عبد الله بن سمير في «قلادة النحر»: إنه كان في أيامه الأولى إذا ذهب إلى شبام لحضور دروس شيخه العلامة عمر بن زين بن سميط، مشى المترجم في معيته، مصغياً، حتى إذا عاد إلى مكانه، كان التأثر بادياً عليه مع ما فيه من طفولة.

وإذا كان الشيخ عبد الله بن سمير أولَ قابسٍ في معلوماته، فقد كان اندلاعها من شتى المحتطَبات في خليط النواحي الوطنية، أظهَرها تريم وسيوۇن وتريس والغرفة والحوطة وشبام. كما يقول لنا «عقد اليوقيت»: إنه كان في أيام إقاماته بتريم إذا مشَى في شوارعها كان متطيلساً، مع العلم بتلاحق إقاماته المستكثرة المستطيلة بها، على كفافٍ من العيش، في سبيل ثقافاته وصوفياته.

وأما شيوخه؛ فهل أدلكم على عديد منهم، وعلى ناصيتهم العلامة السيد عمر بن أحمد بن حسن الحداد، والعلامة عمر بن زين بن سميط، والعلامة السيد علوي بن سقاف بن محمد بن عمر السقاف، والعلامة السيد سقاف بن محمد بن عيدروس الجفري، والعلامة السيد أحمد بن جعفر بن أحمد بن زين

الحبشي. والعلامة السيد عبد الرحمن بن علوي بن شيخ السقاف، مولى البُطيحة، ومن دراسته عليه «فتح الجواد».

وأما شيخُه العلامة السيد عمر بن سقاف بن محمد بن عمر السقاف، فقد كان شيخَ فتوحه، وقبلةَ متجهه في العلوم الظاهرة والباطنة. مع الإيماء إلى أن مفتتَح مقروآته عليه: «كتاب المنهاج»، كما كانت تردداته المستمرة إليه بسيؤون والنّوم متنعماً، تارةً منفرداً، وأحياناً مع الشيخ عبدالله بن سمير، حتى كان من آثارها زواجُه بسيؤون، وما ابنه محمدٌ وشقيقته سوى ثمرة من ثمراتها. وهل يجهل ما كان يغمرُه به شيخه سيدنا عمر بن سقاف من عواطفه وتقديراته، حتى في أشعاره[1]، وما لتأثيراتها في نفسياته ودخائله، حتى كان شديدَ الأسى لوفاة شيخه المذكور، أثناء غيابه بالحرمين في حجته الثالثة، عام ١٢١٦ من الهجرة.

وأما تلاميذُه، وما أدراك ما تلاميذه! فقد ملئوا الدّنيا، مبعثرين في مشارقها ومغاربها، ينشرون ما تلقوا عنه من علوم ودينيات وصوفيات. وحسبك، علمُك عن مقدارهم: أنّ ما من عالم أو متعلم أو متصوف بحضرموت، في عصره، إلا كان تلميذاً له، كما لا أخفي عنكَ: أن فيهم الجد العلامة السيد حامد بن عمر بن محمد بن سقاف السقاف، والعلامة السيد محسن بن علوي بن سقاف السقاف.

---

(١) خذ من قصيدة يمدحه بها مطلعها:

أهـلاً وسـهلاً بالشـريفِ المـؤتمن	ذي السِّر والأسرار والوصفِ الحسَنْ
أهـلاً وسـهلاً بـابن صـالح نسـبةً	وحقيقـةً وفـقَ المسمى فاسمعَنْ

اهـ مؤلف

وإذا كان الغرابة أن كثيراً من شيوخه قد تتلمذوا له فمن أحاديث شيخه وإن شئت قلت تلميذه العلامة الشيخ عبد الله بن سمير في القلادة أنه قرأ عليه عوارف المعارف والرسالة القشيرية وشرح الحكم لابن عباد إلى غير ذلك.

وهيا بنا إلى عقد اليواقيت كما نجده الشيخ السابع من شيوخ العلامة السيد عيدروس بن عمر الحبشي عدى منظورات من مقروءاته وتلقياته عليه إلى إجازته ووصيته المطولة. وإذا أردنا التحدث عن طوائف علومه فهل كانت في خفاء حتى ننتقل باحثين عن أنواعها من علم إلى فن ومن فن إلى علم.

وهل لك أن تخبرني لماذا كان منعوتاً بالبحر، حتى كان صفةً له، ولو لم يكن بحراً على حقيقته من دون مبالغة. وما من شكٍّ أن هذه الصفة ليست كبيرةً عليه، إذا قيست بجانب فيوضات العلوم على مواهبه، وطوفانها على معارفه. وخذ من قوتها وسعتها المبكرتين نموذجاً من دِراسته «مختصر التحفة» على مؤلفه العلامة علي بن عمر بن قاضي باكثير، مناقشاً، حتى جعلَه يصلح مواضع منه، مع العلم بأن سنّه حينئذٍ دون العشرين حولاً. وإذا كان مفتي زبيد، العلامة السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل، قد التمس منه أيام إقامته بمكة، في إحدَى حجاته الأولى: أن يضع رسالةً في صفة صلاة المقَرَّبين، فكانت موضع إعجابه، واغتباط العلماء والصوفيين الحجازيين وغيرهم، أمثال العلامة السيد أحمد إلياس[1] الحسني المغربي، وتلامذته، على ما في «قلادة النحر»، أفلم يكن بحراً حقًّا!.

وإذا التفتنا إلى المنطقياتِ، أفهمتنا أنه لو لا اكتساحُ التصوف نفسياته، حتى

---

(١) الصواب: أحمد بن إدريس.

صار مغموراً في تيارات أمواجه، لكان في علومه الظاهرة من الأفذاذ، إنتاجاً ومحصولاً، وما كان ابن فورك والأشعري وابن رشد والغزالي والفارابي وابن العربي وابن سينا والرازي، وأشباههم من فلاسفة الإسلام شيئاً إلى جانبه.

اتخاذ ذي أصبح موطناً:

إذا كانت البقاع تسعدُ وتشقى كالأنام، فقد كان حظّ قرية ذي أصبح من السعادة موفوراً، باتخاذ صاحب الترجمة إياها مستَوطناً له. وتعود هذه الظاهرة إلى غلبة النسك على مشاعره، كذاهبٍ كلَّ يوم في الأوقات الخمسة، من مكانه الواقع في ضاحيتها إلى مسجدها لأداء الفريضة جماعةً به، وإذا برغبة السكنى بها، توفيراً للوقت والمشقّة، تدفعُه إلى تشييد مسكنه بها، في أجواء عام ١٢١٣هـ والاستقرار به مدى الحياة، في جاه عريضٍ، وزعامة كبرَى، وظهور مشرقٍ، وصيت راعدٍ، حتى كان من نتائج هذه الظاهرات: انبثاقُ منصبة بحرية، لم تبرح إلى اليوم في عقبه متوارثةً، على ما لها من أطراف محدودة، ولكنها لها حرمتها ومكانتُها وميزتها.

وبالله دعونا من التبسط في حياته، لما تحويه من مدهشات، واجعلونا نضرب صفحاً عن استجلاء استقامته، ولمس تقواه، واستعراض أذكاره وأوراده وقرآنياته، كما أرانا «عقد اليواقيت» مشاهداتٍ منها، إلى محافظته الشديدة على الاتباع النبوي، والاقتداء السلفي، وأداء السنن كلها: الرواتب بأكملها، وغير الرواتب، حتى صلاة الخسوف والكسوف، إلى تحية المسجد، وسنن الوضوء، والضحى ثماني ركعاتٍ، وصلاة الأوابين عشرين ركعةً، عدا التهجد معظم الليل، والوتر في آخره إحدى عشر ركعةً، مع المواظبة على ذلك كله كل يوم

وليلةٍ، حضراً وسفراً، وصحة وسقماً، خلا أنه لم يصلِّ فرضاً من الفروض الخمسة في غير جماعةٍ قط. ومَن مثلُه في كثرة تلاوة القرآن في أيامه ولياليه، إذ كنّا نرى في «القلادة»: أنه يتلو في تهجده كلَّ ليلةٍ نصف القرآن، وربما قرأ القرآن كله في ركعةٍ. ففي روايات الرواة:لم يترك صيامَ داود، شتاءً وصيفاً، وحضراً وسفراً، وصحةً وسقماً، العمرَ كله.

وإذا لم يكن له مثيل في كثير من الصفات، حتى في قرآنياته. فهل أزيدكم علماً بنواحي أخرى؟ ككثرة تلاوة سورة يس أربعينَ مرةً في مجلسٍ واحدٍ، أو في ركعة أو ركعتين. كما من أوراده: تلاوةُ سورة الإخلاص تسعين ألفاً، في كل ركعة من صلواته. على أنا إذا ذهبنا إلى «النَّور المزهر»، وجَدْنا تلميذه العلامة السيد أحمد بن علي الجنيد يروي لنا مرافقته له بين مكّة والمدينة عام ١٢٢٣هـ، فكان يشاهده يتسحَّر كل ليلة جرعاتٍ من ماءٍ، كما يلاحظه يتهجّد كل ليلة معظمَ الليل. وإذا كانت هذه ظاهراته في الأسفار ومتاعبها، فماذا تكون في الحضر، وراحاته.

وهل أقصُّ عليكم من أعماله في حجاته التي تتجاوز السبعَ: أنه كثير الطواف بالبيت العتيق عند منتصف الليل، طائفاً بالكعبة إلى طلوع الفجر، يتلو كتابَ ربه، وقد يتلوه كله في طوافه. وهل تصعدون بنا من مدهشاتِ دينياته، كمتعدين بنا عن أضوائها المجهِرة، إلى ألوانٍ أخرى من ألوان الكمال، كعِداده في مصاف أهل «الرسالة القشيرية»، إن لم يكن تخطاهم أو تخطى كثيرَهم، علماً وعملاً، وزهداً وورعاً، كما رأيتَ صوراً منها، إلى إرهاقاته النفسية، بما لا تطيقه البشرية، حتى تحدث إليه شيخه العلامة السيد عبدالرحمٰن بن حامد بن عمر المنفّر: كي يخفف عنه نفسه قليلاً، إشفاقاً عليه ورثاءً له.

ولله من زاهدٍ وعابدٍ، حتى لا نعلم له نظيراً في المتأخرين.

وقد حدثنا السيد أحمد بن علي الجنيد في «النَّور المزهر»: عن إتيانه إليه بخمسمائة من الريالات المعروفة، كموصًى له بها، من أخيه السيد عمر بن علي. ولم يكد يقدّمها إليه، حتى لحظه يرتعشُ في خوفٍ شديد منها، كأنها حياتٌ ناهشةٌ. مشيراً إلى الابتعاد بها، وتوزيعها على البائسين وذوي الحاجة.

وكيف تَرى لو ذهبنا إلى مجالسه العلمية أو الصوفية، كما نجدها مزدحمةً بالمستمعين. حتى إذا أصخنا سمْعاً إلى هديره في التقريراتِ، والآيات الشريفة، والأحاديث النبوية، والأحوال الصوفية، إلى غير ذلك، لغدونا مأخوذين بسِحرِ بيانه، ومذهولين من اتساع جولانه، ومدهوشين من تلاطم تبيانه. كما نشعر في نفوسنا بالإعجاب البالغ من عدم إعَادة ما ألقاه في مجالسه السابقة، على ما تؤكده «القلادة» عن مشاهدة فاحصةٍ. وعند الرغبة في رؤية شيء منها، نجد تلميذه العلامة السيد عبدالرحمٰن بن علي بن عمر بن سقاف السقاف، عرض منها مجموعةً صغيرة. وإذا تحدثنا عن براعته في الوعظ، فإنما نتحدث عن فنيٍ وماهر فيه، له أسلوبه وطريقته وقوته، حتى كان من الأفذاذ الذين لعِظاتهم آثارها في إهاجةِ الجوانح، واستنزاف الدموع، وإنابة العُصاة إلى بارئهم.

وأما ميوله إلى أشعار الصوفية، ولاسيما إلى أقوال الذائقينَ، وشغفه بشعر قطب الإرشاد العلامة السيد عبد الله بن علوي الحداد، وغرامه بأشعار الفقيه عمر بن عبد الله بامخرمة، فكانت بالغةً جداً، كما أنها كثيراً ما تثير عبراته وتساقط دموعه على أوجانه، متأثراً كذكريات ذوقية مشجية.

ومع ما هو فيه من روحٍ دينية، ومشاغل علمية وتعبدية، وتلاوات قرآنية،

وأذكار مستديمة فلم يكن متوارياً عن المجتمع العام، وكما له رئاسته الاجتماعية والدينية والصوفية، فإن له زعامته السياسية الروحية على طوائف من العشائر السلاحية، كمعتَقَدٍ لهم، ذي أشراف على حالاتهم الاجتماعية والسياسية.

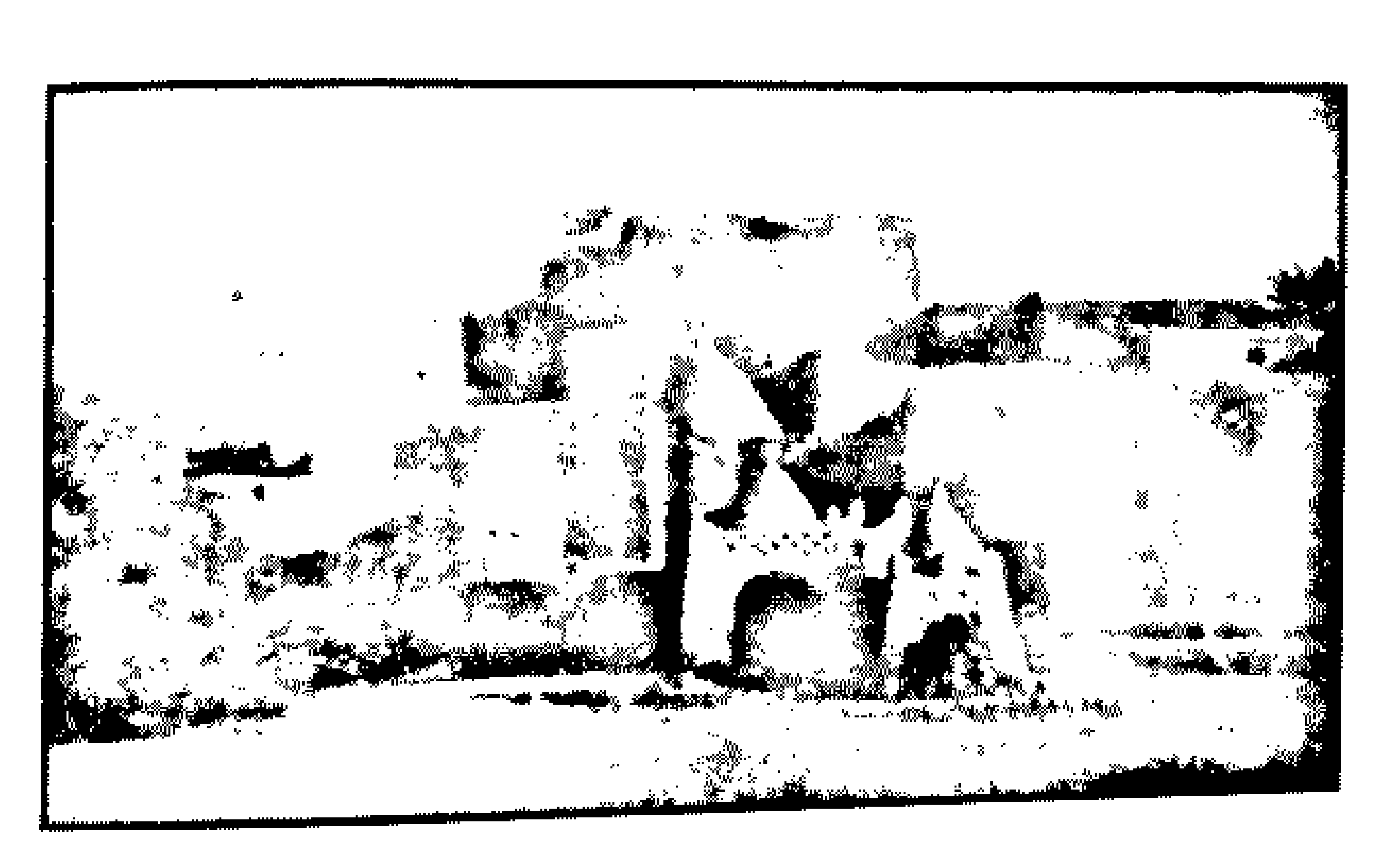
وقد تندهش حين تعلم أنه من أركانِ الثورة الوطنية عام ١٢٦٥ على الفئة اليافعية، المتغلبة على سياسة تريم وسيؤون وتريس، ولواحقها، من جراء استفحال مظالمهم، حتى لم يبق في قوس التصبر منزَعٌ، فكن في مقدمة الصفوف الثائرة، إلى أن كانت النتيجة جلاء أولئك اليافعيين عن تلك البقاع، وزوال كابوسهم الجاثم على أنفاسها وسيادتها. كما نشاهد في «تاريخ ابن حميد» مناظر من تدبيراته ومجهوداته ومساعداته المادية والمعنوية، واستعمال نفوذه.

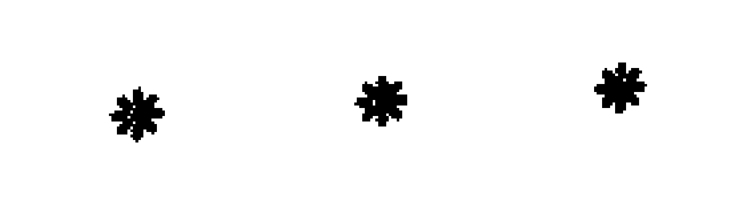
ومن تحصيل الحاصل، التذكيرُ بأن حياةَ صاحب الترجمة كانت بقرية ذي أصبح، كشمس منيرةٍ، له شخصيته الكبرى، وزعاماته المتعددة، كما له شئونه العلمية والصوفية، ودينياته، كما يعطينا «عقد اليواقيت» نماذج منها.

وعلى هذه المعروضات مرّت حياة المترجم من شبابه إلى أن اختار الله له ما اختاره لمخلوقاته من الفناء الدنيوي وتلاشي الجسميات. ومن المعلوم أن وفاته كانت بذي أصبح ضحى يوم الأربعاء ٢٣ القعدة عام ١٢٧٣هـ وكان مدفنه إلى جانب مسكنه في وسط المصلَّى الذي دفنت فيه والدتُه، كما يروي ابن حميد عن مشاهدةٍ، ولا يفوت علمك أن فوق ضريحه تابوت.

وإذا كنتَ ظاناً أن قبرَه منقطعُ الزيارةِ في يوم من الأيام، أو وقت من الأوقات، فقد كنت في ظنك خاطئاً. وأما مجموعة المراثي التي رُثِيَ بها: فتجد فيها مرثيةَ تلميذه العلامة السيد محسن بن علوي بن سقاف السقاف حسبما في «ديوانه».

وهل أختم الحديثَ بنعمةِ الله عليَّ بزيارتـه في صحبة شيخنـا العلامة السيد أحمد بن عبد الرحمن بن علي السقاف ضحى يوم الاثنين ٢٣ القعدة عام ١٣٤٥هـ»[1].





قبة السيد الحسن بن صالح البحر بذي أصبح

* * *

(١) انتهت ترجمة السيد عبد الله السقاف، وقد أورد بعد هذا نماذج من النثر الأدبي، والشعري، لصاحب المجموع، وفيها نص إجازته للحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، وقد تقدمت، وستأتي أيضاً في الوصايا، كما أن شعره سيأتي برمته في الديوان بآخر هذا المجموع، فلم يتم إيراده هنا خشية التكرار.

فصلٌ
في ذكْرِ المدائح التي قيلتْ في الإمام البحر

مديحة من الحبيب العلامة
عبد الله بن عمر بن يحيى باعلوي (ت ١٢٦٥هـ)

«هذه الأبياتُ لسيدنا الحبيب عبد الله بن عمر بن يحيى، كتبها إلى سيدنا القطب الحبر، حسن بن صالح البحر، نفعنا الله بهما، آمين اللهم آمين:

أيا حسَنَ الأسماء والرسم والمعنى ... أنا العبد مطلوبي تقولوا: أنتمُ منا
لنا مالكُم في كل حالٍ بهذه ... وتلكَ فذا المطلوبُ والمقصد الأسنى
أجيبوا أجيبُوا سَادتي وتعطّفوا ... على من له عمرٌ في الذنْبِ قد أفنى
تنكبَ عن قصد السبيل تعمّداً ... دواماً له رقصٌ إذ ما الهوَى غنّى
يميلُ إلى الدنيا ويهوَى متاعَها ... لشيطانه عبدٌ تملكَه قِنّا
غفولاً ومهذاراً نؤُوْماً وهمّه ... من الوقت أن يملأ بشهوته البطْنا
يودّ مقاماً عندكم وتعهّدا ... فصَدّته أفعالٌ له مُرّةَ المجنَى
أشيروا عليه بالدواءِ لدائه ... وخلّوا وحَلوا وانظرُوا كرماً مَنّا
فإن تسعِفوا فالمرتجي عبدُ عبدِكم ... وإن تمنعُوا فالخسر قدَ كانَ والغبْنا
ولكن لنَا فيكم رجاءٌ معظّم ... فمنُّوا عليه بالصّلاتِ وبالإدنَاءْ
وصَلى إلهي ثم سلمَ دائماً ... على من به نلثُم مواريثَه الحسنى
مع الآل والأصحاب ما ذرَّ شارقٌ ... وعبدٌ من المولى حَظي بالذي ظنّا

مدائح العلامة الحبيب محسن بن علوي السقاف في شيخه الإمام الحسن بن صالح البحر

ولتلميذه العلامة الحبيب محسن بن علوي السقاف (ت ١٢٩١هـ) رحمه الله تعالى، فيه عدة مدائح وردت في «ديوانه»، منها القصيدة التالية:

أنتم لروحي روحها[1]

بلقـــاكمُ تـــتروَّح الأرواحُ ... وبوصـــلكمْ أكـــدارنا تنـــزاحُ
وبقربكم تـشفَى الكلـومُ وتـنجلي ... عنـــا الهمـــوم وتـــبرد الأرشـــاحُ
أنـــتم لروحـــي روحُهـــا ونعيمُهـــا ... أنـــتم ســـلوِّي، راحتـــي والـــراحُ
لا أنثنـــي عـــن حـــبكم ووداِكـــم ... كـــلا، ولا لي عـــن هـــواكم راحُ
عطفـــاً أطبـــاءَ القلـــوب ونظـــرةً ... لمريـــضِها تـــبرى بهـــا الأجـــراحُ
ضيفٌ أناخَ ببابكم يرجـو القِـرى ... مـــنكم وغيـــثُ عطـــاكم سَـــحّاحُ
قولـــوا لـــه أبـــشر بـــالقرى أو لم تَـــر ... ربَّ الـــورى لعطائِـــه منَّـــاحُ
وهَبوه من صدقاتكم ما قـد رجَـا ... فعـــسى عـــسَى لفـــساده إصـــلاحُ
يـــا أهـــل ودي دعـــوةً مقبولـــةً ... تزكـــو بهـــا الأجـــسام والأرواحُ

---

(١) «ديوان الحبيب محسن بن علوي السقاف»: ص ٦٩ - ٧٠.

يا أهل نجدٍ عطفةً منكم لمن ... لندائكم ودعائكم يرتاحُ
ذنبي عظيم وخالقي متفضلٌ ... متعرفٌ متعطفٌ فتاحُ
مولاي لاطِفني بلطفٍ شاملٍ ... واستر وسامحْ فالفعَال قباحُ
ظهر النذير بعَارضي وأنا عن الز ... لاَّتِ والعصيان لا أنزاحُ
متمادياً في غفلتي واحسرتي ... قرُبَ الرحيلُ وما لديَّ صلاحُ
رب اهدني فيمن هديتَ وعافني ... علَّ الخواتمَ تستبينَ صلاحُ
فمحبتي فيمن تحبُّ وسيلتي ... إن المحبةَ للكرام فلاحُ
وبنجل صالح وأبو صالح عسَى ... لمطالبي ومقاصدي إنجاحُ
هو شيخُنا وحبيبنا وطبيبنا ... بل طيبنا العطِرُ الشذِي النفّاحُ
لا نختشي ريب الزمان وصرْفه ... وهو إذن في قطرنا مصباحُ
ثم الصلاة مع السلام على النبي ... ما لاح برقٌ أو أضاء صباحُ

* * *

بحر زخار بالأنوار[1]

وللحبيب محسن أيضاً هذه الأبياتُ:

يـا بـن صـالح وأبـو صـالح تـتم المـصالح
بحـر زخـار بـالأنوار والخـير طـافح
والعفيـف المنيـب الحـبر ثـم بـصالح
ذاك ذي قـد عمـد في عمـد للكـل ناصح
سالك يا الله بهـم مـع كـل مـؤمن وصـالح
تـصلح أحوالنـا واسـتر علينـا وسـامح
واكفنـا شر أنفـسنا وشر الجـوارح
واظهر العـدل بالـسلطان واكـف الجـوايح
يمـسي الربـع واهـل الربـع غـادي ورايـح
في أمـان الـسبل لا عـاد يخـشون صـائح
فـالخزائن مـلا بـالجود والخـير طـافح
والرجـا فيـك مـا عـدا عـلى القلـب بـارح

(١) «ديوان الحبيب محسن بن علوي السقاف»: ص ٧٠.

يا مجيب استجب والطف وجمل وسامح
واطف عنا بها فضلك هب الروانسح

واكفنا كل ختال وحاسد وكاشح
من خلوف الردى حزب اللمم والفضائح

غلمة الشر ذي هم ما يلبسون صائح
للمعايب حووا حازوا جميع القوادح

كم نلاقي بذا منهم وننظر قبائح
كم نقاسي أذى منهم يذيب الجوانح

رب سالك لنا توبه وهم يا مسامح
والرضا عنك واشملنا بفضلك وسامح

صل رب على احمد خير داعي وناصح
وآله الكل واصحابه ومؤمن وصالح

* * *

وادي الخير[1]

وللحبيب محسن أيضاً هذه الأبياتُ، وصدرها بقوله: «الحمدُ لله، طلعت يوماً إلى سيدي الحبيب الحسن بن صالح، أدام الله به النفع والمصالح، لكل غادٍ ورائح، حصلت المذاكرة في شأن السادة العلوية، وحصول النفع لهم وبهم، حينئذ حتى جاء الذكر في أهل تريم، وقال: «تمكن معهم الرسْمُ»، وساق كلاماً يتعلق بذلك.

حتى قال: إن الحبيب أحمد بن عمر أنشأ أبياتاً، وأرسلها إلى عند المعلم عبد الله بن سعد، وأشار عليه أن يذيل عليها، فطلبَ المعلم عبد الله من الحبيب الحسن ذلك، فألحقها الحبيب الحسنُ بنحو ستة أبيات. فنقلتُ ما كان للحبيب أحمد، وهن ثلاثة أبيات، ثم ما كان للحبيب حسن بعد ذلك، والموجود منها خمسة بإملاء الحبيب وغيره. فتطفل الفقير بعد ذلك بما ستراه بعد هذه».

وهذه أبيات الحبيب أحمد بن عمر بن سميط:

وادي الخـــــير إن تـــــديرتموه	فاسـتعدّوا لـه مـن الـصبر عـدّهْ
واكتفـوا بالقليـل منـه وكفُّـوا	بعد أخذِ الكفافِ عـن شرِّ حِـدّهْ
حِدّة الحِرْص فاحذرُوها وعوذوا	بـالكبير القـدير مـن كـل شـدّهْ

(١) «ديوان الحبيب محسن بن علوي السقاف»: ص ١٢٣-١٢٤.

وهذه أبيات الحبيب حسن بن صالح البحر:

وضعوا للرسوم رأساً فمهما	تضلوا الرشدَ تقعوا في المكدّة
واحذروا الافتتانَ بأهل الزمان	الناكبين عن السبيل المجدّة
فهم قد عموا عن الحق حتى	خفقتهم من المتاعبِ حدّة
يـ ها ظلمةٌ قد اقتحمُوها	سلكوها بأضلع مسودّة
فالخلاصَ الخلاصَ قبل النواصي	وعلوقِ المخالب المستمدّة

وهذه أبياتُ الحبيب محسن بن علوي السقاف:

واقتدُوا بهدَى رجالٍ كرام	قادةٍ للورى وأسوةٍ وعمدةْ
سلفٌ سلكوا الخيرِ سبيلٍ	كابدُوا في سلوكه كلّ شدّةْ
في رضَا ربهم لحتى حبَاهم	واجتبَاهم وخصَّهم بالمودّةْ
فاقتفوا إثرهم بجد وكل	يفعل المستطاع في الخير جهده
واستعينوا بالله فيما ترومُوا	إن منه الفتوح والنصر عندَه
ترتقوا رتباً تنيفُ لشهبٍ	من ضِيا نورِ ربِّها مستمدَّة
حضرات قد أشرقَتْ بجلالٍ	وجمالٍ من المددُ ممدّةْ
أين نحنُ من هديهم واقتناهم	للعلوم من كل صدرٍ وعدّةْ
فالبدار البدارَ سعياً لخمسٍ	قبل خمسٍ منها اخترامٌ لمدّةْ
والقنوعَ القنوع كي تستريحوا	وتريحوا فالندبُ ما جاه سَدَّه
إن قنعتم أبتُمْ لما له خلقتم	من حقوقٍ قد ألزم الله عبدَهْ

وإذا كانت النفوس كباراً | أخلقتْ من نفوسِنا كل جدّة
وأماتت للروح والقلب منّا | ولقينَا من كدِّها كل شدّة
وعنـاءٍ ومحنةً وافتراقاً | ودهتنا نوائبٌ مسودّة
وإذا ما قنعن سدنا وطلبنَا | وكفينا حرصاً وبيناً وحدّة
فاسمعوا لمقال خير شهابٍ | ولما قال شيخُنا البحر بعدَه
يا إلهي حقّق رجانا ووفّقْ | واغمر الكل بالندى وأمدّه
واشرح الصدر وارفع القدْ | رَ واعفُ كل ذنبٍ وعمَّنا بالمودّة

* * *

إشادة بالحبيب حسن بن صالح الجفري[1]

أيا سيدي يا حبيبي حسَنْ ... أتيتُ إليكم بقصدِ حسَنْ

لكي تمنحوني سَنيَّ الدعا ... بما أرتجي من جزيلِ المننْ

فلي مشهدٌ كاملٌ فيكم ... ولي فيكمُ سيدي حسْنُ ظنّ

وها أنا في حيكم نازلٌ ... مقيمٌ على البابِ لا أبرحنّ

أمرغُ خدّي على أعتابكم ... وفي حبكُمْ قد قطعتُ الزمنْ

فداووا الفؤادَ أهيلَ الودادِ ... لعلّ الفسادَ به يصلُحنْ

ويقذفُ فيه من النورِ ما ... به ينجلي منه كلّ درَنْ

فجودوا وعودُوا علي يا كرامُ ... عسَى يبدَلُ الشينُ مني حسَنْ

أنا حِبكُم وفي حبكم ... تهتكتُ والله بي يعلمنّ

فهل عطفةٌ يا أهيلَ الوفَا ... ونظرةُ ودٍّ سريعاً لمن

أطاعَ الهوى والنوَى والجوَى ... وأخطَا الطريق وحادَ السَّننْ

فما حيلتي قد قستْ مهجتي ... وفي غفلتي لم أزل أركضنّ

أسيرُ الذنوبِ كثيرُ العيوبِ ... تماديتُ في زلتي والشَّننْ

أضعت زماني في الترّهاتِ ... وشُغلٍ بدنيا الردَى والمحنْ

(١) «ديوان الحبيب محسن بن علوي السقاف»: ص ٣٤٦-٣٤٧.

ومـــا لِي مـــن عمـــلٍ صـــالحٍ — سوَى حسنِ ظني بمسْدِي المننْ

أرجّـي العتـابَ قبيـل الـذهابِ — فـرأسي شـابَ وجـسمي وهَـنْ

فيـا قابـلَ التـوب جـذْ بالمتـابِ — وأصـلح لنـا الـسّرَّ ثـم العلـنْ

إلـه الـورَى اسـترَنْ مـا تـرَى — مـن الاجـتراء فمَـن لي ومـنْ؟

ســواكَ إلهــي ويــا خــالقي — فأنــت العفــوُّ الغفــورُ لمــنْ

وصـــلِّ إلهـــي عـــلى أحمـــدٍ — نبــيٌّ الهـدى كلـما رعـد حـنّ

* * *

إلى الحبيب حسن بن صالح[1]

وقال الحبيب محسن بن علوي: «هذا جواب لأبياتٍ وصلت من سيدنا الحبيب، بحر العلوم، وإمام أهل المنطوق والمفهوم، بركة أهل عصره، الحسن ابن صالح البحر، نفعنا الله بهم، آمين»:

جاءنا ما لنَا به البحر فاهَا ... فأراح القلوبَ ممّا عناها
ودعاها وحثها لهداها ... وهداها إلى علوٌ علاها
والتخلي عن رؤية الغير أصلاً ... والتحلي بفاخراتِ حلاها
ولذا قال والأمرُ ما قالَ حقاً ... لا نرى فيه مريةً واشتباها
إن تخلتْ عن السوى وتحلت ... بشهودِ مليكها مولاهَا
ظفرتْ بالمراد من كل خيرٍ ... وارتقت وعلتْ ونالت مُناها
ورأتْ من عجائب اللطفِ ما لا ... ترَى من أمها ولا من أباها
قد جرت عادةُ الإله بهذا ... فمنير الفؤاد صدقاً يراهَا
يا فؤادي وكل صبٌ جواد ... لا مني والنفوس في غلواها
فالسباق السباق نحو المعالي ... إن داعي الهدى إليها دعاها

---

(١) «ديوان الحبيب محسن بن علوي السقاف»: ص ٤٠٣-٤٠٤.

فلقـــد أفلـــح الـــذي زكاهَـــا ولقــد خــاب كــل مــن دســاها

يا طبيب القلـوب هـاهي مرضَى فأغثهـــا وعافهـــا مـــن بلاهـــا

وعـــوارضٌ للأطبـــاء أعيَـــتْ فأزلهـــا منهـــا وعجـــل شـــفاها

واملهـــا واحـــشُها بخـــيرٍ وبـــرٌ يـــا شِـــفاها وطبهـــا وغناهـــا

ولما رَانَهـا مـن الكسـب فـامحُ ليـــزول حجابُهـــا وصـــداها

فـتمحّ السـّوَى وتـدن إلى مـن هـــو أدرَى بـــدائها ودواهـــا

ربهـــا حـــسبُها تعـــالى عـــلاه فهـــو حقـــاً إن لم تـــراهُ يراهـــا

حـي قيـوم قـام بـه كـل شيء ودحَـــا أرضـــها وســـوّى ســـماها

كـل مـن في الوجـود كـلٌّ عليـه حكـــمٌ بالغـــات لا تتنـــاهى

ربّ إني ظلمـــت نفـــسي كثـــيراً زكّهـــا أنـــت خـــير مـــن زكاهـــا

واحمهـا واكفهـا مـداخل سـوء وأغثهـــا وآتهـــا تقواهَـــا

يـا غيـاثَ اللهيـف ممـا يعـاني يـا رَحـيماً يـا كاشـفاً ضُرَّاهـا

قـد وقفنـا ببـاب فـضلك نرجـو منـك أن تعطـيَ القلـوبَ مُناهـا

وأنـــاجي مـــستنجداً مـــستغيثاً بـالهِزَبْر الهـمام ليـثِ وَغاهـا

ذاك بحْـرُ النـدى إمـام المعـالي مـن لأسرارِ أسـلافه قـدْ حواهـا

كهفنـــا ذخرُنـــا إذا مـــا دهَتنـــا نكبـاتٌ مـن دهرنـا نخْشَاها

يا ابن صالح أدرك عُبيداً عمِيداً يتبـعُ الـنفس دائـماً في هواهـا

يا حبيبي يـا الجفـري البحْـر حقـاً دعـوةً يـا مـلاذُ فـضلاً وجاهـا

لكثيرِ الذنوب جمّ الخطايا ... مثقلِ الظهر من ذنوبٍ أتاها
فابرِدُوا غلتي وداووا سِقامي ... وأريحوا من مهجتي ما غشَاها
عطفةً نظرةً لصبٍّ كئيبٍ ... علَّ أن القلوب تهدَى عساها
سل تجَبْ يا حبيبُ رباً كريماً ... حاجةً في الفؤاد أرجو قضاها
فأريحوا متَاعبي من عناها ... فعسى تنقضي بغير مداها
برسُول الإله خير البرايا ... تبلغُ النفس قصدَها ومناها
من صلاحٍ وطاعةٍ وفلاحٍ ... فبذَاك غناؤُها وشفاها
صل رب عليه ما ثجَّ مزنٌ ... أو تغنت حمامةٌ بعلاها

* * *

فصل

في مدائح الشيخ أحمد بن عمر باذيب[1]
في شيخه الحبيب الإمام الحسن بن صالح البحر

وقال رحمه الله تعالى: «في أثناء مكاتبة لأخيه المذكور، عند ذكر سادتنا الأعلام، الحبيب حسن بن صالح البحر الجفري، والحبيب عمر بن محمد بن سميط، فقلتُ»:

فهيا لقد آنَ الأوانُ الذي له ... خبأتهمْ ذخراً له عندما يأتي

وما مثلهمْ من يتركونَ محبَّهم ... أسيراً وهم في الناسِ أهلُ الحميّاتِ

وإني عليمٌ بالذي أوجبَ الجفَا ... لعَهْدي منهم أنه عظْمُ زلاتي

ولكنهم أهلُ الوفاء وما عسَى ... يكونُ لعَمْري في وفاهم إسَاءاتي

ولم أتبدلْ غيرهم طُولَ غربتي ... ولكنهُم همْ أهل ودّي وساداتي

ولم أرتقِبْ إلا عناياتِ فضْلهم ... وفيضَ ندَى إحسانِهم طولَ أوقاتي

* * *

---

(١) نقلاً عن «ديوانه» المخطوط.

سَلامٌ على إمام الوجُودِ

وقال رحمه الله تعالى:

"وهذه صدرتْ مكاتبةً مني لسيدي إمام أئمة الزمان، وقطب دائرة العرفان، سيدي وشيخي وأستاذي، وكهفي وعُدَّتي وملاذي، الحبيب العارف بالله، والداعي إلى الله، سيدي الحسن بن صالح بن عيدروس البحر الجفري، متعنا الله بطول حياته، وأفاض علينا من مدد بركاته. وقد أرسلتها إليه من بندر (سنقافورة) سنة ١٢٥٧:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أجلَّ ما استُفتِحَ به مقال، واستُنجِحَ به سؤال، حمدُ ذي الكرمِ والإفضال، والمعروفِ بصنائع المعروف والجمال، الموصوفِ بنعُوت المجْد والجلال، جلتْ ذاته عن الحلولِ والانتقال، والكميّة والأمثال، وتقدسَتْ صفاته عن الاتصال والانفصال، والانحياز والانعزال، لا يدركُه الفهم، ولا يتوهمه الوهمُ، ولا يتخيله الخيال، ولا تخطر ماهيتُه ببالٍ. أحمده على جزيل مواهب أولاها، وجليل نعمٍ والاها، حمداً لا ينقطع ولا يتناهى، ولا يشابَه ولا يضاهى، حمداً يليق بجليلِ مجد ذاته، تعالتْ وعزَّ عُلاها، ويبلغ من نفسي رضَاه وقربه وعفوُه ورحمته غايةَ مناها. وأصلي وأسلمّ على مطلع شمس معرفته، ومنبع فيض رحمته، ومظهر

سرِّ حكمته، ومنصّة تجلي جلاله وعظمته، سيدِنا ومولانا محمدٍ ﷺ وعلى عترته، وعلى أصحابه أعلام دينه وأئمته، وعلى أتباعه وأهل نصره وخدمته، صلاةً يقر الله بها عينَه في أمته، ويلحقنا بمَنْ أنعم عليهم من أهل حبّه ومودتِه، ويعمنا به من جليل نعمته:

وسَلامٌ على إمَامِ الوجُودِ ... منبَعِ الفَيضِ من عيُونِ الجودِ

نخبَةُ العارفينَ بِالله طُرًّا ... ويتيمُ العقْدِ الثَّمينِ الفريدِ

قدوةُ العَابدينَ في العَصْر والغَا ... رِقُ في بحْرِ وَحْدَةَ المعبُودِ

ترجمانُ لسانِ علْمٍ لَدُنّي ... بدَا من تجليّاتِ الشُّهُودِ

هُوَ مستغرقٌ بمَولاهُ فَانٍ ... عن قريبٍ من الورَى وبعيدِ

مخبرٌ عن حقَائقٍ رمَزتْ عنْـ ... ـهَا قضَايا التقْريبِ والتبْعيدِ

قائمٌ بالّذي لمعبوده الحـ ... ـقّ مُوفٍّ مَا عندَه للعَبيدِ

فمعَ الحقِّ مثلَ لا خلْقَ أصْلاً ... وهو معْهُم عن نفسِه في محيدِ

لو رآه الجنيدُ قام علَى أعـ ... ـتَابِهِ خَاضعاً له كالمرِيدِ

أو وعَى مسمَعُ السّريِّ علُوماً ... منهُ تبدُو لقَامَ كالمستفيدِ

أو رأى الشّبليُّ ذو الحالِ أمسَى ... وهو من سكرَةِ الهوى في مَزيدِ

أو رأى صاحبُ «الرّسالةِ» حَالاً ... منه ما خَطّ قبله من عَقيدِ

من بهِ آخرُ الزمَانِ تحلَّى ... رافِلاً في لباسِ فخْرٍ جَديدِ

يزْدَهي عصرُه على كلِّ عصْرٍ ... ما خَلا عَصْر أحمَدَ المحمُودِ

كيفَ لا يزْدَهي! ومعرُوفُه والجيـ ... ـليُّ بهِ والجنيدُ مع داودِ

والرفَـاعيُّ بـه مـعَ البـدَويِّ والـ ـعيدَرُوسُ الأستاذُ وابـنُ العَمُـودي

وسِـواهُمْ مـن الأكَـابر في مُفْـ ـرَدِهِ المحتَـوي لكـل فُـرُودِ

تِـهْ بـهِ يـا زمـانُ وافخَـرْ ولكِـنْ فخْـرَ حمـدٍ مـن شَـاكرٍ مُـستزيدِ

آهِ! واحَـسْرَتي بحَـظٍّ تعـيسٍ قـدْ رَمَـاني بـشُؤْمه المنكُـودِ

حـالَ بيني وبـين قِسْطيَ مـن أنـ ـوارِ ذا الجهبـذِ العزيـزِ الوُجُـودِ

وبـه فـازَ مـنْ سِـوايَ مـن الأقْـ ـطار مـن كـل فَـائزٍ مسْعُودِ

أيُّ غبْنٍ يفـوقُ غبنـي! فـوَيحي خبْـتُ مـن ذي جنايـةٍ مطـرُودِ

حُـقَّ لي أن أمُـوتَ غيظـاً وحُزْنـاً مـن لهيـبٍ في مُهْجتـي ووَقُـودِ

غـيرَ أنّ القـضَاء يـأبى ممـاتِي قبـلَ إتيـانِ وقتِـه الموعُـودِ

يـا أبـا صـالح تـدارَكْ محبّـاً لـكَ في حـزْنٍ تاعـبٍ مجهُـودِ

صَـادياً مـا لـه ارتـواءٌ سـوَى مِـنْ بحْـركَ الطَّمْطـمِ اللذيـذِ الـورُودِ

صَـار مـن ذنبِـه يقـاسي عنَـاءً كأسـيرٍ مكبَّـلٍ بـالقُيودِ

فتـدارَكْ يـا سـيدي حسَنُ البحْـ ـرُ لهيفـاً في ضَـنْكِ كـرْبٍ شَـديدِ

وهْـوَ في الحـبِّ والـوداد علَى مـا كـانَ مـن حـالِ عَهْـده المعهُـودِ

* * *

هُمُ الأحباءُ إن شَطوا وإن قرُبُوا

وقال رحمه الله تعالى في أثناء مكاتبةٍ لأخيه، عند ذكر ساداتنا الأئمة: الحبيب حسن بن صالح البحر، والحبيب عمر بن محمد بن سميط، نفعنا الله تعالى بهم:

والله يعلمُ ما لاقيتُ بعدَهم ... من العناءِ الذي أوهَى قُوَى جَلَدي

ذنبي العَظيمُ وسوءُ الحظِّ باعَدني ... عنهُم إلى مستقرِّ الهمِّ والنكَدِ

رَعياً لعصرٍ مضَى لي بينَهُم زَهِرٍ ... عليهِ واحَرَّ أحشَائي وواكمَدي

بالله في عَودةٍ علقتُ لي طمَعاً ... به أعلّلُ نفسي حيثُ لم أجِدِ

لو لم أزَجّ به وَقْتي لعاجَلني ... مَوتي أسًى من نوَى الأحبابِ والبلَدِ

هم الأحبّاءُ إن شَطّوا وإن قرُبوا ... قد ألجَمَ القلْبَ من حُبّي لهم رَشَدي

فالله يغفِرُ لي ذنبي ويسعِدُني ... بقربهمْ فهو مأمُولي ومعتمدي

* * *

نحْنُ النحاسُ وأنتم الإكْسِيرُ

وقال رحمه الله تعالى: «صدَرتُ مكاتبة لسيدنا غوث الأنام، وفخر الأيام، القطب العارف بالله تعالى، شيخنا وقدوتنا، وبركتنا وملاذنا، الحبيب البركة، سيدي الحسن بن صالح البحر الجفري، متع الله بحياته، وأعاد علينا من بركاته في الدارين. وتلك المكاتبةُ على لسان سيدي الحبيب أبي بكر بن محمد المشهور باعلوي، من بندَر سنقافورة، وقد ضمنتُها قصيدةً مني، امتداحاً، وشكيةَ حالٍ عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل معرفتَه وحبَّه بينه وبين أوليائه نسبةً موصِلَة، واختارَ من خيار أصفيائه قوماً أهَّلهم لشهود أحديةِ ذاته المبجّلة، المجلوّة في عرائس كمالِ جمالها على منصاتِ عجائبِ الإبداع المرقومَة في نسخةِ صحيفَة الوجود المسجّلَة، وقوّى قَوابلهم على حفظ ضَنائن أسرارِ وحْدة وجودِه الماحيةِ لآثار ونسبةِ الأفعالِ إلى غيره من الغَفْلة، المثبتة لانفرادِ لاهُوته الذي سبحَتْ بحمدِه ألسنُ الأعيانِ والآثار الثابتَة والمنتقلَة.

أحمدُه على أن جعلَ فينا من أولئكَ الأصفياء من حفِظ علينا نعمَة التوحيد عند عصْف زعازع رياح الظنونِ المزلزلَة، وحملنا بهم في فلكِ السلامة حينَ

هيجَانِ أمواجِ الأهواء والفتنِ المظَلّلة، فبأنوار شمُوسِ معارفهم أضاءَتْ لنا سبلُ الهداية التي هي بالفوز يومَ لقاء الله تعالى متصِلَة، وبفيض بحُور لطائفهم رَوِيتْ منّا صوادي القلوب التي هي على مُسْعِد حبِّهم مشتمِلَة، ولا إدلالَ لنا إليهمْ إلا من جهة المودّة التي أدخلتْ سلمانَ في العترَة المفضّلة، وإن كنّا من القساة الجهَلة، وأعمالُنا أعمالَ البطّالين والسفلَة.

شعرٌ:

نحن النحاسُ وأنتمُ الإكسِيرُ	ولنا الظلامُ ومنكمُ التنويرُ
يأبى عُلاكمْ أن يضيعَ محبكمْ	وينالَه بقصورِه تقصِيرُ
أنا جاركُمْ إن لم تجيروني فمَن	أرجُوه لي مما أخاف يجيرُ
سبقَتْ إليَّ لكم جميلُ عوائدٍ	عودُوا بها إني لكم لفقيرُ
جودوا عليَّ بفضلكم وتطوّلوا	فجنَابكم بالمكرُمَاتِ جديرُ

وأصلّي وأسلم على من نبأه الله تعالى وأرسلَه، وأعظمِ من أجلّه وكمّله، وأعلمِ من أطلعه على أسرارِه الخفية في آياته المنزلَة، سيدنا ومولانا محمد أعلى من أحبه وفضله، وأتم خلقه وعدّله، وحسَّن خلقَه وجمله، ويسّر دينه وسهّلَه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله الواردين منهله، والحائزين به من الشرف أوّلَه، وعلى أصحابه الذين هم لأعباء شرعه حمَلَة، ولمعارف علومه وأعماله الوراث والنقلة، وعلى مستودع دُرَر حقائق تلك المعارف والعلوم المنقولَة، وسادن خَزائن أسرار تلك اللطائف التي عليها ستائرُ الغيرَة الصمَدية مسدُولة، المترجمة عنها ألسُنُ الآثار المحمدية والأخبارِ الأحمدية المفعولة والمقُولة، أعني بذلك السادنَ لجواهر تلك الخزائن جهينةَ أخبارِها، وخرِّيت طرائقِ ديارها. شعراً:

[من بحر المنسرح]

مــن عــاذلي في الهيَــام والسُّكْرِ بالــشُّرْبِ لا مــن محرَّمِ الخمْــرِ
هــل مــن سُــلافٍ ينَـالُ شـارِبُها بهــا الرِّضَــا مــن إلهــه الــبَرّ
سُــلافةٌ مــن صِـفاتِ سـيِّدنا قطْــبِ الزَّمَـانِ ومُفْـرَدِ العَـصْرِ
غــوثُ الأنــامِ الــذي منافعُــه في كــل قطْــرٍ إلى الــورَى تــسْري
بحْــرٌ مــن الـسرِّ مــا لَــهُ طـرَفٌ لــذاكَ يُــدْعَى حــسَنَ البَحْــرِ
يا لكَ مــن عــارفٍ بـه ازْدهـرَتْ حقــائقٌ مــن غــوامضِ الــسرِّ
واتــضَحتْ منــه كــلّ مبهمَــةٍ مــن الطريــقِ المُهْمَــهِ الــوَعِرِ
طرقَــــةٌ جــــاء بهَــــا بهمّتِــــه وجــالَ فيهــا بالجــدِّ والــصّبْرِ
تجرّعَــــتْ نفــــسُه العليــــةُ في سُـــلوكِها كـــلَّ علقَـــمٍ مُـــرِّ
حتــــى ارتقَـــى ذرْوةَ مواردِهـــا عــينَ اليقــينِ مــن عَــالمِ الأمْــرِ
فقــــامَ فيهــــا تحفّــــه زُمَــــرٌ مــن شَــاربي سلـسَلِها العِطْـري
وحَاز فيهـا سـبقاً ولم يـكُ في الْــ ـــورَى غــيرَ المقَــدَّمِ الــصّدْرِ
أبقَــاهُ فيهَــا فنَــاؤهُ وصــحَا بـــالمحْوِ لمـــا أفَـــاقَ بالـــسكْرِ
عزيــزُ أحوالِــه ينَــشّأ مِــنْ عَـــالي مقاماتِـــه بـــلا نكْـــرِ
مــا نــالَ ذا غــيرُ ذي مجاهــدَةٍ تــذوبُ منهـا جَلامِـدُ الـصّخْرِ
فـــلا يبَـــالي بـــما تحمّلـــه في نيــلِ مطلُوبِــه ولا يَــدْري

بَـلْ لَمْ يـزلْ طـائراً بأجنحـةِ الـ ـشّوقِ المُنحِّ من الهوى العُذْرِي

حتّـى إذا مـا انتهـى لمنصبِـه لمْ يـألُ جهـداً لله في الـشُكْرِ

وهكَـذا كـانَ سـيدي حسَـنٌ بلْ فوقَ هذا من غيرِ مَا حَصْرِ

مـا حَـدُّ فهمـي إذا أردْتُ لـه وصـفاً وصـاغَ نعُوتَـه فكْـرِي

يـا واحـداً لمْ نجِـدْ مُنَـاظِرَه معرفـــةً بالحقــائقِ الزُّهُـــرِ

يـا بَـدْرَ تِـمٍّ أضـاءَ في شرَفٍ مـن خـيرِ آلِ المـصْطَفى الطُهْرِ

لا زلْـتَ غوثـاً للخلْـقِ قاطبـةً بفَيضِ جُـودٍ من بحْـرِكَ الغَمْـرِ

وأسْـــألُ الله أن يمتّعَنَـــا منْـكَ بطُـولِ البقَـاءِ في العُمْـرِ

وأن يعيــدَ اجتماعنَــا بــك يَــا كهْفي ويـا ملْجَـأي ويـا ذُخْـري

إليـكَ أشكُو النّـوَى فلاعِجُهـا أحَـرُّ في مهجتـي مـن الجمْـرِ

بعـدْتُ عـنكم بـشُؤمِ مُكتَسَبي عقوبـــةً لي بـــسيِّئِ الـــوِزْرِ

إذْ لمْ أكُـــنْ صَـــالحاً لقـــربكمُ رُميـتُ مــنكم بالبعْـدِ والهجْـرِ

فـالعينُ عـبْرَى والقلـبُ محـترِقٌ فوَاضَــــانِي فــيكمُ وواحَــرّي

وكنــتُ ممــن لــه بكُــمْ نــسَبٌ متـصِلٌ فهـو منتهَـى فَخْـري

نـــسبةُ ودٍّ في كــــلِّ جارحَــــةٍ منـي وعُـضو مياهِهَـا تجْـرِي

لا يَعْتريهـــا تغـــيّرٌ أبـــدًا لحـادثٍ مــن طـوارقِ الـدّهْرِ

فلاحِظُــوني بهــا وإن عَظُمَــتْ جنَــايتي واتــصَفْتُ بالغَــدْرِ

هَــا أنــا العبــدُ جئــتُ معتَـذِراً مــن الإسَــاءةِ فــاقبلُوا عُـذْرِي

ولاطِفُـــوني واحملُـــوا ثِقَـــلي مــن المعَــاصي وخَفّفُـوا ظَهْـرِي

إني فقـــيرٌ إلى نـــوالكُمُ فـــاغنُوا بفـــضلِكُمْ فَقْـــري
إني أسِـيرُ هـوًى ضَـعيفُ قُـوًى فأنقِـــذُوني وأطلِقُـــوا أسْرِي
بـالله ثـم بجَـدكُمْ وبكـمْ أسـألكُمْ تنظـرون في أمْـرِي
ثـمّ الـصلاةُ مـع الـسلام عـلى عَـالي الـسّجايا والـشّأنِ والقَـدْر
محمّـدٍ أكمَـلِ الـورَى شرفـاً الـشّافعِ المـستجابِ في الحـشْرِ
صـلّى عليـه الله ثُـمّ عـلَى عترتِـه والـصّحَابة الغُـرّ
مـا هتفَـتْ في الـضّحَى مطوقَـةٌ ومـا جَـلى الليـلَ طـالعُ الفَجْـرِ

* * *

أجملتُ مَطْلوبي وفيكَ فَطانةٌ

وقال رحمه الله تعالى:

«هذه صدرَتْ مكاتبةً أرسلتها إلى المولى الجليل، والقطب الحفيل، السيد العارف بالله والدال عليه، الحبيب الحسن بن صالح البحر الجفري علوي، أمتع الله به، ونفعنا به آمين. وكان إرسالها إليه من بندر مُنْبي، في شهر رجب الأصب عام ١٢٤٩، إلى بلد شبام، من أودية حضرموت، حرسها الله، وعمرها بساكنيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً تطوَى به مسافةُ عقباتِ الوصل والوصول، وتناخُ به مطايا السلوك المجدّة بجدِّ الجذْب في أفياء أفنية القرب والقبُول، فترتعي أزهارَ رياض الأنس، وترتوي من رحيق حضرة القدس، مستبشرةً بالحصول على نهاية المأمول، يناديها منادي تلك الحضرة، أن لا تخافي ولا تحزني وأبشر بنيل ما لا تتوهمه خواطرُ الأفكار ولا تكيفه هواجس العقول. فحينَ طاب لها القرار فلذَّ لها الاستقرار، نوديَتْ: إلا إن قدامك ما تطلبين، وأمامكِ ما تبتغين، من الطلب والسول. فأخذت ترقَّى في درجات المعارف، وتتغذى بعجائبِ اللطائف، طائرة بأجنحة الشوق إلى المقعَد المأنوس المأهول.

فحينَ حصَلت في مقاماته، وترقَّت على معارج درجَاته، أخذها أخذُ

الحيرة والذهول، فأمست غارقةً في بحار الأحَدية، تائهةً في فضاء الأحدية، وقد تجلتْ لها حقائقُ التوحيد الثابتِ بالنصُوص والنقُول، وصارتْ حيرتُها عينَ الهداية، وباديتها حقيقة النهاية، حين وقعت من شاهق نُور الجمال، المحتجِب عن الإدراك بسرادق العظمَة والجلال، على أعظم مقصودٍ وأجلّ محصول.

والصلاة والسلام على ترجمان الأسرار اللاهوتية، ومطلع شموس الأنوار الرحموتية، وخازن كنوز العرفان....[1] وخزائن الرَّحمة المدرارِ الهطول، صلى الله وسلم على محمد أشرف عبدٍ وأعرَفِ رسُول، وعلى آله السادات المثول، وأصحابه القادة العدول. وعلى مجمعِ سر المعارفِ، وكنْز مخبآت اللطائف، كعبةِ الساجدِ والطائف، وكهف اللاجي والخائف، ساقي حانَة حضرة المقعدِ العنديّ، وحادي نياق الهمم الراحلة إلى مشاهدة نور الجمال القَبْليّ والبعديّ، مترجِم لسَان الحقائق الغامضَة، وكاشف نقابِ الدقائق المتعارضة:

من لا أطيقُ ولا يطيقُ لوصِفه ... من رامَه لو أنه المنطيقُ
أنى أكيّف فضلَه وكمالَه ... تالله إن القولَ عنه يضيقُ
فنهايتي فيه التحيُّر عالماً ... إني لمدْحِ عُلاه لستُ أطيقُ
لكن على قدري سَأمدحه بما ... هو في عُلا الفهمِ السّقيم يَليقُ
فأقول إجمالا محبُّ الله بَل ... محبوبُه والعاشقُ المعشوقُ
بحرٌ ولكن في المعارف زاخرٌ ... بدرٌ ولكن في العُلاء شَروقُ
.....[1] رد المجلّي وحده ... والكلُّ من أكفائه مسبوقُ

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل المخطوط.

(١) كلمة غير واضحة في الأصل المخطوط.

مَـن لا يـرَى في الله لومـةَ لائـمٍ ... مـن خلقِـه فكأنـه الفـروقُ
العابدُ السجاد في غسَق الدُّجى ... العـارفُ المتحقـق الصِّدِّيقُ
نلنَـا بـه مـا فاتنـا ممـن مضى ... فلنَـا سريٌّ مـثلَهم وَشَـقيقُ
أضحَى يترجم بيننا واعتاصَ مِن ... أفهمنـا ممـا اعـتراهُ عمُـوقُ
فرأيتنـا نختَـال في بركاتِـه ... الوقتُ أزهَرُ والشرابُ رَحيقُ
يـا أيهـا السـاقي المدامـةَ هاتهـا ... صـهباءَ يطـرِبُ شِربُهـا ويـروقُ
إني صـديتُ فلـم أجـدْ لي سـاقياً ... فعسَى ترويني فأنـتَ شـفيقُ
وتغنَّ لي بالله يـا حَادي السرى ... فلقَـد بـدا للشَّوق فيَّ حريـقُ
مـا شـاقَ قلبـي في المنـازل كلهـا ... إلا العـذيبُ ورامَـةٌ وعقيـقُ
مـن لي بـأنْ أسـعى لهـا ومطيّتـي ... تشكُو كَـلالاً والطريـقُ سـحيقُ
فيها الأسـودُ الضارياتُ وحولهـا ... شغبُ اللصوصِ ودونَها التعويقُ
لكنني ماعشْتُ أسْعَى نحوهـا ... الشوقُ يحـدوني لهـا ويسـوقُ
أرجـو بـأن أدْعَـى إليهـا دعـوةً ... منهـا يكـون مجيبهـا التوفيـقُ
فاطوِ السباسِبَ أيّهـا الساري إلى ... تلك الربـوعِ ولا تهُلْـكَ طريـقُ
واصِـلْ غـدوَّك بـالرواحِ وسرْ إذا ... جنَّ الدُّجَى والعزْمُ منـك وَثيـقُ
وارحـلْ ولا تكسَلْ ولـو متفـرِّداً ... مهمـا تعـذَّر صـاحبٌ ورفيـقُ
فلقد عرَتْ تلك المسالكَ وحشَةٌ ... حتـى كـأن لم يغشَهنَّ طَـروقُ
قعدتْ بنا عنهـا البطالـةُ والهوَى ... وزخارفُ الآمـالِ وهـي تعـوقُ
فعسَى مـن الرحمن جذبـةَ رحمـةٍ ... وعنايـةٍ تـأتي لنَـا وتَسُـوقُ

وعسَى يـديرُ الكـأسَ دائرُهـا لنـا ... فنغيـبَ حتـى لا نكـادُ نفيـقُ
نفنَـى ونحيـا بالفنَـاء فتنمَحـي ... أوصـافنا فـيُرى لنـا التحقيـقُ
تلك المشاربُ ذو صديتَ لـشربها ... تلـكَ الموائـدُ ذو لهـنَّ أتـوقُ
لكـن جعلـتُ وسيلتي في نيلهَـا ... مـنهنَّ مـصطَبحٌ لنـا وغبـوقُ
حسَنَ ابنَ صالحِ الذي هو كاسمه ... بحـر طمَـى بالمكرمـاتِ دفـوقُ
بحـر المعـارفِ واللطـائف طـافحٌ ... مـن فيـه درّ حقـائقٍ منـسُوقُ
علـمٌ منيـفٌ عـارفٌ مـتمكّن ... في الجـودِ والمجـد الأثيـلِ عريـقُ
قـرْمٌ نمتـه سُـلالة في مـدْحها ... نزل القُران الـصادقُ المـصدوقُ
آل الحسينِ مـشارقُ النـور الـذي ... في الخـافقينِ لـضَوئهم تطْبيـقُ
سِـيما بنـي علـويِّ الغـرِّ الأولى ... لا ينتهـي أخبـارَهم غرنـوقُ
يُمْنُ النقائـبِ، كـلّ عـالٍ دونَهـم ... دانٍ وكـل مـشمِّرٍ مونـوقُ
مـا جـدَّ ذو جـدٍّ فنـالَ كمالهـم ... أبـداً وكيـفَ يحـاول العيُّـوقُ
فهمُ الأمـان مـن المخـاوفِ كلهـا ... في الأرضِ هم حرْزٌ لهـا ووثـوقُ
اللفْـظُ ينفَـدُ والقـرائحُ تنتهـي ... عن حصْر ما أولُوه وهـو عميـقُ
يـا آلَ بيـت محمـدٍ إني بكُـم ... كلِـفُ الفـؤاد ولي بكُـمْ تعليـقُ
يا آلَ بيت المصطفى حبِّي لكـم ... طبـعٌ بغـير تكلـفٍ مخلـوقُ
يـا آلَ بيـت المجتبـى إني لكـم ... مـا عـشتُ عبـدٌ طـائعٌ ورفيـقُ
فتوسَّـلوا للعبـدِ في إنقـاذِه ... مـن لجـة الآفـاتِ فهـو غريـقُ
يـا أيهـا الـسندُ الـذي مـا غـيره ... يدعَى إذا الحالُ اعترَاهَـا الـضيقُ

أجملتُ مطلوبي وفيك فطانةٌ ... يا ابن الرسول يضيرُها التفريقْ
فأغثْ وقمْ وانهضْ وأسرعْ وانتقِذ ... عبداً بحبلِكَ حبلُه ملفوقُ
والأمرُ لله الذي جلَّ اسمُه ... لكنَّ جاهَك في رضَاهُ طريقُ
دُمْ وابقَ واسلَمْ واسمُ واعلُ وطُلْ ... يا عارفاً للعارفين يفوقُ
وختمتُ قولي بالصلاة على الذي ... يرجَى إذا جافَا اللسانَ الريقُ
محبوبُ ربِّ العالمين محمدٌ ... نُورُ الإلهِ وحبلُه الموثوقُ
صلى عليهِ الله ما ابتكر الصَّبا ... سحَراً وما شدّتْ إليه النوقُ

أعني بما ذكرتُ، وأقصد بها حررتُ، من هو أعلى مما وصفتُ، وأرفعُ مما عرّفتُ وعرفت، المشارُ إليه بالبنان، في مقام الإحسان، والمبرّز في كل ميدان، من ميادين العرفان، مولانا وسيدَنا، وذخيرتنا ومعتمدنا، بدر الوجود، وقطبَ رحى الشهود، والفرد الجامع، والحسام القاطع، والركَام الهامع، بغيوثِ المنافع، للدّاني والشاسع، الشريف ذاتاً وأصلاً، المنيفَ أرومةً ونسلاً، الحبيبَ العارف بالله والداعي إليه والدال عليه، الحسن بن الحبيب صالح بن عيدروس بن أحمد البحر والجفري، متع الله تعالى بحياته، وأعاد علينا في الدارين من أسراره وبركاته، ونظمنا في سلك محبيه، وسلك بنا مسالك من أوصلهم إليه من صالحي مريديه، حتى يدخلنا في جيل من يحبه ويجتبيه، ويختاره ويرتضيه، آمين آمين».

* * *

فَمـا هو إلا محضُ نفْعٍ خصَائلُـه

وقال رحمه الله تعالى:

بـأي لـسَانٍ يـنظمُ المـدْحَ قائلُـهُ	لشخص له لبُّ الكمالِ وحاصلُهْ
جليلُ صفاتٍ أفحمَتْ كل واصفٍ	دقائقُـه عِيًّـا فكيـفَ جلائلُـهْ
بعيـدُ منـالٍ فـضلُه متعـذرٌ	على من علا ظَهْرَ السِماكِ تناوُلُهْ
تقاصَر فهمي عن مداركِ فضلِهِ	فكيف يجيدُ الوصفَ من هو جاهلُهْ
فغايةُ مما عندي من الفهم ينتهي	بأصغر وصفٍ للحبيب يقابلُهْ
ولكن على قدْري أقولُ تيمناً	بـه لا علَى من تستحقّ فضائلُهْ
تفكرتُ في معنى اسمِه البحْرِ إنه	أي البحْرُ هـذا قاصرٌ لا يماثلُهْ
ملوحتُـه والـريحُ فيـه تهيجُـه	فيبدي جفاءً حين تغلي مراجلُهْ
ويفجـعُ أحيانـاً ويغـرقُ مـرةً	وقـد كثُـرتْ آفاتُـه ومهاوِلُـهْ
وسـيدنا بالـضدِّ ممـا ذكرتُـه	فما هـو إلا محـضُ نفـعٍ خصَائلهْ
ولكـن بَـدا لي أنـه باتـسَاعه	بدا الشبْهُ والمفضولُ يمدَح فاضلَهْ

* * *

لم يبْقَ لي في سِوَى الرحمنِ منْ أملِ

وقال رحمه الله تعالى في أثناء مكاتبة لوالده عمر بن سالم باذيب، مطرزة بذكر السيدين الإمامين: أحمد بن عمر بن سميط، والحسن بن صالح البحر، ووالدِ الناظم رحمهم الله:

لم يبقَ لي في سوى الرَّحمن من أملِ ... وإن أسأتُ وإن أسرفتُ في عمَلِ

إني على ثقة في من أؤمله ... أن لا يخيبَ من إحسانه أملي

أقول في كلّ حالٍ يا كريمُ ويا ... من يكشفُ الضرَّ عن راجيه في عَجلِ

قد مسني الضرُّ فارحَمني وخذْ بيدي ... من عثرتي واعْفُ عن ذنبي وعن زَللي

وإن لي مهجةً ذابتْ بنار أسًى ... لبعدِ ترياق ما عندي من العلَلِ

من حبهُم في مجاري الروحِ من بدني ... يجري وهم نونُ عينِ القلب والمقَلِ

مثل الشهاب إمامِ المسلمين وقطـ ... ـب العارفينَ وحاوي سرِّ كل ولي

شمسُ الشريعة أستاذُ الطريقة تيَّـ ... ـارُ الحقيقة حقًّا وارثُ الرسلِ

كذاك بدر الهدى أعني به حسناً ... عالي المقام ملاذ الخائفِ الوجلِ

بحرُ الندى كاسمِه طودُ الحجَا علمُ ... الحقِّ المبين بلا شكٍّ ولا جدَلِ

ومثل أقصَى مرامي والدِي وأبي ... كنزي وحرزي وعزي راحتي أملي[1]

---

(١) في نسخة: جذلي.

أبقـاهمُ الله في خـير وعافيـةٍ ولـفَّ فضلاً بهم شملي بلا زَعلِ

فإنني مذ نأوْا عنّي حليفُ شجًى وحسرةٍ وبحُزنٍ غير منتقِلِ

فالله يكشفُ أحزاني ويفرجها بقُربهم في نعيمٍ طيبٍ خضِلِ

* * *

بحرُ المعارفِ

وقال رحمه الله تعالى: «صدرَ مكاتبةً إلى سيدي القطب الرباني العارف بالله، بركة الوجود، إمامنا وأستاذنا، الحبيب حسن بن صالح البحر الجفري:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله حمداً أتوصّلُ به إلى رضاه، وأفوضُ أمري إليه اعتماداً على ما قدره وقضاه، وأصلي وأسلم على حبيبه ومرتضَاه، ورسوله الذي جعله سيفاً على أعدائه سلَّه وانتضَاه، سيدنا محمدٍ المرشد إلى ما يحبه الله ويرضَاه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى هديه وعمل بمقتضاه:

وعلى إمَام أئمةِ الإسلامِ	وفريد عقد الصّفوة الأعلامِ
قطبِ الوجُود ومنتقَى أعيانِه	غوثِ اللهيف وكهفِ كلّ مضامِ
بحر المعَارف منتهى طلابِه	كنز اللطَائف مهْبط الإلهامِ
حسنُ بن صالحٍ الذي أيامُنا	تزهُو به شرفاً على الأيامِ
حاوي علُوم معارفٍ قدْسيةٍ	عاصَتْ مداركُها على الأفهامِ
مبدي معَاني مظهر الأسْماء	قدسِ الصّفاتِ بسابقِ الأحكامِ
إن الحقائقَ يبتدرْنَ مقالَه	مهما تفوَّه ناطقاً بكَلامِ

في عَصرنا بمقالِه وفعالِه ... وبحالِه يأتمُّ كلُّ إمامِ

فالله ينفعُنا به ويخصُّنا ... مما لديهِ بأوفرِ الأقسامِ

قد طالَ منه بعادُنا فقلوبُنا ... ظمْيا لوِرْد نداهُ مُروي الظّامي

فعسى لنا يقضي الإلهُ بقربِه ... ولقائِه المأمولِ كلَّ مرامِ

بالمصطفى خيرِ البريّة جدِّهِ ... نورِ الهدى الجالي لكلِّ ظلامِ

أزكى صلاة الله تغشى روحَه ... أبداً يقارنُها أجلُّ سلامِ

* * *

فصلٌ
في المراثي التي رُثِيَ بها رحمه الله ونفعنا به

أفلت شمسُ المعارف[1]

وهذه مرثيةُ الحبيب العلامة محسن بن علوي السقاف، في شيخه سيدنا الحبيب الحسن بن صالح البحر الجفري، قال نفع الله به:

لقد أفلتْ شمسُ المعارفِ والحكَم   وغاضَتْ بحورُ الجودِ والفضل والكرَمْ
بموتِ إمَام العَصر فردِ زمانِه   أبي صَالحٍ غوث الورَى بحرِنا الخضمْ
هو القطبُ حقاً والشواهد أفهمتْ   بذاك ذوي الأفهام لا العميُ والبكمْ
بكىَ الوادي وجْداً من فراق إمامِه   وجهبذِه الداعي إلى أقْوم القيَمْ
وحقّ له والساكنين به البكاء   على ذلك القَمقامِ والمفرَد العلمْ
فيا عين سحّي لا تشحّي بمدمعٍ   على حسن الأخلاق والوصف والشيَمْ
على مُطعمِ المسكينِ ثم يتيمها   لوجه كريم الوجه يرجُو الجزاء ثمّ
على كعبة القصّاد من كل وجهةٍ   وملتزمِ الراجينَ من كلّ ملتزمْ
على الزاهدِ العبّادِ لله ربّه   على الراكعِ السجّاد في غيهَبِ الظلمْ

(١) ديوان الحبيب محسن بن علوي السقاف: ص٣١٥.

بـــراه إلـــه العـــالمين لخلقِـــه صَـــلاحاً ونفعـــاً تامـــاً للعبَـــاد عـــمّ
لِيـدي مـن العلـم اللـدُني جـواهراً لـه علّـمَ الـرحمنُ مـن غـير مـا قلـمْ
لَـئِن دفنُـوا تحـت الـتّرابِ جمالـه فـما دفنُـوا منـه الـشمائلَ والحكـمْ
وإن غـاب عنّـا وجهـه وشـهودُه فـما غابـت الأسرار مـن نـوره الأتـمّ
فيـا سـيداً سـاد الـورى بكمالـه ويـا ماجـداً تـزري عطايـاه بالـديمْ
سـألتُ إلـه الخلـق يفـرغ صـبره الـ ـجميل علينـا والثبـات عـلى القـدمْ
صراط الـذين أنعمـت ربي علـيهم مـن الأنبيـاء والـصالحينَ مـن الأمـمْ
وتبقـى مـن امثـالِ مـن مـرَّ ذكـرُه بوادي الندى واجبر من الدينِ ما انهدمْ
ومـن علينـا بالـصلاح وفتحـك الـ ـقريب ونصراً منـك يـا بـاري النـسمْ
وأن تتوفانـــا عـــلى خـــير ملّـــةٍ وسائر أهلينـا كـذا الـصحْب والخـدمْ
إلهـي وسـخر واليـاً عَـادلاً لنـا يكـفّ الأذى عنـا ويرفـع مـا ألمْ
وكثـر دعـاة الخـير في كـل معهـدٍ ووفق وسدد واصلحِ الكـلّ يـا حكَـمْ
ومن بشرح الـصدر يـا رب واهـدنا إلى مـا بـه تـرضَى مـع الـشكر للـنعمْ
وإن شـئت تاريخـاً لمـوت حبيبنـا فخـذه بهـذا حـسْبما جـاء وارتـسمْ
فبالأربعـا ثالـث عـشرين قعـدة بعـام ثـلاثٍ بعـد سـبْعينَ قـد هجـمْ
عليـه رسُـول الـربِّ يحـدو بروحِـه إلى جنـة الفـردوسِ والحـورِ في الخيـمْ
أرجّـي بطَـه والبتـولِ وبعْلهـا ومـن ولَـدا والحـسن البحْـر والحـرَمْ
مـن الله تفـريج الكـروبِ ومـا طـرَا وما بالورَى من حـادثٍ في الـبلادِ طـمّ

وعافيــة والعفــو عــن كــل زلــة   ورفْــع البلايــا والأذيــات والســقمْ

وصلّى إلهي كــل وقــت وســاعةٍ   على المصطفى المختار من أحسَنِ الأدمْ

مع الآل والأصْحابِ مــن كــلِّ تَابعٍ   عــلى قــدَم التــصديق يالَــكَ مــن قدمْ

* * *

نبذةٌ من كَلامِ ومَواعظِ
الإمام الحسن بن صالح البَحْر الجفْريّ

جمعَها تلميذُه الحبيب العلامة
عبد الرحمن بن علي بن عمر السقاف
(ت ١٢٩١هـ)

تمهيد

هذه نبذة مباركة من كلام الإمام الحسن بن صالح البحر، نفع الله به، جمعها تلميذه الحبيب الجليل عبد الرحمن بن علي بن عمر السقاف، (ت ١٢٩٢هـ)، وهو من خواصّ أصحابه، ومن المنقطعين والمنتسبين إليه. قال ابنه العلامة الحبيب أحمد بن عبد الرحمن (ت ١٣٥٧هـ) في «الأمالي» عند ذكر شيوخ أبيه الحبيب عبد الرحمن: «ومنهم: الحبيب الإمام الجامع، القطب الكامل، ذو الكرم الفائض، والعلم الغزير، الحبيب الموهوب، الزاهد الكريم، حسن بن صالح البحر الجفري، رضِيَ الله تعالى عنه.

فلقد كان كثير الأخذِ عنه، والسؤال منه، وكان لا يتخلّف عن مجلسه، ولقد نقل عنه كثيراً من العلوم، من فتح الحي القيوم، وله منه الإجازات الكثيرة، منها إجازته في ذكر التوحيد: «لا إله إلا الله، لا معبود إلا الله، لا إله إلا الله، لا مقصود إلا الله، لا إله إلا الله، لا موجود إلا الله، لا إله إلا الله، لا مشهود إلا الله». ومنها: إجازته في ذكر المعية: «الله معي، الله شاهدي، الله ناظري إليَّ، الله قريب مني..»، إلىٰ آخر»[1].

النسخة المعتمدة:

تم الاعتماد على نسخة حديثة النسخ من هذا الكتاب، مكتوبة بقلم السيد محسن ابن سالم العطاس (ت ١٤٢٤هـ)، تقع في ٤٤ صفحة، فرغ من نسخها في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٤٠٣هـ، وقد لها بمقدمة قال فيها:

---

(١) السقاف، أحمد بن عبد الرحمن، الأمالي، علق عليها طه بن حسن السقاف، (تريم، دار الأصول، د.ت): ص٤١.

«الحمد لله ربّ العالمين، وبه نستعينُ، ونصلي ونسلّم على سيد المرسلين سيدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين، ورضي الله تعالى عن التابعين، وأجلّهم السادة الحسينيين العلويين الحضرميين.

وبعدُ؛

هذه نبذة وجيزة مما يلقيه في مواعظه ودروسه، الحبيبُ العارف بالله ورسوله، سيدي الحسن بن صالح بن عيدروس البحر الجفري العلوي، المقبور في بلدة (ذي أصبح)، بوادي حضرموت، وقد جمعها الحبيب العلامة عبد الرحمن بن علي السقاف.

وقد وصلت إلينا هذه الدرر من بيت الولاية في بلدة (موشح)، من أعمال (وادي بن علي) بحضرموت، من أبناء سيدي الوالدِ أحمد بن حسين بن محمد العطاس، بعد أن طلبتُ منهم ذلكَ، وقد نسخها لهم أحدُ النسّاخ في دفتر مدرس صغير، والقلمُ ركيك، لذلك حتّم عليَّ واجبُ محبة وتعلّقٍ، واعتقادي في سيدي الحبيب الحسن بن صالح المذكور، أن أكتبها في هذه الكراريس، عسى أن يكون الخط أوضح، والقرطاس أحسَن، وعسى أني قمتُ ولو بجـزءٍ وجيز في خدمة نشْر علم هذا الحبيبِ، حتى أنال بركته، والدنو منه في مقعدِ صدقٍ عند مليك مقتدرٍ، وقد أسميتُه: «نور للقلوبِ يضي»، انتهى.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الحبيبُ حسنُ بن صالح رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أنعمت عليهم﴾، في الدنيا: بالقرب، والمعرفة، والأنس، والمحبة، وفي الآخرة: بكمال الرؤية، والمشاهدة، والخلودِ بجوَاره.

• • •

وعلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: الطريق المستقيمَ من بين طرقهم، فإنه ﷺ لما كانت روحُه أبو الأرواح، نسخ الحقُّ له جميعَ شرائعهم، وما جرَى لهم ومنهم وبهم، فاهتدَى بالهدَى الأقوم، كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

ولذلك امتدَحه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ثم قال له: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾. وقد استعظَم أصحابُه رضوانُ الله عليهم هذا الأمرَ، فقالوا له: كُلِّفْنا ما لا نطيقُ، فأرشدَهم ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، إلى آخر السورةِ، بالاستعانة به تعالى، فأهَّلهم ربهم لذلكَ. لأن كلياتِ توجُّهَاتهم إلى ربهم [١/١] والدار الآخرةِ. وقد كانوا، رضِيَ الله عنهم، يتدافعون السيوفَ. وإذا استشهدَ أحدُهم يقول: «فزتُ وربِّ الكعبة». ويشمون ريحَ الجنةِ. وقد أشار إلى ذلكَ في قوله

تعالى في حقهم: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: البقاءَ فيها للجهادِ والاستكثار من الخيرِ، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، يعني: تعجيلَ الشهادة في سبيل الله. **فالأولُ**: مقَامُ الأقوياءِ، **والثاني**: دونَ الأول.

* * *

وقُرِئ عليه رضِيَ الله عنه في بعض كتُبِ الحديثِ حينما جَاء ذكرُ عزم وهمّةِ بعضِ الصحابة على كثرة العبادَة والصيامِ، وإنكارُ الحبيبِ الأعظم ﷺ لذلكَ، وإرشادُهم إلى سنّته، فقالَ الحبيبُ حسن: ليس محمُوداً الإفراطُ ولا التفريطُ، وإنما تحمَدُ عزائمُ المجاهدَة على مقتضى السُّنة المحمديةِ. وقد يكون هناك من يخشَى قربَ الأجلِ وفُجْأته، وقَصُر منه أملُه، وأحب أن يتدارك ما فرَطَ منه، أو عليه، من عمُره، وما سبقَ منه من التقصيرِ، فلم يبالِ مع ذلك بنفسِه في رضَا ربه. أو قد يكون يرى من نفسه النشَاطَ وقوةَ الهمَّة في العبادة والمجاهدة، فيغتنمُ همةَ جَوادِه، على أنه يرى ذلك فضلاً ومنّةً من الله عليه، ويتوكّل على مولاه في دوامِ ذلك النشاطِ والهمة، ويرتبُ على نفسِه أعمالاً ثقيلةً، ثقةً بالله، وتوكُّلاً عليه في دوامها، ويشهد أن القائمَ بها إنما هو الحقُّ سبحانَه وتعالى، أقامَه فيها، ووفَّقه لها، وأعانه عليها، ويسَّرها له.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه على قولِ النبي ﷺ : **«عليكم من الأعمالِ بما تطيقون فإن الله لا يمَلُّ حتى تملوا»**[1]. نعَم! إن الحقَّ سبحانَه وتعالى لا يمَلُّ من إسداءِ الوارداتِ من الثَّوابِ والجزاء الموعُود على الطاعة والعبادة، حتى تملُّوا أنتمْ،

---

(١) متفق عليه.

وإذا حصلَ ذلك المَللُ منكُم، انقطعتْ عنكُم وارداتُ الجزاءِ والثوابِ، والسببُ في ذلكَ منكُم.

* * *

وعَن معرفة الخواطرِ؛ قالَ رضِيَ الله عنه: إنها تَميَّزُ وتُعرَفُ بالآثارِ، فالملائكَةُ تأمر بالعبادة، وخَاطر الحَقّ يرِدُ بالعلم، وخَاطر النفس يرِدُ بالأمر بالشهواتِ، وخاطرُ الشَهواتِ من الشيطانِ، يرد بالقَسوة والتكاسُلِ عن الخير، وارتكاب المعاصي.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه على قولِ النبي ﷺ : «إن المؤمنَ إذا حضرَه الموتُ بُشّر برحمة الله ورضوانه وجنته»[1]: إن أهلَ التفسير قَالوا في معنَى قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا [/٢١] بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: إن الملائكة تبشّر المؤمنينَ عند الموتِ، وقيلَ: وهُم في حياة الدنيا، بطريق الإلهامِ، بما لهم عند ربهم من النعيم المقيمِ.

* * *

وقال رضِيَ الله عنه عن صيامِ النفلِ: إنّ الشيخين العارفينِ الكبيرين، فتح الله، وأحمد بن إدريس، كلّ منهما يحفظُ «البخاريّ»، وإنهما تذاكرا في صيام النفل، إذا حضَر ضيافةٌ أو طعامٌ عند أحَدٍ، وأمرَه صاحبُ الطعام بالأكل، فأتى الشيخُ فتح الله بحَديثٍ عن النبيّ ﷺ من «البخاري» بالأمر منه بالإفطارِ، والشيخُ أحمد بن إدريسَ جاء أيضاً بحديثٍ عن النبيّ ﷺ مسنداً إلى «البخاريّ»: أنه إذا حضر وهو صائمٌ فليواصِل صومَه.

---

(١) متفق عليه.

وذكر بعضُ الحاضرينَ معتمَد الشافعيةِ: أنه إذا بايشُقّ على أصْحاب الطعام إمساكُ الصائم فالأفضلُ له أن يفطِر ويأكلَ من طعامهم.

وحينما سمِع بعضَهم يقولُ: لا أذاقك طعمَ نفسِك؛ قالَ: نعم؛ لأنكَ إذا ذقْتَ طعمها لم تفلحْ. والمرادُ بالذوقِ: استِحْلاءُ أعمالها، وما يصدر منها، أو ما هي عليه من الأحوالِ، ولا ينبغي هنا إلا الشكرُ لله، والخضوع له.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه على قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾؛ أي: فيما عزمْتَ وعلقْتَ المشيئة لله، والمرادُ: طلَبُ ما هو أقرَبُ مما عزمْتَ عليه رشَداً، وسؤالُ الخيرِ من ربه تعالى.

ثم حثَّ على التوبة الصَّادقة والرُّجوعِ إلى الله، والإنابة إليه، والتسليمِ له، والحذر من مخالفته تعالى ومتابعَة العدوِّ اللعين، والتبشيرِ لمن أطاعَه بالكرامَة والسعادة الأبدية، والفلاحِ والنجاةِ، لمن كان حيًّا بالإيمـان، لأن القلوبَ كالأشْجار، منها الحيةُ عروقُها فقط، ومنها الحيَّة عروقُها وأغصانها، ومنها اليابِسَة كلها. والدليلُ قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أي: بالإيمانِ والتصديق.

* * *

وفي أثنـاء القِـراءة عليه رضِيَ الله عنـه في «شرح الحكم العطَائية»، في مبحَثِ: أنّ البشرية لا تفقَدُ عند ظهور الـخصوصيةِ، إلا أنها تنغَمِر بنُور الخصوصيةِ وتُستَر فقَط، ومَثَّلها في شرحه: بظُهور النّهار وغرُوبه، ... الخ.

وقالَ: إنّ وصْفَ العبدِ، البشريَّ، لا ينعدِم، ووصفُ الحقِّ لا يصير وصفاً للعبدِ، بل ينغمِرُ وصفُه بنورِ المشاهَدة، ويظهر عليه كمِثْل ظهُور النَّار في الفحْمِ الأسْودِ، [٣/] ويبقى جرْمُ الفحْم.

* * *

وأثناءَ القراءة عليه في وصْف السالكين والمجذوبينَ، وبداياتهم ونهاياتهم، وذلك من «كتاب ابن عطاء الله الشاذلي»، **قالَ** رضِيَ الله عنه ما معناه: إن المجذوبَ مثلُ الذي يصعْد إلى أعلى البيتِ بسهولة وسُرعة، والسّالكُ مثلُ الذي يصعَد ويرقَى على قليلٍ قليل، بمشقة وطُولِ مدة، لكنه يكونُ أعرفَ بمدارجِ البيت ومنازِله ومعارجِه من المجذوبِ، إلا إنْ رجعَ وتدلى إلى أسفل البيتِ، وأمعَن النظر في منازِله، صارَ كامل المعرفة مسلَّكاً.

ثم قالَ: إن المجذوبين بداياتُهم نهايةُ السالكينَ، والمجذوبينَ يستدلونَ بكمال الذاتِ على الصفاتِ، وبالصّفات على الأسماءِ، والأسماء على الآثار والأفعالِ. والسالكون بالعكسِ. واستدلَّ في حقِّ السالكين بقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. واستدلَّ في حقِّ المجذوبينَ بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾. وليس التجَلي للمجذوبينَ حقيقةَ الذاتِ الإلهية، حاشَا الله تعالى أن يُدرِكَ كنْهَ ذاتِه أحدٌ من خلقِه، فإنه رفيعُ الدرجاتِ، إنما الذي يفاجئُ أهلَ الجذب نورٌ من أنوارِ قرْبه. **ومثالُه**: كالذي ينظرُ أثرَ الشخْصِ الناشئ عن مِشْيته على الأرض، فيرَى معناهُ فيه ويتحقّقه.

ثم قالَ: وهذا منَّا إلا كما قيلَ «رُبَّ عليمٍ حظُّه الخبَرُ»، لخلُوِّنا عن الحقائقِ والأذواقِ والأعمالِ، فإن هذه ما تحصُلُ ولا تصلحُ إلا بالكشفِ الذوقيِّ والعرفانِ، فإنها إذا صَحَّت المعاملةُ صحَّت المنازلةُ، وإذا صَحَّت المنازلة صحَّت المشاهدَة، فأفنت وأبقَتْ.

وإنَّ العوالمِ ثلاثةٌ:

١ـ عالم الناسُوتِ؛ وهو عالم المُلْكِ.

٢ـ عَالم الجبرُوتِ.

٣ـ عَالم الملكُوتِ؛ وهو الذي يصْدرُ منه الأمْرُ في عالم الجبروتِ، فيظهر أثرُه في عالم الناسُوتِ. مثلاً: الدّمعُ الذي يخرج من العينِ، ونحو ذلكَ، من ظهُور آثار الفَرحِ والحزْنِ، والله أعلَم، وأستغفر الله.

* * *

ولما تواتَرتِ الرحمةُ[1] وعمومها في (وادي حضْرموت) كله، قالَ رضِيَ الله عنه: لما حصَل الإقبالُ من الناسِ على الدين والطاعَة، أقبل مولاهم عليهِم بنزول الرّحمةِ مقرونةً بلطفه سبحانه وتعالى. ثم قالَ: إنّ ظلمةَ مخالفَةِ الأمر الإلهيِّ، وارتكابِ المناهي، أعظَمُ من مخالطة الأغيارِ [٤/]، ولا يجوز التّداوي بالنَّجَسِ في الشرعِ إلا عند فقد الطَّاهِر، وأما إذا لم تجدْ المباحَةُ، وتحقَّق أنه لا يشْفى له بحالٍ إلا بالمحرَّمة؛ فيتعاطَى ما يحصلُ به، وله العَفْوُ، كما وقعَ من بعضِهم، رضِيَ الله عنهم.

* * *

---

(١) المقصُود: الأمطار والغيث.

وقالَ رضِيَ الله عنه على قول الحبيبِ حامد بن عمر حامد في «وصيته» التي أوردها الحبيبُ عمر بن سَقاف في كتابه «تفريح القلوب»: «اشهدِ الخيرَ يَفِض عليكَ من الله كلُّ خيرٍ».

فقال: المطلوبُ من العبدِ أن يسألَ ربَّه أن يُشهدَه محاسِنَ الخلقِ، ويسترُ عنه مساوئهَم، لأنه إذا شهِد محاسنهم أحسنَ الظنَّ بهم، وما كان خالياً من تلك المحاسنِ اجتهدَ في تحصيلِه، وتوجَّه إلى ربِّه للتحقُّقِ به وحُصوله، لأنه لا يحصلُ له شيءٌ إلا باستِعانته بربِّه، فحينئذٍ ييسُّرُه الله له، ويبلِّغُه إياه، (ومن يستعن بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم)، «**كلكُمْ ضالٌ إلا من هدَيتُه فاستهدونِ أهْدِكُم**»[1]، وما كان من تلك المحاسِن عندَه أحسنُ منها وأكمَلُ، فعليه طلَبُ المزيدِ منها، ويشكرُ الله على ما منحه من التوفيقِ، وأن الله خصَّه بذلكَ، فيظفرَ بالمزيدِ، ولكن لا يدخلُه العجُب من ذلكَ، ويرى نفسَه زائداً عليهم، فيدخله الكِبْرُ بسببِ ما منحه الله، فإنه وهُمْ في أسْرِ القَهْرِ والقدَرِ والمشيئةِ الإلهية، ويَخشَى أن يسلبه الله ذلكَ ويمنحَهم محاسِنَه، ويُوقِفَه في مساوئهمْ، أن يتخلَّق بأخلاقِ ربِّه الرحيمِ في السَّتر عليهِم، والرحمة التامّة بهمْ، فإنّ ذلك سِرٌّ ائتمنَه الله على سَتْرِه، ويشفقُ عليهم من العذابِ.

فيدعُوهم ويأمُرهم وينهَاهم، بباعث الرحمةِ والشَّفقةِ والموعظة الحسنَة، بالتَّعريضِ ونحوه، ويكونُ ذلك في السِّر، كما كانَ يدعو بِه النبيُّ ﷺ بقولِه: «**ما لأقوام يفعلون كذا**»[2]، «**لينتهِينَّ أقْوامٌ**»[3]، ونحوُ ذلكَ، بالرفق واللطفِ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) كما ورد في عدة أحاديث صحيحة.

(٣) كما ورد في عدة أحاديث صحيحة.

كقوله ﷺ: «**لا تذرُوا عليه بولَه**»[١]، فإنما كانتِ الدعوةُ بباعثِ الرحمةِ انتفعَتْ بها القلوبُ الحيَّةُ بالإيمانِ، وخضَعتْ لها النفوسُ، لقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [٥/أ].

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه على قولِ النبي ﷺ: «**مَن رأى منكُمْ منكراً فليغيِّره بيدِه**»[٢]، .. الخ.

«**يغيِّره بيدِه**»: وهذا في حقِّ السلاطينِ والأمراءِ، أو «**بلسَانه**»: وهذا في حقِّ العُلَماء والدُّعاة، أو «**بقَلبِه**»: وهذا في حقِّ بقية المؤمنينَ، وهذا أضعَفُ الإيمانِ، لأن أدنَى مرتبةِ الإيمان الكراهةُ القلبيةُ، مع المفارَقة وعدَم المخالطةِ، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

فقال له بعضُ الحاضِرين: إن الشيخَ الشعرواويَّ ذكَر عن بعضِهم وجهاً في قوله: «**فبقلبه وذلك أضعفُ الإيمان**»، بمعنَى: أنه يغير المنكَر بقلبه بالتوجُّهِ إلى ربهِ إن كان من أهْل القلوبِ، وبذا يصير قولُه: «**أضعَفُ الإيمانِ**»، يعني: أقواه وأعلاهُ، أو ما هذا معناه.

فقالَ: إن هذا منافٍ لكلامِ أهل الشريعَة، وإنما التغييرُ المذكورُ إنما يكون بالوُجهة للوَليِّ بمقتضى الإباحَة فقطْ، بخِلاف النبي ﷺ، لأنه بالتحدِّي.

---

(١) حديث بول الأعرابي في المسجد متفق عليه، ولفظ البخاري: عن أبي هريرة قال: قام أعرابيٌّ فبالَ في المسجد، فتناوله الناسُ، فقال لهم النبي ﷺ: «**دعوه، وهَريقُوا على بوله سَجْلاً من ماءٍ، أو ذَنوباً من ماءٍ، فإنما بعثتُم ميسِّرينَ ولم تبعَثُوا معسِّرين**».

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فقيلَ له: رُبَّما قد يطلَبُ التوجُّه من الولي.

فقالَ: عند الإذن الإلهي وظهور الأمر الرباني يطلبُ، وقد يلزَمُ، وقد يأثم؛ كَما إذا سأَل إهْلاكَ قريةٍ. والذي ينبغي: أن يشهَد فعْل الله فيهم، ويغيبُ عن تسبُّبهم، ويرجو أن يخرِجَ الله من أصلابهم من يعبدُ الله، وأما إذا حصل الإذنُ، والأمر الإلهيُّ، فيجوزُ التوجُّه بالشَّفاعة لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه على قول النبي ﷺ: «من ماتَ لا يشرِكُ بالله شيئاً، دخلَ الجنةَ، وإن زنَى وإن سرَقَ»، كرَّرَ ذلك ٣ مراتٍ.

فقالَ: إن من ثبّت الله قلبَه بنُورِ الإيمانِ في الأزل، لا يضُرُّه العصيانُ، لأن الخاتمة ستكونُ على مقتَضى السابقةِ، ولأن ما كان من الأعمالِ الظاهرة يعملُها الإنسان بِقصد الدنيا وزهرتها ووجاهتها وأغراضها الفانيةِ، يكتب في الصحيفَة، وينسلخ بانسلاخِها والخروج عنها. وما كان من الأعمال يعملُه بقصد وجْه الله، فيكتَب في أمِّ الكتابِ عندَ الحقِّ تعالى. هذا معنى كلامه، أو قريب منه، ونستغفر الله. واستدلَّ بقوله ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى»، .. إلى آخر الحديث، وبقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الآية، ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، إلى قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

وعندَ ذلكَ سُئلَ: هل يشعُرُ المقرَّبونَ بتمتعاتِهم في الجنةِ؟ أو يغيبونَ عنها بمشاهدةِ جمالِ وجهِ اللهِ؟!

فقالَ: نعم، يشعرونَ بها، ولا تحجبُهم، لكونِها جملةَ النِّعمِ، وفضلُه عليهم بها.

* * *

وقالَ رضيَ اللهُ عنه عن قولِ النبيِّ ﷺ: «**العافيةُ عشرةُ أجزاءٍ، تسعةٌ منها في الصَّمتِ**»(1).

فقالَ: إنَّ اللسانَ ترجمانُ القلبِ، وهو رئيسُ الجوارحِ، ولأنَّ الجوارحَ كلَّها تكفُرُ اللسانَ، وتقولُ له: إن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا. ولأنَّ اللهَ لا يؤاخذُ بما في القلبِ من الخواطرِ، وإنما يؤاخذُ عبدَه بما تكلَّمَ به، فإذا تكلَّمَ بالشيءِ انعكسَ ظلامُه على القلبِ، فيسري ضررُه على الجوارحِ.

* * *

وقالَ رضيَ اللهُ عنه: يجبُ تحسينُ الأدبِ مع الحقِّ تعالى، في امتثالِ أمرِه، واجتنابِ نهيِه، والرضا في قدَرِه، وأن لا يطلبَ منه جزاءً على ذلكَ، لأنَّ ذلكَ إنما هو منَّةٌ من اللهِ على عبدِه، بل يطلبُ منه الثوابَ بمقتضى وصفِه واسمِه الكريمِ الرحيمِ. ودوامِ الهيبةِ منه أن ينزعَ منه تلكَ الطاعةَ والعبوديةَ، ويخشى أن يعاقبَ ويهلكَه مع ضعفِه إذ هو ملكُه وحقُّه وله أن يفعلَ في ملكِه ما يريد ولا يأمنُ مكرَه ودوامِ المراقبةِ بأن يشهدَ أن اللهَ حاضرُه وناظرُه ليدومَ على

(1) أورده السيوطي في «الجامع الصغير»، ورمز لضعفه، وعزاه إلى «الفردوس» للديلمي.

معه و هيبة منه لأن من شهد أن الملك حاضراً معه وناظر إليه لا ينفك أبداً عن خضوعه و هيبة.

* * *

وقال رضِيَ الله عنه عن هلال شهر شوَّال[١]، وعاتب على قبولِ الشَّهادة بهلاله عند غيوم السحُب في السماء، وذكرَ: أنه بلغه ذاتَ مرةٍ أن قاضي القُضاة السيد محمد بن سقاف الصافي، أمر بالتعرض لرؤية الهلالِ، لاستقرابه عند المكيين، فعرضَ أثناء النهار سحابٌ، ومنعهم من ذلكَ، وعُدِم أصلا قبولُه.

وقالَ، عن ردُّ شهادة الشاهدَينِ بهلال شَهر شوّال في سنةٍ من السنينَ، وبقِيَ هو صائماً يوم الثلاثينَ، وقالَ: ينبغِي مع تساهل أهل الزمانِ، وعدم العدالة، أن لا يؤخذ إلا بعدَد التواتُر كما هو مذهبُ أبي حنيفةَ.

ولما قيلَ له: فيمن أفطَر في ذلك الوقتِ؟.

أجابَ قائلاً: قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾، ولا يحمل أهلَ الزمان على قبولِه إلا

---

(١) وُجدَ في بعض المجاميع الخطية هذه العبارة والواقعة مكتوبة على حدَة، وكُتبَ قبلها ما نصُّه: «ومما وجد بخط الإمام بحر الحقيقة، سيد العارف بالله تعالى عبد الرحمن بن علي السقاف: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وأهل حبه وقربه. بفاتحة شوال سنة ١٢٦٢، حصلت الرحلة لزيارة شيخنا قطب الوجود بالاتفاق، الحسن بن صالح البحر الجفري، أمتع الله به المسلمين، ورقانا ببركته وسره إلى أعلى مراتب الصديقين، وسلك بنا طرائقه، وحققنا بحقائقه، ومنحنا مواجيده ومعارفه، وأشواقه وأتواقه وأذواقه، وأحبابنا آمين. ولما تبركنا بمشاهدته، وحضرنا بحضرته، ذاكر في هلال شوال، وعتب جداً على قبول الشهادة بهلال مع عموم السماء، وانطباقها بالسحاب، وذكر أنه بلغه ...». الخ.

حضوضٌ وأهويةٌ وعدَمُ التأني والاحتياطِ. وذكَر أنه وصَله «رسَالةٌ» من الحبيب عبد الله بن عمر بن يحيى مؤيِّداً له على بقائه صائماً يوم الثلاثينَ من شعبان. وقال: إن ذلك على المِلَّةِ الحنيفيةِ، والطريقة المحمدية.

* * *

ثم سُئلَ رَضِيَ الله عنه عما يأتي به من الأذكارِ والصلاةِ، وما يتعلّقُ بتهجُدِه كلَّ ليلةٍ.

فأجابَ قائلاً: حالَ انتباهي من النوم أقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى آخر السورة. ثمَّ أقولُ: «سبحان الله» (١٠)، الحمدُلله (١٠)، لا إله إلا الله (١٠)، الله أكبر (١٠)، أستغفر الله (١٠).

اللهمَّ إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وأهوال يوم القيامة (١٠).

اللهمَّ لك الحمدُ أنتَ قيومُ السموات، ..الخ. (دعاء مذكور في الإحياء).

اللهُمَّ لك الحمدُ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهكَ، وعظيم سلطانكَ، عدَد ذرَّاتِ العوالم كلها، عرشها وفرشها، علويِّها وسفليِّها، جنتها ونارها، وعدد حروف القرآن بمضاعفاتها. اللهُمَّ لك الحمدُ حمداً كثيرا طيباً مباركاً، دائماً بدوامكَ، إلى آخره في «الحزب الأعظم».

ثمَّ أفتتحُ تهجُدي بركعتينِ خفيفتينِ، وأتبعُهما بركعتينِ، أقرأ فيهما: ﴿الٓمٓ﴾ السجدة، ويس، ثم ركعتين أقرأ فيهما الدُّخان، والواقعة، ثم ركعتين أقرأ فيهما الحشر، والملك، ثم ركعةٌ بالإخلاصِ والمعوذتين، وهي آخر ركعة من الوتر.

بعد ذلك قراءةُ الأذكار الواردةِ بعد الوتْر. منها: سبحانَ الملكِ القدُّوسِ، سبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكةِ والرُّوح (عدد ٣).

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين.

أستغفرُ الله غفَّارَ الذنوبِ، ستَّار العيوبِ، ومن يغفِرُ الذنوبَ ويسترُ العيوبَ إلا الله.

أستغفِرُ الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيّوم.

أستغفرُ الله من كلّ ذنبٍ أذنبته سرًّا وعلانيةً، عمْداً أو خطأً، ليلاً أو نهاراً، في خَلاً أو ملأً، كبيراً أو صغيراً، جلياً أو خفياً، ظاهراً أو باطناً.

يـا مَـن عطـاهُ الجزيـلْ   وكـــل خـــيرٍ نبيـــلْ
أنـــا العُبَيـــد الـــذليلْ   تحــتَ بابــك نزيــلْ
مـــستغفراً مـــستقيلْ   من شؤم ذنبي الثقيـلْ

يا قريبُ يا مستجيبُ للدعاءِ، يا كريماً ليس يبخَلُ بالعطاء.

ثم يأتي بهذه الأبيات:

يَــا باطنــاً حــينَ ظهَــرْ   يــا ظَــاهِراً حــين بطَــنْ
منــك إليــكَ المــشْتكَى   مــن كُــلِّ هــمٍّ وحــزَنْ

أصــلحْ لي سرِّي والعَلَنْ

وفي الثانية: أصلح لي الأهل والخدن.

وفي الثالثة: أصلح لأهل ذا الوطن.

وفي الرابعة: أصلح لأهل ذا الزمن.

ثُمَّ: «يا مُلتجأ كلِّ لاجئٍ، يا مبتغى كلِّ آملٍ»، (٣ مرات).

ثمَّ: «يا غفارُ اغفِر لي، يا توابُ تبْ عليَّ، يا رحمنُ ارحمني، يا رؤوفُ ارأفْ بي، يا عفوُّ اعفُ عني».

* * *

ثم يأتي بالدعاءِ المشهُور لتيسيرِ الرزقِ وبراءَة الذمة، وهو: «اللهُمَّ فرجكَ القريب، اللهم سترَكَ الجميلَ، اللهُمّ عوائدَكَ الحسنَى، يا قديمَ الإحسانِ إحسانَك القديمَ، يا دائمَ المعروفِ معروفَك القديم، يا ذا الجلال والإكرام، يا أرحمَ الراحمين» (٣ مرات).

وقد قالَ سيدُنا الحسن بن صالح البحر: إنَّ هذا الدعاء مجرَّبٌ، وقد جرتْ لي واقعةٌ.

قالَ: كنتُ في غايةِ ضيقِ المعيشة وضَنكها، حتى نشزَتْ زوجتي لعدَمِ القدرة على تلبية طلبها، ثَوب لباسٍ، فبينما أنا ذاتَ يومٍ في المسجد وبعد صَلاة الصبح، أخذَتْني سنةٌ من النعاسِ، فرأيتُ كأني في مدينةِ (تريم)، ورأيت ساداتها مجتمعينَ في جامِعها، وكأنهم في انتظار من يؤمُّهم، فإذا برجلينِ قد دخَلا في زيِّ قبائلِ الدولة، فتقدم أحدُهم وصَلَّى بالسادة إماماً، فوقع في خاطري كيفَ يتقدّم السادةَ من هو بهذا الزيِّ!. ثم إني قمتُ للصلاةِ معهم، فأخذ هؤلاء الرجُلين بمنكبيّ، يسوُّونَني في الصّف، ثم إني قمتُ معهم.

ثم انتبهتُ، فإذا بينَ يديّ رقعةٌ وفيها ذلكَ الدعاءُ السالفُ ذكره، بخَطٍّ

بديعٍ لم أعهدْهُ لأحدٍ من أهل محلَّتنا. فتعجبتُ، ولم يكن معي في المسجد أحدٌ، ولم أعلم سببَ وصُولها، أي الرّقعة، فدعوتُ بذلك الدعاءِ، وحصل لي المطلوبُ وأنا في طريقي من المسجد إلى الدارِ، وأرجعتُ زوجتي في الحالِ. ثم حكيتُ ذلك للمعلّم [سالم بن] عبد الله بن سعد بن سميرٍ، فذكرَ لي المعلمُ: أن والدَه عبد الله رأى في المنامِ أن رَجُلين جاءا إلى بيتِ والدِه، بنفس الصورة والزيِّ الذي ذكرتُه، وأن والدَه قدَّم لهما الطعام وامتنعَا منه، وقالا: لا نأكل مثل هذا الطعامِ!. فقالَ لهما: من أنتما؟ فقال أحدُهما: أنا الذي صليتُ بالسيد حسَن، وقالَ الآخر: أنا الذي أعطيتُه الورقةَ التي فيها ذلك الدعاء!.

* * *

وتكلمَ رضِيَ الله عنه عن الأرواحِ؛ فقالَ: خلقَ الله الأرواحَ جميعاً، وناداها بلسَان الخطابِ الأزليِّ الأبديِّ، الذي لا يُسْمع بحاسَّة السمعِ، قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فأجابته جميعاً: ﴿بَلَىٰ﴾، إذ شهدَتْ أن لا ربَّ سواهُ، ولا موجد لها إلا إياهُ، ثم أهبطها إلى العالم السُّفلي، وركَّب فيها النفْسَ والهوَى، فكانتْ في أسفلِ السافلينَ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، الآية.

وكانت الأرواحُ مثلَ الأشجارِ؛ منها الميتةُ، ومنها اليابسةُ غصونهاُ، ناسيةً غافلةً عما كانت عليه في العالم العلويِّ من المعرفة بالله والقرْبِ منه، فلما جاءتها دعْوةُ الله تذكَّرتْ ذلكَ، وانتفعتْ بها الأرواحُ الحيةُ التي عرُوقها سالمةٌ، كما قال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، ولم تنتفع بها الأرواحُ الميتةُ.

والنفسُ تنظر في عَالم الشهادَة بعينِ البصَر، وتعمل لذلكَ، ويكتب ما

تعمَله في لوحِ المحْو والإثباتِ، وهو المشَار إليه بقوله ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينها إلى ذراع فيسبق عليه الكتاب**»... إلى آخر الحديثِ.

والقلبُ ينظرُ بعينِ البصيرةِ في العالمِ الأخروي، فيعمل بذلك لأجلِ الثواب والخلودِ في جنته، والرهبةِ من عقابه والخلود في النار. ويكتَبُ ما عمِله من الأعمالِ في اللوحِ المحفوظ، والغالبُ عدَمُ التبديلِ. وقد يطرأ التبديلُ، كما إذا لاحظَ بالأعمالِ الصالحة وقصَد بها غيرِ وجه الله. والروحُ تنظر بعينِ السّرّ إلى جمالِ الحضرة العلية، وجلالها وكمالها، قياماً بحق الربوبية، وما للذَّات المعظمة من الهيبةِ والجمال والإجلال والتعظيمِ، فيعمل لذلكَ، لا لحظٍّ من الحظُوظ الأخْرَويةِ [/ ١٠].

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه: أهلُ الإنابةِ والرجوع، ما معهم إلا التوبةُ والرجوعُ من خَطر المشيئة، والذين اجتباهم وخصَّهم سلكَ بهم مسلكَ الاجتباءِ، وهو أرفع درجةً، عمَلٌ في الصحيفة، وعملٌ في اللوح المحفوظ، وعملٌ في أم الكتاب، وهي أمُّ الأعمالِ الصالحة.

مثابةُ النفسِ الصحيفةُ، ومثابة اللَّوحِ المحفُوظِ القلبُ، ومثَابةُ أمّ الكتاب الرُّوحُ. وفي خوفِ المشيئة والسابقة. وقد أشبع الفصل في هذا الموضُوع حتى غلبه الخوفُ جدًّا، فقرأ قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، إلى قوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: بالظالمينَ والمؤمنينَ، فذكرتُ له حسْنَ الظنِّ، فقالَ: إنْ أعطاكَ الله إياه.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه: إن حالةَ الأوصافِ الطارِئة على الخلقِ، من فقرٍ، وغنًى، وذمٍّ، ومدحٍ، هي من أراضي القلوب، فالأرضُ الطيبة تشهَدُ أن تلك الأوصافَ الطارئة أوصافٌ إلهيةٌ، وأنها نعمةٌ من الله، فتُبادر إلى القيام بحقوق العبودية، من شهُودِ الافتقار، والذلِّ والانكسارِ، ونحو ذلكَ، وتلزم وظائفَ تلك النعمة الشَّرعية المهجُورة، من آدابٍ نحو الفقر والغنى، وما شابهها.

ثم قالَ: إن الشيوخ الأوائِلَ يخافُون الغنَى في الدنيا، ولا يطلبون ذلكَ، حتى أنَّ بعضَهم يقولُ: إن رأيتَ الغِنَى مقبلاً فقُل: ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبتُه. وقالَ بعضُهم: ابتلينا بالضَّراء فصبرنا، وابتلينا بالسَّراء فلم نصبر!. ومع ذلك إذا وجهَّها الله إليهم بادرُوا إلى قبولها، كما قال بعضُهم في أدعيته: واجْعَلنا من القابلينَ لها، لأن الردَّ جفاءٌ، ويطلبون منه التوفيقَ لقبولها، والمعونة على القيامِ بحقوقها.

وعند ذكر النِّعَـم، ارفَعْ يديك وادعُ بهذا الدعاء: «اللهُمَّ إنك تفضّلتَ علينًا بهذه النعمة، وجعلتها منَّةً امتننْتَ بها علينا، فاجعلها سبَب الشكر، وسببَ النعمة، وسببَ المزيدِ، وسبَبَ المحبة والهداية، وسبَب الإقرار والاعترافِ لك بالصَّمَدانيةِ، يا مَن هو يُطعِمُ ولا يُطعَم».

* * *

وذاكر رضِيَ الله عنه بشأن الرِّزْقِ، فقالَ: إن الجهّال لا يشهدون [١١/] إلا الأشياءَ الظاهرةَ صرْفٌ، أما المتقُونَ فقد يكون رزقُهم بطريق القدْرة، أو بطريقِ الحكمة والقدرة معاً.

وذلكَ مثلُ من يدخلُ في الأسبابِ، ويشهد المسبِّب فيها، وقد يكون

بطريق القُدْرة صرفاً محضاً فقط، من غير شهُود السببِ، كما يعرفه أهلُ الفهم عن ربهم، إذ لهم تعريفاتٌ يعرِّفهم إياها مولاهُم، ويفهمونها. والفهْمُ على قدر النُّور الذي يبصِّرُهم بالعواقبِ، وتنكشف به الحقائقُ.

* * *

وسُئلَ: عما يدْفَعُ به همُّ الرّزقِ؟

فقالَ: إنه العلمُ بقدرَة الله، وعظَمَةِ هذه القدرة، وما تفرَّع منها من خلق الكائناتِ، السموات، الأرض، الجبال، الأشجار، النبات، وما إلى ذلك.

* * *

وذاكَر رضِيَ الله عنه في معنَى: «لا معبودَ إلا الله، لا مقصُودَ إلا الله، لا مشهُودَ إلا الله».

أي: لا يستحقُّ العبادةَ إلا من له الخلقُ، والأمر بيدِه، وبيده النفعُ والضرّ. خالقُ الموت والحياة، هو الله جلَّ جلاله، وإذا كان لا يستحِقُّ العبادةَ إلا الله، فلا ينبغي أن يقصَد بكل علمٍ، وعمَلٍ، ونيةٍ، وفعلٍ، إلا الله!. فلا مقصُودَ، ولا مشهودَ، إلا لله؛ إذ ليس في الوجود إلا ذاتُه تعالى وصفاتُه.

وإذا قلتَ: «لا مشهُودَ إلا الله»؛ صرت موحِّداً لنفسِك، مغنياً للخلق بشهُود الحقِّ.

وإذا قلتَ: «لا موجُود إلا الله»؛ صرْتَ مغنيا لنفسكَ ولذكرِكَ مع الخلقِ بوجود الحق.

فقلتُ له: وهل يصلحُ أن يرادَ بـ«لا مقصُود إلا الله»، أي: ليسَ لي مقصودٌ بعبادتِكَ إلا قصْدُ وجهكَ، وطلبُ رضاكَ، وشهودُ جمالِكَ وكمالِك.

أي: لأجل طلَبِ نعيمِ عاجلٍ أو آجلٍ، دُنيا وآخرة، لأن النفسَ والقلبَ والروحَ، كلٌّ منها له مطلَبٌ. فالنفسُ تطلبُ الدنيا وشهواتها، ونعيمَها ولذاتِها، فيناديها القلبُ وهو أعقلُ منها، قائلاً: إنّ الذين تطلبينه صحيحٌ، ولكن الدنيا فانيةٌ، ونعيمها يسيرٌ وقصيرٌ، وزائلٌ عن قريبٍ، فاطلُبي ذلكَ في محله المأذونِ فيه، محلّ البقاءِ الدائم، والنعيمِ الكاملِ. فتناديهما الروحُ ـ أو قالَ: السّرُّ ـ: بأن جميعَ الذي تطلبانِه في الدنيا والآخرةِ، من نعيمٍ وسرُورٍ، وكَرامةٍ وحبُورٍ، إنما ذلك من أثَرِ تجلِّي جمالِ الذاتِ العلية.

ولا يتحصَّل كمالُ الراحة والنعيمِ، إلا بشهُود جمال الذاتِ وكمالها في كلِّ شيءٍ، ويتقرَّرُ بعد التجلي وشهودِه. فمِنْ ثَمَّ؛ كان نعيمُ أهل الدنيا أقلَّ دواماً، وأقلَّ لذّةً، لأن التجلّي فيها أقلُّ، ولأنه مشوبٌ بكدَر الأغيارِ، فلذلك يكونُ أقلَّ لذّةً، بخلاف نعيمِ الآخرة، لدوام التجلّي فيها وصَفائه، فيكون نعيمُها أتمَّ وأدْومَ، خصُوصاً لأهل المحبّة والشهود، ويتصل نعيمُ دنياهم بنعيمِ آخرتهم، ولذلك قالوا: إن أعلى درجاتِ الصّديقينَ في الدنيا الاطّلاعُ على قول «كُن»، وهو أولُ مراتبهم في الآخرَةِ.

ومن ثمّ قالَ بعضُهم شعراً:

كانتْ لقلبي أهواءٌ مفرّقةٌ ... فاستجمعَتْ مُذْ رأتْكَ العينُ أهْوائي

تركتُ للنّاسِ دنياهُم ودينَهُمُ ... شُغلاً بذكرِكَ يا ديني ودُنيائي

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه: على قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: لابُدّ عند

ذكر الله من الحضُورِ بالقلب والقالَبِ، مع استشْعار عظمته وعزّته، واستبداده بالوجُود، وهو أكبَرُ من كلِّ شيءٍ، فإذا استشعرْتَ ذلك صَغُر في عينك كلُّ موجُودٍ، إذ لا وجُودَ له إلا بالحقِّ الموجُود!. وبذلك الاستحضَارِ والاستشعارِ يسهُلُ عليك عمَلُ كلِّ مأمورٍ، واجتناب كلّ محذُورٍ. ولذكر الله أكبَرُ من كلِّ عملٍ مبرور، أي: أكبرُ من جميعِ الطاعاتِ والقرُباتِ، لأن جميعَ العباداتِ؛ فرضَها ونفلَها، لا تعتبر إلا بالحضُورِ، إذ هو روحُها وحقيقتها التي عليها الشأنُ يدور، ومع افتقارِها إليه، فالذكرُ يفتقِرُ إلى شيءٍ من العباداتِ. ولذكر الله أكبرُ، أي: جزاءُ الله للعبدِ أكبَر من عمله.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه عما يُدفَعُ به ملاحظةُ الأغيارِ، وضررُ مخالطة الخلقِ فيما ابتليَ به؟

فأجابَ: إنّ حسْنَ النية، وتحقيقَ الصدق والإخلاصِ، والنظَر في العواقبِ، ومشاهدَة الحقائقِ، ومطالعة ما في ذلك من الرَّغائب الأخروية، والتعلق بالأمور الغيبية، حتى يصير الاستيلاءُ، والغلبَـةُ في التعلّق والمشاهدة؛ للأمُور العلوية. وتكونَ الأمورُ الحسية بحكْم التبعيّةِ، بل حتى يصير فانياً عنها بتلكَ المشاهدات الحقيّة، والرَّغائب السنية، فبقَدْر اليقينِ يغيبُ عن الملاحظة البشَرية.

ولا يصلحُ للخلقِ ودعوتِهم إلا القويُّ المتسلطِنُ بقوة اليقينِ؛ ومثلُ ذلكَ: من معه دراهم وخرج في ملصَّةٍ[1]، خائفاً من أخْذها. فالضعيفُ لا

(١) أي: مكان مخوف، ملء باللصوص.

يصلحُ [١٣/أ] له الخروجُ بها ظاهرةً حتى لا يأخذها اللصوصُ. وأما الملِكُ والسلطانُ، إذا خرجَ ومعه شيءٌ لا يخاف عليه من اللصُوصِ، بل اللصوصُ يفرّونَ منه!. ومع ذلك فالإنسانُ على خطرٍ من ذلكَ، إذ لا يأمَنُ مكْرَ الله.

ثم قرأ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْـلَ فِى ٱلنَّهَـارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَـارَ فِى ٱلَّيْـلِ﴾؛ فالقبضُ ليلٌ لظلمتِه، والبسْطُ نهارٌ لإشراقِ شمس المعرفَةِ. ومع ذلكَ؛ فالله يولِجُ ليلاً انقبَض في نهارِ بسْطِ المعرفة، وبالعكس؛ يخافُ في البسْطِ من مجاوزة الحدُودِ، وسقوطِ الأدب. وكذلك القبضُ؛ لأنه مجرّدُ هضمٍ للنفسِ، فالبسْطُ أفضَلُ، والقبض أسلَمُ.

ثم أشار إلى ما هُو الأصلُ في نور البَصيرة واليقينِ، وهو الذكْرُ القلبيُّ، وهو الأصلُ في جميع العباداتِ، وهو المقصودُ. ثم أشار إلى قول الحبيب عبد الله الحداد:

* فإنما الذكْرُ كالسُّلطانِ في القُرَبِ *

أي: الذكرُ القلبيّ. وإني أرَى أن الذكْر القلبيَّ لا يفتقِرُ إلى شيءٍ، بل يفتقر إليه كلُّ شيءٍ من العبادات والقُربات. فالصَّلاةُ والزكاة، والحجّ، ونحوها، إذا خلَتْ عن معنى الذكْرِ القلبيِّ الذي هو الحضورُ، فلا نفْعَ فيها ولا حاصل لها.

* * *

قلتُ: وقد أجازَني سيدي الحسن رضِيَ الله عنه في ترتيبِ رياضَةِ ليلة الجُمُعةِ ويومِها، على حسب ما ذكره الشيخ عبدُالله العيدروسُ، في ترتيبه الأذكارَ على سبيلِ الإطلاقِ، غيرَ مقيدَةٍ بوقْتٍ مخصوصٍ. وهي هذه: «لا إله

إلا الله، لا معبودَ إلا الله. لا إله إلا الله، لا مقصُود إلا الله. لا إله إلا الله، لا موجُود إلا الله. لا إله إلا الله لا مشهود إلا الله».

«اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارِكْ على سيدنا محمَّدٍ وعلى آل سيدِنا محمَّدٍ، أفضلَ صلاةٍ وأزكى سلامٍ، دائماً أبداً، عددَ علمِك، وزنةَ عرْشكَ، ومدادَ كلماتكَ، كلما ذكرك وذكَره الذاكرون، وغفل عن ذكرِكَ وذكره الغافلون. وآتِه الوسيلةَ والفضيلةَ، والدرجة العالية الرفيعَة [/ ١٤]، وابعثه المقامَ المحمُود الذي وعدْتَه، إنك لا تخلف الميعاد».

* * *

وذاكَر رضِيَ الله عنه عن المظاهِر والمناصبِ، وذمَّها جدًّا. فقالَ: لقد طلب منّا بعضُ أهل الفضْلِ، عند توجهنا إلى هُودٍ، قائلاً: يا حسَن؛ بغيناك تقَعْ أبونا، ويغينا باندخُل بك في زفّ، بالبيارِق والطّوَس والمرافع، مثل المناصبِ الآخرين! فرفضْتُ، وقلتُ: لا حاجةَ لي بمثل ذلكَ، ولا أستحسن ذلكَ، ولستُ أهلا لذلكَ. وأنا أحذِّرُك من مثل هذه المناظرِ والمظاهِر التي لا نفْعَ للعبد منها. ثم عدَّدَ مساوئها، ومن أهمها: الحسَدُ، والمنافسَة عليهَا من أهل الرياساتِ، وأن مظهرَنا مظهرُ عبوديةٍ وفقرٍ.

* * *

وقرِئ عليه في «شرح راتب الحداد» تأليف الشيخ عبد الله با سودان. وفي قوله عنْدَ ذكر: «يا ذا الجلال والإكرام، مِتْنا على دينِ الإسلام». قال باسودان: «تنطَقُ كلمَة «مِتْنا» بدون همزةٍ قبل الميمِ، أي: أمِتْنا». وأثبت ذلك بحُججٍ نقلها عن بعض العلماء.

فقالَ سيدنا الحسنُ رضِيَ الله عنه: المقصُود هو تأدية المعنَى بأيِّ لفظٍ، ولذلك نزل القرآنُ على سبعةِ أحرفٍ، أي لغاتٍ. فقد كان يأتي إلى النبيِّ ﷺ الصحابيُّ فيقرأ بلفْظٍ آخر، فيقولُ: هكذا أنزلَ، ويأتي إليه الثاني فيقولُ: هكذا أنزلَ. لأن المعنى في القراءتينِ واحدٌ وصحيحٌ، لأنه إنما نقلَت المعاني لا الألفاظُ، ولهذا قال الله تعَالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، والذي يتنزّلُ على القلوبِ هي المعاني، فمتى أدّيتْ بلفظٍ مَّا، صحَّ ذلك.

* * *

وسُئلَ عن ما ينويه القارئُ بسُورة يس، بعدَ الفاتحة، عند ضرائح الصالحينَ؟.

فقالَ: ينوي بذلكَ استنزالَ الرحمة، والهدايةَ، والمغفرةَ، إذ هم يحبُّونَ الله ويحبّهم.

فقيلَ له: ما معنى تجلي الذاتِ في الآخرة؟.

فأجابَ: أن التجَلي يختلفُ باختلافِ المشاهدِ والدرجاتِ، كما يختلفون في عالم الخلقِ في الصُّوَر والألسِنَة.

* * *

وسُئلَ عن قول بعضِهم: «أنا شيخُك في علومٍ لم يطّلع عليها ملَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌ مرْسَلٌ»؟.

فأجابَ قائلاً: إن معرفة أفعالِ الألوهية لا تتناهى [١٥/أ] ولا تحصى، فكيف بمعارف الأسماءِ!، فكيف بمعارفِ الصِّفاتِ!، فكيف بمعارف الذات!. وقد

قالَ الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

* * *

وسُئِلَ رضِيَ الله عنه عن قوله في بعض مذاكراته: «إذا صَحّتِ المعاملَةُ صحّت المنازلَة، وإذا صحَّت المنازلة صحَّت المشاهدَة، وإذا صحت المشَاهدة أفنَتْ وأبقَتْ»!.

فقالَ: نعم. إذا صحّت المعاملة مع الله في الظاهرِ والباطنِ؛ صحّتِ المنازَلة. يعني: تنزُّل الأنوار الإلهية على القلبِ، فإذا تواترَتِ الأنوارُ واستولت عليه؛ أثمرَتْ للعبد المعرفةَ، والمشاهدةَ لأوصافِ الحقِّ، وإذا صحّت المشاهدَة لتلك الصفاتِ الكريمة الإلهية، أثمرَتْ للعبد الفناءَ عن الصفات الدَّنية، والاتصافَ بالصفات المحمودة القدسية.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه: ما المرادُ بالفَناء وقرابته؟.

فقالَ: إن الفناءَ أولاً عن الخلقِ، ثم عن النفْسِ، ثم عن الإرادة. والفناءُ في الأفعالِ: أن تتبدل المذمومَةُ منها بالمحمُودة، والفناء في الصِّفاتِ: أن تتبدَّل الصفاتُ السيئَةُ بالحسنة، كما سبق. والفناء في الذّاتِ: أن يغيب مشهودُه عن شُهوده، وإنما يكون للصديقينَ. وهو لمحاتٌ، لا يدومُ، ولو دام لهلكَ البشرية منه، ومنه يكون الذهُولُ عن المحسُوساتِ، والغيبةُ عنها، كالمصْطَلم.

* * *

وسئلَ رضِيَ الله عنه عن معنى قولهم: السّماعُ، ثم العلْمُ، ثم الفهْمُ، ثم الذوْقُ، ثم الحالُ، ثم المقامُ؟.

فأجابَ: إنه إذا سمع كلامَ الله وكلامَ رسوله ﷺ، أثمر له العلْمَ، فيرسَخُ له الفهْمُ، فيطرَبُ له طرباً ورغبةً، أو خوفاً وهيبةً؛ وهذا هو الذوقُ. ويحملُه ذلك على العملِ بمقتضَى الرغبة والرهبةِ، ويسمَّى أولاً حالاً، فإذا دامَ ورسخَ سُمِّي مقاماً.

* * *

وقيلَ له: ما أعلى المقاماتِ؟.

فقال: الشكرُ، والمحبةُ، ومقامها يثمِرُ حالَ الشوق، وإذا اشتاقَ عمِلَ في مقتضى شَوقه، فيثمر له العمَلُ نورَ المعرفةِ [١٦/] لما هو عليه، فيحبه، فإذا أحبَّه اشتاق إليهِ، وهكذا. لا تنتهي درجاتُ المعرِفة والمحبةَ والشوق. ومعنَى الوصْل: الشهودُ والمعرفَةُ، المنزّه عن الوصل والفصل، كما قال الشيخ العيدروسُ:

هبَّتْ نَـسيمُ المواصَـلةْ   بِلا اتصَالٍ ولا انفِصَالْ

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه عن قوله: «إذا صمتَ اللسَانُ نطقَ القلبُ، وإذا صمتَ القلْبُ نطقَ السّرُّ»؟.

فقَال: إن اللسانَ ترجمانُ القلبِ، فإذا صمتَ عن ترجمتِه، وحصل في القلبِ الإخلاصُ لله، نطق القلبُ بالمعرفةِ الإلهية، فإذا تمكنتْ منه، صمتَ ونطقَ بالسرِّ بالاطّلاع على سرِّ التكوينِ، فإن التفت إلى التكوين في هذه الدّار الفانيةِ، احتجبَ به.

لأنه غفلَ به عن ربِّه، واشترك به، فإذا توجَّه إلى التكوينِ في الدارِ الباقية لم يحتجب به، لأن الباقي هو الله سبحانه وتعالى، الذي لا يحتجِبُ في الدار الباقية، بل هو دائمُ الشهود فيهَا، ولذلك أذنَ في طلبها.

* * *

وسئلَ رضِيَ الله عنه عما يجلبُ الحضُورَ عند تلاوة القرآنِ العظيم، سواءً في الصلاة أو غيرها؟

فأجابَ: إن المصطفَى ﷺ كرَّر قول الله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ومعنى ذلكَ: إن تغفرْ لهم لا يهانُ في عزتكَ، ولا ينقصُها مغفرتك لهم، لأن العزَّة من أوصَاف الكمالِ، والآدمي بشرٌ غير كاملٍ، فعليه بقدْرِ الاستطاعة حضُور قلبه، وإنّ نية التوجّه لقراءة القرآنِ هي الحضورُ بعينها.

* * *

وسُئل رضِيَ الله عنه: عن معنَى السكينةِ في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية؟.

فقالَ: السكينةُ ينافِيها الاضطرابُ، فإنه رضِيَ الله عنهم سكَنوا إلى الحقِّ، فلم يبْقَ في قلوبهم شيءٌ إلا ربُّهم، ومحوا عنْها كلَّ الالتفاتاتِ، أو ميلٍ إلى أهل وولدٍ ومالٍ، من حبِّ الدنيا وشهواتها.

* * *

وسُئلَ رضيَ الله عنه عما يصلحُ عند الفزَع من الجبَابرةِ والظلَمَة، ووجَلِ

القلبِ في مواطنِ الخوف، وما علاجُه؟ وكيفَ تحصيلُ التوكّل والتوحيدِ وتمكينه؟.

فأجابَ بما معناه: تمكينُه النظَرُ إلى ألُوهيةِ الحقِّ تعالى [١٧/أ] واستبدادِه بالخلقِ والأمْر والنفعِ والضرِّ، وكونهم تحتَ قهرِه، ونواصيهِم بيده، كما قال تعالى حاكياً عن النبيِّ هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾.

فشهودُ الألوهية والربوبيةِ، وانفرادُ الحقِّ بالإيجادِ والإمدادِ، وكونُهم من جملة الدوابِّ التي نواصيهَا بيده، وهو على صراطٍ مستقيمٍ في تَصريفِه وقدرته بلا منازعٍ ولا معارضٍ له، فذلكَ هو الذي أثمَر له التوكلَ الصِّرْفَ، حتى قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ الخ.

وإن لم يكن من أهلِ التَّوحيدِ والتوكلِ، فينظرُ أنَّ ما حصلَ منهم من ظلمٍ أو بغيٍ عليه، إنما هو في الدار الفانية التي هي بأسْرها، وما فيها من حياةٍ ومالٍ، وغير ذلك، له أو لغيره، لا يزِنُوا عند الله جناح بعوضَةٍ، وإنما هي كنَسمةٍ بالنسبة للعُمْر الأبديِّ، وينظرُ ما عندَ الله من عظيمِ الثوابِ في دار الخلودِ، من الملك الكبيرِ، والنّعيم السرمديِّ، كما قال تعالى حاكياً عن سحَرة فرعون: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ❁ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

وأما تمكينُ أهلِ التوحيد؛ فيحصُلُ بالنظَر التامِّ، والتفكّر في عجائبِ الحَدَثانِ، وبديع القدرة العظيمة الباهرةِ، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى

ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾. أي: كيفَ يشكُّون في لقائِه، وهو محيطٌ بكل شيءٍ، بقدرته وتصريفِه، إذ لا يشذُّ عن قدرته وتصريفه شيءٌ، لأنه الأولُ والآخِرُ، والباطن والظاهرُ، وهو الموصوفُ بالوجود الحقِّ الصدقِ، أزلاً وأبداً.

وقد تضمحلُّ عن الموحِّد السببُ والإضافاتُ الظاهرة والباطنة، وينظر إلى سابقِ علم الله واطّلاعه، فيكتفي به عن السؤالِ من ربّه، كما وقع [١٨/] للخليل عليه السلام حينما اعترضَ له جبريلُ وهو في الهواءِ، فقال له: ألكَ حاجةٌ؟ فقالَ: أمّا إليك فلا؛ وأما إلى الله بلى. فقال له: سلْهُ، فقال له الخليلُ: حسبي من سُؤالي علمُه بحَالي.

* * *

وسئل رضِيَ الله عنه عن صَلاة الحاجةِ المذكورة في كتاب «الإحياء»، هل تعمَلُ بها؟.

فقالَ: لا أعمَلُ بها، ولكني أعملُ بمقتضَى الحديثِ القدسيِّ: «**إذا أحدثَ العبدُ ولم يتوضّأ فقد جفاني، وإذا توضّأ ولم يصلِّ فقد جفاني، وإذا صلى ولم يدْعُني فقد جفاني، وإذا توضأ وصلَّى ودعَاني ولم أجبْهُ فقد جفوته**». وأنا إذا بدتْ لي حاجَةٌ، أو نابَني أمرٌ مهمٌّ، توضأتُ وصليتُ ركعتين بسُورَة الكافرون والإخلاص، وأدعو بدعاء: «**يا ودودُ، يا ذا العرش المجيد، يا سيدي** يا معبدُ يا فعّال لما يريدُ، **يا غياث المستغيثينَ أغثني**» (**٣ مرات**)، وقد جربت ذلك في وقائع كثيرة.

وفي مـجلسٍ آخر قال: لقد عزمتُ على تـركِ الكساء المعتادِ، وشرائه، والاستدانة من الناس، وهذا من أول أمري، وذلك بسببِ حادثةٍ حصلَت لي؛ حيثُ ادّعى عليه بعضُ أهل المتاجِر بخمسَة قروشٍ فرانسَةٌ، غلط!. وتبين فيما بعدُ أنها قد سُدِّدتْ إليه، فكان ذلك لي سبباً في تركِ الاستدانة أصلاً، وما يحصل معَنا أصرِفُه أنا وأهلي في مؤونتِنا وحوائجنا الضرورية، وما افتقدناه لم نكلفْ أنفسَنا الحصولَ عليه، أو أننا نستدينُ من أجله، ومع ذلك جرَتْ أمورنا على أحسَن وجهٍ، وعوائدُ الله الجميلةُ بفضلِه وكرمه.

* * *

وذاكرَ رضِيَ الله عنه فيما ينبغي أن يقصِد به العبادةَ، **فقال:** عليك أن تنويَ بعبادتكَ العبادةَ المحضَة، والتقرّبَ بها إلى الله، ولا تقصِدَ حصُولَ ثوابِ الدنيا وما يتعلقُ بها بعبادةِ الله، فإن فعلتَ ذلك حرَمك الله ما قصدْته.

* * *

وعند ذلكَ سُئلَ عن قراءة «سُورة الواقعة» بنية تسير الرزق؟

فأجاب رضِيَ الله عنه: إن كانَ الباعثُ للقراءة هو مجرّدُ الحصُولِ على الرزْقِ من غير نيةِ التقرُّبِ، فلا يتيسَّر له، بل يعسُر عليه، ويُحرَمُه لإساءته الأدبَ مع ربِّه، وإن كان الباعثُ التقرُّبُ إلى الله، مع التفكُّر في معانيها، وطلَبُ الرزق من فَضْله لا بعمَله وقراءتِه، تيسَّر له الرزقُ [١٩/].

* * *

وذاكر رضِيَ الله عنه عن قصّة سَمْنُون[١]، حين أنشدَ:

---

[١] بصريّ سكن بغداد، توفي حوالي سنة ٢٩٠هـ ينظر: «حلية الأولياء»: ١٠/ ٣٠٩.

ولم يبق لي مما سـواكَ حـظٌّ　　فكـيفَما شـئت فـاختبرني

فأخذَه الأنسُ من ساعته، ... إلى آخر القصة.

فقالَ: لما غلبه التجلّدُ أنشد ذلكَ، فأراد الله منه إظهَار عجزِه وضعفِه، بإظهارِ تلكَ النواطقِ لأصحابه في ليلةٍ واحدةٍ، فتأدب لربّه بإظهار الكذِب والعجْزِ، فطافَ على المكاتب. حتَّى ولو كان باطنُه ثابتاً على التجلُّدِ، وفي هذه الحالة؛ إمّا أن يسلبه الله ذلكَ الحالَ لكونه لم يشْهَد أن ذلكَ بفضل الله ورحمته، وحَوله وقوّته، بل شهد أنه من عند نفسِه، فأراد الله عجْزَه ليعلمَ أن كُلَّ ذلك منه تعالى، فيشكرُه عليه ليكرمَه ويزيده، ولا يكون إلا بالتأدبِ بآداب العبودية المحضَة ظاهراً وباطناً.

إلى أن قال في سياق هذه القصة: أن سمنونَ لما رأى رجُلًا أنفق أربعينَ ألف درهمٍ، صلى هو أربعين ألفَ ركعةٍ، ولأن الذكْر أفضلُ من الإنفاقِ، فكيف إذا كان من صلاةٍ، ولأن ذكر الله أكبرُ من كلِّ عملٍ، فكل عمل لا يصلحُ إلا بالذكْر وهو الحضُورُ، والذكرُ أكبر من كل عملٍ، لأنه ليس مختصاً بوقتٍ، بل هو مطلوبٌ مطلقٌ في جميع الأوقاتِ والحالات.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه على هذا البيتِ من كلامِ ابن الفارضِ:

لها البدْرُ كأسٌ وهيَ شـمْسٌ يـديرها　　هلالٌ وكـم يبـدو إذا مزِجَـتْ نجْـمُ

فقال ما معناه: يمكنُ أن يقالَ في تفسيره ما في الحديثِ: «كان الله ولا شيء معه»، والبدْرُ: «وهو الآن على ما هو عليه كان»، ونجومها: «إن الله خلق

آدم على صورته»، وقوله: «من قبل أن يخلقَ الكرْمُ»: وهو الجسَدُ، أي سكِرَتْ بها الأرواح للأجساد.

* * *

وعلى قولِ ابن الفارض:

ولولا شَذاها ما اهْتَدينَ لحانِها ولولا سنَاها ما تصوَّرَها الـوهْمُ

قالَ: لابدَّ لكل مريدٍ في بدايتِه من بارقةٍ عظيمَةٍ يحصلُ له بها الإشرافُ على سَائر المقاماتِ، يعرف بها منتهَى درجةِ وصولِه، وتبقى معه ساعةً ثم تذهبُ منه، ويبقى منها ما يبعثه على السّعي إلى ذلكَ، ولابدَّ للمريدِ في كل مقامٍ من بارقتينِ: بارقةٌ يعرِفُ بها دناءةَ حالِه، أو المقامِ الذي سيرْقَى إليه، فيبعثُه على الشوق إليه، والجد في تحصيله والتمكن منه [/٢٠]. وإلى الأولى أشَار سيدنا القطب عبد الله الحدادُ:

لله بارِقَــةٌ للقلْــبِ قَــد لمعَــتْ من عَالمِ الأمْرِ لا من عَالمِ الصُّوَرِ

* * *

ثم تكلمَ رضِيَ الله عنه على قولِ الشيخ عمر بن الفارض:

ومـا عنْـهُ لم تفْـصِحْ فإنَّـكَ أهلُـه وأنت غريبٌ عنه ما قلـت فاسـكت

معناهُ: ما كتمتَه من الأسْرار أنتَ أهلٌ له، لأن صدورَ الأحرارِ قبورُ الأسرار، وما أفشيتَه فلسْتَ بأهلِه، لأنك ملزَمٌ بكتمِه، ولا يجوز لك الإفشاءُ إلا إن كنتَ ممن أذِنَ له في ذلكَ، ولا يكون ذلك الإذنُ إلا لمن لم تكُنْ فيه بقيّةُ حظٍّ من حظوظ البشريةِ، كما قال ابنُ الفارض في بيتٍ قبلَ هذا:

وأبثّها ما بي ولم يَـكُ حَـاضِري رقيبٌ لها حَـاظٍ بخلْـوَةِ جَلْـوةِ

بمعنى: إذا كان في خلوَته مختلياً بربّه في حضرة التبجيل والشهود.

* * *

وسُئِلَ رضِيَ الله عنه عن قول النبيِّ ﷺ: «**اللهم إن أسألك موجبات رحمتك**»، ..الخ؟.

فقالَ: أي ما قضيته، أعني: الذي أوجبته على نفسكَ، بقولِكَ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ﴾، الآية. فهب لي ما اقتضاهُ من الإيجابِ بالعمَلِ، بالأوصَاف التي أسُّها التقوَى، ورأسُها اليقينُ، وسنامُها شهادَةُ التوحيدِ، وفعلُ ما يلزَم من حقِّها. و«**عزائـم مغفرتـك**» التي لم توجِبْ فيها المغفرةَ على اقترافِ المعاصي التي حذّرتها، وعرَفْتَ ما في ضمنها من الخزي والجزاءِ، بل بعزائم الجودِ والكرمِ، لأنك إذا شئْتَ غفرْتَ ولم تبالِ، ولذلك عبَّر النبيُّ ﷺ «**بالعزائم**» التي تقتضيها نُعوتُ الجودِ، وسعة الكرم.

* * *

وتكلَّم رضِيَ الله عنه على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. **فقال**: إنّ الذي أجابَ الحقَّ تعالى من الأرضِ ذرّةٌ من طينةِ المصطفى ﷺ، وموضِعُ روحِه من السماءِ.

وقالَ: إن جميع المكوَّناتِ خُلقَت من نوره ﷺ لأن الذاتَ الإلهيةَ لمّا اتصفَتْ بالكمال، أحبّتْ أن تُعرَف، كما في الحديثِ القدسيِّ. فأفاضَتْ من نُورِها ذرّةً، وهي من نوره ﷺ، فنظرتْ بعينِ الجلالِ، فانذابَتْ بحراً من نُورٍ، فأزبدَ ذلك البحرُ، وارتفعَ دخانٌ، فخَلقَ الله من الزَّبَد الأرضينَ، ومن الدُّخَان

السمواتِ. وتلك الذرّةُ وهي بنسبةِ النقطةِ التي تحتَ الباءِ [/٢١]، المتعلقةُ باسمِ الإلوهية.

* * *

ثم **تكلَّمَ** عن معنى «الشَّكُور»، **فقالَ**: إن الشكورَ ليسَ هو من يشكرُ على نعمَةِ الوُجْدِ، بل من يشكر على نعمة الفقْدِ، لأنها من أعظَم النعمِ، لأن الله جل وعلا لا يمنعُ على عبده شيئاً إلا رحمةً به وتفضلاً عليه، لأنه لا يختار له إلا ما هو أصلَحُ وأرجَحُ، إذ يحصلُ للعبد بالمنعِ السلامةُ والثوابُ الذي هو أعظَم أكبر، ولا يكون العبدُ شكوراً إلا إذا لاحظَ تلك النعَم المستترةَ في المنعِ، فإذا عرفَ سرْعة زمَن الصّبرِ، وعظيمَ الجزاء في دار النعيمِ المقيم، ارتاحَ لذلكَ، وفرح بالمنْعِ والتذَّ به.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه عن معنى الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؟.

فأجابَ: «وصَدَّق به»، أي: أن ذلكَ التصديقَ من عندِ الله، أي: بفَضْله، من فضله جلَّ شأنُه.

ثم قيل له: وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فقالَ: هم الذين لم يفارقوا شيئاً من صفاتِ الربوبيةِ.

* * *

وسُئلَ عن التوكل؟.

فقالَ: أفضَلُه أن يتوكَّلَ على الله، وأن يقوم في صفته العَبْدية، وأن يكون مع مُرَادِ الله، لأنه أعرَفُ بمصَالحِ عبدِه، وأرحَمُ وأرأفُ به من نفسِه.

* * *

وتكلَّمَ رضِيَ الله عنه على سورة الفاتحة، فقالَ ـ مبتدئاً بالبسملة ـ: الباءُ نقطة الانفعالِ، وهي مظْهَرُ نبيِّنا وسيّدنا محمد ﷺ، رحمةٌ تعلقَتْ بالباءِ، والباءُ تعلقَتْ بالاسمِ، والاسمُ بالألوهية. وإنما كان التعلقُ بالاسمِ؛ لأنه مظهر الألوهية، إذ هي الجامعَةُ لجميع الحضَرات في الأسماء والصفات. ثم ذكَر «الرَّحمن»، وهو مظهر الإيجادِ رحمةً، ثم «الرحيمُ»، الذي الإمدادُ منه باسم الرَّحيمية. فلما كمُلَ مظهَر الإيجادِ والإمدادِ باسْم الرحمانية، لتلكَ النقطة التي هي المظهر الكاملُ التي اقتضتها المحبَّة الإلهيةُ، بقوله في الحديثِ القدسي: «كنت كنزاً مخفيًّا فأحببتُ أن أعرَف»[1]، فحصلتْ له المعرفة الحقيقية بإلهامها الحقيقيِّ، فاقتضى ذلك منها الحمدَلةَ بجميع المحامدِ، المتفرد[2] لجميع أفرادِ الحمْد وأنواعِه، فنطقَتْ «الحمدُ لله»، وخصَّت اسْم الإلوهيةِ، ثم عرفته بأنه «ربُّ العالمينَ»، الذي بيده الخلقُ والأمر، وجميع أنواع التصريفاتِ.

---

(١) حديث: «كنت كنزاً مخفيا لا أعرَفُ، فأحببتُ أن أعرف، فخلقتُ خلقاً وتعرفتُ إليهم فبي عرفوني». نقل عن بعض العلماء قوله: إنه ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وقال مثله: العلامة الزركشي، والحافظ ابن حجر العسقلاني، قال العلامة العجلوني: «وهو واقع كثيرا في كلام الصوفية، واعتمدوه وبنوا عليه أصولا لهم»، وقال القاوقجي: «ولكن معناه صحيح ظاهر، وهو بين الصوفية دائر». ينظر: القاوقجي، اللؤلؤ المرصوع: ص١٤٣، العجلوني، كشف الخفاء: ٢/ ١٣٢.

(٢) كذا في الأصل، ولعلها: المستغرق.

ولما أوجدَها وعلمتْ أنه ما أوجدَ وخلقَ جميعَ المكوَّناتِ إلا للعلْم بالألوهيةِ، والإقرار بالوحدانيةِ، والقيامِ بوصْف العبودية، عَظُم عليها ما كلَّفَها به من أداءِ حق الربوبيةِ، آنسَها بإعادة ذكر «الرَّحمن الرحيم» ثانياً، وبشَّرها بأنه معها معيناً وميسِّراً، وهادياً ومؤيِّداً ومسدِّداً، بإعطائها من وصْف الرحيميةِ التوبةَ، والرحمةَ، والمغفرةَ، ونحو ذلك. ثم لما خافَ عليها الجموحَ عرَّفها بأنه «مالك يوم الدين»، إلى آخر ما قاله.

* * *

وقُرِئَ عليه في بعض كتُبِ الحقائقِ، فعلَّق بقوله ما معناهُ: إن الحقائق لا تُنَالُ بقراءة كتُبِها، وإنما يحصُل الوصولُ إليها بالمجاهَدة وسلوكِ طريقِها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، فالجدّ: قوةُ الهمّةِ، والاجتهادُ: بذْلُ المجهودِ، وبهما يحصلُ المقصودُ، وهو الهدايةُ، أي: النورُ الذي تنكشِفُ به الحقائق، و«المحسنين»: الذين لم يطلبوا منه بمقتَضى مظَاهر أسمائِه الكرامِ الرحيمةِ.

ثم تلا قولَه تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾، إذاً عليك بالصبر ثم الرضا، ثم قال له ربه: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه: هل تواضُع الغنيِّ للفقيرِ أفضَلُ؟ أو تعزُّزُ الفقيرِ على الغنيِّ؟.

فأجابَ: إن تواضُع الغنيِّ للفقيرِ أفضلُ، لأنه أعطَى العبوديةَ حقَّها من الانكسارِ، ولم ينظُر إلى دنياه عجباً واعتزازاً وبطراً.

وسئلَ: عن تقبيل أيادي أهلِ البيتِ النبويِّ ودليله؟.

فأجابَ: إن هذا التقبيلَ هو تقربٌ وتوددٌ إلى الحبيبِ الأعظم ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. وسيدُنا عبد الله بن عباس رضِيَ الله عنهما مِن أهلِ البيتِ، لكنه أخذ بركابِ سرْج فَرَس سيدِنا زيد بن ثابت رضِيَ الله عنه. فقال له: لم فعلتَ ذلك؟ فقال له: هكذا أمِرْنا أن نفعلَ بعلمائنا. فنزل زيدٌ عن فرسِه، وقبَّل يدي سيدنا عبدالله بن عباسٍ، وقالَ: هكذا أمِرْنا أن نفعلَ مع أهل بيتِ رسُول الله ﷺ[1].

* * *

ثم ذكر رضِيَ الله عنه الوهَّابية، فقالَ: إنه لما استولت الطائفةُ الوهابية على الحرَمين الشريفينِ، امتنع [٢٣/] الحجّاجُ كلهم من تقبيلِ أيادي أهلِ البيتِ. فقدَّر الله أن بعْضَ المحبينَ قبَّل يدي، وشاهدَه بعضُ أفرادِ تلك الطائفَةِ، فأقبلَ إليَّ.

وقالَ: أنتَ من حضْرمَوت؟.

فقلتُ له: نعَم.

فقالَ: هي أرضُ الشركِ!!.

فقلتُ له: حاشَا لله، نحن مسلمون موحِّدُونَ، ونعرفُ التوحيدَ وحقيقتَه، وأنتم تجهلونه، وقيامُكَ من محلِّك، ووصُولُكَ إليَّ، مع زعْمِكَ أنك تقْدرُ على هدايتنا شركٌ.

---

(١) أخرجه الحافظ ابن المقري في جزء «تقبيل اليد» بسند صحيح. وأورده الحافظ ابن حجر في «الإصابة».

الحقَّ، أو يترك القيامَ به خيفَةً، أو مداهنةً. وقد قالَ النبيُّ ﷺ : «**أصْحابي كالنجُوم بأيِّهم اقتديتُم اهتَديتم**»، وكلهم على هذا، ولكن منهم من هو أهدَى طريقةً وأقوَمُ سبيلاً، وقد استدلّوا على تقديم الصديقِ لإمامته الصَّلاةَ، وقالوا: «رضِينا لدُنيانا من رضيَه النبيُّ ﷺ لدينِنا»[1]، إلخ ما ذكر.

* * *

(١) أخرجه من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام، ابن عساكر وغيره. وأورده صاحب «كنز العمال».

إجازةٌ ووصيّة

من سيدي الحسن بن صالحٍ، للحبيبِ الفاضل إبراهيم بن عيدروس، وأنقلها هنا حسْبما وجدتها بخَطِّ محبّه عُمَر محمد شماخ، بدأها بهذا الذكر:

«لا إله إلا الله، لا معبودَ إلا الله. فالإله المستحقُّ للعبوديّة هو الله، فلا يعبَدُ بالحقِّ غيرُه، ومن عبدَ غيرَه فهو الباطلُ. واتّباع الهوَى هو عبادَة الباطل، ومن تحقَّق بعبادة الله لم يعبُدْ غيرَه من خلقٍ، برياءٍ أو غيرِه، لأنه لا يملكون ضُرًّا ولا نفعاً، ولا حياة ولا نشوراً، فلا يستحق العبادةَ إلا من أنشأ الوجُود بعد العدَمِ، فإذا لا معبودَ غيرُه، ولا مقصُود يُقصَدُ في عطاءٍ ولا في منعٍ، ولا في خفضٍ ولا في رفعٍ، إلا لمن له القدرة والملكُ والملكوتُ، وكلُّ شيء مطيعٌ لأمره، مذعِنٌ لربوبيته، متصرفٌ فيه بما شاءَ، لا مانعَ لما أعطى ولا معطيَ لما منعَ، فلا موجُودَ في الوجُودِ إلا واجبُ الوجُودِ، ولا موجُودَ غيره إلا على المجازِ ـ بإضافةِ الفعلِ إليه مجازاً ـ والحقيقة[1] هو الله، ما معَه في الوجود غيرُه.

فإذا عرفتَ أن لا موجُودَ غيرُه، نفيتَ شُهودَ من سواهُ، فلا مَشْهُود غيرُه، إذ هو الشاهدُ والمشهودُ، فمن عرفَ هذا فقد تحقّق بالعرفانِ، وشَهِد بشهود العيانِ، فيتحقّقُ له أن يفنَى عن جميع الأكوانِ، فإذا فنيَ به، بقيَ به ولَهُ في كل شأنٍ، وذاقَ صفْوةَ الإيمان وشهِدَ الأمور على حقَائقها بالجمع والفرقِ.

---

(١) كذا في الأصل.

وذلك مطلبُ المخصُوصينَ المحبوبينَ المقرَّبين عند الملكِ الديانِ، ومجمع هذا الذكْرِ هُوَ: «لا إله إلا الله لا معبودَ إلا الله، لا إله إلا اللهُ لا مقصود إلا الله، لا إله إلا الله لا موجُودَ إلا الله، لا إله إلا الله لا مشْهُود إلا الله».

وأن الذكر مفتاحُ البصائرِ، ونورُ السرائرِ، ومن تحقَّق به فقد عرفَ معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. فهو نورُ الكائناتِ الذي أخرجها من ظلمَة العدَم إلى نُورِ الوجودِ، وليس على التحقيقِ نورُ الشمسِ والقمَر اللذَين أوجدَهما بوجُوده الواجدُ الحقُّ، فالشمسُ والقمَر موجوداتٌ [٢٥/أ] إذ أوجدَه من الأنوارِ الإلهيةِ، والكلُّ هو حقيقةُ وجُودِه وإيجادِه، فما وجدَتْ إلا بإيجادِه، وما بقيتَ إلا بإمدادِه، جلَّ شأنه.

الذكر الثاني[1]: «الله ناظرٌ إليَّ»، فمن ناظَرَه استحَى منه أن يراهُ حيثُ نهَاه، أو يفقده حيثُ أمرَه، وهو حاضرُه في سرِّه وجهْره، ويُسْرِه وعسره.

الذكر الثالث: «الله حاضِرٌ مَعي»، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

الذكر الرابع: «الله قريبٌ مني»، لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، فقُرْبه ليسَ قرْبَ مسافةٍ، فهو قريبٌ بقدرَته وتصريفه، إذ لا قدرة لأحَدٍ أن يرفعَ ما ينزله بالعَبد، ولا يدفعَ ما أراده، فهو بالحقيقة أقربُ من كل قريبٍ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

ومَن داومَ على الذكرِ فلا جرمَ أن يرتفعَ عنه الحجابُ، ويرْقَى في معالي

---

(١) لم يذكر الذكر الأول وهو: «الله شاهدي»، لعله سقط سهواً من الحبيب أو من الكاتب (محسن).

الذكر إلى مواطنِ الاقترابِ، ويشربَ شرابَ صفوةِ الأحبابِ، ومن هنا ينفتحُ القلبُ، ويزول عنه الحجابُ، ويذوقُ ما ذاقه المتقونَ الأنجاب، وينسى مع ذلك الأحسَابَ والأنسابَ، ويتحقق بشهودِ رَفيع الجنابِ. وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم».

* * *

ثمّ قيل له: هل لهذه الأذكارِ وقتٌ معينٌ، أو عددٌ معين؟.

فقالَ: إن المقصُود المحافظةُ والمداومةُ عليها، وتفهُّم معانيها وأسرارها.

فقلتُ له: ما هو الأَولى بالاعْتناءِ من هذه الأذكارِ: ذكرُ نفْيِ الألوهية، أو ذكْرُ المعية؟.

فقالَ: ذكر المعيّة أشدُّ تأثيراً؛ لأنه يثمِرُ له الخوفَ والحياءَ والمراقبة والخشيَة، وربما يكشَفُ للذّاكر، خصوصاً عند قوله: «الله قريبٌ مني»، عن درجَاتِ وأحْوالِ أهل القُربِ من الأنبياء والأولياءِ، ومقاماتِهم العلية عند المقتدِر العلي.

* * *

وذكَر لنا سيدي الحسَنُ رضِيَ الله عنه أنه أجازَ الحبيبَ العارف بالله عُمر ابن زين الحبشيَّ، في هذا الذكرِ، ذكْرِ المعيةَ، **قال الحبيبُ عمر:** إنه حصلَ لي بذلكَ فتحٌ عظيمٌ، وتأثير كبيرٌ في تطهير السرِّ، وحسْنِ المراقبةِ، والحياء من الله اللطيفِ الخبيرِ، حتى سبَّب لي عدَم القدرة على كشْف عورَتي في الخلاءِ!، خجَلاً من الله.

وقالَ الحبيبُ عمر أيضاً: إنه سبقَتْ لي إجازاتٌ كثيرةٌ في أذكارٍ كثيرةٍ، لكنه لم يحصل منها مثلَما حصَل لي من هذا الذكرِ، فلله الحمد والمنةُ.

وذكَر لنا الشيخُ العارف بالله عبدُ الله بن سعدِ بن سُمَيرٍ، قائلاً: إن جُلَّ فتوحاتِ سيدِنا الحسَنِ، ومواجيدِه، وكشوفاته، وقعَتْ له في ذكر المعيّة المشهور.

وذاتَ مرّةٍ؛ وهو في طريقه متوجّهٌ إلى (تريم)، وكان يتلو هذا الذكْر، ثم حادَ عن طريقِه إلى جانبِه، وجلس وتركَ من كانَ بصحبته، وبقيَ لنفْسه مستغرقاً في ذلكَ الذكْر، وحصلت له غيبةٌ، وبعْدَ صَحْوه وسُؤاله، ذكر أنه قد كشِفتْ له أحوالُ أهل مقاماتِ القرْبِ، مثلِ الشيخ عبد القادر الجيلاني، والفقيه المقدَّم، والسقافِ، رضِيَ الله عنهم.

* * *

وقُرِئ عليه رضِيَ الله عنه حكايةُ: أن بعْض النصارَى سأل بعضَ الأولياءِ: كيف أن نبيكُم يقول: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»[1]، فأين من يعملُ منكُم مثل عيسَى عليه السلام من إحياءِ الموتَى وغير ذلكَ؟.

فقالَ له الولي: اجمعْ لي من قومك أربعين نفراً، وأتني بهم. فلما حضَرُوا لديه، قال لهم: موتُوا بإذنِ الله فماتوا. ثم قال لهم: أحيُوا بإذن الله، فقاموا أحياءً، وأسلموا كلّهم.

فقالَ سيدُنا الحسنُ: مثلُ هذا التصريفِ لا يكونُ إلا بإذنٍ للولي من ربِّه، وعندَ الحاجَة، أما الأنبياءُ ففي مثل هذه الأحْوالِ فهو في حقّهمْ فرْضٌ، وليس ذلك مطلبٌ للأولياءِ، لأن مطلبَهمُ القيامُ بالعبودية.

* * *

(١) نقل السخاوي عن شيخه الحافظ ابن حجر أن هذا الحديث لا أصل له. السخاوي، المقاصد الحسنة: ص٤٥٩.

وسأله بعضُهم، عن قول سيدنا عبد الله الحداد: «يبعثُ لهذه الأمة على رأسِ كل مائةِ سنةٍ من يجدِّدُ لها دينها»[(١)]؟.

فقال: لما كان الزمانُ الأولُ فيه قابليةٌ للصّلاحِ، كفاه الواحدُ في تجديدِ الدين، ولما كانت الأزمنةُ المتأخرَة كثيرةَ الفسادِ، وقلّتْ فيه القابليةُ، احتاجَ إلى من يجدّدُ الدينَ جماعةً، ولا يكفي فيها التجديدُ بواحدٍ.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه: الذكرُ باللسانِ فيه تزيينٌ وتحصينٌ. إذ لو لم تشتغلِ اللسانُ بِه لاشتغلتْ بالمعاصي، مثل الغيبة والنميمة، أو بما لا يَعْني، ويسري منه أنوارٌ عظيمةٌ كثيرةٌ، تنعكسُ على القلبِ فيستنير. ولا ينكشفُ للقلبِ عالم الملكِ والملكوتِ إلا بنُور الذكرِ، وإذا دخلَ النورُ القلبَ انشرح له الصدْرُ وانفسحَ، كما قال النبي ﷺ: **«إن الأعضَاء كلها تكفّرُ** [/٢٧] **اللسانَ، وتقول: إن استقمت استقمْنا، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا»**[(٢)].

والشيطانُ كالهدهدِ، واضعٌ منقارَه على القلبِ، فإذا وردَ نورُ الذكرِ على القلبِ طَار.

وتظْهرُ بالذكرِ شئونٌ ومعارِفُ، منها: أن القلبَ يرى اطّلاعَ الحقِّ عليه، وقرْبَه منه، ويترقّى في درجاتِ القرْبِ، حتى يصل إلى مشاهدَة الحقّ. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، بهذا نبه

---

(١) أصله في حديث نبوي صحيح أخرجه أبوداود والحاكم، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع»، وأحمد في «مسنده».

سبحانه وتعالى على أنَّ الذكْر لله يوصِلُ إليه، والعملُ الصّالح يرفعُه. أي: يجعلُ للعامِلِ به درجاتٍ في الجنّة، ولذلك فضَّل الله الذكْرَ على سائر الأعمالِ، لأنها لو خلَتْ منه، أي: من الذّكر القلبيّ، وهو الحضُور، لم يتعدَّ بها.

وهو لا يفتقِر إلى عملٍ، فمتى وُجِد الذكرُ القلبيُّ، كفى عن العملِ، ولا يسقِطُ هذا تأديةَ المفروضاتِ، بل إنه مقيدٌ بها، بمعنى: أنه كيفَ سيذكرُ ربَّه ولم يقُمْ بما عليه من الفرائضِ؟. والذكرُ هو من الأعمالِ التي يأتي بها الإنسانُ في كلِّ وقتٍ.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه: عن المحبَّةِ، والخُلَّةِ، أيهما أفضل؟.

فأجابَ: المحبةُ أفضَلُ من الخلةِ؛ لأن الحبيبَ مأذونٌ له في التصْريفِ، وهو قائمٌ مقامَ الحقِّ، وهي صفتُه ﷺ. وقد قالَ الله تعالى في وصْف حقِّ قيام المحبوبِ مقامَه تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾. ولأن الحبيبَ خليلٌ، ولا عكْسَ. إذ معنى تـخلُّلُ سرّ الحقِّ في سرِّ العبدِ[1]، ومعنى المحبوبيةِ: حصولُ النيابة عنْه تعالى بعدَ التخَلُّلِ المذكور.

فقيلَ له: ما هي أماراتُ الخلَّةِ والمحبوبية؟.

فقالَ: أمارةُ المحبوبيةِ المسَارعةُ إلى مراداتِ المحبوبِ وأمانيه، كما قالت سيدتنا عائشةُ رضِيَ الله عنها في حقه ﷺ: «ما أرى ربَّك إلا يسارعُ في رضَاكَ»[2].

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) متفق عليه، ولفظها: «في هواك».

وأمَارةُ الخلَّة: إطلاعُ الخليلِ على أسْرار المقدوراتِ الحقيةِ، كما قال الله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾. ودرجاتُ الإنزالِ في السموات والأرض على الإجمالِ والإبهامِ. فإذا وصل الإنزالُ في السَّموات إلى سماء الدنيا؛ تفرقَ الأمرُ بحسَب التقديرِ، كما قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾، بالشقاءِ والإسعادِ، والتقريبِ والإبعادِ، إلى غير ذلكَ [/ ٢٨].

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه عن أوصَاف العبُودية. وكم هي؟.

فأجابَ قائلاً: إن أوصافَها بعد أوصَاف الربوبيةِ، بحسب المقابلةِ، ومنها: الفقرُ، والذلُّ، والخضُوعُ، والانكسارُ، وغير ذلك. كما أنَّ للرَّبِّ الغِنَى وللعبْدِ صفةُ الفقرِ، وللرب العزَّةُ وللعبدِ الذلُّ، والربُّ جل شأنُه هو الآمِرُ والعبدُ هو الممتثِلُ. وهكذا هو مقامُ العبودية، جامعٌ لجميع الأحوالِ والمقاماتِ، مقامُ النفسِ الكَاملةِ، المندمجةِ فيها أوصافُ السبع الأنفسِ.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه: ما معنى شهودُ الفعلِ، والاسْمِ، والصّفةِ، في حقه تعالى؟.

فضَربَ مثلاً لذلك، مثَلاً: كمَنْ يبني داراً، فشهودُ الدار المبنيةِ شهودُ الفِعلِ المبنَى، ثم يترقَى إلى شهُود الاسمِ، ثم إلى شهود صفة الفعلِ.

* * *

ثمّ تكلَّمَ عن الذِّكْر، وقالَ:

إن ذكرَ الله منَ العبدِ يختلفُ باختلافِ المشاهِدِ، فإن كانَ ذكرُه شهودَ أفعالِ الحقِّ، فذكرُه له تعالى بانفعالِ الكَونِ بقول: «كُنْ». وإن كان ذكرُه ـ أي العبدُ ـ بشهُود الاسمِ، فذكرُه تعالى في حقائقِ معنًى أو معاني ذلك الاسم. وإن كان ذكره بشهُود الصفاتِ، فذكرُه تعالى بالاطّلاعِ على مباديها وحقائقها، فلا يحيط بكنهها أحدٌ.

مثالُ ذلكَ: كمن يشاهد صورة دارٍ، فتثمر له تلك المشاهدة أن يريه صاحبه كيفيةَ البناءِ، والفاعلُ لذلكَ يسمى بنّاءً، مع أنه لا يحيط بعْدَ اختلافاتِ صُورة البناءِ، فإذا شاهده اطّلع على بعْض الحقائق لذلكَ الاسمِ، كأن يعلمَ أنه لا يسمَّى بنَّاءً إلا مَن فيه علمٌ بحكمَة البناءِ، وإرادةٍ، وقُدرةٍ عليه، فإذا واجه وشاهدَ تلك الصفاتِ، أطلعَه الله على بعْضِ أحكامها وحقائقِها.

ومن أطلعَه الله على شيءٍ من أسرار القَدر الإلهيِّ، فينبغي له أن يتأدّبَ بآدابِ العبوديةِ مع القدَرِ، الواجبُ اتخاذُها، في التكتّمِ، والسترِ، والتسليمِ، ونحو ذلكَ. ولا ينبغي أن يظهِرَه إلا بإذنٍ إلهيٍّ، حُكْميٍّ، أو علميٍّ، أو أمريٍّ. فالأمريُّ: كأن يؤمِّرَ الحالُ، بغلبته عليهِ، أو بمقتضَاهُ حالَ الغير، كما يعرفُه أهلُ الفهم والبصيرةِ. والعلميُّ: أن يلقيَ الله في قلبِه أنّ في إظهارِه نفعاً بيناً. وعلامَةُ صحة الإذنِ الإلهيِّ: أن يسبقه ذلٌّ وانكسَارٌ وافتقارٌ، إلى آخر ما قاله [/٢٩].

* * *

وقُرِئَ عليه رضِيَ الله عنه في كتاب «الجوهر الشفاف في كرامات السادة الأشراف»، **فقال**:

إنهم لما وجّهُوا الهممَ إلى ربِّهم، وصار همّهُم هماً واحداً، وهو الانفرادُ بِهِ، والأنسُ بقربه، والنسبةُ إليهِ، حتى صَفا إبريزُ تبْرِهم، وصار كبريتاً، والكبريتُ إذا وُضعَ على شيءٍ قلبَ أعيانه، إما ذهبٌ أو فضّةٌ، أو ما أراده. لأنهم لم يوجهوه إلى شيء من الأمور الفانية إلا إذا احتاجوا عند الإذن منه وبأمر إلهي.

فعند ذلكَ..

سُئلَ: هل لذلكَ الإذنِ الربانيِّ، أو الأمرِ الإلـهيِّ، علاماتٌ وأماراتٌ يعرفها؟.

فقال: نعَم، لها أماراتٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ. إمّا بمقتضَى الوجوبِ، أو الندْبِ، أو الإباحةِ. ومن علاماته الظاهرَةِ: الاضطرارُ الداعي إلى ذلكَ. ومن علاماته الباطنةِ: تحقُّقه فناءَ نفسِه، وإن لم يكن فيه بقيةُ حظٍّ من حظُوظهَا.

قال ابن الفارض:

وأبثثُها وَجْدي ولم يكُ خَاطِرِي　　　رقيـبُ لِقَـا حَـظَّ بخلـوَةِ جَلـوةِ

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه عن قوله في بَعض مذاكراته: من أنّ الرزْقَ يحصلُ إما بطريق القدرةِ صرفاً، أو بطريقِ الحكمَة. فمن الذي يكون له رزقُ القدرَة؟.

فأجابَ: إن رزق القُدرةِ يكونُ للمؤمن بفَنائه عن الأسبابِ، وشهودِه أنه من عندِ الله، حتى ربما أنه يشْهدُ ذلكَ من عندِ الله حلالاً صرفاً، لأن لم يبْقَ له في شهودِه بقيةُ ملاحظةٍ لغير الله. **ومثالُ** من يشهدُ القدرةَ فقط: كمن لا يشربُ اللبنَ إلا من الغَزالِ، ولكنه يخشَى أن يجنحَ إلى الكراماتِ وظهورِها.

وأكملُ منه: من يشهَدُ القدرةَ في الحكمةِ، والحكمةَ في القدرَةِ، ولا يبالي إذا أتاهُ الرزقُ مثلاً بسببٍ، أو غيرِ سببٍ. وذلك هو المتّقِي في إيقانِه، وهو أتمُّ رسوخاً، وأثبتُ في اليقينِ. واستشهد بقول الحبيب عبد الله الحداد:

وإن تجردتَ فاعملْ باليقينِ وبالـ ـعلمِ إذ كنْتَ موقوفاً على السببِ

* * *

وعلقَ على ما ذُكر في كتاب «الجوهر الشفاف»: عن كرامَة شِكاية البقرتين إلى القاضي ابن عيسَى التريميّ، فقال: إنه لما خرقَ العوائدَ من نفسِه، انخرقَتْ له العوائدُ.

* * *

ثم ذكر حكَاية أبي عبيدٍ التريميِّ مع إمام الحرمينِ [/ ٣٠] فقالَ: لما دخلَ هذا الشيخُ التريميُّ إلى (مكّةَ)، مستتراً بخمُوله وغُفْرانه من فطاحل العلماء، ودخل الحرمَ، فوجدَ إمامَه في حلقة درْسِه، وأملَى على الطلبة مسْألةً فقهيةً دقيقةً، ولم يجيبوا عليها الطلبةُ، فقرُبَ هذا الشيخُ إلى الإمامِ، وأخبرَهُ بجوابِ مسألته تلكَ.

فقال له: لا يجيبُ على هذه المسألة إلا أبو عبيدٍ التريميُّ، فهل أنتَ هو؟

قالَ: نعم.

فقالَ سيدنا الحسَنُ رضِيَ الله عنه: إنَّ الشيخَ أباعبيدٍ لم يصْبِر على كتمانِ الحقِّ، فأظهرَه الله بعدَ طرْحِه للخلقِ، وعدم ملاحظَتهم.

* * *

وذاكَر رضِيَ الله عنه عن معنَى الهمّةِ، والعزْم، وقوّةِ الإرادة للعبادةِ، فقال:

يكون ذلك باطناً بتجريدِ القصْدِ لله، ومشاهَدة الحقِّ، وعدمِ ملاحظَة الأغيارِ، مظهِراً امتثالَ أمر الله، مجتنباً نواهيَه.

* * *

ثم ذكر الحديثَ القُدْسيَّ: «الإخلاصُ سرٌّ من سرِّي»[1]، ...الخ. وقال: هو نورُ البصيرةِ، وهو قدمُ الصدقِ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

* * *

وذاكَر رضِيَ الله عنه عن رؤية الحقِّ سبحانَه وتعالى، فقالَ: إنما هي بالقلبِ والسرِّ، كما يتراءَى لكلّ واحدٍ منهم على انفرادِه. وليست تلك الرؤيةُ كرؤيةِ المخلوقينَ، لأنه جلتْ قدرتُه منزّهٌ عن ذلكَ. وفي الجنة يتراءَى لهم في تصريفاتِ نِعَمه، ومظهر آياته وصفاتِه، لأنه لو احتجَب عنهُم لما وجدوا لذَّةَ النعيم؛ هذا في عموم أهْلِ الجنة.

أما أهلُ الخصُوصِ؛ فتجليه لهم تجلٍّ خاصٌّ، لأنه يخطبُهم إلى رؤيته، ومعاني ذلك كثيرةٌ، ولا يليقُ الخوضُ فيها.

* * *

ثم ذكر الحبيبَ عبد الله بن عمر بن يحيى[2]، فقالَ: إنه صاحبُ قوّةٍ في الرُّوحِ، ووالدُه[3] أيضاً قويُّ الرّوحِ. ولما كنتُ معهم في (الحرمينِ)، ومعي

---

(١) أورده الإمام الغزالي في «الإحياء»، وأخرجه القشيري في «الرسالة» بسنده عن الإمام علي عليه السلام.

(٢) توفي سنة ١٢٦٥هـ.

(٣) الحبيب عمر بن أبي بكر بن يحيى، توفي سنة ١٢٢٩هـ.

الأخ أحمد بن علي الجنيد[1]، قالوا: بانخرْج للاتفاقِ بأحد مجاذيب (مكة)، فخرَجْنا، فصادفناهُ في أحدِ الأزقّة، فطلبَ منه الحبيبُ عمر الدعاء بصلاح... وقبلَ أن يتمَّ كلامه، قال:...القلب، ما شي!. فحصلَ مع الأخِ عُمر حزنٌ شديدٌ.

فقلتُ له: إن أحداً قد تغلِبُ عليه الأوصافُ القلبيةُ، من الرحمة، والخشية، والإنابةِ، وأنت الغالبُ عليك قوّةُ الروحِ. فانشرح خاطرُه لذلك [١/ ٣١].

* * *

وسُئِلَ عن سبب الوسْوَسة؟

فقالَ: ما سببُها إلا الغفلةُ. فلو شاهد كبرياءَ الحقِّ، وانفراده بالعظمةِ والألوهيّةِ والقيومية، وتصرُّفَه في المخلوقاتِ بالأمر والتقْدير، والنفع والضر، لجمعَ هذا الموسوسُ على ربه همتَه، وخضعَ وذلَّ لعظمتِه، ونطقَ بقول: «الله أكبر» مما سواه.

بل ينظرُ في شهودِه ما عداهُ، حينمـا يشهدُ جميعَ الـمكوَّناتِ الباهرة، والمخلوقاتِ العظيمةِ القاهرة، منقادةً لأمرِه، مُوجَدةً بإيجادِه.

عند ذلك يفردُه بوُجْهته الكليةِ، بكمال الجمعيةِ، ويقولُ: «وجهتُ وَجهي»، أي: وجْهَ نسبته المجازيّة، «للذي فطَر السمواتِ والأرضِ»، وخصّصهُما بالذكرِ لأنهما أعظمُ المخلوقاتِ المرئيةِ بالبصَر الظاهرِ، والحقُّ تعالى خلقَهما وما فيهما لمنفعتِه، ويكون بهذِه الوُجْهة الكاملةِ «حنيفاً»، مائلاً عن ملاحَظة جميعِ الآثار والأغيَار الحسيّة والمعنويةِ، «مسلماً» لربِّه بكمالِ الامتثالِ لأمره، والانتهاء عن زَجْره، والفناءِ في مرادِه، متّبعاً ملَّة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلامُ، ﴿إذ

(١) توفي سنة ١٢٧٥هـ.

قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، فسمحَ بماله للضيوفِ، وبابنه للقُرْبانِ، وبقَلبه وزَوجِه للرّحمنِ، ثم قالَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: بذلك أمرَني ربّي بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

* * *

وعن المجَاهدةِ؛ قالَ سيدُنا الحسَنُ رضِيَ الله عنه: هي أصْلاً مجاهدةُ النفسِ، لمعرفة عظَمة الله، وجلالِهِ، وكمالِهِ، وجمالِهِ، وانفرادِهِ بالألوهية. فإذا عرفت النفسُ ذلكَ، رأتْ ذِلَّتَها، ونقْصَها، وعيوبَها، ورذائِلَها، فعندَ ذلك تنقادُ لحكمِهِ، وتشَمّرُ في امتثالِ أمره، وتنتهي عندَ زجره، وتذعِنُ وتنفرِدُ بعبادته، وتستعينُ به، وتعتصِمُ وتتوكّلُ عليه، وتتحقّقُ أن لا وصُولَ إليه إلا به، فيتوجّه إلى مجاهدةِ نفسِه بحَول الله وقوته، ويشْهدُ لله سابقَ منّتِه، وتوفيقِه وهدايته، فحينئذٍ يحصلُ له التبرّي من حَوله وقوّته، ونظرِه إلى علْمِه وعملِه، فيسْلمُ بهذا الشهود من علله [/ ٣٢]، ولا يطلبُ منه الثوابَ والأجْرَ إلا بمقتضى سابقِ رحمته وفَضْله، بمُوجبِ أسمائه الرحيمة الكريمة.

* وللنفس ثلاثةُ أوصافٍ:

ـ **نفسٌ أمارَةٌ بالسوء**؛ أي: مشَاهدةٌ للحظُوظِ الفانيةِ، متوجهةٌ إليها بكليتها، مطالبةٌ بها.

ـ **نفسٌ لوامَةٌ**؛ وهي أرفعُ وأشرَفُ من الأولى، ولذلك أقسَم الله بها، لاختصاصها بالمعرِفة. فإذا عرفتْ نقْصَ تلك الحظُوظِ الفانية، ورداءة النفسِ الأمّارةِ، لامَتْ عليها، ورجعَتْ وتابَتْ منها، وأنابَتْ إلى ربها.

ـ النفْسُ الملهَمةُ؛ وهي التي يبدو لها الإلهامُ بالتقوَى، ومبادئ المكاشَفاتِ والمعارف الإلهية، وهي أصعَبُ خلاصاً من تلبُّساتها مما قبلها. وأكثرُ السالكينَ واقفونَ بها، محجوبونَ بتخيّلاتها، فيصيرونَ راكنين إلى حالتها، من الذَّوقِ والهيَمانِ، ولوامع مكاشَفتها، ولا يطلبُ الخروجَ عنها، وربَّما يدعي الوصُولَ إلى الله، والفناءَ بمشاهدَة فعْلِ الله، وقدَر الله، وتعطيلِ شَرائع دينِ الله، فيصيرُ إلى مقَام الزندَقة ـ والعياذُ بالله ـ.

* وقد علمتُ من ادَّعى ذلكَ، واجتمعتُ به، فزعَم أنّ الشرائعَ كلَّها دليلٌ وسبيلٌ إلى الوصُول إلى الله، والجمعيةِ عليه، وإذا حصلَ المدلولُ بطلَ الدليلُ، ولا حاجة إلى السبيلِ. والمقصودُ موتُ النفسِ، كما قال النبي ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»[١].

وقد أجبتُه: إن كنتَ تدَّعي الفناءَ في فعلِ الله، فلا تنقُلْ نفسَك من الشمْسِ إلى الظلِّ، ولا تتعاطَ الأكلَ والشرْبَ، ونحو ذلكَ من مطالبِ النفْسِ، فمن لازمَ تعطيلَ تلك الأسبابِ الشرعيةَ، والأحكام الدينيةَ، تعطلَتْ تلك الأسبابُ لشهوانيتِه التابعَة للحظُوظ النفسيةِ، وعند ذلك انتبهَ من جهلِه وغرُوره، وتابَ ورجعَ إلى الله، وأقبلَ على عبادتِه وطاعته بكليته.

ـ ثم تصيرُ مطمئنّةً؛ بالانقيادِ لأمرِهِ، والامتناعِ عن زجْره.

---

(١) نقل العلامة الملا علي القاري الحنفي عن الحافظ ابن حجر العسقلاني، قوله: إنه غير ثابت. ثم قال: «قلتُ: هو من كلام الصوفية. والمعنى: موتوا اختياراً قبل أن تموتوا اضطراراً. المرادُ بالموت الاختياري: تركُ الشهوات واللهواتِ، وما يترتب عليها من الزلات والغفلات». ينظر: القاري، **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**: ص٣٦٣.

ـ ثم تصير راضيةً بعدَ الطمأنينةِ، مشاهِدةً لفعله في جميع خلْقِه.

ـ ثم تصير مرضيّةً لدَيه، لتوجّهها إلى عبادِه بالرحمة والرأفةِ في دَعْوتهم إلى ما فيه فلاحُهم وسعادتُهم وقربُهم إلى ربهم. فهي المحبوبةُ المرضيّةُ [/ ٣٣] لديه تعالى ولديهم.

* * *

ثمّ تكلمَ على حديثِ: «قلبُ المؤمنِ عرْشُ الرّحمن»[1].

أي: ليسَ فيه إلا شهُودُ فعلِ الله، كما أن العرْشَ لا يكونُ فيه إلا مجرّدُ فعْلِ الله، كما قالَ الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾. أي: بمَظْهر فعلِه وقدَره، وإلا فالحقُّ رفيعُ الدرجاتِ عَن العرشِ والكرسيِّ وغيرهما، جلَّ شأنه.

ولما كانتِ الروحُ أولَ إفاضَةٍ من العَقلِ، كانَتْ هي المشاهِدةُ لكمال الله تعالى، وجلاله، وجماله، والأوصافِ الباقية. فإذا شاهدَتْ ذلك تخلّتْ عن الأوصافِ الفانيةِ، وتحلَّتْ بالأوصاف الكاملة الباقيةِ، وتوجّهتْ بها لأمُور الباقية.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه عن قولهم: «تتمثّلُ للسالكِ جواهرُ الأنبياءِ والملائكة والأولياءِ».

فأجابَ: إنها تتمثلُ له مقامَاتُهم وأحوالهم في صُورٍ علميّة، بعلمٍ، ومعرفةٍ، وذوقٍ، وليست صُوراً جسمية، ويكون ذلكَ للسالكِ في أول بدايتِه، حينما

(١) الصحيح أنه ليس بحديث نبوي مرفوع. ينظر: العجلوني، كشف الخفاء: ٢/ ١٠٠.

تظهَرُ له البارِقَةُ الكبرَى التي فيها يرى جميعَ الأحوالِ والمقاماتِ، ثم تذهبُ، ثم ترجعُ له في كلِّ مقامٍ بارقةٌ صغرى، يرَى فيه الحالةَ التي فوقَها ومنها أحسنَ من الحالةِ التي هُو فيها، فعند ذلك يعرفُ دناءَة حالتِه الأولى، فيجدُّ في الرقيِّ إلى الحالةِ العاليةِ، ولا يزال في الرقيِّ إلى أن يصِلَ إلى ربِّه. ولا منتهى لدرَجاتِ الوصُول؛ حتى أنه ﷺ قالَ: «إنه ليغانُ على قلبي»، الحديثَ. أي: لما يفاجئه من نفحَاتِ تجلياتِ الذات الأحديةِ، وشُهودِ نقْصِه عن التأهُّلِ بكمالِ التلقِّي والجمعيَّة، وشهودِهِ نقْصَ شُهوده الأوَّل بالنسبةِ لما يعطيه وارِدُ التجلِّي الذاتي الثاني.

* * *

وذُكرَ لديه قولُ الشيخِ الرِّفاعي: «علامةُ رضَا الله عنِ العبْد نشاطُه في الطاعاتِ، وتثاقلُه في المعاصي».

فقالَ: علامةُ رضَا الله على العبدِ وجودُ حَلاوة الطّاعة، ومرارَةُ المعصية.

* * *

وسُئلَ رضِيَ الله عنه عن أنفاسِ أهْل التوحيدِ وأعمالهم؟.

فقالَ: إنّ أعمالَهم ومعارفَهم مُنِعوا عن المذاكرَة فيهَا، لأمرينِ:

ـ لكَونهم مأمُورينَ بكتْمها وصَونها.

ـ ولأنها لا تنالُ ولا تدْركُ بالتعبير، وإنما تُنالُ بالذوقِ والوُجْدانِ، ولا سبيلَ إليها إلا بالمجاهدة [/٣٤]. وإنّما مثالها في عظيمِ قدْرِها، وفضْلها على أعمال غيرِهم: كالدُّرر، تفضُلُ واحدةٌ عن الأخرَى.

* * *

وقالَ عن قولهم: «الطرقُ إلى الله بعدَد أنفَاسِ الخلائقِ».

لعَلّه: أنّ لكل نفَسٍ حاصلٍ من أثرِ فعْلٍ، وذلك الفعلُ ناشئٌ عن قدَرٍ، وذلك القدَرُ ناشئٌ عن صفةٍ من صفَاته تعالى، وتلكَ الصّفة ناشئةٌ عن الذاتِ المقدسة.

* * *

وعلى قولِ سيدنا الشيخ الأكبر العيدروس:

أمواتٌ ما فيهِمْ سِوايَ حَيّ … من إنْسِها والجانْ

فقالَ: إن شيخنا العيدروسَ أعْطيَ الفناءَ الصِّرْفَ في مشاهدة الذاتِ العليةِ، بخلافِ غيره، فإن بعضَهم فانٍ بمشاهدَة فعلٍ، على اختلافِ درجاتهم، وجميعُهم بالنسبة إليه كالأمواتِ.

* * *

وقالَ: أيضاً، عن قَول العيدروسِ المذكور: «والله لولا الشرعُ»، إلى آخره.

ذلك من سُكرِ الحالِ، لكنه صرَّح بمَنعِ الشرْعِ، لأن الشرعَ والتقيُّدَ به يثمِرُ التمكينَ في الفعلِ والقولِ، ولأنه إذا صمتَ القلبُ نطقَ الروحُ، وإذا صمتَ الروحُ نطق السّرُّ، ونطقُه ذلكَ هو كشْفُه عن الإسرارِ الإلهية، وأعلى ذلك اطّلاعُه على سرِّ التكوينِ، وهو آخِرُ ما يُعطَاه الصدّيقُ والقطْبُ في الدنيا، وهو أولُ ما يعطَاهُ المؤمنُ في الجنة، لأنها محلُّ الإذنِ في التكوينِ، ولأنه في الآخرة لا ينشغلُ إلا بالله، بخلافه في الدنيا، فهو منشغلٌ عن الله لاستيلاءِ الأغيارِ والآثارِ المانعَةِ عن كمال الشهود، ولأن تكوينَها في الشيء فانٍ لا يدومُ.

* * *

وعلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾. ثم ذكرَ جوابَ سيدنا عيسى لربه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. وتعجبَ سيدُنا من إحجَام الرسُلِ جميعِهم، وعدم جراءتهم على الجوابِ إلا بعدَ العلمِ، واختصاصِه بالروحية، لقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

ثم ذكر الشاهدَ على البراءَةِ من ذلكَ بعلمه تعالى، وهو الذي يعرَبُ عنه بقوله تعالى [/ ٣٥]: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، أي: لا أعلمُ القصْدَ من سؤالكَ عن ذلكَ، مع تحقّقِك عدمَ قولي لهم ذلكَ. ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: فأنتَ أرحمُ بهم مني، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي: لا ينقصُ عزَّتَك وقهرَك مغفرتُك لهم، مع أنهم مجاري أوصافِكَ، ومظاهرُ حكمتكَ. ولما ظهرَتْ براءتُه عليه، وصدقُه مع ربه وخلقِه، عقَّبَ تعالى بقوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

ثم قال سيدُنا الحسَن: إنّ القرآن لا يأتيه الباطلُ «من بين يديه»، أي: فيما يخبرُ عنه، وبه عما قبله، من قَصص الأنبياءِ والأمم السابقة، «ولا من خلفه»، أي: فيما يخبر عما بعدَه من أمور القيامة والآخرةِ.

* * *

وسُئلَ عن قوله في «وصيته إلى الحبيب عمر بن عبد الله بن زين الحبشي»: «ولكن إذا رحمَ الله العبدَ لقابليةٍ فيه، جوزي بعمله». فما هي القابليةُ؟.

فقالَ: هي الفطرةُ، وهي التقْوَى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا

مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾، أي: أنّ أنفُسَهم إذا لاحظَتْ الأغيارَ وقصدتها، أتاها سابقُ نورِ الفطرةِ والتقوَى فأشهدَها فناء ذلكَ وسُوءَ عاقبتها، فرجعَتْ إلى ربها بالتوبةِ والاستغفار، والإنابة إلى الرحيم الغفّار، فتبدلتْ سيئاتها حسناتٍ.

* * *

ثم ذكَرَ رضِيَ الله عنه جنةَ المعْرفةِ في الدنيا؛ فقالَ: إن العبْدَ إذا شهدَ ألوهيةَ الله ووَحْدانيتِه في الوجُودِ، وأن الكونَ كلَّه مظهرُ صِفاته، وشهدَ نعمه وعطاياهُ، وشكرَ الله على توفيقه وهدايته، ورأى منّة الله عليهِ، صار منه بذلكَ مستغرِقاً شهودَ جمالِ الحق في كل شيءٍ، ثَملاً سكراناً إلى أن يصْحُوَ بكشْفِ تعريفِ الحقِّ، فيرَى كمال نعيمِ شُهود الجنةِ، ونقصانَ شهودِهِ في الدنيا، لأنها مظهَرُ الأسباب والأغيارِ، والآخرةُ مظْهرُ صِرْف الأقدارِ، وصِفات الكريم الجبّار، وتمكُّنُ الأسبابُ فيها، فيدومُ وتزدادُ، ويتضاعف صفاها وشهودها، ولا تنقطعُ، لأنها محلُّ التجلِّي الكامل، [/٣٦] والإذن والشُّهود الأتمّ المتضاعِفِ المتواصلِ، ولا يحتجِبُ الحقُّ فيها عنهم قطُّ، بخلاف شهُودهم له في الدنيا؛ يتكدر ويتنغّصُ وينقطعُ بمخالطة الأغيارِ، والخلقِ، والانقلاب النفسيِّ.

واستشهدَ بقول سيدنا الحبيب عبدالله الحداد:

وأنــبْ إلى دارِ الكَرامــة والبقَــا وعَن الدنيةِ كُنْ أخـي متجَـافِ

والـزَمْ كتَـابَ الله واتبـعْ سُـنةً واقتَـدْ هـداكَ الله بالأسـلافِ

* * *

وعن الملائكة؛ قالَ سيدُنا رضِيَ الله عنه: إنهم خلقوا روحاً مجرَّدةً، وأن

لذاتِها في التسبيحِ والتقديسِ لبارِيها، فهم يسبّحُونَ اللهَ ليلاً ونهاراً لا يفترون. فاستقامُوا على جَناحِ الأمرِ، والآدميُّ غير ذلكَ، فإنه يطير إلى الله على جناحَين: جَناح التكليفِ بالأمرِ والنهي، وجَناح التكليفِ بالنواهي أشدُّ. فلذلكَ لا يقدِرُ على اجتنابِ المعَاصي والوقُوعِ فيهَا إلا الصّدّيقونَ، وأما الأوامر فكلٌّ يقدِرُ عليها، ولذلك فُضّل الآدميون على الملائكةِ، وقد قال سيدُنا جبريل عليه السلام لما وقفَ عن العرُوجِ ليلةَ الإسراءِ، وهو مع الحبيبِ الأعظَم ﷺ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾، فلم يقدر على الارتقَاء في درجاتِ القُربِ، إذ لا يطيرُ إلى الله إلا بجَناحِ الأمرِ فقط.

* * *

ثم قالَ سيدنا الحسن رضِيَ الله عنه: كنتُ في بداية أمرِي أصومُ يوماً وأفطِر يوماً، ثم عدلتُ عن ذلكَ بصَوم الاثنين والخميسِ من كل أسبوعٍ. وكنت أسير إلى (سيون) لحضور مدْرَس شيخي العارف بالله عُمر بن سقاف يومَ السبت والثلوث، وأطلع إلى (شبام) يوم الاثنين والخميسِ، لحضور مدْرَس شيخي الإمامِ عبد الرحمن بن سميطِ. وبعد ذلك تزوجتُ، وبقيت مشغولاً بالتذكير أيام إقامتي (بشبام).

وبالنسبة للدّنيا وحُطامها؛ كنت عازفاً عنها من أولِ نُشوئي، ومبدأ نشأتي، وقد طلبَ مني الكثيرُ السفرَ إلى (جاوة)، لقصد الحصُولِ على المال، ولكني لا أجد رغبةً للسفر. وقالَ: إن الأولَى بالعبدِ أن يُقبلَ بقلبه وقالبِه على ربّه، ويجعلَ وُجهته إليه، وهو المتكفّلُ بالرزقِ.

وذكَر جملةَ أشياءَ أيامِ جَدّه واجتهاده في بدو أمره.

ثم أردفَ قائلاً: لكن اليوم كل شيءٍ نقصَ، [٣٧/أ] وغلبت القسْوةُ والغفلَةُ، ولعاذ معنا شيءٌ غير الاتكالِ على المولى، وحُسْن الظنِّ به، وبأوصَافه الكريمَة الرحيمة، أما أعمالنا فأوصَافها الزينُ أصبحَ شَين، وان عاذ شيء منها فما هو إلا من فَضْل مولانا ورحمته ومنَّته علينا، مثلَما قال سيدنا أبو العباس المرْسيّ في مناجاته: «من كانتْ حقائقُه دعاوي، فكيف لا تكونُ حسَناته مسَاوي»!.

* * *

وقال في أثناء مذاكرته: إن سيدنا محمدَ بن عبد الله ﷺ له الأفضليةُ على سائرِ الأنبياءِ، بأخذ الميثاقِ على النبيينَ، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، وخُصُّوا بالخطابِ العقليِّ لشرَفهم، وغيرُهم بالتبعيةِ.

ثم قال: إن النبيَّ ﷺ أصلُ الوجُودِ الذي ظهَر من الذاتِ العليةِ، بنَعْتِ الرحمانية والرحيميةِ، المذكورة في البسملة، المسبِّبة للحَمدِ، المشارِ إليه بـ«الحمدُ لله»، أي: للذَّاتِ، وإنما أردفَ بذكْر الربِّ، إشعاراً بربُوبيته للعالمينَ، وأتبع بذكر الرَّحمانية السابقَة تلطفاً منه تعالى بعباده الصالحينَ، لئلا تتفطَّر قلوبُهم من استشعارِ عظَمة حقِّ الربوبيةِ، الذي لا يقدَّر، سيَّما مع ذكر يوم الجزاءِ وشدّته بعد ذلكَ.

ثم ذكر مدْحَه تعالى لنبيه ﷺ بقوله: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: صراطُه منتقًى من بينِ هذي الرسُل. وفي قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، أي: لما شرحَ

له أحوالهم، كأنه أرشدَه إلى أن يسلُكَ الأحسنَ والأقومَ من طرُقهم المرضيةِ، أي: فبالأقوَمِ من طرُق هداهم اقتده.

* * *

ثم قرئَ عليه في كتابِ «تفريح القلوب»، وحينما وصلَ القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾.

قالَ: لعلَّ المرادَ به: وزرَ أمته، أو وزره ﷺ، لأنّ حقّ الربوبية لا يقدّر.

قلتُ: وذلك تسكينٌ منه تعالى لما يطرأ من أثر الرَّانِ الذي يستغفِرُ منه ﷺ، لأنه يستغفِرُ في اليوم سبعينَ مرّةً، وهو شدة الخوفِ من محو السّابقة واللاحقَة [/٣٨] المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾، وقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾. وفي قوله ﷺ: «لن يدخل الجنةَ أحدُكم بعمَله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدنيَ الله برحمته»[1]. اللهُمَّ ارحمنا يا رَحمنُ برحمتكَ.

* * *

وتكلمَ عن الخمُول وأهلِه. فقالَ: أهلُ الخمولِ والانقطاع هُم أهلُ اللذة والرّوحِ والنعيم. ومثالُهم مثالُ الخلقِ العامّة، وهم الذين يغضَبُ الله لغضبهم، وتقوم حجّة الله على مناوئيهم، ويجبُ على العمُوم التأدبُ معَهم، وحفظُ حرمتهم، والامتثالُ لهم، بخِلاف الخاملينَ من أهل الله.

* * *

(١) متفق عليه، من حديث أبي هريرة، ولفظ مسلم: «لن يدخِلَ أحداً منكم عملُه الجنةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة».

وفي العلم وطلبه وفضلِهِ، قالَ: إنّ العلمَ أعزُّ جوهرةٍ خرجَتْ من كنوز العبُوديةِ، لربوبية العلمِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، لأنه به يُدرِكُ العبدُ الحياةَ الطيبة في الدنيا، والسعادةَ الأبديةَ في الآخرة. وينبغي أن يجتهدَ في طلبه بحُسْن النية والصدقِ والإخلاصِ، ويطلبَ العلمَ النافعَ. والعلمُ لو تجرَّد القصْدُ فيه لغَير الله أولاً، فلابدَّ أن يثمِر الخوفَ والخشية والندَم، فيكون لله.

* * *

وعن الإيمان؛ قال سيدُنا الحسن: مثلُه كالمصباحِ، يحتاج إلى تقويةِ نورِه بالزّيتِ، وكذلك يحتاج إلى تقوية نُوره بالعبادةِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ويحتاجُ إلى حفظٍ وصيانَة له عما يخذّله ويبطِلُه من مهابِّ الريحِ والعواصفِ، وذلك مثالُ المعاصي. والقرآنُ الكريمُ هو أصْلُ العلومِ، ومنبعُ الأسرارِ، لكنه يحتاج إلى صدْقِ التلقّي، وكمالِ الإصغاءِ، والإقبالِ عليه بكنه الهمّة.

* * *

ومن مذاكَراته على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، الآيةَ.

قالَ: إن ملكَ الموتِ يقبضُ الأرواحَ ثم يجعَلُها في عليينَ أو سجّين، وهي عنده مجموعةٌ إلى ميقاتِ يومٍ معلومٍ، فأرواحُ أهل الإيمانِ في نعيمٍ مقيمٍ، ومسَرّاتٍ وأفراحٍ، وأرواحُ الكفارِ والمنافقين في عذابٍ أليمٍ، وأحزان وأتراحٍ.

والموتُ مثلُ النومِ، مثلما قالَ الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ [٣٩/٤٢] حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، وكما أنّ النائمَ يتأثرُ جدًّا بما يلاقيه روحُه مع منامِه، فتراه يصيح ويبكي، ويعذَّبُ بما يقابل روحَه من الأهوالِ والفزَعِ والضربِ، حتى أن بعضَهم تظهرُ في جسمِه آثار ذلكَ، إذا كان من أهْل التفريط، والمخالفة والتخليط. وترى المؤمن التقيَّ يضحكُ ويستبشِر بما شهِدَه من مُنازلاتِ الأنوار والخيرات، والمسرات والسعاداتِ، وذلك دليلٌ واضِحٌ لذوي الاستبصار.

فالروحُ باقيةٌ، إما منعّمة أو معذَّبة في البرزخِ؛ وأما الجسم فيبلَى كله غيرَ عجْب الذنَبِ. ثم إذا أراد الله البعثَ أفاضَ من بحْر الحياةِ ماءً على السّماء، فتمطر على القبُورِ، فتبنتُ منها الأجسامُ لحماً وعروقاً وعظاماً، ثم تنشقُّ عنهم القبورُ، وينفَخُ في الصورِ، فتخرُج الأرواحُ طائرةً، كل روحٍ إلى جسَدها، وتدخل من الخيشُوم، وهذا يسيرٌ على الله كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، جلَّتْ قدرته.

* * *

وذاكَر رضِيَ الله عنه على قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ ﴾، وأن أمْرَ القدَر ينقَسِم إلى خير وشرّ. وللمؤمنِ في فعل كلٍّ منهما وتركِه مددٌ من المدْحِ والثناءِ والثوابِ في الدارينِ. وكذلك إذا أمرَ المؤمنُ بالخير، ونهى عن الشرّ، نال بهما الثناءَ والمحبّةَ والثواب في الدارينِ، وإذا ترك

العَاصي الطاعةَ؛ إن كانتْ فرضاً نالَ بتركه مقتاً من الله، وطرداً وعقاباً في الدارينِ. وإن فعلَ العاصي المنهيَّ عنه؛ إن كان حراماً: نالَ بفعله المقْتَ والطرْد والعقابَ من الله، وإن كان مكروهاً: نالَ بفعله العقَابَ والبعْدَ ونقصَانَ الحظِّ في الدارينِ. ويحصلُ للمؤمِن حين يرَى وينظُرُ ما حلَّ بالعاصِي من أثر جزاءِ ترْكه الطاعةَ، أو جزاءِ فعله المنهيَّ عنه، الفرحَ والسلامةَ مما حلَّ به من الخزْي والهوانِ، والطرد والخسْرانِ والحرمانِ، والوقوع في النيرانِ، وسخَط الملِك الدّيانِ [/ ٤٠]، والفرَح بالنصْر والتأييدِ، والعزّة والكَرامة من المنانِ، فله من كلِّ أمرٍ سلامٌ من الرحيمِ الرحمن.

* * *

وتكلمَ عن الإخلاص؛ فقالَ: هو إرادةُ وجه الله والدارِ الآخرة، والصدقُ هو عدَمُ طلَبِ حظٍّ عاجلٍ، وأمّا محضُ إرادَة وجْهِ الله فقَطْ مع قطعِ النظَر عن الثّوابِ الأخرويِّ فهو للمقرَّبين والسَّابقينَ الأولينَ، من الصحابة والتابعينَ، رضوان الله عليهم أجمعين، فهم قطَعُوا النظَر عن مُلاحظة الدّنيا، ولذلك قالَ بعضُهم حينَما ضُرِب بالسيف في الجهَاد: «فزْتُ وربِّ الكعبة»، وآخرُ منهم قال: «ما أظنُّ أن أحداً يريدُ الدنيا»، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: البقاءَ فيها ليستكمِلَ صفاهُ وعبوديتَه لله تعالى، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، أي: تعجيلُ الشّهادَة.

وقال الله سبحانه وتعالى فيهم أيضاً: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾، أي: أمّا الآن فلا أحدٌ منكم يريدُ عرَض

الدنيا بعْدَ الإسلامِ، ولذلك وردَ في الأثر: «**لو أنفقَ أحدُكم مثْلَ جبلِ أحُدٍ ما بلغَ مُدَّ أحدِهمْ ولا نَصيفَه**»[1].

* * *

وذاكَر على قول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي: عرَّفناهُ طريقَ الخير والشرِّ، مثلما قال تعالى: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، أي: قدَّر أمُور الخير والشرِّ، وأظهرَ الدلائل القاطعة، والبراهين الدالةَ على الألوهيةِ والوحدانية والقيومية، في المبدَعاتِ الكونيةِ، وأنزل الكتبَ، وأرسل الرسُلَ إيضاحاً للمحَجّة السويةِ، وتماماً للحُجّة على من ضلَّ عنها.

وجعل لهم الاختياراتِ، فمن استحبَّ العمَى على الهدَى بعد البيانِ والإيقانِ تركه، وخلى بينه وبين النفْسِ والشيطانِ، مثلَما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾، ويوفّقه لما يرضيهِ ويعينُه على طاعتهِ، فلا جرمَ أن يهديَه بعدَ بيانِ تلك الأدلةِ، وقيام تلك الحجَجِ، فإن الشيطانَ لا يدخلُ إلا في قلوبِ أهل الشكِّ، فيخلِّ بينه وبينهم، حتى يرجعون إلى ربِّهم.

وأما من تابَ وأنابَ إلى ربّه، وطلب منه أن يهديَه [٤٢/] ويمدَّه بحُسنِ رعايته وتوليه، كما جاء في الحديث القدسي: «**كلكمْ ضالٌّ إلا من هديتُه فاستهدُوني أهْدِكُم**»، وقال في قرآنه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، لكن اقتضَتْ أوصافُ الجمالِ بقاءَ أهل الضّلال

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في ضلالهم، واقتضَتْ أوصافُ الجمالِ بقاءَ أهل الهدَى في هدايتهم، وعادَ الرحمةُ المحيطةُ بالكلّ، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، لكنه يكتبها للذين يتقُونَ.

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه: لما خرجَ الوهابي إلى (حضْرموت)[1]، فهو لم يستولِي عليهَا، ولا قدرةَ له على استيلائهَا. فقالَ أحدُ الحاضرين: كيف لا يقدر على حضرموت وقدر على الحرمين الشريفين؟ فقالَ له سيدُنا الحسن: إن وحْيَ الله احْتلَبَ لنبيه ﷺ بـ(مكّة)، وامتخضَ في (المدينةِ)، واستخلص وخرج الزُّبْدُ بـ(حضرموت)، وإن مثلما وقعَ من الوهابية كمثَلِ من يقطعُ الشَّعَر من جلد الميتةِ، أما إذا قد حصلَ القطْعُ في الحياءِ والصَّحِّ، سيكون الانتباهُ والاهتمامُ، وباتسرعُ الغارَة، ويأتي النصْرُ والانتقامُ، من العزيز العلام.

* * *

وسُئِلَ: عن توطّنه بـ(ذي أصبح)؟.

فقالَ: إني تربيتُ أوانَ الصِّبا في حِجْر جدِّي لأمي، في بيت قريبٍ من (ذي أصبح)، وتزوجتُ هناكَ، وكنت آتي إلى جامع (ذي أصبح) في كلّ الفروضِ.

ثم انتقلت إلى (شبام)، واستأجرتُ لي بيتاً، وكنت إذا دخلتُ هذا البيتَ وصعدتُ درجةَ أجِدُ في قلبي فرحاً وسروراً، من لذَّةِ ما يخالجه من الشّعورِ

---

(١) سنة ١٢٢٣هـ.

من البرودِ، ذلك حيثُ لم يكن لي في الدنيا بيتُ ملكٍ. وحمد الله على ذلكَ.

ثم عزمتُ على زيارة (دَوعن)، وحصل لي في تلك الزيارةِ من أهل تلكَ الجهةِ الفتحُ، وقمتُ فيه بالدعوة إلى الله، بل في كل محلٍّ أحلُّ فيه، وحصل بذلك تأثيرٌ عظيمٌ عامٌّ، ونفعٌ تام. وبعد أن رجعتُ من (دوعن)، قالَ لي بعضُ السادة: كيف! هذه جهتُنا قد غلبَ على أهلها الجهلُ، وأنت لم تنشُر فيها الدعْوةَ كما عملتَ بـ(وادي دوعن)؟ واليوم عُواد قبّة الحبيبِ أحمد زين الحبشي، ويحضرونه خلقٌ جمٌّ، من جهاتٍ قريبة وبعيدةٍ، ويغيناك تذاكِر، وتدعو خلقَ الله إلى الله.

فقلتُ له: لا يمكنني ذلك إلا أن حصلت إذنٌ من أهلِ المكانِ.

فقدَّر الله أنّنا دخلنا (الحوطَة) ذلك اليومَ لحضُورِ ذلك العُواد، وكان القائمُ في المقام سيدُنا الحبيب عبد القادر [/٤٢] بن جعفر بن أحمد بن زين الحبشي، وبعد مصافَحته أجلسَني قريباً منه، وبعد نهاية الشلاَّتِ في الحضَرَة، قال لي: هيا قُمْ يا حسَن، عِظْنا وذاكِرْنَا، مثلما فعلتَ في (دَوعن)، ومثلما انتفعُوا منكَ، نحنَا بغينا قسْمَنا.

فذاكرتُ بما فتحَ الله عليَّ في ذلك الجمعِ الكبير الكثيرِ، وبعدها التزمْتُ بالدعوة إلى الله، بالمذاكرة في جميع المساجِدِ، وكانت أغلبُ مذاكراتي بعد صَلاة العصْر، ويحضرُها الجمُّ الغفير، حتى قد يصل عددُ المصلينَ إلى ١٨ صفًّا، في بعض مساجد (شبام).

وفي عَصر يومٍ من الأيام طلبوا مني أهلُ (شبام) الخروجَ إلى (الوادي) لطلب السّقْيا لهم ولعامة الوديانِ، ثم حصلَتْ فترةٌ وغفلةٌ من أهل (شبام)،

فخرجْتُ منها إلى (ذي أصبح)، واشتريتُ دُوَيرةً لطيفةً، وفي غايةٍ من الرثاثةِ، وسكنّا (ذي أصبح) من ذلك الوقتِ.

* * *

وسُئلَ: كيف كان اتصالُه بشيخِه العارفِ بالله الحبيبِ شَيخ بن محمد الجفريِّ، صاحب (مَليبار)؟.

فقالَ: اجتمعت به في (شبام)، حينما كنتُ هناكَ، وقرأتُ عليه «شرح قصيدة المبتدأ والخبر»، الأصْلُ لَه، والشرحُ لتلميذه العارف عمر بن عبد الرحمن البار (الثاني).

فقيلَ له: وهل ألبسَكُم؟

قالَ: لا، ولكن رأيتُه في المنامِ أتى إليَّ بالإلباسِ، وأراد أن يلبِسَني. فقلتُ له: قد ألبسَني شيخي الإمامُ عمر بن سقافٍ، فقالَ لي: خُذه فوقَ إلباسِ الحبيب عمر بن سقافٍ، وقبلته.

* * *

وقُرئَ عليه رضِيَ الله عنه في كتاب «السير والسلوك»، فقالَ: مَعاذَ حَد ينتهجُ ما فيه إلا السيدُ أبو بكر بنُ عبد الله العطاس، وعلى من أراد السّلوكَ فليقرأ ذلكَ الكتابَ. أما أنا في أيّام سُلوكي كنتُ أقرأ في كتاب «مفتاح الفلاح» لابن عطَاء الله الشاذلي، وفي ذلك الوقْتِ كنت بـ(تريم)، فقال لي شيخي الحبيبُ عبد الرحمن بنُ حامدٍ: لا تقرأ فيه، فإنه قد انطمسَ هذا العلمُ.

* * *

وقالَ: إنّ الطرُقَ على عددِ أنفاسِ الخلائقِ، ولا نفسٌ تبديهِ، إلا ولله قدَرٌ فيه يمضيه [/ ٤٣].

* * *

وقالَ رضِيَ الله عنه: إن معنى حديثِ: «اخلدوا فيها»، أي: على نياتكم، على قدَرِها، لأن المؤمنَ بنيته، كما لو نوَى أن يصرفَ عمُرَه في طاعة الله لحصَل له ذلكَ، وكذلك بنيته يخلُدُ في الجنة. قال بعضُهم في دعائه: إلهي؛ إن لم تدُمْ طاعتُك فعلاً وجزْماً، فقد دامتْ محبةً وعزماً. وأما المنافقُ؛ فالحكمُ فيه للغالبِ، فما غلبَ على قلبِه في حياتِه، يختَمُ له به عندَ الموتِ.

فقلتُ له: لعل السبب عدَمُ اليقين!؟.

فقالَ: هو كذلك. وهو على قدَرِ المشَاهدة الحقَّةِ، وصَفاء السَّريرةِ، ونُور البَصيرة، وينبغي للعبد أن يمْحُوَ أوصافَه من أوصَاف الحقِّ، ويتبرأ من حَوله وقوَّته، ويشهدَ علْمَه وعملَه ونيتَه، منًّا منَ الله عليه، فلا يطلبْ به جزاءً عليه، لأنه لا يستحقُّه على عملِ غيرِهِ، ولا يرائي به، لأن لا يمكِنُ أن يُلاحَظَ بعمَلِ غيرِه، بل ينبَغي له أن يطلُبَ الجزاءَ من أوصَافِ الحقِّ تعالى، جلَّ شأنه[1].

* * *

---

(١) جاء في الأصل ما نصه: «إلى هنا تمَّ لي نقلُ ما وجدتُه من كلامِ سيدي الإمام الولي القطب الحسن بن صالح البحر الجفري رحمه الله ونفعنا بسره وعلومه في الدارين آمين». وفرغ الناسخ السيد محسن بن سالم العطاس من نساخته يوم ٢ ذي الحجة سنة ١٤٠٣هـ.

تتمةٌ مباركة

في نبذة من كلام الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي في شيخه الإمام الحسن بن صالح البحر[1]

«وكان رضِيَ الله عنه، يحكي: أن منشداً أنشد عند الحبيب الحسن بن صالح البحر، قولَ الشيخ عمر با مخرمة:

* نعَم نعمْ طاب يا مَشْوم ذا الحينْ طَابْ *

فلما وصلَ المنشد إلى قول الشيخ:

* يخلّي الكونْ فإنّ الكَون واَهلُه حجَابْ *

تواجدَ سيدنا الحبيب حسَن، وقال: «حجَابٌ على من هو حجابٌ عليه، يكرّر هذه الكلمة»، اهـ معنى.

* * *

وكانَ رضِيَ الله عنه، يحكي عن الحبيب عبد القادر بن محمد الحبشي أموراً غريبةً، من الرياضات والخلواتِ التي لم تكن لغيره من أهل زمانه، وله أربعينيات متعددة، وكان ربما تخلفَ عن حضور الجمعة. فقيلَ له في ذلك.

فقالَ: إني لا أقدِر أنظر إلى الناس، من أجل ما برَز لي في الحسِّ من معانيهم

[1] مستلة من كتاب «النهر المورود»، الذي جمعه الحبيب عبيد الله بن محسن السقاف.

الباطنة، من صفة الحيوانات السبُعية، كالكلاب والخنازير، وغير ذلك. فظهرت تلك الصورُ فيها حِسًّا. ثم شكَى ذلك إلى سيدنا الحبيب حسن بن صالح البحر، فدعا الله له أن يستر عليه ما وقع من هذا الكشف، فستره الله عليه، اهـ معنى.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يحكي: أن الحبيب حسَن بن صالح البحر حضر الجمعةَ في جامع سَيؤون، وأحضر معه مصحفاً ليقرأ فيه من القيام، على جَاري عادته، فرآه الحبيب عقيل بن حسن الجفري، وكان صداعاً بالحق والنصيحة للكُلِّ. فقال: إلى هنا يا حسن!. كأنّ الحبيب عقيل خشي علَى الحبيب حسن الرياء. فأجابَ الحبيبُ الحسنُ الحبيبَ عقيلاً ببيتِ شعْرٍ لابن الفارض، وهو قوله:

وأبثثُها ما بي ولم يكُ حَاضري رقيبٌ بقَى حظٌّ بخَلْوةٍ جَلْوةِ

أشار الحبيبُ حسن باستشهادِه بهذا البيت: إلى أنه غائبٌ عن هذا الوجود، ولم يكن له مشهودٌ إلا الملكُ المعبود»، اهـ معنى.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يروي عن الحبيب حسن بن صالح البحر: أنه لما حصل تفاوضٌ عنده من الحاضرينَ في مسئلة فقهية، وقال فيها سيدنا الحسَنُ ما قالَ. فقال بعضُ من حضَر: لكنّ الشيخ ابن حجر يقولُ بخلاف ما تقول، فقال الحبيبُ حسَن: «فكيف بمَنْ يأتي بها من فَوق ابن حجَر»، اهـ معنى.

وكان رضِيَ الله عنه يحكي أنه حضَر عند سيدنا الحسَن بن صالح البحر شيءٌ من الأرز المطبوخ، وكان حَاراً، وكان قد حضـر ذلك الطعام بعض

فضلاء السادة، ممن كان يحضر عند السيد شيخ الجفري عند حضور طعامه.
فقال: إنّ دخان رُزّ السيد شيخ الجفري كان يعلو على العَمائمِ عند الأكل منه.

ففرحَ الحبيبُ حسَن بمقالة ذلك السيد، لما عنده من التعظيمِ للسيد شيخ الجفري، والمحبة له، للاقتداء به؟ وكان قد اجتمع به في الحرمين، وأخذ عنه، وهو معدودٌ من أشياخه، رضِيَ الله عنهما ونفع الله بهما»، اهـ معنى.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه، يحكي عنْ سيدنا الحسن بن صالح البحر: أنه لما حجَّ في بعض السنين، وكانت الفرقة الضالة، أتباع محمد بن عبد الوهاب، قد استولوا على مكة، وكان لهم الحكم فيها، وكانوا ينكرون على من زار الأولياء، ومن يتبرك بهم، حتى أن من رأوه يقبّل يد شريف ينكرون عليه. فقال الحبيب حسَن لمن معه من الحجّاج الحضارم: إذا تلاقى شريفٌ وغيره فليتصافَحا مصافحةً من غير تقبيل. وتواصَوا على ذلك مدّةَ ماهم بمكة، إتقاءَ شرِّ هؤلاء المبتدعة.

فلما كان ذات يومٍ؛ وكان سيدنا الحبيب حسن في المسجد الحرام يقرأ أورادَه مستغرقاً فيها، إذ أتى إليه وهو كذلكَ، بعضُ أصحابه الحجاج الحضارم فأخذَ يده وقبّلها على العادة، فلمَحهما بعض أولئك الضلال.

فأتى الحبيب حسن، وقال له: من أين أنت؟.

فقال الحبيب حسن: فأردتُ أن أورّي، فأقول: من اليمن. فرأيتُ أني مواجِهٌ بيتَ الله الحرام، ولا يحسن هناك إلا القولُ الصدق. فقلتُ: من حضرموت.

فقال: هيه! حضرموت بلاد الشرك. فقلتُ: لا؛ بل بلاد إيمانٍ وإيقانٍ.

فقال الرجل: سنأتي إلى حضرموت. وذكر كلاماً فيه تهديدٌ. فقلتُ: إن أتيتَ إليها يكون إتيانُك سببَ هلاكك، وزوال دولتكم.

فلم تذهب وتمضي إلا مدّة قليلة، حتى جاوا إلى الجهة الحضرمية، ومن بعد مجيئهم إليها، لم يزل أمرهم ودولتهم في انحطاطٍ ونزولٍ، حتى أبادهم الله، وطهر نواحي المسلمين من بدعتهم وضلالهم»، اهـ.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يقول: إن خروج الطائفة الوهابية كان سبباً في تلف كثير من كتب السلفِ ومؤلفاتهم. فإنهم لما دخلوا تريم تتبعُوا خزائنَ الكتب، فما وافقهم أخذوه، مثل كتب الحديث، ولما لم يوافقهم أتلفوه وألقوه في الآبار. وكانوا أشدَّ عنايةً بإتلافِ مصنفات السلف، وقد يكون ذلك المصنَّفُ لا يوجد منه إلا نسخة واحدة، وبتلفها فاتَ ذلك الكتاب.

ومما أضرّوا به أهل الجهة الحضرمية: تضعيف الروابط والعقائد في أهل الفضل من الأحياء والأموات، فإنها قد سرَت تلك العقائد في كثير من عوام حضرموت، وإن خفيتْ ولم يصرّحوا بها، بسبب دعوة هذه الفرقة إليها. وقد كانت لأهل الجهة قبلَ خروجه روابطُ وعقائدُ قوية، وحسن ظن كبير بالأولياء والصالحين، وخصوصاً من أهل البيت، ففاتَ من ضعُفَت عقيدتُه خير كثير، ولما سَلمَتْ الجهة الدوعنية من دخول هذه الطائفة، بقي أهلها على حسن ظن أحسَن من أهل حضرموت.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يحكي واقعة تتضمّن كرامةً لشيخه الحبيب حسن

ابن صالح البحر، وهي: أنهم لما خرجوا إلى حضرموت، قاومهم قبائلها، خصوصاً أهل الـجانب القبلي، من آل كثير ونحوهم، حتى بعض السادة ساعدوهم وحملوا السلاحَ لدفع هذا الملمّ. وتصوّب واحدٌ من الحبائب آل الـحبيب أحمد بن زيـن الحبشي، بجراحـةٍ، فخيف عليه منها. فأقبل الحبيب حسَن وهم يحملون ذلك الجريح، فثار له حالٌ، وتطاول وطالَ طُولاً خارج عن المعتاد، ونظر إلى ذلك السيد المجروح، وقال: لا بأسَ عليه، سيعافيه الله، ويعيش، وعاده يولد له. فكان الأمرُ كما قال الحبيب حسن.

ولك أن تقول: حصَلت للحبيب حسن في تلك الواقعة ثلاث كرامات: وهي طوله الخارج عن العادة، وكشفه على أن هذا السيد يبرأ من جرحه، وكشفه على أنه سيولد له.

* * *

وكان يقول: إنّ فساد هذه الطائفة بسبَب موافقة يافع المستولين على جهة حضرموت، فإنهم ساعدوهم ووافقوهم في اعتقادهم، ومكّنوهم مما أرادوا أن يفعلوه في الجهة، من خراب قبب السلف، وكسر شواهد القبور، وغير ذلك من الفساد. بخلاف آل كثير، فإنهم منعوهم مما قصدُوه. وقبة الحبيب أحمد بن زين كانت في حماية آل كثير، فلذلك لم يتمكنوا من خرابها، بخلاف القبب التي تحت ولاية يافع، والله المستعان»، اهـ.

وكان رضِيَ الله عنه يحكي عن بعض من كان يصْحب الحبيب حسن بن صالح البحـر، قدس الله سره، في ابتـداء أمره. وكان سيدنا الـحسن مجداً في الطاعات والمجاهدات غايةً. فقال له صاحبه، وكان لا يقدر على مشاركةِ الحبيب حسن في جده واجتهاده، وأراد من الحبيب أن ينزل إلى درجته، ويسير بسيره:

«سيروا بسير ضعفائكم». فغضب الحبيب حسن، وعنّفه. وقال له: «أتريد أن نتخلف في الجدّ في السير لأجلك!، لا يكون هذا، وإنما إن أردت أن تلحق بالرجالِ فشُدَّ مطية العزم، وجد واجتهد، وافحَص جماعجك، وحرّك بمابعك. وما ذكرت من قول القائل: «سيروا بسير ضعفائكم»، إنما هو في الأمور العادية العُرْفية المعاشية، لا مدخل له في الأمور الدينية، حتى يتأخر ذو الهمة العلية، عن ما كان عليه السلف من التشمير في طاعة رب البرية».

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يحكي عن شيخه سيدنا الحبيب حسن رضِيَ الله عنهما أموراً كثيرةً، من الجد والتشمير في الطاعات، إلى آخر عمره.

وكان يقولُ: إنه رُبّي يتيماً، ماتَ أبوه وهو صغير، وربته والدتُه، ولاحت عليه لوائح العناية من صباه. وعنيَ به العناية التامة العالم العلامةُ المعلم عبد الله بن سعد بن سمير، وعلمه القرآن، وبعد أن ختم القرآن حمله إلى حضرة شيخهما سيدِنا الحبيب عمر بن سقاف السقاف، فانتفع به الانتفاع الكامل، ولاحظه الحبيب عمر الملاحظة التامة، وحل عليه نظره الشريف.

ويحكَي: أنه لما ختم عليه كتاباً لطيفاً حالَ صغره، أمره بقراءة «المنهاج». قال المعلم رحمه الله: فوقع العجبُ عندي من الحبيب عمر! كيفَ يأمر الحبيب حسن بقراءة «المنهاج» وهو بعدُ صغيرٌ، ولم يقرأ من العلم إلا الشيءَ اليسير.

فكاشفني سيدي الحبيب عمر، وقال: نريد حسَن يتعلم في الفقه قبل أن يذهب إلى العلوم الربانية. وكان سببُ ذلك: أن الحبيب عمر رضِيَ الله عنه رأى على الحبيب حسَن طوالعَ الفلاح، ونظر إلى صفاء مرآته، وكمال قابليته للأسرار»، اهـ.

وكان رضِيَ الله عنه يقول: إنّ الحبيب حسن بن صالح البحر كان يرتحل إلى تريم لطلب العلم، هو والمعلم عبد الله بن سُمَير، ويبقيان هناك المدةَ الطويلة، ولم يكن لهم طعامٌ إلا اليسيرَ من التمر غداءً وعشاءً، مجاهدة لأنفسهما، واقتداءً منهما به صلى الله عليه وآله وسلم، إذ كان عليه السلام تمضي عليه الشهر والشهرانِ وليس له طعام إلا التمر والماء. ثم قالَ سيدنا الحبيب حسَن للمعلّم: لعل أن نجعل طعامَنا التُّخَ، بدلا عن التمر، فإن نورَ التُّخ أتمُّ وأكملُ من نور التمر. فقال له المعلم: يكفينا نور التمر، ولا عاد فينا اتساعٌ لنور التخ.

ثم إن سيدنا الحبيب عمر بن سقاف زار تريم في أيام إقامتهما هناك وهما على حالةٍ مرضية، من طلب العلم، والتشمير في العبادة والرياضة، والاقتصار على التمر في التغذية، غداءً وعشاءً. فسألهما عن حالهما، إلى أن سألهما عن طعامهما، فأخبراه بأمرهما. فقال لهما: لا يصلحُ أن تقتصرا على التمر غداءً وعشاءً، بل وقعة العَشاء تكون خبزاً، نرتبها لكما عند بعض المحبّين من أهل بلد تريم.

قال: فكان سيدنا الحسن في آخر عمره وأيام ظهوره وشهرته، إذا مرَّ بالدار التي كان يعملُ لـهم أهلُها الطعـام، يقفُ عندَها قليلاً، ويترحّم على أهلها، ويستغفر لهم، وتعتريه رقةٌ وحنانةٌ، وتذكر لعهد الطلبِ السابق.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يحكِي عن شيخه سيدنا الحبيب الحسَن المذكور: أنه جلسَ ذات يومٍ أو ليلة، في مسجد باعلوي، على شيء من الأوراد والأذكار، بالإقبال والهمة القوية. فمرَّ به سيدُنا الحبيب عبد الرحمن بن حامد بن عمر، فقال له: يا حسن؛ إن السلوك والأخذَ بطريقة الذكر في هذا الزمان، قد

أعرِضَ عنها، وما بقي إلا أن تلازم على طلب العلم، خصوصاً علم الفقه. فإن عاد للناس به عنايةٌ واشتغال، بخلاف طريقة الذكر. فقال الحبيب حسن: فلم يزدني قول سيدنا عبد الرحمن بن حامد إلا نهمةً وتعطشاً لسلوك طريقة القوم، بالذكر والخلوة والمجاهدة، إلى أن فتح الله ما فتح.

وكان رضِيَ الله عنه يحكي عنه: أنه كان يقرأ الأربعين المرّة من سورة يس عند ضريح سيدنا الفقيه المقدم، على نية أن الله يسهل عليه معرفة العبارة.

وكان يحكي رضِيَ الله عنه عن المعلم عبد الله أنه قال: كنت أمشي أنا وسيدنا الحبيب حسن في طريق تريم أيام ترددنا إليها لطب العلم فلما كنا في أثناء الطريق وكنا مشتغلين بالذكر ولعله يقول: إن ذلك الذكر (ذكرُ المعية). قال: فحصلَ لسيدنا الحبيب حسن منازلةٌ، وتلبس بحالٍ أخرجه عن الإحساسِ، فخرَّ مغشياً عليه. قال المعلم: وأنا لما رأيتُ الحبيب وقع له ما وقع، حصل لي كما الدوخة. تستّراً، وكتماً للحال، وهضماً لنفسه، وإلا فقد شارك سيدنا الحسن في تلك الحالة الشريفة، رضِيَ الله عنهما ونفعنا بهما»، اهـ.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يحكي عن شيخه سيدنا الحبيب حسن المذكور: أنه رأى في منامه شخصاً، وكان ذلك الشخصُ كافراً، وقد عرفه سيدنا الحبيب حسن أنه كافر. فقال الكافر لسيدنا الحبيب حسن: أتحبّني؟ قال: نعم. قال الكافر: لماذا تحبني؟ فقالَ: لأنك عبد ربي، وجعل يكرر قوله: لأنك عبد ربي، لأنك عبد ربي»، اهـ.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يحكي عن شيخه سيدنا الحسن المذكور: أنه أمر بذبح رأسٍ من الغنم في موضع من البيت معين، فذهب المأمور يذبح الرأس إلى موضع من البيتِ، غيرِ الموضع الذي عيَّن الحبيب أن يذبح فيه، وذبح الرأس هناكَ. ثم أخبرَ الحبيبُ بأنهم ذبحوا الرأس في الموضع الفلاني، فقال: كيف يفعلون؟ وقد أمرتهم وعينتُ لهم موضعاً يذبحون فيه، ولامهم على ذلكَ. وقال: اطلبوا رأساً آخر، واذبحوه في الموضع الذي عينت لكم. فجاءوا برأسٍ فذبحوه في الموضع الذي عينه لهم. فقيلَ لسيدي الحبيب عيدروس: ما مراد سيدنا الحبيب حسن بهذا الفعل؟. فقال: إن بعض الأكابر قد يطلعه الله على شيء من الأمور التي تخفى على غيرهم، ولعل سيدنا الحبيب حسن أطلعه الله على دفع بلاءٍ، أو جلب نفعٍ، لا يكون إلا بذبح رأس غنم في ذلك الموضع، والله أعلم بأسرار الأولياء.

* * *

وكان رضِيَ الله عنه يروي: أن سيدنا الحبيب حسن بن صالح البحر قصد زيارة الحبيب عمر بن عبد الرحمن البار، مولى جلاجل، في حياته. وقصده في منزله بالوادي الميمون، دوعن. فلما حضر لديه وجَمَ سيدنا الحبيب حسن، ولم يتكلم بكلمةٍ، وسكت الحبيب عمر بن عبد الرحمن كذلك، فبهت الحاضرونَ، ثم أفاق سيدنا عمر البار. وقال المعلمُ عبد الله بن سمير، وكان ممن حضر هذه الواقعة: فلما رأى الحبيب عمر ما حصل للحاضرين من الهيبة، أخذ يذاكرهم بفرض مسائلَ فقهية، حتى حصلَ لهم بعض استئناس. وقال: إن الحبيب حسن البحر استغرقته حضرة الشهود، ولقد رأيته في تلك الحضرة مستغرقاً، حتى لا يسمع خطاباً ولا يردّ جواباً، وبعد ذلك أفاق سيدُنا الحبيب حسن فافترقا. ولم

يكلم أحدٌ منهما أحداً بلفظٍ ظاهرٍ. وكان خطابهما بالباطن، كما قال القائل:
«ونحنُ سكوتٌ والهوَى يتكلّمُ»، اهـ.

* * *

وقال رضِيَ الله عنه: أتى رجلٌ درويش لزيارة الحبيب الحسن بن صالح، فقال: علمني الأدبَ الذي تدخلون به على سيدنا الحبيب، والكيفية التي تكونون بها عند دخولكم على أشياخكم. فقلتُ: يا هذا إن أشياخنا مجبولون على الرحمة والشفقة على مريديهم، ولا يطلبون منهم إلا الأدب معَ الله جل وعلا فقط»، اهـ.

* * *

قال سيدي عبيد الله بن محسن السقاف: وسمعتُ بعض الصلحاء يروي عن سيدنا العارف بالله الحبيب عبد الرحمن بن علي بن عمر بن سقاف السقاف: أنه سمع الحبيب حسن بن صالح البحر رضِيَ الله عنه يقول: «من عجز عن زيارتي، فليزر عيدروس بن عمر الحبشي». وكان سيدنا الحسن المذكور من أجلاء شيوخ سيدنا الحبيب عيدروس المذكور. وكان بعضُهم يقول: حصل في نفسي شيء من سيدنا الحبيب عيدروس بن عمر بسببِ قلة زيارته للحبيب حسَن بعد مماته، وقد كان يكثر التردد عليه أيام حياته. وكان من شدة عنايته به، ومحبته له، وعدم الصبر على مفارقته: أنه لم يمكّنه ولم يأذن له أن يحجَّ ولا يزور المصطفى صلوات الله عليه وسلامه مدةَ حياة الحبيب حسن. قال: فرأيتُ سيدنا الحسن يقول لي: لا تلم عيدروس على قلة الزيارة لنا، بيننا وبينه ناظور ننظره وينظرنا، وكل منا في موضعه. قال: فسكن ما عندي. وكان سيدنا الحبيب حسن يخصه بالنظر والملاحظة والاعتناء»، اهـ.

كتابُ المسَائِل
التي سأَلَ عنها الإمام العلامة
الحبيبُ عبد الله بن حسين بن طاهر، باعلوي
(ت ١٢٧٢هـ)

وأجابَ عنها الإمام العلامة
الحبيب الحسن بن صالح البحر الجفري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموفق للصالحات، والمعين على التقرب إليه من لطف به ووفقه من البريات، والصلاة والسلام على سيد السادات، وعلى آله وصحبه الأئمة القادات.

أما بعدُ؛

فهذا كتاب لطيف الحجم، عظيم المعنى، بلغ الغاية في القيمة والنفاسة، ومرد نفاسته وقيمته إلىٰ أمور عديدة، منها: أنه نادر الوجود، ولم ينشر أو يطلع عليه أحد قبل نشره في هذا المجموع. ومنها: أن السائل والمسئول كلاهما من جبال العلم وأطواد العبادة، لم يعرف لهما في عصرهما نظير ولا مثيل. ومنها: أن موضوع هذه المسائل، هو في علم القلوب والأذواق، وهو علم نفيس، لا يتكلم فيه إلا أربابه، ولا يخوضه إلا ربابنته وأقطابه. فالحمد لله على تيسيره وتوفيقه لجمعه وضمه في هذا المجموع المبارك.

وقد تمَّ تحصيلُ هذه المسائل من نسخة فريدة وحيدةٍ، تم العثور عليها في بعض المجاميع، من مكتبة خاصة، وتمت مقابلتها على نسخة من المسائل وردت ضمن مجموع الوصايا، في نسخة صورت من مكتبة لأحد الفضلاء في إندونيسيا، وتاريخ الوصية يوم السبت ١٠ صفر سنة ١٢٥٤هـ.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي شرفَ قلوبَ أولياءه بذكره، ثم طوَّقها في عبر الملك والملكوت بأنوار فكره، فشهدَتْ من جلالِ عظمته، وكبرياءِ عزته، ما حيَّرها من عظيم شَأنه وعلوَّ قدْرِه، فاغتبطَتْ نسبتها إلى ذلك العظيم، مسارعةً إلى أمره، هاربةً من زجْرِه، فأوقَد في مشكاتها مصباحَ النورِ، فأشهدَتْ من حقائق الأشياء وعواقبها أسرار ملكوتية.

فأجهدتْ نفسها مستغنيةً بالله في توفيقِه ما عليها في العبُودية من حق الربوبية، فجدَّتْ في تقواه مسارعةً إلى رضَاه بكرةً وعشيةً. فعلِمَتْ من لدنه علوماً وأسراراً تكادُ تَخفى على سائرِ البرية، فاشتاقَتْ إلى حُسْن معاملتهِ في تلك المعارجِ القدسية.

فلما علمَ صدْقَها، وعُظْمَ رغبتها، بلغها إلى منازلَ علُوية، يعْجَزُ عنها قوى البشرية، فحصلَتْ على الكنز الأكبرِ، والكبريت الأحمر، فأصبحَتْ عن ربِّها راضيةً مرضية، ما توجّهَتْ همتها إلى شيءٍ إلا كانت به حظيّة، فقيلَ لها: ادخُلي في عبادي، وتنعَّمي بمُرادي، واجتني ثَمراتِ إسعادي وإرشادي، وتعالَي إلى المعالي القدسية، ولا تقْنَعي من عطَانا، وارْقَي إلى يومِ لقانا، حتى تخلعي الوظيفةُ التكليفيّة.

والصلاةُ والسلامُ على فرْد الحضْرة الذاتية، وطُور التجلياتِ الإحسَانية،

وعلى آله وصحبه المقدَّمين بالخطابِ، المصدَّرين في حَضْرة رفيعِ الجناب، إذ هُمُ المصدر الأولُ، لتلقي المخاطباتِ الأزليةِ، والآداب المحمدية.

أما بعدُ؛

فقد سألني الحبيبُ الشيخ الألمعيُّ، الساريةُ نياقُ عزْمِه بجدِّه وتشميره، وذكْرِه وتذكيره، إلى المقامِ الأرْفع، عفيفُ الدينِ، وعلَمُ الهدى للمتقين السالكينَ، عبدُ الله بن الحسينِ، ابن الشيخ طاهر بن هاشمٍ، باعلوي، لا زالَتْ القلوبُ بأنوار طلعتِه وسَرائر وجهِه بَهجةً، وسحائبُ تذكيره وتحذيرِه وتبشيرِه على مجليها منثَجةً، إلى سَواء صِرَاط الشريعة والطريقة إلى الحقيقة منتَهجةً.

* * *

السؤال الأول

عن قولِ الشيخ الكَبير، أبي الحسَن الشاذليّ، رضِيَ الله عنه:

«واقرُبْ مني بقُدرَتك»؛ والقرْبُ هنا هو العلمُ الحقيقيُّ العرفانيُّ، الكشفيُّ الذوقيُّ، لا قرْبَ المسافة. «قرباً تمحَقُ به عنّي»، أعني تُذهِبُ وتُلاشي «كلَّ قرْبٍ»، مجازيٍّ، بكَشفٍ حقيقيٍّ، بتَلاشي ما في الوجُودِ، بشهُودِ واجبِ الوجودِ، كلّ حجابٍ من قُرْبِ الأغيار، أو قُربِ الأنوار، وهي حجُبُ الآثارِ، محَقْته عن إبراهيم خليلكَ.

إذِ الخليلُ، صَلواتُ الله وسلامه عليه، كان في هذه الحالة أقرَبَ من جبريل، فشَهِد الحقَّ قبل مَشْهده جبريلَ، إذ قال له: ألكَ حاجةٌ؟ فقالَ: أمّا إليكَ فلا، إذ أنَا حاضِرُه، وهو أقرَبُ إليَّ منكَ، فأنا أستَحي أن أسألكَ في حضرتِه، وقد غيبني وأسْكَرني بكأسِ محبّته، فقالَ له جبريلُ عليه السلام: فأنتَ أقرَبُ إليه منّي. فأجابَ عليه الصلاة والسلام: «علمُه بحَالي، يغنيني عن سؤالي».

فقد شهدَ ما سبقَ به العلمُ الأزليُّ، في مسطور الكتَاب، وتلاشَى عنه الحجَابُ بتجلّي جمالِ الملكِ الوهابِ، فانمحقَت عنه جميعُ النِّسَبِ والإضافاتِ والأسباب، فلم تبقَ له في شهُودِ أنسابٍ ولا أحسَابٍ ولا أسبابٍ، وبسُكرِ محبةِ الذي كانَ منه جميعُ الأحبابِ[1].

---

[1] في نسخة جاوة: الذي كانت من جميع الأحباب.

ثم قال الشيخ، رضوانُ الله عليه: «فحجَبته بذلِكَ عن نَارِ عدُوّك»، الذي هو في ظُلمَة الأغيارِ، وكيف لا تحجَبُ عن مضَرة الأعداء، الذين هوتْ بهم ظلمَةُ الآثار، وابعِدُوا عن حضرة الملكِ الجبار، من غيَّبَته[1] عن منفعة الأحبَّاءِ الذين هم مصابيحُ الأنوارِ، إذ لكلٍّ منهُما حجابٌ عن شُهودِ وَحدانية الملكِ القهار. فمن شَهِد الأعداء فقد احتجبَ بالحجُب الظُّلمانيةِ، ومن شَهِد الأحِبَّاءَ اشتغل بالحجُبِ النورانية، ومن فَني عن الكُلّ فقد شَهِد الحضرة الذاتية.

والخليلُ، صلوات الله وسلامه عليه، لم يحتجب بشيء، وتلاشى عنه شهودُ كلِّ شيءٍ، وكانَ مع مولاه بلا شيءٍ، فصارت له السيادةُ به على كلِّ شيءٍ، وصار محبتُه أغلبَ عليه من محبةِ كلِّ شيءٍ، فسمَحَ ببدنه في محبَّته للنيران، وبوَلَده للقُربانِ، وبطعَامه للضِّيفان، وذلكَ وفاءٌ منه، صلى الله على نبينا وعليه وسلم، بقَوله: «أسلمتُ لرب العالمين»، إذ قالَ له جل وعلا: ﴿أَسْلِمْ﴾. فلم يتخلفْ منه بإسْلامه دقيقٌ ولا جليلٌ، فكان إسلامُه بكلِّ ظاهِره وباطِنِه، ولذلك قال جل وعلا في حقه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، فابتلاهُ اختبارَ تكريمٍ، وتنويهاً بشأنه في العالم العلويِّ والملأ الأعلى، وكان شرفُه وعظْمُ كَرامتِه منشُوراً في الخافقينِ، ومَعلُوماً عند الأولين والآخرين.

* * *

ثم سأل الشيخُ رضِيَ الله عنه بقَوله: «اللهُمَّ إني أسألكَ أن تفنيَني عنّي، بقربكَ مني، حتى لا أرى ولا أحسَّ بقربِ شيءٍ ولا ببعدِه عنّي، إنك على كل شيء قدير».

---

(١) في نسخة جاوة: غنيته.

فسألَ الشيخُ الفَناءَ الصِّرْفَ، حتى لا يحسَّ، أعني: لا يشعُر بغيبتِه في الفناء، ويعبَّر عنه بالصَّعْقِ[1] والمحقِ للصِّفاتِ البشريةِ، وهو الشكْرُ لوُجْدانِ الحقِّ بشُهودِ فُقْدانِ الخلقِ، وهو مطلبُ السَّائلينَ المشرفينَ على حضَائرِ القلْبِ، وقد ذاقُوا ذلك الشَّرابَ، ونشَوا بريحان القرْبِ، فسألوا السُّكْر بكأسِ الحبِّ، وإن فقَدُوا فيه الحسَّ واللُّبَّ، كما قال شيخُ البلاد والعبادِ، الحبيبُ عبدالله بن علويّ الحدادُ:

يا ليتَني قد غبتُ عن هَذا الورَى ودُعيتُ بالمستغرِقِ المبهُوتِ

ماذا عليّ، ...، إلى آخره. وهذا مطلبُهم، وإن صحَوا أو بقُوا، فهُمْ يشتاقون إليه، وإن كان الصَّحْوُ والبقاءُ أفضَلَ أو أكملَ، إذ بهما توفيةُ الحقوقِ، الذي يتميّزُ[2] بها الخالقُ عن المخلوقِ؛ وتحت هذا سِرٌّ لا يُسْمَحُ به.

* * *

والخليلُ، صلوات الله وسلامه عليه، قامَ بكماله وتمامِه، إذْ عرفَ جبريلَ ولم يُعرِضْ عنه، إذ تمكن في البقَاء، إذ قال له: «ألك حاجَةٌ؟». فأجابَه: «أمّا إليكَ فلا»، فأخفى سرَّه بينه وبينَ حبيبه وخليله، فأفهَمه أنه محتاجٌ إلى ربِّه، فقالَ: «سلْهُ»، فأبدى له سرَّه المصونَ بقوله: «علمُه بحالي يغنيني عن سُؤالي». فأعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وتبين بذلك سبْقُه، وحقَّق إلى مولاه عبُوديَّته ورقَّه، إذ يميز بالإضافة والنسَبِ جلَّ وعلا، بينه وبين خلقِه، وإن كان هو، جلَّ وعلا، الكُلُّ غرْبَه وشرْقَه.

---

[1] في نسخة جاوة: بالسحق.

[2] في نسخة جاوة: يميز.

السؤال الثاني

ـ وعن قول بعضِهم لبعضِ مُريديه: «إن كانَ يخطُر في قلبِكَ من الجُمُعَةِ إلى الجمعَةِ غيرُ الله؛ فلا تأتيني».

ـ وذلك لأنهم، رضوان الله عليهم، إذا رأوا من المريد علوَّ همته، وصدْقَ رغبته، وقُوّة عزيمتِه، وتفرَّسُوا فيه القابليةَ، ألجأوهُ إلى المعارجِ العُلْوية، مع استعانته بخالقِ البرية، فكلّفُوه أشياء وإن لم تطِقْها قُوَى البشرية، مع العناية الرحمانيّة، باختصَاصِه لصفوة البرية، ويشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من خلقٍ، ونفعٍ وضَرٍّ، وخَيرٍ وشَرٍّ، ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

فعرَّفهم أولاً أن الأمْر منفردٌ به، والتقديرَ تقديره، والأمرَ كلّه إليه، ما في السَّموات وما في الأرض. فلما واجَههم، جل وعلا، بهذا التكليف، وقد سبقَ منه التعريف، بحُكْم التّصريف، وأنه لا يخرجُ عن ملكه بتدبيرِه كثيفٌ ولا لطيفٌ.

* * *

والصّحابة، رضوان الله عليهم، لما فهِمُوا من هذا التكليفِ الذي لا تطيقُه قوَى البشرية بحُكْم العادات، شكَوا إلى معلمهم خيرِ البريّات ﷺ بقولهم: «كُلّفْنا ما لا نطيقُ»، فأجابهم، عليه الصلاة والسلام، بقوله: «أتريدونَ أن

تقولُوا كما قالتْ بنو إسرائيلَ: سَمِعْنا وعصينا!، ولكن قولوا: سَمعْنا وأطَعْنا»(١)، فلما قالوا ذلكَ، أعطاهم ما يحبونَ، وبلّغهم فوق ما يرغبون، حتى لم تبقَ لهم في عالم الشّهادة بقية، ووجّهوا بكلِّ ذلك إلى الأمُور الأخرويّة، ولم يبالُوا بالأهلينَ والذرية، وبذلُوا نفوسَهم النفيسَة العلوية، في رضَا خالق البريّة، وإحرازِ السبْق عنده في الدرجة العلية.

* * *

ولذلك كانتْ على الندُورِ كراماتُهم وخَوارقُ عاداتِهم، إذ لم تلتفتْ نفوسُهم إلى شيءٍ في دارِ الممرِّ والأكدار، ووجهُوا بكلّ ما لهُمْ [في هذه الدار] إلى دار القرار، فأعطاهم أعلى المكارِمِ الوَهْبية، وجعلهم خيرَ البرية، كما عرّف بذلك بقولِه جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.

ثم قالوا: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾، فأنت تحملُ عنا ما حمّلتَنا، وإذا رعتنا العنايةُ منكَ فقد أسعدتنا، ﴿رَبَّنَا﴾، إذ من العدَم أبديتنا، وبملاطفات الإحسان غذّيتنا وربَّيتنا، ثم إلى الفلاحِ وسعادَة الأبَدِ عودتنا، وبمحْضِ الكرَم والإحسان هديتنا، ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، كما أشهدْتَنا وعرفتنا. فهُم، رضِيَ الله عنهم، السابقونَ بذلك المقامِ، والحائزون لكلّ الفضْلِ والإنعام.

ولما عرَّفهم ذلكَ، وأشهِدُوا لما هنالكَ، وسلكوا تلكَ المسالك، وعلِمُوا عناية الوليّ المالكِ، وأنهم ليس معَهُ معين ولا مشارك، فقالَ لنبيهِ المختار ﷺ، وصَحابته الأمنـاء الأخيارِ الأبـرار: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾،

---

(١) رواه مسلم بلفظ مقارب.

فاستقامَ ﷺ بذروَة ذلك المقام، فكانَ على النهج الأقومِ من بين أنبياءِ الله ورسله الكرام، كما أقسمَ بذلك خالقُ الأنامِ بقوله: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أعني: من بين المرسلينَ.

* * *

فهذا بيان أنه ﷺ على الصّراطِ الأقومِ من بين الأنبياء والرسُل، فكان كلُّ من هو أكمَلُ في الاستقامةِ، هو أقربُ إليه على قدْر استقامتِه، وهي ما بين مسلك الإفراطِ والتفريط. ولذلكَ كان هو أبو الأرْواحِ الصمدانية، إذ هو أولُ إفاضَةٍ من الذات العلية، والنقطة الانفعالية، التي اندَحَتْ منها العوالمِ الملكيَة والملكوتية، ثم جعلَه ختْمَ الأنبياءِ والرسل، وتلا عليه مقَاماتهم وأحوالهم، وما مُدِحُوا به وما عوتبوا عليه، لتكون له لَوحاً يقرأ فيها ما سُطِّرَ من العلومِ الأولية والأخروية.

* * *

وبعد أن أثنى على الرسُل الكرامِ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، شمّر، عليه الصلاة والسلامُ، في تلك المراتبِ العلوية، مع كمالِ القابلية، لكُلِّ الأدبِ في الحضْرة القدسيةِ، مع كمال زكَاة الفطرَةِ الخلقية الرحمانية، كما أخبر ﷺ عن حبيبه ووليه، جلّ وعلا، بقوله: «**أدّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي**»[1].

وقد جمعَ الله له في القرآنِ العظيمِ، علُومَ الأولين والآخرينَ، [وتخلق بالخلق العظيم] الذين مدحَه الله به بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وهو

(١) أخرجه العسكري في «الأمثال»، ينظر: السخاوي، المقاصد الحسنة: ص٧٣.

خلقُ القرآنِ، كما أخبرتْ عنه سيدة نساءِ العالمينَ، بقولها: «كان خلُقُه القرآنُ»[١].
فتخلقَ بخلقِ الرحمٰنِ، موهبةً من مواهب الكريمِ المنّان، ومن ذلكَ كانَ
استخلفَه عن نفسِه، وصيَّر حكمَه حُكمَه، وشَقَّ اسمَه من اسْمِه، ثم قالَ
سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، وقال لمدَّعي محبته:
﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فاعلم أنه، جلّ وعلا، لا يحبُّ إلا
من اتبع نبيّه، وأنه لا يحبّ من أحبّه ولم يتّبعْ نبيه، ومَن ادّعى محبّة الله بغير اتباعِ
رسُوله فهي ردٌّ عليه.

* * *

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، من حديث السيدة عائشة.

السُّؤالُ الثالِثُ

ـ وعن قَول بعضِهم: «لو أعطِيتَ مكالمةَ موسَى، وخُلَّةَ إبراهيم، فسَلْ ما فوقَ ذلكَ»؟.

[الجواب]: «وذلك» منه إرشادٌ إلى توالي السَّيرِ، وعدَم الاستغناءِ عن مولاه بحالٍ من الأحوالِ، ولو بلغ ذِرْوة الكمال، فإن السَّير إلى الله لا يتناهى، ولا تنقِصُ مواهبَه عَظَيم المننِ وكَثير العطايا، وإذا أعطَى العبدَ فما ذلكَ إلا ليزيدَ رغبته لسَعة الغنَى، وعظيمِ الجودِ، وإذا فَترَ منه السؤالُ، فقد أشعَر منه الاستغناءَ بما نالَ، فحينئذٍ تحصلُ منه الفترة، وإذا حصلتِ الفترَةُ، حصلَ الوقوفُ، وإن دامَ ذلك رجعَ القهقرَى.

* * *

والخلةُ من مقاماتِ الأولياءِ التي يبلغُونَها في نهاياتِهِمْ، والمحبوبيةُ كذلك، ويحصلُ لهم من مولاهم مكَالمةٌ، بأن يحدِّثهم الحقُّ، وأظنهم يسَمُّونَ ذلك الفَهْوانيةَ، وهو سماعُ خطابِ الحقِّ من غير حروفٍ، واصطكاكِ أجرامٍ، ويعرِفُ أنه تكليم الحقّ، من غير قيدٍ بزمانٍ ولا مكانٍ، وقد أشارَ إلى ذلك، عليه الصلاة والسلامُ، بقوله: «**إن في أمتي محدَّثينَ، وأنتَ منهُم يا عُمَر**».

وأما نفسُ خُلّةِ إبراهيمَ، ومكالمة مُوسَى، فهو متعذّرٌ، لأن الأولياءَ هم

مقاماتٌ في مقاماتِ اليقينِ والمعرفَة بربِّ العالمينَ، ليسَتْ تبلغُ إليها مقاماتُ غيرِهم، وقد تكونُ للأولياءِ معاريجُ [لكن] ليسَتْ معاريجَ الأنبياء.

* * *

وأما الشيخ، فإنه إشار على السَّالك أن لا[1] تفتُرَ همته، ولا تركُدَ عزيمته، ويسألَ من مولاه المزيدَ، ولا يقفَ مع مقامٍ ولا حالٍ، فيكون مشغولاً به، محجُوباً عما وراءه، مُستغنياً عن مولاه. ومعرفةُ العبدِ للحقِّ لا يبلغُ كنهُها، ولا يتوصّل إلى حقيقتها، فما عرفَ الأفعالَ التي لا يحيطُ بها إلا من بلغَ غايةَ الكمال، والأفعالُ لائحة الأسماء بمظْهر الجلال[2]، وهي كمَن بنى داراً وبلغَ فيه غايةَ الإحسانِ والكمال، وفي قدرته أن يفعل أعظَمَ منه وأحسنَ في المثال.

* * *

والفعْلُ مظْهرُ الأفعال الناسُوتية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، والقدرَةُ صالحة لكل شيءٍ، قالَ جل وعلا: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وقالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

وهَذا في مظهَر الفعلِ الذي ظهرَتْ به الأسماءُ، وهو أنموذجٌ بمُقتضى الجلالِ والكمالِ، لا مزيدَ عليه. ولهذا قال الإمام الغزالي رضِيَ الله عنه: «ليسَ في الإمكانِ أبدعَ مما كان»، ولم يقل: «أحسَن [مما كانَ»، لأن القدرةَ صالحة لما هو أحسن][3] وأكمَلُ، بمقتضى الأسماء.

---

[1] في الأصل: لئلا، والتصويب من نسخة جاوة.

[2] في نسخة جاوة: والأفعال إلا نتيجة الأسماء بمظهر الظلال.

[3] ما بين المعكوفين مزيد من نسخة جاوة.

ولاهُوتُ الأسماءِ لا يصلُ إلى معرفتها عَارفٌ، ولا يحيطُ بعلمِها عن
عَليمٍ ولا وصفُ واصفٍ، والصفاتُ أعلى، إذ نتيجتُها الأسماءُ، والذاتُ العليا
لا يحيطُ بعلمِها علمُ عليمٍ، وهذا لا يتناهى السَّيرُ إلى الله تعالى في عِرْفانه في هذه
الدارِ، بل ولا في دارِ القرارِ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

* * *

وهذا ما أجراهُ الله، ولسنا أهلاً لشيءٍ من ذلكَ، ولا شيء مما هنالكَ.
ونستغفر الله مما قُلناه وما سطرناه، ومن سُوءِ ما عملناهُ، ونسأله التوبة مما جنيناه.
ولا حول ولا قوة إلا بالله، **اللهُمَّ** وسِعْتَنا برحمتك، وغذَوتَنا[1] بنعمتِكَ، فوفِّقنا
لطاعتِكَ، وجنبنَا معصيتك، واشمُلْنا بعنايتِك، واجعَلْنا من أهل محبَّتِك، وأدخِلنا
بفضلك العظيمِ جنَّتَكَ ودارَ كرامتك، آمينَ، آمينَ، يا رب العالمين.

[وكان الفراغ من إملاء هذا المسطور، يوم السبت عاشر صفر الخير سنة
١٢٥٤][2].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

(١) في نسخة جاوة: غذيتنا.
(٢) ما بين المعكوفين مزيد من نسخة جاوة.

صَلاةُ المقرَّبينَ

بقلم الإمام الحسن بن صالح البَحْر الجفْريّ

(ت ١٢٧٣هـ)

وهي وَصيةٌ منه لبعض محبيه

نفع الله به

أما بعد؛

فهذه وصية مباركة، ونبذة صالحة، في صفة صلاة أهل القرب، الذائقين الكارعين من بحور الحب، كتبها على لسانهم، شيخ الطريقة والحقيقة، الإمام الحسن ابن صالح البحر، نفع الله به، وقد اشتهرت عنه، ونقلت في الدواوين، وطبعت وانتشرت في كثير من الأقطار.

قال الشيخ عبد الله بن سمير في «قلادة النحر»، متحدثاً عن سبب تأليفها: «ومن وقفَ على كلامه في ذلكَ، من الأئمة الجامعينَ، والعلماء المتوسّعينَ، عرفَ في ذلك رتبته. حتّى أن الإمام الجامعَ، بحْرَ العلومِ، عبدَ الرحمن بن سليمان الأهدل[1]، لما اجتمع به في الحرمينِ، وعرفَ رتبته في العلوم اللدنية الربانية، طلبَ منه أن يصنف كتاباً في صِفَة صلاة المقرَّبينَ، فانقبضَ أولاً عن ذلكَ، وبعدُ طابتْ [/٢٢] نفسُه بسبَب صلاح نيّة ذلك الإمام عبد الرحمن.

ابتدأ في المذاكرة معَه فيها بعضُ تلامذته المتبحِّرينَ، فزجرهُ، وقال: هذا شيءٌ لسْتَ من أهله، العارفين معانيه، واستعظمها جدًّا، وهي حريةٌ بذلكَ. وقرئتْ بين يدي مفتي الغَرْبِ، ثم (مكّة)، الإمامُ ظاهراً وباطناً، الشريف أحمد إلياس الحسني[1].

فقال بعضُ تلامذته الحاضرين: ما أظنّ يا سيدي أن أحداً يقْدِرُ يصلي صلاةً على هذا الوصْفِ، حتى قائلُها!.

---

(١) توفي سنة ١٢٥٠هـ.

(٢) المقصود، هو: السيد أحمد بن إدريس، المتوفى سنة ١٢٥٣هـ بصبيا. ولعل وهما دخل على المؤلف أو الناسخ، والله أعلم.

فقال: أمّا قائلُها فإن الوعاءَ لا ينضَحُ إلا بما فيه.

يعني: لم يصْدُر منه هذا الكلامُ إلا بعدَ ما طالَ عمَلُه بذلك، وفعلُه لما هنالكَ، لأن العلومَ الباطنة لا تتأتّى بمذاكرة اللسانِ، ولا يتّسِمُ بها من حظُّه منها المذاكرةُ والهذَيانُ، بل هي مشاربُ ذوقيةٌ، وأسرارٌ ربّانيةٌ، كلٌّ له منها قدْرُ استعداده واجتهاده، وترويضِ نفسه بالمجاهداتِ، وقمعها عن الشهواتِ. وسيدُنا، من عرَف عن مجاهداتِه، لم يستكثِرْ ما صدَر منه من كثيرِ كَراماته، وغريبِ باهِرِ عبارَاته»، انتهت عبارة ابن سمير.

أسماء هذه الوصية:

هذه الوصية المباركة اشتهرت باسم «صلاة المقربين»، وفي بعض نسخها سميت «إتحاف خواص المؤمنين بصلاة المقربين»، ولقبها بعضهم بلقب «منادمة المحب مع المحبوب بما هو المقصود والمطلوب»، وهذه التسميات والألقاب وجدت على بعض النسخ، ولا يعلم من هو واضعها حقيقة.

النسخ المعتمدة في المقابلة:

نسخة بمكتبة الأحقاف، ٢٥٨٠/ ٢ مجاميع، في ٣ ورقات، كتبت في ١٥ القعدة سنة ١٢٦٠هـ بقلم السيد محمد بن محمد السقاف المكي (ت ١٢٨٣هـ).

الأحقاف ٢٩٩٣/ ٥، تقع في ٨ ورقات، كتبت يوم الجمعة ٦ القعدة سنة ١٢٦٣هـ كتبت كلمات سورة الفاتحة فيها باللون الأحمر.

نسخة بالأحقاف برقم ٢٧٦٣، تقع في ٨ ورقات، غير مؤرخة، برسم السيد العلامة عبد الله بن عمر بن يحيى. وفي آخرها ما نصه: «تمت نبذة صلاة المقربين،

للسيد الفاضل، الصائم القائم، ذي المجد والفخر، الحسن بن صالح البحر الجفري علوي، نفعنا الله بها فيها آمين». والعبارة هذه مشعرة بأنها كتبت في حياته.

نسخة في مركز النور بتريم، تقع في ٧ ورقات، كتبت بقلم السيد محمد بن علي بن أحمد بن علي بن شيخ بن شهاب الدين، برسم السيد حسن بن أحمد بن أبي بكر عيديد، وهي غير مؤرخة.

نسخة مطبوعة بمصر، صدرت عن مطبعة المدني، سنة ١٣٨٣هـ بعناية وتصحيح مفتي الديار المصرية، الشيخ حسنين مخلوف (ت ١٤١٠هـ) رحمه الله، تقع في ٢٤ صفحة من القطع الصغير، مذيلة ومصدرة ببعض الفوائد المناسبة.

هذا ما تيسر الوقوف عليه، ونسخها وطبعاتها كثيرة، لا سبيل إلى حصرها في هذا النطاق والحيز، نفع الله بها من يطالعها.

* * *

هذه الرساله المرسومه بالتحف

خوارق المومنين بصلاة القريبين

المدية الجزل والعبور بقربه

العالمين والملقبه بنادمة

المجمع الحبشي هاهو

للقصود والطلب

لسيدنا الحبيب

الفاضل

الحسن

بن صالح البحر الجفري علوي رضي الله

عنه وارضاه ونفعنا به

وبعلومه امين

اللهم امين

امين

وصلى الله على سيدنا ومولانا

محمد وآله وصحبه وسلم

وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين

نموذج لإحدى النسخ الخطية المعتمدة

«أَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِى»

صـــلاة المقربين

لمربى السالكين وقدوة العارفين السيد

الحسن بن صالح بن عيدروس البحر

الجفرى العلوى الحسينى الحضرمى

بتعليقات راجى عفو ربه

حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية السابق
وعضو جماعة كبار العلماء

الطبعة الأولى

١٩٦٣/١٣٨٣

مطبعة المدنى

نموذج لغلاف النسخة المطبوعة في مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي أبرزَ من عينِ الوجُودِ سِرَّ الخصوصيةِ، السّاري جمالُها في جميعِ العوالم الملكية والملكُوتية. وصلَّى الله على سيدنا محمّدٍ قبلةِ الأرواحِ العَرْشيةِ، وفرد الحضرةِ الذاتية، وطُور التجلياتِ الإحسانيةِ، نقْطةِ الانفعالِ المدْحيةِ منها مراكزُ الأنوارِ الصّمديةِ، وعلى آله وصحبه، شُعاعِ نوره، ونجُوم بدْرِه، وترجمانِ نَهيه وأمْرِه.

وبعْدُ؛

فإن الصَّلاةَ لما كانتْ رُوحَ الأعمالِ، وحقيقة مراتب الوصْلِ والاتصالِ، وسِرَّ لَطيفةِ الوُجودِ في أزل الآزالِ، وبها يظهر النور المغطى في قالب الأشكالِ، تيقَّن على من نوَّر الله بصيرته، وصَفَّى من الأكدار سَريرتَه، أن يجمع الهمَّ فيها، ويقطع عقبات مَراقيها، ليسْكَر من زُلالِ صَافيها. فإذا تطهَّر من الأكْدارِ، وخلَع رِبْقَةَ الأغيارِ، قامَ بمَحْضِ الذلة والانكسَار، لهيبة الملكِ القهَّار، وعِزَّة العزيز الجبار، فيخْضعَ لسلطانِ الجلالِ، ويُلاحِظ معشُوقَ الجمالِ، ويتضرَّع بالدعاء والابتهالِ، بالتثبيتِ بين يدي الكبيرِ المتعَالِ.

* * *

[معنى التكبير]:

ثم يقولُ: «الله أكبر»، محقِّقاً أن لا كبيرَ في قلبِه إلا اللهُ، فيطرَحَ جميعَ ما

سواهُ، ابتغاءَ رضَاهُ، إذ هو رَبُّ كلِّ شيءٍ ومولاه، منه بدأ وإليه منتهاهُ. وليحذر أن يكذِّب قولَه فعلُه، بأن يبقَى له مطلوبٌ أو محبوبٌ غيرَ الله، فمع الكبيرِ القديرِ، لا يَرْضَى بالحقيرِ الصغيرِ، فيرمي جميعَ الهمُومِ، ويشْهدَ قيامه بكلِّ معلوم.

* * *

[معاني دعاء الاستفتاح]:

ثم يحقِّقُ بلسَانِه ما بقلبه، بقول: «وجّهْتُ وجهيَ لله»، أعني: وجْهَ قلبي، وكلَّ همي، بالذِّلة منه، إذ هو الكبيرُ العظيمُ. والافتقارِ إليه؛ إذ هو الغني الكريم. والرغبة فيه؛ إذ هو الحليم الرحيم. والتوكلِ عليه؛ إذ هو القوي القدير.

«الذي فطر السموات والأرض»، وحينئذٍ تزولُ عنك الظُلَمُ، وتشَاهِدُ عينَ الجودِ والكرم، ولا يبقَى لك مرغوبٌ أرضيٌّ ولا سَمائيٌ، إذ هي وما فيها من جُودِه موجُودَة، وبوَصْفه ممدودةٌ. «حَنيفاً»، غير ملتفتٍ إلى ذاتِ اليمينِ بالرغبة فيمن سواهُ، ولا ذاتِ الشمال بالرهبةِ ممن عداه. «مُسْلماً»، له بالإذعانِ والانقيادِ، وطارحا له المرادَ بغير اعتمادٍ ولا استناد إلى غيرِه فيما أراد. «وما أنا من المشْركينَ»، بالمرادِ معه، المترددين في الحبّ له، وكيف أوثر عليه محبوباً هو المتفضلُ به، أو أريدُ معه شيئاً لا يقومُ إلا به.

«إنّ صَلاتي» في حَضْرته، هي صَلاتي من رحمتِه، بالخضُوع والاستسلامِ، والفضلِ والإنعَام. «ونسُكي» وجُود طاعتي له، وانقيادي لأمره، وصَبري على أقداره، وانتدابي لشُكرِه. «ومحيايَ»، بتعلقي بأوصَافه، ومشَاهدتي حسْنَ صنيعِهِ وألطافه. «ومماتي»، غيبتي عن وجُودي في شُهودِه، وغيبتي عن شُهودِه ببقاء وجُودِه.

«لله»، أعني: الذي أقامَني في ذلكَ، واختصَّني به بغيرِ حولٍ مني ولا قوةٍ. كما هو «ربّ العالمينَ»، يقرّبُ ويبعِدُ، ويشْقي ويُسعِد، فالكلّ تحتَ قهره خاضعينَ، ولعزّته خاشعين، يذلُّ من يشَاء ويعزُّ من يشاءُ، لا معقّبَ لحكمه، في نقضه وإبرامِه، ولا مؤازر له في إيجادِ ما أوجدَه وإعدامِه.

«لا شَريكَ له»، يشبهُه في ربوبيته، إذ العالمينَ الذين هم روحُ العالمِ خلقُه وعبيدُه، يصرِّفُهم بحكمه، ويديرُهم بعلمِه، «وبذلك أمِرْتُ»، ولذلك خلقْتُ، «وأنا من المسلمين»، المحقّق له القهرُ والغلبةُ على كل شيءٍ، المطَّرحينَ تحت سُلطان عزَّته، المتعلقينَ بأسْتارِ رحمته، الواقفينَ بالعَجْز عن إدراك حقيقَة معرِفَته.

* * *

[معاني سورَة الفاتحة المعظمة]:

ثم تحصّنْ به من كيدِ رأسِ الغواية، لائذاً بعزّة الله من كيدِه أو بلواهُ، بقولكَ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وكذلك انْوِ الاستعاذةَ من جميع الأغيارِ، والخواطر النفسَانية، والحظوظ الشهوانيةِ، وقُل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وتحقّقْ أن كلَّ شيءٍ قائمٌ باسمِه، محوطٌ بعلمِه، وتحقّق الألوهيةَ الساريةَ في جميع الوجُودِ، القائمَة بالحكمةِ في كل حدٍّ محدُودٍ، ومقرّبٍ ومبعودٍ.

فإذا قلتَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فاشهد رحمتَه الواسِعةَ لجميع الوجود، فالرحمنُ بالإيجادِ، والرحيمُ بالإمدادِ، فقم بالحمْدِ للمحمُودِ، بقولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، بالاستغراقِ لكلياتِ الحمدِ وجُزْئياتِه، مستحضراً أنّك نائبٌ عن الوجُودِ في مقابلة هذا الجودِ، إذ جعلَك الواسطةَ في إيجاد كلّ موجُودٍ، وإمدادِ كل ممدودٍ، لأنك سرُّ الوجُودِ، فاعرف قدْرَ صُنعكَ، وعِظَم صَانعك. وأما الإيجادُ؛ فمن

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾. وأما الإمدادُ، فمن قوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

فإن الوجُودَ لما كان قيامُه بإشراقِ نورِه، تعالى، فكثيفُ الأجسَامِ لا يطِيقُ تحمُّلَ نورِه، إلا من بعد تلقّي نُورِ الخصوصيةِ له، كما يشهَدُ من استنارَتْ مرآة قلبِه، فمن شاهِدِها تثُجّ الأمطَارُ الحسية، ومن غَائبها تفيضُ عيونُ الأسرارِ بالأنوار الغيبية. ثم قف تحتَ جبروتِ العزّةِ والجلالِ، واهبط إلى درَكِ الإنزالِ، ولاحِظْ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾، وقُلْ: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ثم انظُر كونَ العالـمينَ واقفونَ تـحت القهْرِ، منقادُونَ لمبرم الأمْر، لا يستطيعونَ لجلبِ الخير ولا لدفعِ الضرّ، فحينئذٍ تجدُ لذّة الذلةِ والاستصغار، وتعودُ إلى رحمة الكريمِ الغفّار، الحليم الستارِ، بحُسْن الالتجاءِ والافتقار، بقولك: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، الذي أهّل للوقُوفِ بين يديه، وجعلك تخاطبُه وتناجيه، ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بكَ في ضَعفِك وقصُورك، وظُلمِكَ وزورِكَ، وأنْ قد سبقَتْ لك منه الرحمةُ قبلَ خلقِك وتصويرِك.

ثم انْفِ تلبيسَكَ وغرورَكَ، واشهد نزولَ خاصيّةِ الرحـمة في طُورِكَ، وجلبابِ العصْمَة بستورك، وغَيِّبْ في ملكيته الخاصّة شُعورَك، بقَولك: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، عند كَشْف عَين اليقينِ، ووضُوحِ الحقّ المبينِ.

فإذا أفقْتَ من دهْشَة الجلالِ، فانهضْ على قدَم العجْز والإذلالِ، واشْهَد قيامَه بك في حَالة الجمالِ، وقل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، كرماً منك وإحساناً، ولطفاً

وامتناناً. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توكلا وإيقاناً، وتنويهاً وتبياناً. فحينئذٍ يسكُنُ رَوعُك، ويعظُم طمَعُك. فاسأله به كمالَ الاستقامةِ بقَولكَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فانو به الينبوعَ الذي شرِبَ منه ﷺ، وهو عينُ الحيَاةِ، أعني: روحَ الشريعَة، الذي جسْمُه كمالُ الاستقامة.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بلذيذِ خطَابك، وحسْن ملاطفتك واقترابكَ، وهم النبيّون والصدِّيقُونَ، الذين اصطفيتهم لطاعتكَ، واختصَصْتهم لحضرتكَ، ونعَمْتهم بمشاهدتكَ، وأدخلتهُم جوارِكَ في دار كرامتِك. ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بحِرمانِ طاعتكَ، وعدَمِ سلوك محجَّتكَ، لإقامة حجتِك، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين ضربْتَ عنهم الحجابَ، ولم تسمِعْهُم لذيذَ الخطابِ، ولم تسكِرْهُم برحيقِ الشرابِ، وقل حالَ كونك خاضعاً لجنابِه، واقفاً ببابه، موقناً منه بالإجابة: «آمين».

* * *

[معاني قراءة السورة]:

ثم اقرأ سُورةً، واشهَدهُ في كلامِه، واعرِفْ نطقَك به منه، وأقم الحجّةَ على نفسك فيما أمركَ ونهاكَ، وأعظِم الرغبةَ فيما أطمعَك ورجاكَ، فحينئذٍ تجِدْ في كلامِه، بل في كلّ آيةٍ، بل في كلّ كلمةٍ، بل في كل حرفٍ معنًى طَريفاً، وسراً لطيفاً، وجلالاً منيفاً.

* * *

[معاني الركوع]:

ثم اركعْ خضوعاً له، وحَياءً منه، حيثُ جعلكَ من أهل حضرته، مكبِّراً

لجلالِ عظمتِه، وكبرياءِ عزَّته، وتحقَّقْ أن كلَّ شيءٍ راكعٌ لهيبته، خاضعٌ لعزّته، منقاد لقدرتِه. وقُل: «سبحان ربي العظيم وبحمده»، فاجعلْ تسبيحَك تنزيهاً له، وحياءً منه، حيثُ كنتَ مخاطِباً له، مع جلاله وكبريائه، وذُلَّكَ وضعفِكَ، ودنُوِّك وعلوِّه.

ثم املأْ قلبكَ وقالبكَ بالحمدِ، ولاحظْ أنكَ له عبدٌ، واملأْ سرَّكَ سرُوراً به، وفرحاً بقربه، حيث نسَبك بالعبودية إليه، وأهَّلَك للوقوف بين يديه، فقُمْ بحُسْن الثناءِ عليه، واذكر نعمَه وأياديه، وقرْبَه وتوليه.

* * *

[معاني الاعتدال]:

ثم ارفعْ معتدلاً، انبساطاً بقربـه، وافتخاراً بحبّه، وقل: «سمع الله لمن حمده»، سماعَ قبولٍ وإجابةٍ، ورضاً ومحبةٍ، وإلا فهُوَ سامعٌ لكل شيءٍ، أقرَبُ إلى المسموع من نفسِه، ومن هنا تَدِقُّ العبارَة، وتخرَسُ الإشارَة، ويظهرُ سرُّ الحبيبِ.

ثم قُل: «ربَّنا»، وانوِ بالضَّميـر جميعَ الوجودِ عمُومـاً، وكلَّ العالـمينَ خصُوصاً، «لك الحمدُ»، المستغرقُ لجميعِ المحامدِ، الموافي للنَّعْماء، المكافئ للزوائد، واشْهَد أنّ كلَّ حمدٍ لغيره مجازيٌّ، وله حقيقيٌّ، لأن كلَّ حمدٍ راجعٌ إليه، وصَادر عنه، ومتفَضّلٌ به، واستشعِرْ أنه: لا يقدِرُ على الثناءِ عليكَ إلا أنتَ، ولا يشكرُكَ غيرُكَ، وأنا أحمدُكَ بما حمدْتَ به نفسَك. ولكن خاطبكَ بالحمدِ، ورضيَه منكَ، فاستحضر: أنّ لكَ الحمدُ مثْلَ ما حمدْتَ به نفسَك، وكما ينبغي لجلالِ وجْهكَ، وعَظيم سُلطانك، من جميع خلقِكَ، عددَ ذرَّاتِ العَالم، مضروباً في عدَد الأنفاسِ واللحظَاتِ، والسَّكناتِ والإراداتِ، والخطراتِ

والكلماتِ، والحسَنات والسيئاتَ، والحروفِ، أبداً بدوامِكَ، لا انتهاءَ لأبديتِه، ولا فناءَ لديمُوميَّته، ولا حَدَّ لسرْمديته.

ثم انْوِ بقلبِكَ «**ملْءَ السمواتِ وملءَ الأرضِ وملْءَ ما شئْتَ من شيءٍ بعْدُ**»، بكُلِّ فـردٍ من هذا الـحمْدِ أن يكونَ كذلكَ، وانْوِ بمـا بعْدَ السّمواتِ والأرضِ: العرْشَ والكرسيَّ، وجميعَ المخلوقاتِ، ثم فضاء التوحيدِ الذي لا منتهَى له.

ثم قُلْ: «**أهل الثناء**»، أعني: المثني على نفسِكَ، إذ كلُّ من أثنى عليكَ بتوفيقِكَ ومنّتكَ، وفضْلِكَ ورحمتكَ. «**والمجْد**»، إذ لا مجدَ لغيركَ، إذ كلّ مجيدٍ مجدُكَ، وكلُّ موجودٍ خلقُكَ وعبدُكَ. «**أحَقُّ ما قالَ العبْدُ**»، في كل عبوديتِه، وانمطاس بشَريّته، وانمِحاقِ دعَاويه ورُؤيته، بإشراقِ أنوارِ خصُوصيته. «**وكلُّنا لكَ عبْدٌ**»، تَتصرَّفُ في ظواهرِنا وسَرائرِنا، محقِّقاً له بالربوبية عليكَ، في جميعِ حركاتِكَ وسكناتكَ، مُضيفاً إلى نفسِكَ كلَّ وصْفٍ ذميمٍ، شَاهداً لمولاكَ كلَّ وصْفٍ كَريمٍ.

وقُلْ: «**لا مانعَ لما أعطيْتَ**»، إذا استحالَتْ قدرَةُ غيرِكَ فلا وجُودَ إلا وجُودكَ، ولا شهُودَ إلا بنُوركَ. «**ولا معطِيَ لما منعْتَ**»، لانفرادكَ بحُكمكَ فيمن تمنعُه وتعْطِيه، واختصاصُكَ بعلمِكَ فيمَنْ تسعدُه وتشقيه، «**ولا ينفَعُ ذا الجدِّ منْكَ الجدُّ**»، فلا يصِلُ النفعُ من شيءٍ إلى شيءٍ، إنما يصِلُ النفعُ منكَ بِكَ.

* * *

[معاني السجود]:

ثم اسجُدْ بين يديه، ففي الاعتدَالِ شهودُ قيامِه بكَ، وقرْبه منكَ، إذ

أنت قائمٌ بوَصْفه، فتغيب بهِ عنكَ، وهذا مقامُ الفَناءِ. ثم تلوحُ بارقةُ البقاء، بأن تشْهدَ بُعدَكَ عنه، مع قربه منْكَ، فتشهَدُ علوَّه وعظمته، ودنوَّه ورحمتَه، فتسجدُ.

إذ معنى السّجودِ: وضْعُ النفْسِ كأنك ميتٌ، وقد عَرِيْتَ عن أوصَافِ الحياةِ، فإذا أنتَ عارٍ عن أوصَافِ نفسِكَ، ويظْهرُ لك معنى الاقترابِ في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾، فتقولُ: «**سُبحانَ ربّي الأعْلَى وبحَمْدِه**»، فتنزّهُه عن قربكَ منه، وتتعلقُ بوصْفِه القائمِ بكَ، فحينئذٍ تغيبُ في فضَاء الوحدة.

ولأهلِ هذا الشأن، رضِيَ الله عنهم، في ذلك أحوالٌ؛ **فمنهُم** من يكونُ واردُه المعرِفةُ، **ومنهم** يكونُ واردُه المحبة، **ومنهُم** من يكُون وارِدُه الهيبةُ.

فإن كانَ واردُه المعرِفةُ؛ جالَ سرُّه في عالمِ الملْكِ والملكُوتِ، وكوشِفَ بالأسرار الحقيَّة والأحْوالِ السنيّة. وإن كانَ واردُه المحبّةُ؛ كوشِفَ بالأنسِ والترحيبِ، والدنُوِّ من الحبيبِ. وإن كان واردهُ الهيبةُ؛ كُوشِفَ بالجبروتِ، وسجدَ على البهْمُوتِ. ومن دارَتْ عليه الصِّفاتُ، ولمعتْ على قلبه أنوارُ الذّاتِ، صار فانياً بالذاتِ، باقياً بالصِّفَاتِ.

فحيثُ شاهدَ أوصَافَ الرَّهَبوتِ، هربَ إلى أوصَافِ الرَّحَموتِ، وقالَ: «أعوذُ برضَاكَ من سَخَطِكَ». وحيث شاهدَ أوصافَ البطْشِ والقَهْرِ، هربَ إلى أوصافِ الحلْمِ والغفرانِ، وقال: «أعوذ بمعافَاتِكَ من عقُوبتك». وحيثُ لمعَ في قلبِه نورُ الذاتِ عبَّر عن الأسْماء والصفاتِ، ورقَى في أعلى الدرجَاتِ، وقالَ: «أعوذُ بِكَ منكَ»، فلم يبقَ هناك معَه موجودٌ، ولا في مَشْهَده مَشْهودٌ،

حكَم على الوجُودِ بالفناءِ والنفُودِ، وعلى المشْهُود بالجحُودِ، ولا تبقَى إلا قيومِيَّته واجبُ الوجُودِ.

وحينئذ تكِلُّ الإشَارةُ، وتخرُسُ العبَارةُ، وترجِعُ بالعَجْزِ والانكسَارِ، والذلة والافتِقَار، فيلقي نفْسَه على بسَاط الذِّلةِ والاضطرارِ، فيعرِفُ أوصَافَ نفسِه الذَّليلةِ، ويتعلَّقُ بأوصَاف سيِّدِه الجليلةِ.

* * *

[معاني الجلوس بين السجدتين]:

فيسْتَوي جالساً، فيقولُ: «رَبِّ»، ويشْهدُ تربيتَه وتَدبيرَه، ورحمتَه به قبل تصويرِه، «اغفر لي»، ما تعلَمُه من خطأي وأوزاري، «وارحَمْني» في اضطراري وانكسَاري، «واجْبُرني» من ضعفي وانكساري، «وارفَعني» من حضيض أطواري، إلى رفيع حَضيرةِ سرِّك الساري، «وارزُقْني» في إعساري وإقتاري، «واهْدِني» من ضلالي واختياري، «وعَافِني» من ظلمي وأخطاري، «واعْفُ عنِّي» من تدبيري واختياري، ويسْجدُ ثانياً ويأتي بما مرَّ فيه، وفي باقي الركعات.

* * *

[معاني الجلوس للتشهد الأول]:

ثم يجلسُ بعد السجُودِ للتشهّدِ الأولِ، مفترشاً، ملاحِظاً أنه بين يدَي سيدِه، محقّقاً للجلُوسِ هيبةً لمن هو في حضْرَته، غير مطوِّلٍ له، لأن الافتراشَ وصفُ الهائبِ الجالسِ بالأدبِ، الناهضِ قريباً. واستشعر جلوسَكَ بين يديهِ، وأنه أقربُ إليكَ من كل قريبٍ، وامْلأْ قلبكَ بالهيبةِ والحياءِ منه.

* * *

[معاني التشهد]:

وقل: «**التحيّاتُ**»، واستحضر أن كلَّ شيءٍ يحيّيه على جزيلِ إحسانه، ويطلبُ منه رحمتَه ورضوانَه. فإذا قلْتَ: «**المباركَاتُ**»، فاشهَدْه، المحيِّي والمحيَّى، وإذا قلتَ: «**الصلواتُ**»، فاذكر تحيةَ أهل القرْبِ، ومخاطبةَ أهلِ الحبِّ، وقل: «**الطّيباتُ**» الخالصة، التي لم تشُبْها ظلمَةُ النفسِ، المتنقّلة في حَضَائر القدس، المغمورَة بأنوارِ الأنس، إذ لم يكن فيها وجودُ غيرِه. «**لله**»، فأنتَ حينئذٍ فانٍ عَن جميعِ الأغيارِ، غريقٌ في بحَار الأنوارِ.

حتى إذا اكتحلتْ بصَر بصيرتكَ، بلامِعِ تلك الأنوارِ، وسِرِّ الأسرارِ، النبيِّ المختارِ، فتقولُ: «**السّلامُ عليكَ أيها النبيُّ**»، وتعرّفْ سلامة الله لَه من كلِّ النقائصِ والمعايبِ، التي لم تكن لغيره من الأولين والآخرينَ، «**ورحمة الله وبركاته**»، الفائضةُ عنك إلى الحضَائر القدسيةِ، ثم إلى جميع العوالم الملكية والملكوتية.

وتقولُ: «**السَّـلامُ علينَـا وعلى عباد الله الصَّالحين**»، بالعَفـو والغفرانِ، والرحمَةِ والرضوانِ، والبشارةِ والأمانِ. وتشاهدُ حضَائر الأنبياءِ والأولياءِ، وامتدادَهم من حضرته ﷺ. ثمَّ اصْرِفْ بصرَكَ عن الأغيارِ، إلى شُهودِ الملك القهار، وقل: «**أشهد أن لا إله إلا الله**»، فحينئذٍ لا تشَاهدُ في حضرته تعالى إلا المصْطفَى ﷺ. وقُلْ: «**وأشهدُ أن محمداً رسولُ الله**»، ثم تذكّرْ أنه الواسطةُ لك في بلُوغِ هذه الحضْرةِ، فتطلبُ له الجزاءَ من الكَريم العظيمِ، الذي أنتَ في حضرَتِه، بقولكَ: «**اللهم صل على محمدٍ**»، ثم تنهض قائماً وتأتي بما مرَّ.

* * *

[معنى ختم الصلاة بالسلام]:

وإذا بلغْتَ التشهّدَ الأخيرَ، فأحضِرْ قلبَكَ أنكَ مأذونٌ لكَ في الجلوسِ، فتجلسُ وأنت مُسْتأنسٌ، وتسأله مطالبَكَ ومآربكَ التي رغَّبك فيها، وتتعوّذُ به من مخاوفِكَ التي حذّرك منها، وتعترفُ بالعَجْز والتقْصِير، عن بلوغِ مطلَبٍ أو سبيلٍ إلى مهرَبٍ إلا به، وحينئذٍ تجدُ لذّةً عظيمةً بشريفِ المخَاطبة، ولطيف المعاتبةِ، وتستوحشُ من الخروجِ من هذه النعْمَة العظيمةِ، ولا تخرجُ منها إلا مكرهاً. **اللهُمَّ** اجعلنَا ممن خصَّصْته واصطفيتَه، وقرَّبتَه وأدْنيتَه، حتى تنعَّمَنا في حضَائرِ قربكَ، وتُسْكِرَنا برحيق حبِّكَ، ولا تجعلْ حظَّنا الهذيانَ، ولقلقة اللسانِ، إنك كريمٌ منّانٌ، واستر عوارتِنا بالغفرانِ، وتولَّنا في جميعِ أمورِنا بملاطفَةِ الإحسان، واجعل مآلنا إلى دارِ الكرامةِ والرضْوانِ، يا راحمَ المقلينَ، ومُقيلَ عثْرَةِ العاثرينَ، وقابلَ توبة التّائبين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

الوَصَايا والمكاتَباتُ

للإمام العَارفِ بالله تعالى
الحبيب الحسَن بن صالح البحر الجفري
نفعنا الله به وبعلومه في الدارين

بين يدي الوصايا والمكاتبات

هذه الوصايا والمكاتبات، إنما هي أعلاقٌ وذَخائر، لأهل هذا الزمن الآخر، ونفحة من النفحات الربانية، على ألسنة عظيم السادة العلوية، ورأس الدعاة في الديار الحضرمية، أجراها الله تعالى على لسانه ويده، دعوة منه تعالى لصالحي بريته، ممن خوطبوا بتلك اللسان، وكوتبوا بواسطة تلك البنان.

وقد اشتملَ هذا القسم على وصايا ومكاتبات (رسائل)، فيها من العلم والدعوة والنصح بالحسنى، ما يقر أعين الناظرين، ويجلب السرور على السامعين والقارئين، وقد جرى العمل في نشرها وفق الآتي:

أولاً: الوصَايا التي كتبها إلىٰ جماعة من تلاميذه ومحبيه، أو كتبها مناصحة لبعض ولاة الأمر، ومنها مجموعة من الوصايا العامة إلىٰ الكافة، لم يخص بها أحداً بعينه. وتم تقسيم هذه الوصايا إلىٰ قسمين:

القسم الأول: الوصايا الخاصّة؛ وهي التي وجهها إلىٰ ذواتٍ معينة.

القسم الثاني: الوصايا العامّة؛ وهي التي وجهها إلىٰ عمُوم المسلمين.

ثانياً: المكاتبات، وتم ترتيبها بحسَب أسماء المكاتبين، مع مراعَاة الترتيب الهجائي غالباً، وما لم يذكر فيها اسم المرسَل إليه، فقد جعلناها في آخر الباب.

النسخ المعتمدة في التصحيح:

النسخة الأولى: نسخة عتيقة مؤرخة في يوم السبت ٦ جمادى الأولى سنة

١٣١٤هـ بقلم محمد بن أحمد بن سالم باعبيس، منقولة عن نسخة مكتوبة يوم الأحد ١٥ شعبان سنة ١٢٧٢هـ وعليها تملك بقلم الشيخ الصالح المعمَّر، محمد ابن عمر باخبيرة الشبامي (ت ١٤٠٧هـ) دفين المعلاة، رحمه الله. وهي أوعب النسخ وأشملها للمكاتبات والوصايا، تقع في ٢٧٥ ورقة، منها ١١١ ورقة للوصايا، ثم ١٦٤ ورقة للمكاتبات. كُتِبَ على صفحة الغلاف:

«هذه وصَايا سيدنا القطب

الغوث العلامة حسن بن صالح

بن عيدروس

البحر الجفري

رضي الله

عنه

آمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

النسخة الثانية: وهي نسخة من تريم، تقع في ٤٠٥ صفحات، وهي خاصة بالمكاتبات فقط دون الوصايا، كتبت بقلم السيد المرحوم محمد عيد المولى بن عبد القادر بن أحمد بن طاهر بن حسين بن طاهر، المتوفى سنة ١٣٦٤هـ وهي غير مؤرخة.

النسخة الثالثة: نسخة جاوية، تقع في ١٦٤ صفحة، من اقطع الكبير، وهي حديثة النسخ، غير مؤرخة، وعليها ختم مكتبة السيد هاشم بن محمد بن شبخان السقاف، وختم باسم السيد عمر بن أحمد بن عبد الله بن سالم بن عمر العطاس، وهي خاصة بالوصايا دون المكاتبات.

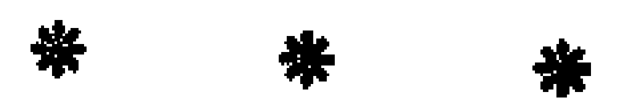
هذه الأصول التي اعتمدت. كما تمت الاستعانة بأصُولٍ أخرى من مكتبة الأحقاف، بتريم، وهي كما يلي وصفها:

النسخة الرابعة: رقمها ١٨٩٣، تقع في ٤٤٨ صفحة، من وقف السيد حسين ابن سهل على طلبة العلم بتريم سنة ١٢٧٥هـ. وهي تتضمن المكاتبات فقط.

النسخة الخامسة: رقمها ٢٣٠٦، ضمن مجموعة الرباط، وتقع في ١١٣ ورقة، كتبت سنة ١٣٤٨هـ بقلم أحمد بن حسن بارجاء، وهي نسخة متقنة، وتتضمن المكاتبات.

النسخة السادسة: ورقمها ٢٩٤٥/ ٤، وتقع في ٦٣ ورقة، تتضمن الوصايا، كتبت سنة ١٢٧٢هـ بقلم الشيخ محمد بن عوض طيب، وتميزت هذه النسخة، عدا عن إتقانها، بذكر اسم جامع الوصايا، وهو الشيخ العلامة حسن بن عوض مخدَّم البَوْري (ت ١٣٢٤هـ) رحمه الله.

وقد تم اعتماد النسختين الثالثة والرابعة، ثم روجع ما أشكل من النصوص على بقية النسخ، فوضح الإشكال، وأكمل النقص، والله الموفق والمعين.



في عاجل دنياه وآجل أخراه بكل خير وحماه من كل شر [illegible]
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته صدر هذا الكتاب
بعد وصول كتابكم وعرفنا أنكم أن همتكم مسا[illegible]
في الخيرات وأحسن لا تقدموا المندوبات على الواجبات ولا
اللوازم على النوافل على المكارم بل يحصل لكم الحسنيين
فيحصل لكم ثوابه ما تيسر وما لم يمكنكم الله به من [illegible]
ويحصل لكم بالنية ما فضل من المندوب والله يتولى هدا
وهداكم وييسر لنا ولكم كل مطلوب ويدفع عنا وعنكم
كل مرهوب ويجمع الشمل إنه لطيف لما يشاء وهو القادر
حصول كل مطلوب ودفع كل مرهوب والسلام
وكان الفراغ من كتابته يوم الأحد في شهر شعبان سنة [illegible]

[illegible] ١٢٧ [illegible]

كان الفراغ من تمامه يوم السبت خلت من شهر جمادى الأول عام [illegible]
بأنا [illegible] العبد المذنب راجي عفو الله [illegible] العلم [illegible]
فيجب على شرحه وعن والديه ومشايخه ونفعلنه في الدنيا [illegible]

وصلى الله على سيدنا ومولانا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه

[القسم الأول: الوصايا الخاصّة لمعيَّنين]

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يسِّرْ وأعِنْ

[(١) وصية منه للشيخ حسن بن عبد الرحمن باراس، الخريبة]

«الحمدُ لله المتجلّي على القلوبِ العامرة بذكره، المتوجّة بتاجِ التوجُّه بكليتها في محاريب أمْرِه، الفارّة بأجنحة الخوفِ والوجل من قوامعِ قواطع زجره، المطَّرَحة على بساط الافتقارِ حبًّا وإجلالاً لقدَره، المنعَّمة في جِنان الإحسان والامتنانِ بحَمْده وشكره، كما كانت تحسن الاستماعَ لكلامه وكلام حبيبه وإتباعِ أثَره، إذ جعل اتّباعه آية حبّه ووسيلة قربه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسائر أتباعه وحزبه.

وبعدُ:

فقد سألني الوصيةَ الشيخُ الفاضلُ، حسنُ ابن الشيخ عبد الرحمن باراس، جعله الله وإيانا من الذين أشادوا بنيانهم على محكَم الأسَاس، وحفِظَ ظاهره وباطنَه من العدوّ الخناسِ، ونقّاه كما نقّى أولياءَه من جميع الأدناس، وأفاضَ على سريرته من ماء الحياةِ أنبوباً يُرعِش به قلْبَه وتسير الحياةُ منه لسائرِ الحواس.

فأوصيه ونفسي بحسنِ التبتّلِ إلى الله على جادّة التقوى، الموصل إلى صَلاح الدنيا والأخرى، وإنما حفظُ زمامِها ومسْكُ ختامِها، هو حفظُ السرّ مع الله، مع ثباتِ القدَم على ما طلبه العلم، ثم إنهاضُ الهمةِ، وإنجاز العزيمَة، على قطع العوائق الشاغلةِ عن نيل السعادة الأبديةِ، وذلك بمُلازمة الذكر بالقلب مع اللسانِ، بقولك: «الله معي، الله شاهدي، الله قريبٌ مني»، فإنك إن لازمتَه قُدِحَ في قلبك نورٌ تذهَبُ معه الظلماتُ، وتأتيكَ منه طوالعُ المسراتِ، وتعرفُ الطريقَ، وتتبيّنُ لك معالم التحقيق.

ثم احرِصْ على تمكين ذلك النورِ، بترك كل محذورٍ، وفعْل كلّ مأمورٍ، مع دوام هذا بالقلب واللسانِ، أو بالقلب. وبالبعدِ عن كل مشوِّشٍ بالانفرادِ عن مجالس القالِ، فإن الذكْر مع الخلوةِ له تأثيرٌ، وإن ابتليت بالمجالسَة فلا تفتُرْ عنه، حتى يَسْري إلى حواسّكَ شعاعُ ذلك النور، ويستولي على قلبك مع الله الحضُور، فحينئذٍ تجدُ حلاوةَ الخدمة، وتفيضُ من قلبك ينابيع الحكمة، فترشَحُ زجاجتك بالعِطْر الذكيِّ، وتفيدُ إخوانك بالعلْم الغَضّ الطري، فاحرِصْ على ذلك إن أردْتَ أن تُدْعَى عظيماً في ملكوت السموات والأرضِ، وتزاحِمَ الفريقَ الأعلى من الأنبياءِ والصّديقينَ، والملائكة المطهَّرين، ففي حياة قلبك دوامُ راحتكَ.

فاعزِمْ يا أخي على هذا، إن أردتَ، ولا يرضَى بالدُّونِ إلا كلّ مغبونٍ، والهمةُ قالَبُ التوفيق، فاركب جوادَها، تبلّغْكَ أقصى المطالبِ، واستعنْ بمولاكَ عندَ كل عند كل إحجامٍ وإقدامٍ، تنجَحْ مساعيكَ، وتحصُلْ أمانيكَ.

ولازم الصدْقَ والإخلاصَ فهما البدُّ اللازم لأهل النجاحِ والفلاحِ،

ومنجر الأرباح. فاجتهد في إثباتِها، وتنزيهما من الشوائب والكدوراتِ، فإنها أساسُ هذه الطريقِ، ومعارج معالم التحقيقِ، فاحذر أن تهملَهُما فتضيعَ ما حصّلتَ، ويفوتَك ما أملتَ، فإن تصحيحَ البداياتِ علامةُ النجْحِ في النهاياتِ.

فنسألُ الله أن يزكيَ بالصدق والإخلاص أعمالَنا، وأن يديمنَا على ذلك إلى انقضاء آجالنا، حتى نلقاه وهو راضٍ عنّا وعن أحبابنا، وعن سائر إخواننا ومن تعلق بنا، إنه رؤوفٌ رحيمٌ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

* * *

(٢) وصية أخرى له نفع الله به وعافاه آمين
[للسيد مصطفى بن عبد الرحمن بن سميط، شبام]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعلَ ذكرَه مصباحَ السرائرِ القلبية، ومعراجَ الأرواح إلى الحضَراتِ العندية، وهو الريحُ المثيرة لسحائبِ النفحاتِ الرحمانية، الهاطلة منها بوارق الأنوار القدسيةِ، والتجليات العرفانية. والصلاةُ والسلام على قبلةِ الأرواح القدسية، وطُورِ التجليات الإحسانيةِ، وعلى آله وصحبِه ما توجهت النفوسُ الزكيةُ إلى خَلاق البرية.

وبعدُ؛

فقد سَألني الوصية الأخُ الألمعيّ الصَفيُّ، الموافقُ إن شاء الله بالتبتلِ اسمُه مسمّاه، القريبُ والمتقربُ، والحبيبُ المتحبّب إلى ربّه وخاصة أصفياه، مصطفى ابن سيّدي وشيخي، وجيهِ الدين، عبد الرحمن، ابن الشيخِ قدْوة الأنام، محمدِ ابن زين بن سميطٍ، أخذ الله بمَجامع قلبه إليه، ووفقه بصدق العبودية بين يديه.

فأوصي نفسي وإياكَ بحسن التبتّل، وكمال التوجّه إلى من بيده الخلقُ والأمر، مستديماً لذكره، مستلزماً لأمره، فارًّا من نهيه وزَجْره. قالَ الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، إلى آخره.

فالتزامُ الذكرِ يوقِدُ في القلب مصباحَ الفكرِ، فتذهبُ ظلماته، وتشرق عرصَاته، ويتأهبُ لتجلّي معَاني الأسماء والصفات، فتتبتّل الروحُ إلى معالمها العلوية، فتنقطعُ عنها وثائقُ رعُوناتها المتعلقة بالعالم السفلي، فتحثُّ السيرَ إلى ذلك الجنابِ، وترمي لأجله خلْفَ الظهر جميعَ الأسبابِ، حينئذٍ تجدُ لذّة الصّفَاء، بشمّ شَذا ريحان الشراب، من حَضيرة الخصُوصية والاقترابِ، ويرتفعُ الحجابُ، ويظهر هناك ما تحير فيه عقولُ أولي الألباب، وهذه الجذبةُ للمُرَادين، وهم بعْدُ يُنقَلون بعدَ التعلّي للتدَلّي إلى سَماء الحقوقِ، وإلى أرضِ الخصُوص.

فأوقِدْ يا أخي في قلبكَ مصباحَ الذكرِ، بقول: «لا إله إلا الله»، مستحضراً النفْيَ أولاً: «لا معبودَ»، وثانياً: «لا مقصود»، وثالثاً: «أن لا موجُودَ إلا الله». فإنّكَ إن لازمْتَ ذلكَ، إن شاء الله، مع التوجه التامِّ، ظهَرتْ لك من عالمِ الغيبِ، ومن نفسِكَ، غرائِبُ وعجائبُ، لم تكن تعرفْها. فما رأيتَ من نفسِك من التعلق بالعالم النفسَانيِّ، فبادرْ إلى قطعِه، فإنه يهونُ عليكَ بدخولِ سُلطان الذكرِ في القلبِ، وتضعُفُ، بل تذهبُ وتنهزمُ جنودُ اللعينِ.

واستعِنْ على ذلك بتخفيفِ المعِدَة من الطعَامِ، والإنلالِ من الكلام، وإكثارِ الخلوة والطهَارة والسهَر، مع الجدِّ في الذكر والعبادةِ، وما ظهر لك من عالم الغيب لا تقفْ معَه، ولا تلتفت إليه، وقلْ بلسانِ حالك: «مَطْلبي وراءكَ».

واستحْضِر قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، فمن جاهد في الله أحبّه الله، واختاره وقرّبه وأدناهُ، وأعطاه من فضله فوق ما رجَاه، إن الله لمع المحسنينَ. والإحسانُ كما في الحديثِ: «أن تعبد الله كأنك تراه»، فمن يراهُ لا يرَى معه غيرَه من نفْسٍ وخلْقٍ وغيرهم، ولا

تطلّبَ بالعمل إلا القيامُ بالعبودية والوفاءُ بحقّ الربوبية، وما رغّب فيه من الخلوةِ بجواره، ومع ذلك لا يكون القصْدُ إلا الجارُ قبل الدارِ.

هذا يا أخي، ولا تنساني من الدّعاءِ، خصوصاً في متجَر الأرباحِ، وموسم الفلاح، هذا الشهر العظيم، والله لا يخيبُ آمالنا من نفحاتِ جوده، وفيضانِ أيادي الكرم والمواهبِ، إنه البر الرحيم».

* * *

(٣) وصيةٌ أخرى، له نفعَ الله به، وعافاه، آمينَ
[للسيد شيخ بن طه بن شيخ السقاف، سيون]

بسم الله الرحمن الرحيم

وربُّكَ الفتاحُ العليمُ

«الحمدُ لله الذي جعل السعادةَ الدنيوية والأخروية الفقْهَ في الدين، وبنَى عليه أساسَ طريق الأولينَ والآخرينَ، وبه خاطب الأنبياء والمرسلينَ. وصلى الله على سيدنا محمدٍ سيدِ ولد آدم أجمعينَ، وعلى آله وأصحابه والتابعينَ لهم، وسلمَ إلى يوم الدين.

وبعدُ؛

فقد سألَني الوصيةَ الأخُ النجيبُ، شيخ بن الوالد طه بن شيخ السقاف، سلك الله به سبيلَ السعادة والفلاحِ والرشاد، وحباهُ بما حبا بِهِ أهل العناية والودادِ.

فاعلَمْ، حفظكَ الله، أن أولَ ما يتوجه عليكَ الجدُّ في طلبِ العلمِ النافع، فهو الأساسُ لكل خيرٍ، والقيامُ بحقوق الوالدينِ، إذ هما، كَما في الحديثِ: «هما جنتُكَ ونارك». فاغتنم برَّهم، وسارع إلى أمرهم، تفوز بنيل الدرجاتِ، وتسعد في الحياة وبعد المماتِ. قال تعالى في الحديث: «من أصبحَ مرضياً لوالديه

مسخطاً لي، فأنا عنه راضٍ، ومن أصبح مسخطاً لوالديهِ مرضياً لي، فأنا عنه ساخطٌ». فناهيكَ بهذا الحديثِ، إذ جعلَ رضاهُ تعالى في رضَاهما، وإن كان مسخطاً له، وذلك لكمالِ شفقته وشمولِ رحمته، ولاحتياج الأبوين إلى إيصالِ البرِّ إليهما، وغناه تعالى عن ذلكَ، وهذا المسخِطُ لربِّه!، فكيفَ من قام بحقُوقِ الله وحقوقِ والديهِ!، فذلك الذي ربحَ السعادة الكبرَى، في الدنيا والأخرَى.

فإذا علمتَ هذا؛ فنافسْ في فعلِ الخيراتِ، ونيل الدرجاتِ، بامتثال أوامر اللـه، واجتناب نواهيهِ، مخلصاً بذلك لوجْه الله الكريمِ. ولا تطلبْ ما عندَه برضَا غيره يكِلْكَ إليه. فيقول: «اذهَب إلى مَن عملتَ لأجلهِ، فيجازيكَ عليه فتحصل الحسرَةُ عند ضياعِ ما عملتَ، وخسارةِ ما أمّلتَ.

فزَكِّ أعمالك بالإخلاصِ، وأملأها بالصّدقِ تنجُ وتربحْ، وتنالُ ما نالَه أهل الله وأولياؤه، واسأل من ربّكَ الإعانة على ذلكَ، فإنه لا يخيبُ من أمّله، ولا يردّ من سأله، وفقنا الله وإياك لمحابّه، وأسعدَنا برضوانه عنّا، ولا خيّبَ آمالنَا فيه، إنه أرحم الراحمينَ، والحمدُ لله رب العالمين.

* * *

(٤) وصية أخرى له نفع الله به وعافاه آمين
[للسيد عمر بن زين بن عبد الله الحبشي، ثبي]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله حمدَ من لاحظَ النعماءَ بعينِ فؤادِه، وبذل في مراضي المنعِم جدّه واجتهاده، فأصبحَ وأمسى جذِلاً محبوراً بتوفيقِ الله تعالى له والسعادة، فلا جرم أنْ خلع عليه خلعَ قرْبِه ووِدادِه، وأسعفَه بكل مطلبه ومرادِه، وانخلع عن مراده وهواه، وصار لذّات سيدِه إحرامَه وانجرادُه، فكشفَ عنه برقُعُ الجمالِ، وأذاقه حميا الوصالِ، فاشتغلَ في سرّه من وهَج لاعج وقّاده، ثم غمسَه في بحر الوُجود، فصارَ مفقوداً موجوداً به، منعَّما في فقده وإيجادِه. والصلاةُ والسلامُ على إنسانِ عينِ ودادِه، وعلى آله وصَحبه وأجناده.

وبعدُ؛

فقد طلبَ مني الوصيةَ الأخُ ذو الفطرةِ الزكيةِ، والهمة العلوية، عمَرُ بن الحبيب زينِ بن عبد الله الحبشيُّ، أخذ الله بمجَامع قلبه إليه، وأوقفَه على بساطِ العبودية بكمال الأدب بين يديه. **فأوصِي** نفسي وإياكَ يا أخي بلزُومِ تقوى الله، وعقدِ السرِّ على إيثار مُراده على كل مرادٍ، وبذل السعة والطاقة في الأعمالِ المقرِّبةِ إلى مولاكَ، فإنها الكنوزُ التي لا تساوَى صَغيرُها الدنيا بجميعِ ما فيها، فلا تدعْ وقتاً يمضي عليك إلا بقربةٍ تدنيكَ منه، وتدَّخرُ لك عنده.

وإذا علمتَ أن القُرَب هي الجواهرُ التي لا قيمةَ لها، فاحفظها من التضييع، وهو أن تلاحظَ بأعمالك الأغيارَ والأعراضَ الدنيويةَ، وذلك على ضربين:

أحدُهما: ضياعٌ لا يتحصَّلُ معه شيءٌ مما قُصدَ من الأغيار والأعراضِ، إلا أن يكون سببَ الخذلانِ والعياذُ بالله، ومعه التعبُ والندامةُ في الآخرة. ذلكَ؛ بأنه يرائي بعمَله، فيقصد من الأغيارِ الجاهَ والمحمَدةَ، وهذا أشدُّ القسمين ضياعاً وخسراناً. والثاني: وهو أن يخلِصَ العملَ لله، لكنّه يريدُ أن يُلبِسَه الله حليةَ الإخلاصِ بالعمل ليثْنَى عليه به، ويرخَّصَ له في متاعه، ويوقَّر بين أقرانه، وهذا مضيَّعٌ أيضاً، وإذا أخلصَ لكونه يحبُّ أن يُعرَف بالعملِ والإخلاصِ، ولم يكتفِ بعلمِ الله الذي عملَ له، واطِّلاعِه على عمله وإخلاصِه، فلم يتجرّدْ قصدُه لله، ولما عندَه، فيفوّتُ الثوابَ بملاحظة الأغراضِ الدنيويةِ، لقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾، ولكنْ إذا رُحِمَ العبدُ لقابليةِ فيه، جُوزيَ بعمله، لقوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾.

وإما إذا سلِمَت الأعمالُ من هذه الإرادَةِ، وقُصِد بها الوفاءُ بحقّ الربوبيةِ، والدارِ التي أعدَّها لأحبابه، وتجلّى لهم فيها، فإن العاملَ يحصّل الحسنيَينِ، وتنجلي بصيرتُه فينظر حقيقَةَ الدارين، فيظفَر بكلْتا الكرامتينِ، وتُطْوَى عنه مسافةُ البَينِ، فيدخلُ جنّةَ المعرفةِ، فيجدُ فيها قرّةَ العينِ، فلا يرى الأغيارَ من حيثُ أنها أغيارٌ، بل يراها أنوار، باطنها أسْرَار.

وهذه الجنّةُ المعجّلةُ لأهل المعرفةِ، يتنعَّمون فيها بمشَاهدة جمالِ محبوبهم، في جميع ما يسْمَعونَ أو يبصرون، أو يشمُّونَ أو يذوقونَ، فمن دخل هذه الجنة

يشتقُ إلى الـجنةِ، لاشتغاله بسُكْرِ رَاحِها، إلى أن يصحوَ بكشفِ التعريف الرحمانيّ، حينئذٍ يعرفُ أن ما بين تلك الجنتينِ كما بين الدارينِ، أعني: دارَ الدنيا ودارَ الآخرة. حينئذٍ يَحُثُّ نياقَ عزمه إلى تلك الدار، ويوجّهُ بجميع ما له في هذه الدار إلى تلك الدارِ، وينيبُ إليه إنابةً ثانيةً، وهي إنابةُ الروح والسرِّ، وهي إنابة خاصّةِ الخاصّة، وهي إنابة القلبِ والنفسِ، وتحت هذا علومٌ وأسرارٌ، لا يصلح كشفُها.

ومن دخلَ هذه الجنةَ، أعني جنةَ المعرفة، يرَى فيها ما لا يحيطُ بعلمه بشرٌ، ولكن لا يحصلُ دخولُ هذه الجنةِ إلا من بعد صَونِ القلبِ عن ملاحظَةِ الأغيارِ، وتلك غِيرٌ على غَير أهل اليقينِ وحقّه، فأما من دُونَهم ممن يريدُ هذا الشأنَ، فيجِبُ إخفاءُ القُرَبِ وكتمانُها، أو تغييرُها بشيء مما يصونُ إخلاصَها إلى الله من الأفعالِ المباحَةِ، يرَى صدْقَه مع ربه وإخلاصَه له، دُونَ الأفعالِ المحرَّمةِ، فإنّ التطهيرَ لا ينجَعُ في نجِس العينِ.

فإذا علمتَ هذا؛ فأعرِضْ عن مرغوب هذه الدار بجميعِ وجُوهها، فإنها عما قليلٍ تخرَّب ديارُها، وتنمحي آثارها، ولا تجعل كنوزَ أنفاسِك الثمينةِ فيها فتضيعَ بضياعها، واجعلها في حرْزهَا المكينِ عند من تبقَى عندَه، بل يضاعفها لكَ إلى ما لا تبلغه العقولُ، فتحصل لك بها المسرّةُ والزّلْفى والتكريمُ، والنعيم المقيمُ، في مقعد الصدقِ بجور الغفور الرحيمِ.

فعلى ماذا يتحسَّر من فازَ برضَا مولاه، إذ كلّ ما في الوجُود إحسانُ سيّدِه وعطاه، فلله دَرُّ قلوبٍ تحاشت كلَّ ما سواه، وتنعمَتْ ببلائه كما تنعمت بآلائه، لعلمِها بحسْنِ اختياره، ولما عوَّدَهم من جميل لطفه وأبراره، بل لمشَاهدة صفتِه

في أقداره وأقضيته. تنعمتْ أرواحُهم العلية، في جنان حضائره القدسية، فلا جرم إن دُهِشَت عقولهم بارتشافِ ذلك الراحِ، وهان عليهم في طلبها بذل الأرواح، فضلاً عن المرادات والأشباحِ، فياله من راحٍ ما أشهاهُ، ونعيم ما ألذّه وأهياه.

قال سيدُنا الحبيبُ عبد الله بن علوي الحداد:

فوا شَـوقَ الفُـؤادِ لخـير عَـيشٍ   معَ الأحبابِ في الغُـرَفِ العليّـة

إلى آخر ما قالَ، رضِيَ الله عنه، ونفع به، آمين.

وأما مَن كان مثلنا، استأسَره هواهُ، ولعبَتْ به حظوظُ دنياه، فحُقَّ أن يكثر على نفسه بكاه، لأنّا قنعنا بالصُّور عن المعاني، وظننّا أن المنايَا بالأماني، وآثرنا طلبَ الخبيثِ الفَاني، على طلب النعيم الهاني. فيا مقيلَ العثراتِ أقل عثراتنا، وارحم دسائس خلاتنا، واعف عن خطيئاتنا، وتحمل عنا تبعاتِنا، فقد أناختْ ببابك مطايا هممنا، مُوقَرة بظلمنا وعجزنا وجراءتنا. كما عودتنا به من إحسانك الجزيل، وبسطت علينا من سترك الجميل، فأذقنا برْد عفوكَ، وحلاوة مغفرتكَ ولطفك، وأدخلنا في جميل أهل مودتك وعطفك.

فعليكَ، حفظك الله، وجمعكَ عليه، وطهَّر سرّي وسرك من التعلقِ بمن سواه، بدوام التوجه بالقلبِ والقالَبِ إليه، والتزام الذكرِ، سواءً كنتَ حاضر قلبٍ أو فاقده، لكن إذا كنتَ غائب القلبِ، تخشَّع وتخضَّع وترامَى إليه ترامِيَ الطفل إلى حِجْر أمه، ومرِّغ خدَّك في تربة الذلّ والانكسار والاعتذار، لتضيقَ عليك دوائرُ السِّوَى، وتماطَ عن قلبك ذخائرُ الهوَى.

فلا بد إذا قمتَ بهذه الوظيفة أن تطلُعَ في قلبك شمسُ العرفانِ، وتشهده

شهودَ العيان، وتشرب كؤوس المحبة والوجدانِ، وتنجلي عن سريرتك دياجي ظُلَم الأكوان، فترَى إشراق نورهِ بلا كونٍ ولا مكانٍ، فهذه تحفةُ كلّ مشتاقٍ ظمآن، لا تردَعُه ولا تفزِعُه غياهبُ ظُلَم الأزمان، وقلة النصير والظهير من الإخوانِ، ومن عزَّ عليه الانقطاعُ عن المحبوبِ، لم يبالِ بما يقدم عليه من عظائم الخطوبِ، وما يترك به من هذه الدار كل مرغوبٍ، ولا والله يفوته ولا يهزمه شيء إذا توجَّه بصدقه وفقره إلى علام الغيوبِ، بل يدنوا منه ويتذَلَّلُ له كلُّ مطلوبٍ، ويأتيه من لطفه وأبراره ما لم يكن محسوب.

حينئذٍ، ينيبُ إنابة ثانيةً إلى دار الكرامة، ومتسع أمَدِ الوصَال، والأمن من القطيعة والانفصَام بلا تغيير ولا زوالٍ، فلا جرَم أن يتحسَّر على ما طلبَه واستعجله في هذه الدار، لكونه يتحققُ تلاشيَها ومصيرَها إلى لفواتٍ والبوار، فيعزُّ عليه تفويتُ شيء من تلكَ البضائع القدسية، أو ......[1] في المقاعد الأنسية، فإن وقعَ منه طلبُ شيءٍ من مباحاتِ هذه الدارِ تبرَّم وتضجّر، كما يتضجر غيرُه من كبائر الأوزارِ، فهذا يصير بجسَده في الدنيا وقلبه في دار القرار، ينتظر القدومَ على الحليم الغفار، وطُوبى له ما أعظَم شأنَه وما أرفعَ مكانَه يوم يقوم الأشهاد، بحصوله على غاية المراد، بتحقيق الصَّفا والوداد، سلكَ الله بي وبك سبيلَ من هذه سبيلُه، آمينَ اللهم آمين».

* * *

---

[1] بياض بقدر كلمة في الأصول.

(٥) وصية أخرَى له

[ومعها إجازةٌ للسيد عبد الله بن زين الحبشي، ثبي]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي تعرَّف إلى عباده بمظَاهر أسمائِه وصفاتِه، ودعاهم إلى حضرة قدْسه وجَناب أنسِه، بما تجلى لهم في محكَم آياتِه، فهُم بسماعِ كلامِه يتنعَّمُون، وإلى عظيم كرَمه يتملقُون، واقفونَ بين يدَيه بأجسَاد فرْشية، وقلوبٍ عرشيـة، يلوحُ على صفحَـات وجوههم ما أكنَّتـه صدورُهم، من منازلاتِ العرْفانِ، وبلابل الوجدانِ، وتسْكِر رؤيتهم الصَّاحي، ويبرأ بمرآهم وأقوالهم العليلُ، وينشط بشَمِّ شذا نسيمِهم الكليلُ، إن عرفوا اخضَرّت بعرفانهم الغبراءُ، وإن جهلوا اغبرَّت لجلهم الخضراءُ، فهؤلاء أهل الله وخاصّته، ومعدن أسراره.

قال الحبيبُ عبد الله الحداد:

أولئـك الأقـوامُ هـم مُـرادي ... ومطلبِـي مـن جملـةِ العبَـادِ
وودّهُـم قـد حَـلَّ في فُـؤادي ... أهـلُ المعـارِفْ والـصَّفا والآدابْ

* * *

المخلـصُونَ الـصّادقونَ الأبـرارْ ... الطيبـون الطـاهرونَ الأخيَـارْ
العـارفونَ الـذائقون الأحـرارْ ... الكـلّ مـنهُم مخبـتٌ وأوابْ

ـب الله بـذرةً مـن محبّـة الله أفنى بها عن كل ما سوى الله
ولا أرى مـن بعـدها سـوى الله الواحـد المعبـود ربّ الأربـابْ

* * *

فلا أرجي اليـوم كـشف كُربَـة إلا أن صَـفا لي مـشربُ المحبّـةْ
ونلـتُ مـن ربّي رضـاً وقُرْبَـةْ يكـون فيهـا قطْعُ كـلّ الأسـبابْ

* * *

عـلى بـسَاطِ العلْـم والعبَـادةْ والغيـبُ عنـدي صـار كالـشهادةْ
هـذا لعَمْـري منتهـى الـسعادةْ سبحانَ ربّي مـن رجَـاهُ مـا خـابْ

* * *

يـا طالـبَ التحقيـقِ قُـم وبـادِرْ وانهضْ على سَـاق الهمَـمْ وخـاطرْ
واصبر عـلى قمْـع الهـوَى وصـابرْ واصدُقْ ولا تـبرَحْ مـلازمَ البـابْ

* * *

واعلـمْ بـأنّ الخـير كُلّـه اجمـعْ ضـمْنَ إتباعِـك للنبـي المـشفّعْ
صـلّى عليــه الله مـــا تشَعْـشعْ فجْرٌ وما سَالتْ سـيول الأشْـعابْ

والصلاةُ والسلام على قبلةِ الأرواحِ القدسيةِ، ومهبط الأنوار الذاتية، ترجمانِ لسان القِدَم، والبرزخِ الفاصِل بين الوجُود والعدَم، صلى الله عليه وعلى آله صلاةً تتعطَّر بها أرجاءُ الوجُودِ، وتعذُبُ بها مناهل الشهود.

أما بعْدُ،

فقد ألحّ عليّ صفوةُ الإخوانِ، وأعجوبةُ الزمانِ، عبدُ الله بن الحبيب زين ابن عبد الله الحبشي، أن أجيزَه وأوصيَه، وكنتُ متوقفاً لإفلاسي عن البضائعِ

العرفانيةِ، والمواجيد الذوقيةِ، فلما دام تعطشّه لذلكَ، أجبتُه وإن لم أكن من أرباب هذه الشأنِ، ولا من فرسان ذلك الميدانِ، لكَوني كثير الإساءة والعصيانِ، قليل التقوى والإحسانِ، فأقولُ مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه:

أوصيكَ يا أخي ونفسي بتقوَى الله، التي هي قنطرَةُ معراج السّعادة الأبدية، ومعارجُ الحضرات العندية، وإدمانِ الاضطرارِ والانكسارِ، بين يدي عالِم الأسرار، والعكوف على بابه، والتعلق بجنابه، حتى تجعله بذّك اللازمَ الذي لا تحيدُ عنه، ولا تشتغل بغيره، ولا تركنُ إلى غيره، فلعل تبصرُه فإنه أمامَكَ أينما توجهتَ، فاجعله قبلة قلبِكَ، وراحةَ روحِك، فسرِّحْ سريرتَك في مظاهر أسمائه وصفاته، وافتحْ عين بصيرتكَ لتدركَ تسْطير القلب الأعلى في صفحاتِ الأكوان، وأصْغِ بأذُن قلبكَ لذلك الخطابِ الأزلي، وما تضمّن من العظَة والجلالِ، واستبدَّ به من الفَرْدانية والكمال.

فعند ذلك تخمُدُ حواسُّ النفسِ من الحركة والاضطرابِ، بما يترشّح عليها من القلبِ المتعلق بذلك الجناب، إذ هو الشاهدُ الوَاعي لذلك الخطابِ، والحاضر في بحبُوحة جَنة الاقترابِ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، فهذا القلبُ الذي أشار إليه في قوله تعالى في الحديث القدسي: «**ما وَسِعني أرضي ولا سَمائي ولكنْ وَسِعَني قلبُ عبدي المؤمِن**»، فالقلبُ هذا هو الذي ارتفعَتْ عن سمائه الحجبُ والأستار، حتى لم يسمع ولم يبصر إلا ذلك الجمالَ، وانتفَتْ عنه ظلماتُ الخيالِ، فلم ير في الكون غير مكوِّنه، انطوَى في شهودِه بساطُ السِّوَى، وانقطعتْ عنه موادّ الهوَى، فسمعَ بكُلّه، ووعَى بكُلّه، وعمل له بكُلّه، وصار سمعُه عينَ

بصره، وبصرُه عينَ قلبه، وقلبُه طُورَ التجليات، بل عرش الكمالات، ومن هنا تدقّ العبارةُ، وتلطفُ الإشارةُ، فهذا القلبُ لا يحتاج إلى إلقاء السمع، لأنه متلقٍّ بكل أوصافه، متقابلةٌ في تجلي شهود أطرافه؛ هذا قلبُ الواصل.

وأما قلبُ السالكِ، والمستيقظِ، أو المنيب، فليلق سمعَه حذا قلبه، وليتلقّ كلام الحبيبِ بأذن واعيةٍ، وقلب مشاهدٍ للعظمة، متصفٍ بأوصاف العبودية، قائم بعزيمته في أقصى أوطانِ الأمرِ، متقاصياً عن أوطانِ الوعيدِ والزجر.

فمن هنا تمتلئ زوايا القلبِ بذلك الخطابِ، ويسقى كأسَ المحبة والاقترابِ، وتشربُ النفسُ قسطاً من ذلك الشرابِ، فتطمئنّ بعد الاضطرابِ، وتصير سامعةً مطيعة لما يرِدُ عليها من ذلك الجناب. فإذا دام لها ذلك الواردُ من هذا الشرابِ، بسَقتْ فيها أغصانُ الرضا، فأطلعتْ أثمار المحبةِ، فإذا تكاملت هبّتْ عليها نسيماتُ نفحاتِ المحبوبِ، فاكتنفته أيدي العنايةِ الأبديّة، وتولت رعايتها وسياستها، فصارت بالحق للحقّ في جميع شؤونها. فلا جرم أن تخلعَ عليها خِلعُ الخلافة، وتكون واسطةَ الخلقِ إلىٰ الحقّ، فتلك السيادةُ التي تقصرُ عن شأوها كل سيادة، وتلك السّعادة التي لا يعقبها تغييرٌ ولا تكدير.

وإياكَ، يا أخي، من سكـون القلبِ إلى شيءٍ من لذائـذِ هـذه الـدار، والافتتان بشيء من زينتها وزهرَتها ورعونتها، ومهما وجدتَ شيئاً منها فقدّمه لدار إقامتك ورجعاكَ، ولا تفرَحْ بموجُودها، ولا تأسف على مفقودها، واجعل الآخرةَ نُصْبَ عينيكَ، فإنها أقربُ إليك من دنياكَ، فإنك من يوم ولدَتْك أمُّكَ وأنت ترتحلُ عنها على أقدام أيامك ولياليكَ، وساعاتك وأنفاسِك. وقرِّبِ الآخرةَ، إذ أنت متوجّهٌ إليها بالسيرِ، ومدبرٌ عن الدنيا، كلّ يومٍ تقطعُه من

مسافة عمرك تدبِرُ به عن دنياكَ، وتقبل به، وما أدبرتَ به من أيامَكَ لا تعودُ إليه.

ففكّر يا أخي في هذا السّفرِ، وتأهبْ لقضاء الوطَر، قبل هجوم القدر، فإن هجُوم الأجلِ غير مؤقتٍ حتى يترجَّى لوقته، واجعلْ ذخيرتكَ عند من لا تضيع عنده الذخائر، بل تضاعف عاجلا وآجلاً إذا صلحت النيةُ في طلب رضَا المولى.

أسعدَنا الله بالإقبالِ عليه بقصدنا ونيتنا في طلب مرضاته، وغمَرنا بهبُوب نفحاته، حتى يلحقنا بالمنعَم عليهم من النبيين والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ، آمين يا ربَّ العالمين».

* * *

(٦) وصية أخرى له، نفع الله به، ورضي عنه، آمين
[إجازةٌ للسيد عبد الله بن زين الحبشي، ثبي]

بسم الله الرحمن الرحيم

«أقولُ، وأنا الفقير إلى عفو اللطيف الخبير، المتعثّر في أذيال الذنب والتقصير، حسن بن صالح بن عيدروس البحر الجفري: قد أجزتُ أخي ووليّي، الحبيبَ الصفوةَ، عبد الله بن سيدنا زين بن سيدنا عبد الله الحبشي علوي، أعلى الله مقامَه وأبرز سرَّه بنور الرضا عن الله في جميع أقضيته وأحكام، وسقاه كأسَ المحبة ليرتَع في جنانِ مظاهر الصِّفاتِ، فيلقَى نفسه مستلذاً بتفويضه واستلامِه. وهذه جنةٌ معجّلةٌ، يرتع فيها طائفةٌ من المحبوبين المقربينَ. قال الشيخُ عُمر بن عبد الله بامخرمة: «جنّةُ الدنيا لمن حبّ». وقال بعضُهم: «أصبحتُ وسروري في مواضع القدَر»، وذاك لارتفاعِ الحجابِ عن سماء قلوبهم، لم يشهدوا إلا جمال محبوبهم.

قال إمامهم الأعظمُ أبو بكرٍ الصديق: «ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله قبله».

فعليكَ، حفظك الله، بالرضا والتسليم، للحليم القديم، والإرادةِ السابقة، وتأمّل قوله عزّ من قائلٍ، لنبيه الذي كلّفه بدعْوَة الأحمر والأسود: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

وقال ابن عطاء: ما ترك من الجهل شيء من أراد أن يوقع في الوقت ما ليس فيه فكن مع ربك فيما يقضيه وسلم للحكيم في عجيب صنعه تبدو لك خواصه فيتسلى قلبك بالنظر إلى مولاك وتعلق به واطرح بين يديه إطراح العبد الآبق... بسيده فادع مولاك وتملق إليه وأحسن ظنك به فإنه هو البر الرحيم.

هذا؛ وقد أجزتُكَ بما أجازني به مشايخي الأعلامُ، كسيدي الشيخ بحر الحقائقِ، ومجمع الطرائق، شجاع الدين عمر بن سيدي السقّاف بن محمد الصافي، وسيدي الشيخ شيخ بن محمد الجفري، وسيدي الشيخ أحمد البحر اليمني، وسيدي عمر بن عبد الرحمن البار، وسيدي الشيخ عمر بن أحمد الحداد، وسيدي الشيخ عبد الرحمن بن سميطٍ. في جميع حزُوبكَ ومقروءاتكَ. ولا تنسَاني من دعواتِكَ الصالحة، فإني لك داعٍ، والله يتولى هدانا، وبعين رعايته يرعانا، وأولادنا وأهلينا وقراباتنا، وأحبابنا وأصحابنا، وسائر من يلوذ بنا، وسائر المسلمينَ، آمين.

❋ ❋ ❋

(٧) وصية أخرى له نفع الله به ورضي عنه آمين [للشيخ أحمد بن عثمان باناجه، دوعن]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله، حمدَ عبدٍ أذعنَ له بربوبيته واعترفَ، وعلِم أنه بمطلقِ الجمال وبَاهر الجلال استبدَّ واتصف، حمدا تكمُل به النعماء، وتدفع به اللأواء، وتهدَى به جزيلُ المواهبِ وجميلُ التحَف. والصلاةُ والسلام على رسوله المصَدّر، يوم يجد كل عاملٍ ما أحسن من عمله واقترَف، وعلى آله وصحبه السابقين بقربه وإتباع هديه إلى معالي الشرف.

وبعد؛

فقد طلب مني الوصيةَ، الشيخ البقيةُ، ذو الفطرة الطاهرة الزكية، أحمد ابن عثمان باناجه، أولجَ الله في خزائن سرِّه من نسيمِ قربه أفواجَه، وجعل إلى رياضِ أنْسِه وحضيرة قدسِه تشوُّفَه ومعراجَه، وصبَّ على قلبه من عين السلسبيلِ أنبوباً يذهبُ منه جميع كدوراته وأُجَاجَه، وإيانا آمين.

فاعلَمْ، رحمك الله، أن أسعد العزائمِ، وأربحَ الغنائمِ، في التزام تقوى الله التي أوصَى بها الأولين والآخرين، فتنافس فيها أولو العزم من الأنبياء والصديقين، وسائر الأولياءِ المكرَّمين، لما سمعوا خطابَه لهم جلَّ وعلا، حيثُ

قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فنال كل منهم من الكرامةِ والزلْفَى عنده على قدر ما قسَم له من الخشية، وقسمه من الخشية على قدر ما قسمَ له من العلم، وقسمه من العلم على قدر ما قسم له من اليقين، وقسَمه من اليقينِ على قدر ما قسَم له من مقاماته التسعة، وحظُّه منها على قدر تعرّضِه للنفحاتِ المشَار إليها بقولِه عليه الصلاة والسلام: «**إن لربكم في أيام دهركم**»، إلى آخرِه. ونصيبه في التعرض على قدْر يقَظة القلبِ وحضُوره مع الله فيها، وحضورُه على قدْر صفائه، وصفاؤُه على قدر النورِ الذي داخلَه، والنورُ هذا موهبةٌ من الله لمن يشاءُ من عبادهِ، وله قابليةٌ في قلبِ كل عبدٍ، وفي قلبِ كل مؤمنٍ منه نصيبٌ مقسومٌ، يأخذ حظَّه من النفحاتِ المتعرَّض لها، وبكثرة التعرّضات يزيدُ زيادةً تامَّةً في الأوفرِ من ذلك النورِ، ويزيد زيادةً دونَ ذلك من حظه أقلَّ من ذلك النور، ولكن يزيد القليلُ بكثرة التعرّضاتِ وداومها، ويقل الأوفرُ عند نقصِها، بل يذهب عند فقْدها وتعطيلها، والعياذ بالله.

ووظيفـةُ التعرُّض في فعلِ الـمأموراتِ، وهي على قسميـن: واجبٌ، ومندوب.

فالواجبُ: هو مثلُ الفرائض الخمسِ، والزكاة، وصوم رمضانَ، وحج البيتِ، وما عدا هذه مما أمرَ الله بفعله، وحظَّ على تركه، كبرِّ الوالدينِ، وصلة الرَّحِم، وغير ذلك. **والمندوبُ** لا ينحصِر، فمنه: نافلةُ الصلاةِ، ونافلة الصدقةِ، ونافلةُ الصومِ، ونافلة الحج، وغير ذلك.

ولبُّ هذه الوظائفِ وروحُها: الذِّكْر القلبيُّ، فإن القلبَ إذا ذكرَ الله واجَه الحضْرة الإلهيةَ، فإذا واجهَها حنَّ إلى أوطانِ القرْبِ حنين الطير إلى وكْرِه، فإذا

دامَ هذا الذكر في القلب، هبّتْ عليه نسيمُ القرْب، فعطَّرتْ ساحاته، وأذهبت دجُنّاته، وأسقته رحيقَ الحبِّ، فأخذت منه فضَلاتِه. حينئذٍ تهيأ لقبولِ الأسرارِ، وتجلياتِ الأنوار، فتحصلُ المحاضَرة والمجاورة.

ثم يكشَفُ لهذا القلب خزائنُ الملكوتِ، وتُفتَح له أقفالُ الجبروتِ، فيخْطُر في رياضِ الرَّحَموتِ، وتُخلع عليها خلعُ الرَّغبُوت، فيُعرِضُ عنها شُغلاً بما بَاداهُ من حقائقِ اللاهوتِ، فيذهبُ بها عن مظاهر الناسُوتِ، فيتعالَى في سُرادقاتِ تلك الحضراتِ، إلى أن تقابلَ روحُه مقعدَ صفوةِ البرياتِ، فيدركُ من تلك المقابلة شؤونَ التحكيم، وفنون التعليمِ، فيتلقاها من الحقيقة الجبرائيليةِ، بواسطة الروح المحمديةِ. وحينئذٍ؛ يؤذَنُ له بالهبوط إلى ما ذهبَ عنه للترحيل والتكميل، ومداواة العليل. فينادِي بلسان رحمته، على بساطِ عفته: هل من راغبٍ؟ هل من عطشانٍ إلى تلك المَشارب؟ فيخرِقُ نداهُ آذانَ القلوبِ الحيّة، فتسلم نفْسَها إليه، وتضعُ كليَّتها بين يديه، فيطرح على عللها المراهمَ النافعَة، ويغذوها بالأنوار الساطعة، فتحيَى وترعَشُ بعد ما غفلتْ، وتتذكّر بعد أن نسيتْ.

فأوصيكَ، أيها المحبُّ في الله، بتصفية السرِّ مع الله، وجمعِه عليه، إن أردْتَ أن تشربَ الرحيقَ المختومَ، بفيَضان الأسرار والأنوارِ من حضرة القيومِ.

اللهُمَّ اجمع هموَمَنا عليكَ، واجعل توجهاتنا إليك، وشرِّفنا بالقرْب والزُّلفَى لدَيك، واجعل شُغلنا بجوامعِ وكواملِ محابِّك ومراضيكَ، فإنك على ما تشاء قديرٌ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

* * *

(٨) وصية أخرى له نفع الله به آمين
[ومعها إجازة للشيخ عبد الله بن زين باسلامة، سيون]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي بذكره تستنير القلوبُ، وتتضِحُ لها أسرار الغيوبِ، وتندفع به مدلهمات الخطوب، ويستجلبُ به كل محبوبٍ ومرغوب، ولم تزل ألسنةُ أهلِ العناية به لهجةً، وأسرارُهم به بَهِجةً، حتى يرفعَهم إلى مقعَد الصدق عند علام الغيوب، هنالك قرَّت منهم العيون، ونَالوا فوق ما يرغبون، وتنعّموا بجَمال المحبوب. والصلاة والسلام على إمامِ كل إمامٍ، وسيد أهل الوحي والإلهامِ، محمدٍ ﷺ أفضل الصلاة والسلام.

أما بعدُ؛

فقد طلب المحبُّ الأنور، عبد الله بن زين باسلامة، أن أجيزَه وأوصيَه.

فقد أجزتُه في جميع حزوبِه ومقروءاته، بما أجازني به مشايخي الأعلامِ، كسيدي إمام الطريقة، وشمس الحقيقة، شجاع الدين، عمر بن سيدنا الشيخ سقاف بن محمد الصافي، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وأما الوصيةُ؛ فأوصي نفسي وإياهُ بتقوَى الله التي هي سُلّم السعادةِ وذِروةُ الكراماتِ، ومجمعُ الخيراتِ، في الحياة وبعد المماتِ.

ثم أوصيكَ، يا محبُّ، بالاعتمادِ على الله في جميع أمورك، وإذا باشرْتَ شيئاً من الأسبابِ، فاجعل نظرك إلى المسبِّبِ دون السبَب، فاكتف بتدبيره لكَ، وإن أهمك أمرٌ فافزَعْ إلى الوضوءِ، وصلِّ ركعتينِ، وادعُ، بعدَ الصلاة على النبي ﷺ، وقَول «الحمدُ لله رب العالمين حمداً يوافي نعمَه ويكافئ مزيده»، ثلاثاً. ثم ادعُ مولاكَ فيما أهمكَ. ولا تنسَ نفسَك من الصّدقةِ، ولو لقمةً، وسِرًّا.

وحافظْ على الصلواتِ الخمس في الجماعةِ، وإذا عندك مسجدٌ فصَلِّ فيه، وفرغْ قلبك عند دخولِ الصَّلاة من أشغالِ الدنيا، واستحضر أنك قائمٌ بين يدي من بيده النواصي والقُلوب، ومفاتيحُ الأرزاق، فاجمع همك في صلاتِكَ على ربك، وأشْعِر قلبك خطابَه، وما تناجيه به.

وإذا طرأتْ عليك الغفلةُ فأسرع الفيئَة، ومثِّل نفسكَ بالمعرض بوجهه عمن يُخاطبه، فإنك تخاطبُ ربّك بقلبكَ، لا بوجهكَ، فنكِّسْ رأسَك من الهيبة له والتعظيمِ لجلاله. ولا تتركْ قراءة الواقِعة كلَّ ليلةٍ، وأتِ كل يومٍ مائةَ مرةٍ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ مائةَ مرةٍ. وإذا خفْتَ من شيءٍ فاقرأ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ سبعاً، أو عشراً. وقل: «حسبيَ الله لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرْشِ العظيم»، سبعَ مراتٍ. وأكثِرْ من قولِ: «يا من أظهَر الجميلَ وستَر القبيحَ، يا من عاملَ بالإحسانِ من عاملَه بالعصيان».

وذكر نفسَك جميلَ إحسانهِ إليكَ، وحسنَ صنعه بكَ، واجعل آمالكَ معلقةً بكرَمه، وسارعْ إلى محابّه ومراضيه، إن أردتَ أن يسارعَ لك بما تحبُّ،

واجعل همكَ فيما يقربك إليه، ويدَّخر لك عنده، فإنك إذا طلبتَ بما هو طالبُه منكَ شكرك، وأصلح لك أمر دنياك وآخرتك، وكفاك مهماتِكَ.

قال عزَّ وعلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أعاذنا الله وإياكَ من تلك الإرادةِ الخبيثةِ، المضيعَة لسعادة الأبدِ، المفوتَة للحياة الطيبةِ.

فإنَّ قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾، أي: لنحاسبنهم بما آتيناهم، ولو حاسب أطْوعَ عبادِهِ وأتقاهم بأدنى نعمةٍ من نعَمِه لرجحَتْ بجميع أعماله، فإنه تعالى ما يجزي المحسنينَ المريد لوَجْهه والدارِ الآخرة إلا بمحض الكرم، حيثُ امتثلوا أمرَه بإرادةِ وجهه، والرغبة فيما رغَّب فيه من النعيم المقيم، والملك الكبيرِ، والسرور الدائمِ، والخلود المؤبَّدِ.

فابذُل جهدكَ، حفظك الله، في رضَا مولاكَ، وعلِّقْ قلبك به، وأدمْ ذكرَه، يكُن جليسَك وأنيسكَ، وحافظك وراعيكَ. واطلُبْ ما عندَه، وتأهَّبْ للقدوم عليه، واجعله ظهرك ونصيرَكَ في دنياكَ، ووليك وحبيبك في رُجْعاكَ، سلَكَ الله بنا مسالك أوليائه وأحبابِه، ولا حرمنا حسْن مصافاتِه واقترابه، وجمعَ ظواهرنا وسرائرنا على رفيع جنابِه، آمين اللهُم آمينَ، يا أكرم الأكرمينَ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعينَ، والحمد لله رب العالمين».

* * *

(٩) وصية أخرى له نفع الله به آمين
[للسلطان عمر بن جعفر بن بدر الكثيري، سيون]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله، القائمِ على كل نفسٍ بما كسبتْ، الرقيبُ عليها فيما أسرَّتْ وأعلنَتْ، الحسيبُ لها إذا أساءتْ وأحسنَت، المجازي لها يومَ قدومها عليه بما عملتْ، فإن عملت خيراً أفلحَتْ واستبشرتْ، وإن عملت شرًّا خابَت وخسرتْ، فحينئذٍ تحصدُ ما زرعَتْ، وتوفَّى كل نفسٍ ما أسلفتْ. ولها قبل في العاجلِ المجازاةُ العاجلةُ بما صنعَتْ، فإن سلكتْ مسلكَ الهدَى ظفرتْ وربحَتْ، وسعدتْ ونُصرَتْ، وإن سلكتْ مسالك الظلمِ أُخِذتْ وقُصمَتْ. والصلاة والسلام على مسك الختامِ، ونور الظلامِ، وهادي الأنامِ، الذي قامتْ به حجَّة الله، فسَعد من اهتدى بهداه، وهلك من خالفه وعصاهُ، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد؛

فهذه تذكرة وتبصِرةٌ، مخصوصةٌ بالسلطان عمَر بن جعفر بن بدر بن عيسى بن بدْر، وهي خاصةٌ به، عامةٌ لأنفسنا وسائر المسلمينَ.

حملني على بعْثها إليه، ما ظهَر لي منه من التغييرِ والتقصيرِ في جانب

العلي الكبير، باجترائه على حدُوده، وعدم رأفته بعبيدِه، وعدم إنصَافه من نفسِه، وتحكيمِ شرع الله فيما يأتي ويذَر، وسلوكِ مسلك الظلم والجورِ.

فخشيتُ عليه تعجيلَ العقوبةِ بإثارَة غضبِ الله، الذي لا يقوم لغضبه السموات والأرضُ، قال الله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾. وقال رسولُ الله ﷺ: «**إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلتْه**»، أعني: يبقيهِ في النكال والعذابِ، وسوء المنقلب والمآب. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. وقال تعالى في الحديث القدسيّ: «**يا عبادي، إن حرمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظَالموا**».

فهو سبحانه، جلَّ شأنه، وعَظُم سلطانه، حرّم الظلمَ على نفسِه، مع أنه متصرفٌ في خلقه وعبيدِه، فما أجرأ من يظلمُ العبادَ، ويبادر بمخالفة ربّ السماء والأرضِ بالتمرد والعِناد، أن يأخذه أخْذ عزيزٍ مقتدرٍ، إذ يقولُ عزَّ شأنه: «**إذا لم أنصفِ المظلومَ من الظالم فأنا الظّالم بنفْسي**»، ولم يعتبر بما يراهُ ويسمعه من سلكَ هذا المسلك الوخيمَ، وتعدى حدود هذا الملكِ العظيم، حيثُ أخرب ديارهم، ومحا آثارهم، وجعلهم عبرةً لمن اعتبر، وتبصرةً لمن استبصَر، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

فيا سلطان عمر؛ جاءتك النصيحةُ إن تكُنْ لقبولـها أهلاً، فنحنُ لك محذّرينَ ومنذرينَ، فارحَمْ نفسك وفُكّ غِلاقها، وأنقـذْ مهجتك من عاجلِ العقوبةِ، وسوء المثوبة. واسمَعْ وعِ لما نُمليه عليكَ، وندعوكَ إليه، فإنها نصيحةً

حقٌّ، حملَنا عليها الغيرَةُ على دينِ الله، والرحمة بعباد الله، والشفقَةُ عليكَ، فإن قبِلتها فذلكَ المأمولُ والمطلوبُ، وإن أبيت إلا اتّباعَ هواك، وبيع آخرتك بدنياكَ، فقد قامتْ عليك الحجّةُ، وبلغتكَ النصيحة، لكَ ولمن قام معك، وساعدكَ من إخوانٍ وأعوانٍ، والبشارةُ لك إن امتثلْتَ وارْعَويتَ، والحذارِ إن خالفتَ وتأبيتَ، فإنها، إن شاء الله، قولُ صدْقٍ، ونصيحةُ حقٍّ، وسوف يظهَر لك ما انطوتْ عليه، وما تضمنته، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌ.

وإياكَ ثم إياكَ، أن يستفزَّكَ الهوَى، وتستأسرك النفسُ الأمارةُ بالسوءِ، باستحلال مراتعِ الوخَم، من أخذِ الظُّلاماتِ، وتفزيعِ عباد الله، وعدم الرأفة بهم، قال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ من ولِي من أمرِ أمتي شيئاً فرفقَ بهم فارفُقْ به، ومن شقَّ عليهم فاشقُقْ عليه**»، الحديثَ بمعناهُ.

وكنا طامعين فيكَ، يا سلطان عمر، أن تسلُكَ سبيلَ العدلِ، وتلتزم التقوَى، وتحكِّم الله ورسوله على نفسِكَ، وعلى أهل دائرتكَ، ومن استُرعِيته من المسلمينَ، ويكونُ جناحك معْشرَ أهل البيتِ إلى دارِ المعَالي، والكرامات العاجلة والآجلة، والفوز برضْوانِ الله الأكبر، وتكونَ ممن يظلّهم الله تحت ظلّ عرْشه يومَ لا ظلَّ إلا ظله، ولكن لا سبيلَ إلى ذلك إلا بأن تبنيَ على أساسِ التقوى، بطيبةِ المطعم، فإنّ أكل الحرام يَهدمُ الطاعات، ويعمي عينَ البصيرة، ولا ينتجُ من صاحبه خيرٌ، ولا يهتدي سبيلَ النجاة والسلامةِ. إذ الحرامُ يحول بينه وبين صاحبه عن رؤية الحقائقِ، ولا يميز بين المنافع والمضارّ، بل يلقي نفسَه في المهالكِ وهو لا يشعر، وذلكَ لعمَى البصيرةِ، وكدُورة السريرةِ وظلمتها.

ثمّ مجانبة المظالم رأساً، إلا ما دعتْ إليه الضرورةُ من مياسير المسلمينَ،

وأما أخذُ أموالـهم والتعدّي عليهم، فذلك الحالقَة المحرِقةُ للدين والدنيا، وصَاحبها عما قليل يصير نسياً منسياً، مع أنه يكلفُ بردِّ المظالمِ، مع الإفلاسِ، في يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونَ، ولا يوجد فيه درهمٌ ولا دينارٌ، بل يبيعُ السعادةَ الأبديّةَ بالشقاوةِ السرمديةِ، والوقُوعِ في غضب الله وأليم عقابِه.

فحينئذ تتقطعُ في قلبه الحسراتُ، وتحيق به الندامات، ومع ذلك لا تنفعُه الندامةُ، ولا يجاب إلى الإقالةِ، بل تأخذُه ملائكة غلاظٌ شدادٌ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلونَ ما يؤمرون، ويسحبُونه على وجهه إلى دار الغضَبِ والهوانِ، فيا لها من خسَارةٍ، لا خَسارة الدنيا الفانيةِ المضمَحلّة عما قليلٍ.

فاقبلْ نصيحتَنا، ولا تحمِلْ بها خِفاً، إن أراد الله لكَ السلامةَ، وساعدكَ التوفيقُ، وإلا فهذه معذرتُنا إليكَ، كما أمرنا بها قيومُ السموات والأرضِ. والرجاءُ في الله أن يردَّكَ إليه ردًّا جميلاً، ويخلع ما سوَّلَ لك به الشيطانُ والنفسُ الأمارة بالسوءِ، قال الله تعالى حاكيا عن يوسُفَ الصديقِ، صلى الله على نبينا وعليه وسلم: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وأنتَ إن كانَ لك نصيبٌ من الرحمة، وأدركتْكَ العنايةُ، أفقْتَ واستبصرْتَ، وعرَّفناكَ سبيل نجاتِكَ، ونيل مطالبكَ، في عاجل الدنيا بالثناء الجميلِ، والفتحِ المبين وتأتيك مسَارُّكَ، وتسهلُ لك الصعوبُ، وتخضَع لك الرقابُ، لكن ما هو باتّباع الهوى، وتشفية الغَيظِ، والانتصار للنفس، إنما هو باتّباع الحقّ، والدَّورِ حيث دارَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

فهذه نصيحةٌ لك مجملةٌ، فإن رأينا منكَ القبولَ، فصّلناها، وإن رأينا منكَ خلافَ ذلك قطعناكَ وصرَمْنا حبلَ مودتكَ، وكان بيننا وبينكَ كما بيننا وبين غيركَ، ممن تولى عن الهدَى، وأعرض عن الحقِّ، ولا نحبُّ ذلكَ لكَ، ولا نرتضيه منكَ، ويسوءُنا ذلك منكَ خاصةً، ومن جميع عباد الله عامةً.

وأنت قد تقدمَتْ لك رابطةُ تعلقٍ، ونرجو من الله ذي الفضل العظيم أنْ لا يقطعَها بيننا وبينكَ، وإن يمدّكَ بجنود رحمته، ويرزُقَك الإنابة إليه، والاهتمامَ بما يوجبُ لك رضاه والزلفى عنده، ولا خيب الله آمالَنا من فائض جُودهِ، وسعة رحمته، وشامل رعايته، وقائد عنايته، إلى نيل كل مأمولٍ، فآمالُنا فيه عظيمةٌ، كما عوَّدنا به من واسع فضله وبرّه، فكم له علينا من أيادٍ وعواطفِ إحسان، فنسأله أن يوفّقنا لشكر ما أسداهُ، ويتمَّ علينا عظيمَ نعماهُ، في هذه الدار وفي دار الخلودِ والقرار، في جواره، صُحبةَ المفلحين الفائزينَ من أنبيائه وأصفيائه، وأن يفعلَ ذلك بأحبابنا وأصحابنا ووالدينا وأولادنا، ومن تعلق بنا، إنه جواد كريمٌ، رؤوفٌ رحيمٌ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلمَ، والحمدُ لله رب العالمين».

* * *

(١٠) وصية أخرى له نفع الله به عافاه آمين [للشيخ سالم بن أحمد باعباد، الغرفة]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله حمداً تحفظُ به نعماه، وتحصل به ذكراهُ، حمدَ من جعل همه أخراه، وتجافَى عن دنياه وآثر دار عقباهُ، والصلاة والسلام على حبيب الله ومصْطفاهُ، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعدُ؛

فقد طلبَ مني الوصيةَ، الشيخُ سالم بن أحمد باعباد، سلك الله بي وبه مسالكَ أهل الصفا والرشادِ، الذين أخذوا زادَهم لدار المعادِ، وتجافوا عن دارِ الفناء والنفَاد.

فأوصيكَ، حفظك الله، بطلب العلم الذي تعرِفُ به الطرائقَ إلى ربك، فإنه الأساسُ الذي تبنى عليه قصورُ المعالي المشيَّدة المؤبَّدة، لإحراز السعادة السديدة، والحلة الحميدة. ثم الإقبالُ على مولى الموالي، بالتزام التقوَى، وهي التعرّي عما نهى الله عنه بالظاهر والباطنِ، والتحليةُ بكلّ ما أمرَ به من الوظائفِ العلمية والعملية ظاهراً وباطناً، فبذلك ينكشفُ الحجابُ، ويشاهد القلبُ الحقائقَ، وتنظر عينُ البصيرة العواقبَ، فيحثّ السير باغتنام فائتِ العمرِ في

تجارة دار الرضَا والخلود، مع عظم المسرة بمعاملة مولاكَ، الذي هو حاضرٌ معكَ، وناظرٌ إليكَ، فيضاعفُ لكَ القرباتِ، ويرفع لكَ الدرجاتِ، في دار لا يتكدر سرورُها، ولا ينغّصُ عيشها، ولا يهرم شبابها، ولا تنقضي راحتُها، بل تجدد ويتزايدُ بمحضِ الكرم والجودِ، بفيضٍ لا ينقصُ خزائنَ جودِه كثرةُ العطاءِ، بما لا يخطر على بالٍ، ولا تضرَبُ به الأمثالُ، من صفات الكرم والإفضالِ، في الدار الذي أعدَّها للجزاء وعظيم النوالِ، لا في دار الظّعنِ والارتحالِ، المشبَّهة بالخيالِ، الذي تحامى عنْها الأبطالُ منَ الرجالِ، بل تحملوا فيها الكلالَ، بالمتاعب والأثقالِ، ليحرِزُوا النعيمَ المقيمَ، والملك الكبير في دارِ المآلِ.

فافتحْ عين بصيرتِكَ، لتعرف الفرقَ ما بين الدارينِ، وتسلُك أسعد الطريقينِ، وتصحَب أكمل الفريقينِ، من حزب الله وخاصته، الذين اصطفاهم لحضرته، وجعل مآلهم دار كرامتِه، فهذه لمن كان له همة عليةٌ، ونفسٌ زكيةٌ.

وأما أولي الهممِ الدنيةِ، والحظوظ السفليةِ، فلا يبالوا بما ضيعوه، ولا يظفروا بما أمّلوهُ، بل ينعكسُ عليهم الأمرُ، وتحيقُ بهم الندامات، عند فوات الكَرامات، ولحوق الندامات، وعَظيمِ الخسَاراتِ، في يوم التغابُنِ، الذي لا تغني فيه الخيالاتُ الباطلةُ، التي اغترَّ بها كثير من أهل الحرمانِ، الذين استأسرَهمُ الشيطانُ، ومال عليهم بخيلِه ورَجِله والفرسانِ، حتى جعلهم من حزبه في دار الهوانِ، وعَذاب النيرانِ.

فنسألُ الله العصمةَ من كيده ومكره، ولا يسلطه علينا، فإنا نتوكل ونلتجئ إليه، وهو مولانا الذي لا نؤمل غيره، فنسأله أن يتولانا ويرعانَا، ولا يخلنا من

حسْن نظرِهِ طرفة عينٍ حتى يحيينا على طاعتِهِ، ويحفظنا عن معصيته، حتى نلقاهُ وهو راضٍ عنا، إنه نعْم المولى ونعم النصيرُ، ولا معَنا إلا ما نرجوه، مما دعونا به، من جميل الإحسان، وأن يتمه لنا ويديمَه في دار الكرامةِ والرضوانِ، إنه كريم منانٌ، والحمد لله رب العالمين».

* * *

(١١) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه ونفع به آمين [لمحبه محمد بن أحمد قَدْران]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعل طاعته وتقواه مجلبةً للمسارّ، ومدفعةً للمضارّ، وحياةً طيبةً في دار الاعتبارِ، وخلوداً مؤبَّداً، وملكاً كبيراً، ونعيما سرمداً، في دار القرار.

والصلاة والسلامُ على من انشقّتْ من نوره جميعُ الأنوارِ، وعلى آله السابقين إلى السيادة والفخَار، وصحبه نجُوم الهدَى والأقمارِ، ما اكتحلت أبصارُ البصائر بنورِ الاعتبار والادّكار، حتى أبصرتْ ما بين يديها وما خلفَها من الأطوار، المعلومة بتناوب الليل والنهار، اللذين يقرّبان البعيدَ، ويهدِمان المشيدَ، ويؤذنانِ بالارتحالِ من دار إلى دارٍ، فإما إلى نعيم مقيمٍ، وإما إلى عذاب أليمٍ.

أما بعدُ؛

فقد سألني الوصيةَ المحبُّ الأنورُ، محمد بن أحمد قدران، أذاقه الله حلاوة الإيمانِ، وألبسه حلل العوافي في الأديان والأبدان.

فأوصِي نفسي وإياكَ بتقوَى الله الجالبة للمسارّ، الدافعة للمضار، الموصلة

إلى درجَات الفخارِ في هذه الدار وفي دار القرارِ، مع سلامة الصدر على جميع المسلمينَ، وصحبةِ الأخيار من المؤمنينَ، والسعيِ في قضاء حاجة الضعفاء منهم والمساكين، فبذلك يحصلُ رضا ربّ العالمين، وتجتمع سعادة الدنيا والآخرة والدين. مع ملازمة فرائضِ الله الخمسِ، وتحصيل أوائل الأوقاتِ، والأمر بها لكل من لكَ عليه قدرةٌ من الأهل والأولادِ، ومن استخدمته في تجارة أو عمارةٍ، ففي ذلك رضوانُ الله، ومن أحرز رضوان الله فقد ظفر بالخير كلّه، واحترز من الشر كله، ومن رعتْه عنايةُ الله تأتّتْ له أسبابُ الخيرِ، وهان عليه صعبها، والهمةُ قالبُ التوفيقِ، والصبر بابُ الظفَر، ومفتاحُ كنوز السعاداتِ والمكرماتِ، في الدنيا والآخرة، ومن عزَّ عليه ما يطلبُ هانَ عليه ما يبذلُ.

واجعلْ لك وِرْداً من الأذكار المأثورة، مثل ما جمعه الحبيب عبدُ الله، من ورده الصغير والكبيرِ، على حسب النشاطِ، أو مع غيره حتى تعتادَه النفسُ، والنفس إذا عودتها الخير ألفتْه، وإن عودتها الشرَّ ألفتْه، وإن تعودَت الفراغَ والبطالةَ ثقُلَ عليها الخيرُ، وبعضُ الناسِ يستريح إلى مجالسَ لا خير فيها، من لهو وبطالةٍ، وخوضٍ فيما لا ينبغي، وتضيعُ بها أوقاتٌ شريفة نفيسةٌ، مثل إحياءِ ما بين العشاءَينِ، وحضورُ مجالس التعليم والتذكير، ويفوت بها موسمٌ عظيمٌ من تجارة الآخرة، وإحراز السبقِ والزّلفَى عند الكبير المتعالِ، فيندم ويتحسر على تضييعها يوم التغابن حيث لا إقاله ولا إمهال.

وأوصيكَ، أيضاً، بإخراج الزكاةِ الواجبة على الوجْهِ الذي أمر الله بِهِ؛ مع طيبةِ النفسِ، نظراً لـما يقدّم للنفس في الدار الباقيـة، وقد قال عليـه الصلاة

والسلام: «**أيكم مالُ وارثِهِ أحبُّ إليه من ماله**»[١]. وفي إحسان إخراجها على الوجه المأمور به حفظُ المالِ وسلامتُه، وإنماءُ بركته، والشحُّ بها تفويتُه وإتلافُه، فمن هاهنا تـخرَجُ بفرحٍ وطيبة نفسٍ. هذا، حفظكَ الله؛ والوصيةُ لنا ولكَ، وللمحب عمر، ولمن شاءَ من الإخوانِ، وأنتم في حفظ الله ورعايته».

* * *

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود، ولفظه: قال: قال النبي ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله**»، قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «**فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر**».

(١٢) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه آمين
[للشيخ عثمان بن عبد الرحمن باجبور، شبام]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي لا تَنحصرُ مننُه وعطاياه، ولا تنتهي صنوفُ إحسانِه ونعماهُ، وطُوبَى لمن جعل إليه وجهه ومسعاهُ، ويا سعدَ من آثَره على ما سواه، وتجافى عن دار سفره إلى دار بقاياه، فذلكَ الذي يحوزُ الفلاح في الحياة الطيبّة في دنياه، والسعادة الأبدية يومَ يلقى مولاه.

والصلاة والسلامُ على حبيبه ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، ما تذكّر متذكرٌ وأناب منيبٌ إلى ربه واستبصَر لمنقلبه ورُجعاه.

وبعد؛

فقد سألني الإجازةَ والوصيةَ، المحبُّ الأنوَرُ، عثمان بن عبد الرحمن بن محمد باجبور، جعل الله ذنبه مغفور، وسعيه مشكور. فقد أجزتُـه في حزبه وأورادِه، مع ملازمةِ الحضُور، وإرادتِه بذلك وجه الله تعالى والدار الآخرة، فإنه سوقٌ لتلك البضائع الرابحة، ومن جلبها بغير ذلك السّوقِ باعها بأبخَس القيمِ، ويندمُ حينئذٍ أعظمَ الندم. هذا؛ وقد أجزتُك بما أجازني به مشايخي الأعلام.

والوصيةُ لنا ولك، بتقوى الله، التي هي مجمع السعادات، وسلم

الدرجاتِ، وبها نيل الخيراتِ في الحياة وبعد المهات. وهي عبارةٌ عن امتثالِ أوامر الله، واجتنابُ نواهيه ظاهراً وباطناً. وظاهرُها: القيام بالأوامر التكليفية، والتزام الحدودِ الشرعية، ومجانبةُ ما نهى الله عنه، وما حذّر عليه من قول وفعل ونيةٍ واعتقادٍ، معَ استشعار الهيبة لله، والخشية منه، وهو أن يجعل تقواهُ إجلالاً له تعالى، وتعظيماً لأمره، وإشفاقاً من غضبه وعقابهِ، لا حياءً من الناسِ، ولا طلباً لغرضٍ من الأغراضِ العاجلة.

فإن من يفعلُ ذلك المأمورَ، ويترك المنهيَّ، حياءً من الناسِ، وخوفاً منهم، أو رجاءً لهم، فليس بمتقٍ لله تعالى، بل هو متقٍ لهم، ومن هاهنا تربح بضائع المخلصين وتخسَرُ صفقة المتصنّعينَ، وتسبيحةٌ من متقٍ معظّمٍ لحرماته، مقبلاً عليه بقلبِه، أرجحُ عند الله، وأسبقُ للعبد إلى ما يحبه ويرضاهُ، من إمضَاءِ عمرِه فيما عزبَتْ عنه النية الصالحةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

فإذا علمتَ هذا؛ فصححْ نيتكَ وقصدكَ، بإرادة وجه الله، وصَفِّه من شوائبِ حظوظ النفسِ، وطَلَبِ أغراضهـا الفانيـةِ، وحَثِّها على ما يبقى لها، ويدومُ معها، وتعظم به المسراتُ، في حياةٍ بلا موتٍ، ونعيمٌ بلا تغييرٍ، وسرور بلا تكديرٍ، وشبابٍ بلا هرمٍ، وصحةٍ بلا سقَمٍ، وملك بلا زوالٍ.

وأما هذه الدار؛ فأيّ مرغوبٍ فيها لذي بصيرةٍ، وسريرةٍ منيرة!. وهو يرَى سُرعةَ تغيرها وانصرافها، وعما قليل تَتلاشَى، وتبقى عليها الحسراتُ، وعظيمُ الندامات، عند تحقّق الفوات، وتضييع الباقياتِ الصالحات.

فأوصيكَ، يا محبُّ، أن تجعل قلبكَ في همكَ، وهمك في ربكَ، وفيما يدّخر لك عنده، ويقربك لديه، ترَى ما يسركَ في عاجلِ دنياك وآجلِ أخراكَ.

واحذَرْ أن تخلط باتّباع النفسِ الأمارة بالسُوءِ، والميلِ إلى حظُوظها، فيما لا خير فيه، ولا بقاء له، قال ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها**»، إلى آخر الحديثِ، ومغرسُ ذلك كله، ومنبعُ خيرات الدنيا والآخرة: صلاحُ القلوبِ.

فأول ما يتعينُ على الإنسان تفقّد قلبه، والتوجّه إلى الله، والاضطرار والانكسار إليه، في طلب إصلاح القلبِ، فإن القلبَ إذا صلُحَ صلُحَت الأعمالُ، وزكَت المعاملاتُ، وبنيت على الأساسِ، فلا غرْو أن تبلغَ مناها ورضاهَا، وتسعد في دنياها وأخراها، والقلوبُ بيد الله تعالى، يقلبها كيفَ يشاءُ، ويصرّفُها حيث أرادَ.

ولا مع العبد إلا اضطرارُه وانكسارُه، والتجاؤُه وافتقاره، فإنه إذا علم صدْقَ اضطرار العبدِ أعطاهُ ذلكَ، وقواه عليه، قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**».

ومن علم إخلاصَه ونجاته في صلاحِ قلبه، وخسْرانه وهلاكه في خَرابه، لا محالة أن يضطَرّ وينكسرُ إلى مولاه، ومن اضطرَّ إليه فقد أحرزَ الإجابةَ، إن شاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، فاستجبْ لمولاكَ، واستيقظ لقربِه ومعيتِه، وحضوره معكَ، ونظره إليكَ.

واحذَر أن يراكَ حيثُ نهاكَ، ويفقدكَ حيثُ أمركَ، وإذا وقعت منك غفلةٌ أو خطيئةٌ فبادر بالرجوعِ إلى ربكَ، حذراً وإشفاقاً من سخَطه وأليم عذابِه، فإنّ حقّه عليك في اقترف الذنب التوبةُ، والرجوعُ إليه، والندمُ على تفريطكَ، وشؤمِ تقصيركَ، فلُمْ نفسك على ذلكَ، وحاسبها عليه، ولا تسامحها في شيء من

حقوقِ ربكَ وحقُوقِ خلقه، وهي أعظمُ، إذ لا يقضيها إلا الوفاءُ، أو الاستحلالُ، أو الالتجاء والافتقارُ إلى الله أن يقضيَ عنك حيثُ تعذر الوفاء أو استحلالُ ما قصرته، وإذا علمَ صدقك أرضَى خصْمَكَ، فإنه تعالى مليءٌ بما يطلبه العبدُ، ويرغب فيهِ، إذا علم منه الصدقَ. **هذا**؛ والله يجمع همومنا عليه، ويصدق رغبتنا فيما لديه، ويكفينا شرَّ أنفسِنا، وسيئاتِ أعمالنا، إنه ولي ذلك والقادرُ عليه، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم».

❋ ❋ ❋

(١٣) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه وعافاه آمين
[للسيدين عبد الله وأحمد ابني علوي العيدروس، بور]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي امتنَّ علينا بالإيمانِ والإسلامِ، ودعانا إلى طاعته وتقواه، وما دعانا إلا إلى دار السلام، وحذّرنا من معصيته، لننْجُوَ من دار الخزي والانتقامِ، وأوجب لنا تكرماً وإحساناً أن نفِدَ إليه، ونحُجَّ بيته الحرامَ، لنُنْسهم في ذكرِه، ونختلِطَ في حزبه، العارفين الكرام، المشاهدين بأسرارهم الحضرات القدسيةَ، والمنازلاتِ الأنسيةَ بين تلك المشاعر العظام، وتعطّرت ساحاتها بتنزلاته الرحمانية، ونزول الوحي والإلهامِ، ووطأت أرضَها أقدامُ الأنبياء والمرسلين العظام.

والصلاة والسلام على إمامِ كل إمامٍ، في حضراتِ ذي الجلالِ والإكرام، وعلى آله وصحبه مصابيح الهدَى والأعلام.

أما بعدُ؛

فقد عزمَ الشريفانِ الأنجبان، المنيبانِ إلى ربهم الكريمِ المنّان، عبدُ الله وأحمدُ ابنا الحبيبِ علوي بن سالم العيدروس، إلى حجِّ بيت الله الحرام، وزيارة خير الأنامِ، وطلباً من الفقير الوصيةَ.

فالذي أوصِي نفسي وإياهـم، حفظَهم الله ويسَّر عليهِم ما يـحبه منهم ويرضَاه، بالتزامِ تقوَى الله، واستحضارِ أنه حاضرٌ معهم، وناظر إليهم، وأنهم متوجهين إلى الحضرة المخصُوصة بالسرّ المطلسَمِ، ضمن ذلك المقام المعظّم، وبيته المكرّم، فليلتجئوا إليه، ويخضَعوا بين يديه. ويسألوه بلوغَ تلك الحضُرات المعظمَة، والمشاعر المكرّمة، وأن يفيضَ على قلوبهم من الأنوار القدسية، والرحمات الذاتيةِ، والنفحات الاختصاصيةِ، ثم استحضَار أنه حاضرٌ معهم، وناظرٌ إليهمْ أينما كانوا، وحيث ما تولَّوا، فليستشعرُوا منه الحياء والهيبةَ، أن يراهم حيث نهاهُم، أو يفقدَهم حيثُ أمرَهـم.

فليبادروا إلى ما به أمر إجلالاً له، وتعظيماً لجلاله، ومحبةً له، ولما اتصف به من جمالِه، ولما غمرَهم به من إحسانه وإفضَاله، ولما أوعدَهم به من محبته واقترابه، وشريفِ رضوانه وجزيل ثوابه.

ثم ملازمة الأوراد والأذكارِ، والمحافظةُ على الفرائضِ، والإتيان بها مع الحضُور والخشوعِ في أوائل أوقاتها في الجماعةِ، والنوافل الراتبة التي كان ﷺ لا يتركها حضراً ولا سفراً، فإن بها جبرانُ الفرائضِ وكمالها، والأخذُ بالعزائم بفعْلِ الأوامر الشرعية، وقبول ما تكرّم به المولى من الرخَص، من غير إخلادٍ إليها، لأن مريدَ الخير يأخذُه بقوة العزيمَة في معالي الأمور، وإذا شافَ نفسه معها كراهةٌ في الرخصِ، فليوافق الشرْعَ، فإن الله يحبّ أن تؤتَى رخصُه كما يحبّ أن تؤتى عزائمُه.

ونوصيكُم أيضاً بالصبـر، وتـحسينِ الأخـلاقِ مع من اصطحبتمـوه وعاشرتموه، وبذلِ النصيحة لله ابتغاءَ ثوابه العظيمِ، مع الرفق واللينِ والرحمةِ

وقبولِ النصيحةِ ممن جاءتْ منهم، إذا علمتم أنها الحقُّ، واقبلوها من كبيرٍ وصغيرٍ.

والتفكّرِ في عجائبِ صنع الله، وبدائع مكنوناتِه، والاستدلالِ بها على قدرتِه، وأنها دالة عليه، ناطقةٌ بصريح توحيدِه لأهلِ العقول والبصَائر، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآيةَ.

فيبصِرُوا ما تضمنته الحكمةُ، وأظهرته القدرةُ، من عجائبِ خلقِ الله، وبدائعِ قدراته، ومظاهر جلاله وجماله، فإنها دالةٌ بلسان الحالِ على توحيده، وانفراده بالملك والملكوتِ، مؤذنةٌ بالعجز والنقصَانِ على من سواهُ من جميع الخلائقِ، بالإتيان بأحْقَر حقيرٍ، وأصغر صغيرٍ من مخلوقاته ومقدوراته.

ونوصيكُم أيضاً، برفع الهمة إليهِ، وإنزال جميع المطالب والمراغبِ ودفع المراهبِ بين يديه، فالكل فقيرٌ إليه، لا يستطيع لنفسِه ولا لغيره نفعاً ولا ضرًّا. وإذا رفع العبدُ همته إلى مولاهُ، شكره وذكرَه، وأحبه وسارعَ له بما يرغَبُ، حيثُ اختارَه له، فإنه أعرفُ بمصلحةِ العبدِ في قضاءِ حاجتِه، بالتعجيل والتأجيلِ، ادخارا للثوابِ الجميلِ.

فلا يكون العبدُ همه إلا مع مولاهُ، ويكتفي بعلمه واختياره، وبهذه يرتفعُ مقامُ العبدِ، ويخصُّ بالقربِ منه، والتولّي له، إذا أصحبَ مع ذلك الاستقامةَ، وطلبَ ما هو طالبه منه من طاعتِه وتقواهُ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآيةَ.

فهذه بشائرُ إلهاميةٌ، بوساطة الملائكة أهلِ الخصوصية، بتوحيد الحقّ، والاستقامة على دينه القويمِ، وصراطه المستقيمِ، وعند نزول الموت بكرامة الله، وسعة رحمته، ويحصل لهم المسراتُ بلقاء ربهمْ، وما لديه من الثواب العظيمِ، فيفرحُونَ بلقائه، قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

فهذا حينَ يلقونه، فإنه جلَّ وعلا يجعلُ البشارةَ لأحبابِه وأهل طاعتِه، فإنهم لا يعاملونه نقداً، ويعاملهم نسيئةً، عرف ذلك من عرَفه، وعقله من عقله، والله ولي التوفيق والهداية. فنسألُه أن يوفقنا لما يحبه ويرضَى به عنا، في عافيةٍ وحياة طيبةٍ، إنه ولي كلّ خيرٍ، ومتفضلٌ به، وصلى الله على سيدنا محمد النبيِّ الأمي وعلى آله وصحبه وسلم».

* * *

(١٤) وصية أخرى منه رضِيَ الله عنه ونفع به وعافاه آمين [للحبيب أحمد بن علي الجنيد، تريم]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمدُ لله حمداً كما اقتضتْ أسماؤه وصفاتُه الأزلية، وظهرت أفعالها في أعلامِ معالمها في المظاهر الكونية، مواجدُ مشاهدِ تجلياتِ الرحمانية والرحيمية، وسبحتْ بحمده جميعُ الكائناتِ العلوية والسفلية، وقام بالنيابة عنها من هو خليفَةُ المختار في الحضرة الذاتية، لتنزل منها الحقائقُ مشاهدةَ الرقائقِ إلى أهل الدوائر على مراتبهم في تلكَ الحضراتِ القدسية، ثم يفيضُ بإمدادها على قدْر قوّتها واستعدادها إلى الخصَائص الروحية، والكثائفِ الجسمانية، ليعلمَ الكلُّ أن الله على كل شيء قديرٌ، وأنه قد أحاطَ بكل شيءٍ علماً وقدرة ومشيئةً.

والصلاةُ والسلامُ على ترجمانِ الأزلِ لإفاضة الأنوار القدسيةِ، وعلى آله ورّاثِ سرّه في المنازل الاصطفائية، وصَحبهِ أئمة الهدَى ونجومه المضيّة.

أما بعدُ؛

فقد طلبَ مني الإجازةَ والوصيةَ، أخي وحبيبي، المراعى إن شاء الله بعينِ العناية الأزليةِ، أحمدُ بن الحبيب الفاضل علي بن هارون الجنيد علوي، أعلا الله مقامه، وأكرمه بكمالِ الاستقامة، وأسعد بها لياليه وأيامه، حتى يبلّغَه من حبّه وقربِه أقصَى مرامِه.

فأوصي نفسي، وإياك يا أخي، بالتأهبِ للقدوم على مولاكَ، ومشاهدة انطواءِ بساط العُمر مع اشتداد الحاجةِ إلى ما تقدّمه من دار الزوالِ لدار الخلودِ، ثم استحضار أن مولاك حاضرٌ معكَ، وناظر إليكَ، فليغشاكَ الحياء والهيبة من أن يراكَ معرضاً عنه وهو يدعُوكَ إليه، ويسره إقبالك عليه، واختيار الصحبة معه، بأن تشاهدَ قربه إليك وأنه أقربُ إليكَ من كل قريبٍ، وأن كل قريبٍ منك غيره لا يقدر على نفعِك ولا مضرتكَ، وأن المستبدَّ بذلك هو مولاكَ، ولا تدوم صحبتك مع غيره من محبوبٍ ومرغوبٍ إلا ما تكرم به في دار الجزاء والثوابِ، فهناكَ خلودٌ بلا انقضاءٍ، ونعيمٌ بلا بؤسٍ، وشبابٌ بلا هرمٍ، وصحةٌ بلا سقمٍ، واجتماع بمن تحبّ بلا افتراقٍ.

فإذا علمتَ هذه الصحبة الشريفة لمولاكَ، تحققت احتياجَك إليه في دنياك، فعسى أن تقف بين يديه موقف الانكسار والافتقار، وتبثّ إليه شكواكَ، فتقولُ مع خضوعك وبكائك: أنا هاربٌ إليك مما سواكَ، فلا جرم أن يستجيبَ دعوتَك، ويقيل عثرتكَ، ويغفر زلتك، ويسعفك برغبتك، إذ هو جلَّ وعلا يجيبُ المضطرّين، وعند المنكسرين. فهو معهم وعندهم من حيث لا يشعرونَ.

فحينئذٍ، يفتح لك باب المآب، فإذا فتحَ لك ذلكَ، فقد أدخلكَ في جملة الأحباب، فلازمِ الخدمةَ للكريم الوهاب واخرُجْ عن جملةِ الأسباب والأنساب والأحساب، فعسى أن يذيقك لذة الاقتراب، ويسكرك برحيقِ ذلك الشراب.

فمن هاهنا تستحضرُ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، وهو شهودُ الوحدانية له جلّ وعلا، وأنه المالكُ المتصِف بالكمالِ، واستحضرْ ربوبيته التي بها التربيةُ بلطيفِ الرأفة والرحمة، كما ابتداكَ، وبإحسانه رباكَ،

وبنعمـائه غذّاكَ، ثم إلى سبيلـه الرشيد دعـاك، ثم إذ عرفـك به فقد هداكَ، واختصكَ باجتباك، فتوجّهْ إليه بهمتك في سرك ونجواكَ، واعلم بأنه عينه ترعاك، فاستقم له ليتولاكَ، واجعل استقامتكَ له لا لحظّ لكَ في دنياك ولا في أخراك، بل لمحض العبودية، وأداء حق الربوبية، واكتف بكفالته فقد كفاكَ، فيا سعدك إذا اكتفيتَ بكفالته ويا بشراكَ، فقد قام لك بما لم تقُمْ به لنفسك سيدُك ومولاك.

فمن أينَ لك أن تعرفَ فيما تحب أو تكرَه منفعتكَ أو ضُرّاك، فإذا استقمت كذلك تتنزل عليك الأملاكُ، بالبشارة بأن سيدَك يتولاك، ويحييك الحياة الطيبة في دنياك، ويسعدك السعادة الأبدية في أخراك، وأن لا خوفَ عليك وعينُ عنايته ترعاك، ولك الفوزُ الأكبر، والنعيمُ المخلَّدُ، والسرور السرْمدُ في دار عقباكَ، وموطن إقامتـك ومثواك؛ فإذا قمتَ متوجهاً إليه في صلاتـكَ، فثبتْ قلبـك في مناجاتكَ، وكبـره بالتعظيمِ، حتى لا يكون في قلبكَ سوى العلي العظيم.

واعلَمْ أنك لو كبرت بلسانك، وغفلتَ بجنانك فما قمتَ بشهادتك، وقد صرفْتَ عن شأن الحضرة عنايتك، ولم تسمُ إلى عظيمِ شأنِكَ الذي يرتفع بها في المقام الأعلى سلطانك، ويشرق بها إيمانُك وإحسانُك وإيقانك، وليسبق إلى الخطاب الشريف عرفانك. وإلا فأصغ بأذن قلبكَ لترجمانكَ، فإنك إذا انصرفَ قلبُك عن خطاب ربكَ، فكنت كمن أعرض بوجْهكَ عن مخاطبته، فما ذقت لذيذَ الخطابِ، ولو كنت بمشاهد الثواب والعقاب.

فلتكن همتك بسماعِ ما يمْليه عليكَ رفيعُ الـجناب، فإنك في حضـرة

الاقتراب، إن أردت أن تكون من صفوة الأحبابِ، الذين خصّصهم الكريمُ الوهاب، ورفعَ بينه وبينهم الحجابُ، أولئك السادة الأنجابُ من الأبدالِ والأوتاد والأقطاب.

فهذه بشائر ذي الجلال والإكرام، والطَّولِ والإنعامِ، على ألسنة الملائكة الكرام، بالتعريفِ والإلهام، وأعظمُ البشاراتِ وأجلُّ الكرامات في دارِ السلام والنعيم المحضِ بلا تغييرٍ ولا تكديرٍ ولا انصرامٍ، ولا تفارقْ شهودَ صحبته لك ومعيته معَك في خلوةٍ أو جلوةٍ.

إذا كنت في جَلوة فرابطْ سرَّك عليه، وحضورك بين يديه، وقوِّ قلبك بالتوكلِ عليه، واسأله العصمة في الحالِ والمقالِ وسائر الأفعال، واحضر مع من شئتَ واجعل قلبك معه وهمتك سامية إليه.

وتخلقْ بالرحمة، وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمَة والموعظة الحسنة، وشاهد جريَان أوصافه فيمن كنْتَ معهم، إذ هو آخذٌ بنواصيهم، يصرفهم بما يشاء فيما يشاءُ، كيف يشاءُ، ولكنه قد أمركَ بدعوتهم، وبذلِ النصيحةِ، وأخذَ بذلك المواثيق والعهودَ، فعند ذلك فلتسبقْ إلى قلبك الرحمةُ والشفقة عليهم.

وتوجّه بهمتكَ إليه بالدعَاء لهم، بأن ينقلهم من وَخامة الإساءة والعصيانِ، إلى سبيل النجاة بالتقوَى والإحسانِ، فإنك إذا كنْتَ كذلكَ، توجّهتْ إليك قلوبُهم، وأصغَتْ إلى ما تقوله آذانـهم، وتلمح حكمة اللـه فيهم، واجعلهم مرآتكَ، فما رأيته منهم من إحسانٍ، وتقوى وإيقان، فاطلبه واجتهدْ في تحصيله بفضل الكريم المنانِ، وما استقبحتَـه منهم فانظرْ في نفسِك هل فيكَ مثلُه؟. فنقِّ منه سرك والإعـلان، واشكـره إذا حفظـكَ، فإن ذلك مـحضُ الكـرَم

والإحسان، وانكسر بين يديه واحذر من العُجْبِ والطغيان، وعامل المسيءَ منهم بالإحسان، معاملةً مع الكبير الديان.

وابسُطْ يدك إلى فقيرهم بما يسرّه من العطية، واشهد أنها أولُ ما يأخذها خالقُ البرية، كما شهدَت بذلك الآيات القرآنيةُ والأحاديث النبوية، فعند ذلك يمتلئُ قلبُكَ فرحاً واستبشاراً بمولاكَ، وأنه يقبلُ منك عطاكَ، ويحسنُ جزاكَ، في دنياك وأخراكَ، وتسعدُ به على الأبدية في دار إقامتك ومثواك.

وليس لك من مالكَ إلا ما قدمته لأخراك، وبهذا الجميل عين عنايته تحفظك وترعاك، وهو راعيك وحارسُك فيما أمامَك ووراك، وهو الثوابُ المعجّل في دنياكَ، والنعيم المؤبد في أخراك.

هذا، حفظكَ الله، واحفظْ حقَّه فيما أمرك ونهاكَ، وقُم بأمره فيما استرعاك، بحفْظِ قلبك على ما يحبه، وكذلك سائر أعضائك، وتحقق أنه حاصلٌ معك، وناظرٌ إليكَ، ومطلعٌ على سرّك ونجواكَ، فعند ذلك يشتد منه حياك، ولا جرم أن رحمته حينئذٍ تغشاك، فتذوقَ لذّة الأنسِ به، وتفنى في حضَرات قربه، ويدخلك في الأكرمين المصطفين من حزبه.

هذا؛ وقد أجزتُكَ في جميع حزوبكَ وأورادكَ، والذكر والتذكيرِ، مع شهود المنّة للعلي الكبير، والله يجلي عن قلوبنا ظلمَةَ الحجابِ، ويزيدنا علما وإيقاناً من ذلك الجناب، ولا يلهينا بلامعِ السراب، إنه كريم الثوابِ، غفورٌ وهّاب».

* * *

(١٥) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه
[للسيد علي بن محمد الجنيد، تريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الموفقِ من اختاره لنفسه من العباد، فسلكَ به مسلك الهداية والرشاد، فأخذ زاده من دار النفاد، وبذَر فيها ما يحبّ أن يبقى له يوم الحصادِ، وكان همته المتجَر الأكبر، والمتجر الأفخر يوم التنادِ، بالفرح الدائم، والسرور الناعم، برضوان الله الكريم الجواد، في دارٍ لا تطرقُها الأحزان، ولا تقطع مسافتها الأزمانُ والآماد. والصلاةُ والسلام على الشفيعِ يوم يفرّ الآباء من الأولاد، وعلى آله وصحبه وسائر الأتباع والأجناد.

وبعدُ؛

فقد طلبَ مني الوصيةَ، الولدُ ذو الفطرة الزكية، والهمة العلية، علي بن محمد الجنيد باعلوي، أعلى الله مقامه، وعمر بطاعته وتقواه لياليه وأيامه، حتى يبلغَ من كل خير عاجلٍ وآجلٍ أقصَى مرامه.

فالوصيةُ، لي ولكَ يا وليي، بالتزام جادّة التقوَى، الموصلة إلى سعادة الأبدِ، والنعيم السرمديّ في جوار الفرد الصمد، في سرورٍ يتجدّد، وملكٍ يتخلد، وهي امتثالُ أوامرِ الله التي شرعَها في كتابهِ المبين، وعلى لسان رسوله الأمينِ.

أولها شهادةُ الوحدانية للربِّ العظيم، ولا تُعامل بتقواه غيرَه من كبير ولا صغيرٍ، إذ لا يملك معه أحدٌ نفعاً ولا ضراً، من عدو ولا حميم. فمعاملةُ غيره ضائعةٌ، بل هي موجبةٌ للخزي والعذابِ الأليم.

ومعاملته جلَّ وعلا مبلّغةٌ لكل مقام كريمٍ، مؤدية لدار البقاء والنعيم المقيم، مصحوبٌ عاملُها في هذه الدار بالرعايةِ من البرّ الرحيم، والحياة الطيبة والكرامة والسيادة والسعادة، كما يعرف ذلك كلّ ذي قلبٍ سليم، وكم عطايا، وكم مزايا، لا تنحصر بعدٍّ ولا حسابٍ، ولا لذي علمٍ عليمٍ.

وكيفَ لا! وهي موجبةٌ لرضوانِ الربّ العظيم، وكم ارتفعت بها من درجات وكم علتْ بها من مقاماتٍ، وكم تيسرت بها من خيراتٍ، وكم عظُمَتْ بها من هباتٍ، كما أن ذلك معروفٌ مشهور بين البرياتِ، لا يخفى إلا على أهل الضلالاتِ، والبصَائر العامِيات.

فأخلصْ قصدَك، وقوِّ همتكَ في معاملة ربّ البرياتِ، ولا تلاحظْ بها غيره من سائر البرياتِ، ترَ عظيم المسراتِ، وتبلغْ أرفعَ الدرجاتِ، وتسعد في الحياة وبعد الممـاتِ، هذه سبيلُ المحبوبين المقربينَ، ممن رعتهم العناياتُ من المؤمنين والمؤمنات، ثم المسارعةُ إلى فعل الخير والأعمال الصالحات، ومجانبة الـخطايَا والسيئات، وتدارك ما فاتَ، والرجوع إلى المولى مما ألـممْتَ به من المخالفات، بالتوبة بصدقِ الندَم من مخافة عالم السريراتِ، إشفاقاً من حلول الندَم، ونزول النِّقَم، وتفويتِ المكرُماتِ.

واجعل أقصى مرادِك فيما تقدّمه ليوم الميقاتِ، بالفلاح الدائم، والبشْرَى بالفوز الأكبر بين أهل الأرض والسمواتِ، حينَ اشتدادُ الكربِ وعظيم

الحسراتِ، بأن ينادي جلَّ وعلا عبادَه في ذلك الموقف العظيم، باجتماع الأولينَ والآخرين، من الجن والإنس أجمعينَ، بقوله جلَّ وعلا، كما وردَ في الخبر: «يا عبَادي إني أنصتُ لكم منذ خلقتكُم إلى يومكمْ هذا، فأنصتوا إليَّ اليومَ، جعلتُ لي نسباً، وجعلتُ لكم نسباً، فرفعتُمْ أنسابكم، ووضعتُمْ نسبي، قلتُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقلتُم: فلانٌ أعلى من فلانٍ، فاليوم أرفعُ نسبي، وأضع أنسابكم. أينَ المتقون؟ ليقُمِ المتقونَ، فيرفع لهم لواءٌ، فيدخلونَ الجنة بغير حساب».

فهل مزيةٌ أعظمُ من هذه المزية! وهل درجةٌ أعلى من هذه الدرجة العلية، في ذلك الموقف العظيم، حين اجتماعُ الأول والآخر، وبلوغُ القلوبِ الحناجرَ، هول ذلك اليومِ، إذ يقدّم الرحمنُ ذلك الأقوام، ويمضي بهم إلى دار السلام، مسرورين بنيل الشرف الأعظم في ذلك المقام، فيدخلونها سالمين غانمينَ برضوان ذي الجلال والإكرام، لا يطرقهم فيها خوفٌ ولا همٌّ ولا اغتمام، بل يتجدّد لهم السرور بتضاعُفِ الإنعام، لا يخشون الزوال والفواتَ، ولا طروق الحمام، فطوبى لمن قطع مسافة الليالي والأيام، التي هي عما قليلٍ إلى ذهابٍ وانصرام، وعمَر بها دار الخلود في جوارِ ذي الجلالِ والإكرام، بالتزام الصّلاة والصيامِ، والإحسان إلى الأقارب والأرحام، والأرامل والأيتام، وكسي عوراتهم، وإشباع جوعاتهم في ذلك المتجَر أعلا مرامٍ، عند أرحمِ رحيمٍ، وأكرم كريمٍ، لا يتناهى فضله والإنعام، فرحمته، جلَّ وعلا، شاملةٌ بمن أقامه في ذلك المقام».

* * *

(١٦) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه وعافاه آمين
[للسيد عمر بن علي بن هارون الجنيد، تريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله حمداً ينشأ عن تعظيم المنشئ قبل نعماه، فنحمده في منعِه كما نحمده في عطاه، إذ هو البرُّ الرحيم، الجواد الكريم، ومن أقبل عليه يفتحْ له أبوابَ رحمته ويكرم مثواهُ، ولا تزال عينُ عنايته تكلأه وترعَاه، بل تمنعه ويحميه بحماه، عما يضره في الحال وفي عقباه، ويريه حسْن اختياره وإن خالف حظّه وهواه، فإذا انكشفَ له الحجابُ لم يؤثرْ مراداً ولا اختياراً، إلا ما أراده له مولاه.

فحينئذٍ ينزلُ عليه، فينكسر بين يديه، ويشهدُ في منعه عين عَطاه، فلا جرم أن يجد لذة المصافاةِ، وحلاوةَ المناجاة، فلا يسأم ولا يفتر عن طاعته وتقواه، إذ لا يرَى في الوجود غير سيِّده ومولاه، وقد اختصّه برحمته وذكراه، فيعكفُ عليه ويصرف همته عمن سواه، إذِ الكلُّ في قبضته وتحت حكمه وقضاه.

والصلاةُ والسلام على حبيبِ الله ومصْطفاه، الذي جعله على الصراط المستقيمِ الأقوَمِ بين رسُلِه وأنبياه، وجعل محبته آيةَ محبّته باتّباعه لمن اختاره لنفسِه وارتضاه، وعلى آله وصحبه الذين أكملَ الله بهم دينَه، وأظهر بهم الحقَّ وأشاد علاه.

وبعدُ؛

فقد طلبَ مني الإجازةَ والوصيةَ، الحبيبُ الأريبُ، الأواه المنيب، عمر ابن الحبيب علي بن هارون الجنيد، أسعفه الله بالسعيِ الرشيدِ إلى المنهج السديد، وبلّغَه في دنياه وأخراه فوقَ ما يُريد.

فالوصيةُ لنفسي وإياكَ، يا وليّي، بتقوَى الله التي أوصى بها الأولين والآخرينَ، واختصَّ بها أحبابه وأولياه، واستقام على حدودها وقام بأعبائها صفوةُ أنبيائه، ثم تفاوت المختصّون بها، فنالَ كلٌّ من الكرامةِ عنده على قدر مرتقاه.

وهي عبارةٌ عن: امتثالِ أوامره تعالى، والمتصف بها رابحٌ من مولاه بالرضوان، ومُلاطفة الإحسانِ، واستنارةِ السرائر والإعلانِ، والخلودِ في فراديس الجنان، والأمان من الخزْي والهوانِ. واجتنابِ النواهي؛ وبها السلامةُ من سخَطه تعالى، وكسْف الأنوار، وشُؤم القطيعة التي هي شيمةُ الخاسرين الفجّار، وميعَاد أهلها دار البوار.

فحينئذٍ تعيّن على من رام السّعادة ونيل الزُّلفى والسيادَة، أن يعامل مولاه بما يحبه منه ويرضاه، ولا سبيلَ له ولا حول إلا أن يفتقر إليه، وينكسر بين يديه، ويدعو دعاء المضطر أن يقيمَه بصدق العبودية، وإخلاص القصْد لوجهه الكريم، ونيل الزلفى عنده في دار الخلدِ والنعيم المقيم، وأن يحفظه مما يوجب سخَطه من ارتكابِ ما نهى عنه عن كلّ معصية ظاهرةٍ، وكل خلق ذميم.

فإذا علم المولى صدق عبدِه، أسعفه بإحسانه ورفْدِه، فيكشف له فيها

ذنبه وعنده. فحينئذ يعبده مع الجذب والسرور، ويفوّض إليه جميع الأمور، ويشتعل في قلبه مصباح النور، فيرى الحقائق من قرب الحق ومعيّته له ونظره إليه. فيستحي أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمرَه، فيُلازم الخدمةَ لهذا السيد المجيد، ويسرُّ إذ اختاره من بين العبيد، ثم ينظر فيما أمامه، وما مقدّمه عليه من الأمور الأخروية، ويتأهب للاستعداد بالعمل الصالح للمعادِ، ويذل الباقيات الصالحات ليوم الحصادِ.

ثم تغشاه الهيبة بجلال مولاه وعظيم كبريائه، أن يخالفَ أمره، ويضيع حقّه، فقد حمله الأمانةَ التي أشفقت عن حملها السمواتُ والأرضُ والجبالُ. فلا يزال خاشعاً متواضعاً لربه، تائباً من ذنبه، مشفقاً من خطر يوم يقومُ الناس لربّ العالمينَ، وتؤخذ الصحائف بالشمال وباليمين، فما بين مبشَّر بعيشةٍ راضيةٍ، وجنة عاليةٍ، وقصُور ساميةٍ، وأنهار جاريةٍ، عليها بساتين وأنهار دانية. وإما، والعياذ بالله، في جحيمٍ هاويةٍ، لكل نفس خاطئةٍ، غافلة عن ربها ساهية.

فلا جرم أن يبقى العبدُ بين الخوفِ والرجاءِ، فالرجاءُ يحمله على تحمل المشقات، لعظيم السعادات، وكمال الراحاتِ، في جوار رب البرياتِ، في حياة بلا مماتٍ، ومسراتٍ لا تشوبها المنغّصاتُ والمكدراتُ، واجتماعٍ بمن يحب بلا افتراق ولا شتاتٍ، وبالخوف يهربُ من جميع معاصِي ربِّ الأرض والسمواتِ، خشيةً له وتعظيماً لجلاله، والوقوع في دركاتِ الهلكاتِ، وعظيم الحسرات والندامات، في دار الجحيم والعذابِ الأليمِ.

فيتذكر أنه في دار السفر والحزْنِ، والمسافرُ الذي يتوقع قدومه على وطنه ودارِ إقامته لا يشغَلُ نفسه إلا بما يقدّمه من دار سفرِه وغربتِه لدار مقرّه ومحلته،

التي لا تعقب منها رحلته، ولا تنفدُ فيها مسرّته، ولا تيأسُ فيها نعمته، ولا تهرم فيها شبيبته، ولا تسقم فيها صحته، ولا توهن فيها عزّته، في جوار الحليم الرحيم الغفار، صحبة المصطفى المختار، وسائر الأنبياء الأكرمين الأخيار، وسائر الصالحين الأبرار.

وهذه، يا من كانت همتُه أبيةً، ونفسُه زكيةً، تطلبُ المعارجَ العلوية، وتترك السفاسفَ الدنية، والمراتع الوبية، والدّرَكات السفلية، لا من كانت همته جعليةً، ونفسُه خسيسةً دنيةً، يقصُر نظرُها على الحظوظِ الدنيوية، ولم يبصر أنها عما قليلٍ متلاشيةٌ منسيّة، وما سرت به منها صائرةً يديها منها صفراً خلية، وذلك يبقى في غرَّته وغفلتهِ حتى تفجأه المنيةُ، فتعظمُ حينئذٍ عندهُ الرزيةُ، فيقول: يا ليتها كانتِ القاضية المقضيّة، فلا تغني عنه تلك الحسرةُ، ولا يبلغ منها الإقالة والأمنية.

فإذا أخذ من هذه الوظيفتين الشريفتين، وهي الخوفُ والرجاءُ، فليضُمَّ إليها وظيفتينِ، هما لهما عمادٌ، فيكمُل بهما الفلاح ويزدادُ، وهما الصبر والشكرُ.

فالصبرُ؛ على تحمل ما تمرَّرَ على النفسِ وإبعادِها، بنيل كل مرادها، بصبرها لمقامٍ جليلٍ، وظل ظليلٍ، وسلامة من عذاب وبيلٍ، وحسابٍ طويلٍ.

والشكر؛ به حفظُ الأنعامِ، من نعمة الإيمان والإسلامِ، بمنة ذي الجلالِ والإكرامِ، بما أنعم عليه من طاعته، وشرَّفه به من خدمته، وأرباح تجارته، وعلى ما أكرم به من جميع نعمِاهُ، فإن الشكر قيدٌ للنعم، وحفظٌ لها ومزيد فيها، فليحمد الله ويشكره على ما يتقلبُ فيه مما خوّله من نعمـاه، فإنه تعالى يزيد

الشاكرينَ، كما أخبر في كتابه المبينِ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾.

فلازِمْ، يا حبيبي، شُكْر ربكَ، واستعظمْ ما منه إليكَ من نعمه وإحسانه. كثيرَه وقليلَه، دقَّه وجِلَّه، فالقليلُ منه [إذا] ذكرَكَ به وهدَاه إليكَ كبيرٌ، إذْ ساقَه إليك وشرّفك بذكرِه، وأهدى ما أهداه إليكَ، فترَاه أنه منه. فعنْ نبيِّ الله داودِ عليه الصلاة والسلام: أنّ الله أوحى إليه: «أدرِكْ خَفيَّ اللطفِ ولطيفَ الفِطْنَة، فقال: ما خفيُّ اللطفِ وخفيُّ الفطنةِ يا ربِّ؟ فقال: خفيُّ اللطفِ: أن أسوقَ إليك فولَةً مسوَّسةً، فتعرف أنها مني، فتذكرني بها وتشكرني عليها، وأما خفيُّ الفطنةِ: فإن وقعَ عليك ذبابة فما فوقَها، فتعرفُ أني أوقفتُها عليكَ، فتسألني رفعها»، أو هذا معناه، فترى عظمةَ المهدي، وعنايته بكَ، إذا عرفت ذلك وعلمتَه.

ومن هنا تصير المحبةُ للمنعِمِ، لأن القلوبَ مجبولةٌ على ذلكَ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «جبلتِ القلوبُ على حبِّ من أحسَن إليها»[1]، وإن لم تدركِ النفوسُ علمَ إحسانِ باريها إليها، لرؤيتِها الأسبابَ والوسائطَ المجازيّة، ولو رأتْ المحاسنَ من مولاها لأحبّته بالضرورة، ولسارعتْ إلى رضاهُ، وشكرت آلاءَه ونعماه.

والشكرُ من أعظم القُرَب، وبه أكملُ الجزاءِ، وأعظم الثوابِ، وفي الخبرِ عنه عليه الصلاة والسلام: «إنّ أول زمرةٍ تدخل الجنة الحمادون»، وآخِرُ عقبةٍ يقطعُها العبدُ في مسيره إلى ربه عقبةُ الشكر. وفي دعائه عليه الصلاة والسلامُ:

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث ابن مسعود، وصحح وقفه عليه.

«اللهم إني أسألك ثوابَ الشاكرينَ، ونزُلَ المقربينَ، ومرافقة النبيينَ، ويقينَ الصدِّيقينَ وذلةَ المتقينَ، وإخبات الموقنينَ، حتى تتوفاني على ذلكَ يا أرحم الراحمين»(١).

فينبغي أن يكثر من هذا الدعاءِ، ويطالبَ نفسَه بمقتضاه، فإن المولى مليٌ بكلِّ خيرٍ، لا يتعاظمه مسألةُ سائلٍ، ولا يخيب في إحسانه أمَلُ آملٍ، والهمة قالبُ التوفيقِ، فمن ركبَ جوادها بلغَتْه المأمولَ، وبلغته بحول الله وقوته وفضله ورحمته ما لا يحولُ، فإذا خلصت النية وصدق العزمُ جاء من لطف ربه وأبرارِه ما لا يخطرُ على بالٍ، ويعجز عنه كماةُ الأبطالِ، لالتجائه واعتماده على ذي الكرم والإفضالِ.

اللهُمَّ اجعلنا من الحامدين لكَ على كل حالٍ، الصادقين المخلصين في الأقوالِ والأفعالِ، ولا تجعل همنا ولا مبلغَ علمِنا دارَ الزوالِ، ومواطنَ الظعنِ والارتحالِ، حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا يا ذا الكرَم والإفضَالِ.

هذا؛ وقد أجزتُكَ بما أجازني به أشياخي، فيما تقرأه وتعمَلُ به من الأذكار والدعوات والذكر لله، والتذكير به وبنعماه، وبالدار الذي أعدها لجزاء، وتلاوة كتاب الله، مع التعظيم للمتكلمِ، ومطالبة النفس بالعزم على فعل ما بِه أمر، والاعتبارِ بقصصه وأمثاله، وتعظيم الرجاء عند وعده، والإشفاق من وعيده، فالقرآنُ صراطُ الله المستقيم، فكَم فيه من العجب العجابِ لكل ذي قلب سليمٍ، من ظلمات النفوسِ ووساوس الشيطان الرجيمِ، أعاذنا الله وإياكم من مكرِه وخدائعِه، كما آيسَه من رحمته، فاعتمادُنا عليه، والتجاؤنا إليه، وكفى به ولياً وكفَى به نصيراً، والحمدُ لله رب العالمين».

---

(١) أورده المتقي في «كنز العمال»، وعزاه إلىٰ الديلمي.

(١٧) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه آمين
[للحبيب محسن بن علوي السقاف، سيون]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله مفيضِ النفحاتِ القدسية، على قوابل فِطَر النفوس الزكية، المطهرة من الأرجاس الحسية الطبيعية، وتحليتها بالأعمال الخالصة لرب البرية، حتى إذا نزلتْ بها تلكَ النفحاتُ، تعلّت إلى المعارج العلوية، في سرادقات الـحضائرِ القربية، ثم انعكستْ أنوارُها على الهياكل النورانيةِ، فثبتَ لها قدمُ الصدق والوفاء بحسن المعاملة، فلزمت الخدمة لباريها في ليلها ونهارها، بكرتَها والعشيّة، فذاقتْ لذة الصّفاء من حضَائرها الإنسية، فلا جرمَ أن انخلعَتْ حظوظُها البشرية، وشهواتها الدنيوية، وتنورت أخلاطُ طبائعِها السبعية، والشيطانية والحيوانية، حتى صارت شبكاً لاصطيادِ معارفِها العندية، من أجسام أعلامِ معَالم المظالم الكونية، فشاهدت أسْرار أنوارِ حقائقها الملكوتية.

والصلاةُ والسلام على إمامِ محرابِ الحضرة الصمدية، وعلى آله وصحبه أئمّة الهدى وسَادة البرية.

أما بعدُ؛

فقد طلبَ مني الإجازةَ والوصيةَ، ذو الأخلاق الرضية، والهمة العالية العلوية، الولدُ النجيبُ، الأواه المنيبُ، محسن بن سيدنا وشيخِنا الإمام علوي

ابن الشيخ الإمام سقّافِ الصافي باعلوي، أعلا الله مقامه، وأسعد بطاعته وتقواه لياليه وأيامه، وبلغَه من معرفته وقربه وحبه غايةَ مرامِه.

فالوصيةُ، لنفسي وإياكَ يا حبيبي، بتقوَى اللـه التي جـمعتْ أصنـافَ المكرماتِ، وأحرزَتْ بها كواملُ السعـاداتِ، وارتفعت بـها أعالي المقامات، وهبّت على أربابـها عواطِرُ النفحـاتِ، وانشرحت بـها الصدور الحرجاتُ، وصفَتْ بها الأوقاتُ، وانمحتْ بنورها الظلماتُ، وكُفِّرت بها السيئاتُ، وارتفعت بها الدرجاتُ، في الحضائر العلوياتِ، والمقاعد الأنسياتِ، فشمّر فيها أولو الفطر الزكياتِ، المحظيّة بسابق العناياتِ، من أرباب البرياتِ، فنال كلٌ منهم على قدْرِ ما منحَ منها من العطياتِ. فمن ها هنا تتفاوتُ المراتبُ العليات. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فعلم من قوله: ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾: تفاوتُ مراتب المتقينَ، فمن كان أتقى كان أعلَى وأكرمَ على الله.

وهي صراطُ الله المستقيمُ، وقد قام على حدّها القويم ذوالخلقِ العظيم، بما مدَحه به العلي الحكيمُ، بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقوله: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وهنا سرٌّ شريفٌ، ومعنى لطيفٌ هو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، بمعنى: إنك من بينِ المرسلينَ. وهذا بمعنًى: كمال الاستقامة التي لا يقومُ بكمالها إلا شأوُ منصبه العليِّ، وإليه الإشارةُ بقول سيدتنا عائشةَ رضِيَ الله عنها: «كان خُلقُه ﷺ القرآنُ»[1]. وبقوله عليه الصلاةُ والسلام: «تخلقُوا بأخلاقِ الله»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» وغيره.

(٢) أورده السيوطي في «تأييد الحقيقة العلية» (ص٨٩) دون عزو. وقيل: لا أصل له.

وفيه إشارةٌ إلى عدَم إحراز كمالِ ذلك المقامِ إلا له عليه الصلاة والسلام، بقوله: «فاستقيمُوا ولنْ تحصُوا»، وأمّا هو عليه الصلاة والسلامُ، فقد أمرَه بذلك بعد أن أهَّله لما هنالكَ، بقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾.

وتحتَ هذا معاني وأسرارٌ، تنكشفُ لأربابها، ومن سلك مسلكَها وتعاطَى أسبابها، بالجدِّ والتشمير في مراضِي العليّ الكبير. فأولها الهدايةُ، وتتبعها الدرايةُ، فالمجاهدةُ سلّم الهدايةِ، والدرايةُ سُلّمُ خِلعةِ الولايةِ، التي هي معرفةُ جلال الربوبية، وجرَيانُ أوصَافه الجمالية، بفعل النوافل المفيدَة لقربِه، المسعفة بحبّه، بـ«كنتُ سمْعَه»، إلى آخر النبأ.

فحينئذ يخلعُ على أوصافِ العبد من أوصافِ الحقّ مشاهداتٌ عرفانيةٌ ذوقية، يقعُ لها التأثيرُ بما توجهتْ إليه الهمةُ، من علومٍ وأعمالٍ وتصريفٍ، فإن لاحظتْ مشهدَ النفسِ في المظاهر الكونية، وقعَ التصريفُ فيما توجهتْ إليه، وإن توجهتْ إلى الله تعلّت بالمراقي الروحيةِ، وأعرضتْ عن جميع حظُوظها الدنيوية والأخروية، وتنعمتْ بأنسِها في الحضرات القدسية.

فإن ثبت لها القدَمُ في تلك المعارج العلوية، ونودي عليها بـ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾، فحينئذٍ تفيقُ من سُكرها بصَحْوها، فتعرضُ عن حظّها في هذه الدار الدنيوية، لزوال مآلها وتغير ما فيها، فتجعل ما لها في مآلها، في دار الخلد العلية، فتنيبُ إليها إنابةً ثانيةً، وهي إنابة التمكينِ، ورسوخ اليقينِ، وما قبلها تسمّى: إنابةُ التلوينِ. وأصلُ ذلك كله إحكامُ أساسِ التقوى، فأوله تجرّع مرارةِ الصبرِ على فعل المأمورِ، وترك المحذورِ، مع ملاحظة الثوابِ العظيم، ونيل المقام الكريمِ، عند الرب الرحيم.

فعند ذلك يسهُلُ الصعبُ، ويهون العسيرُ مما استثقلته النفسُ، واستعصى عليها، فليزم المريدُ ذلكَ، حتى تنفتح له رزُونةُ القلبِ، فيذوق صفوةَ لذة المناجاةِ فيما يتعاطاهُ، مما يرضي مولاه، فيشهدُ أنه يراه، وأنه بعينه ما يلقاه، ويتمرَّرُ عنده ما كان يستحليه من الغفلة ورعونات النفسِ، ومخالفة سيدِه، فحينئذٍ تقع المجازاةُ، فإن أقبلَ أكرموه، وإن قصّر عاتبوه وأدبوه، ويصير متأدباً في الحال بالحالِ، مع ما يرمي به من بصَر بصيرته في المآلِ.

وأوصي نفسي وإياكَ، يا وليّي، بإدمانِ الانكسَار والاضطرارِ بين يدي عَالم الأسرارِ، آناءَ الليل وأطرافَ النهارِ، خصُوصاً في الأسحار، فمن هاهنا تنفجِرُ تلك الأنهار، وتستجلبُ نفحاتُ الكريم الغفار، والحصُول في ذروة الفخَار، ومن صدقتْ همتُه جاءتْ من المولى معونتُه، وحفظته منه رعايتُه، والله يتولى رعايتَنا ورعايتكم، ويبلغنا بمحْضِ الكرم والإفضالِ غايةَ المطالبِ والآمالِ، ويزهّدنا في دار الفناء والزوالِ، ويجعل عيشَنا فيه وفيما لديه في الحال والمآل، إنه الجواد الكريمُ.

والذكر الذي نشيرُ عليكم به، قولُ: «الله ناظري، الله معي، الله حاضري، الله قريبٌ منّي». فالتزم ذلكَ في الخلوةِ باللسانِ والقلب، واستحضر معانيه، وادعُ بهذا الدعاءِ، وهو: «**اللهُمّ** أقبلْ بقلبي على دينكَ، واحفظْ من وراءَنا برحمتكَ، **اللهُمَّ** كما حُلتَ بيني وبين قلبي، فحُلْ بيني وبين الشيطان وعمَله»، وهذا نبويٌّ.

وهذه دعواتٌ فتحَ لنا بها: «**اللهُمّ** حُلّ عني وثائقَ الشهواتِ الموانع، واكشفْ عني حجُبَ الأغيار القواطعِ، وحَلّني ببوارق الأنوار اللوامعِ، وأشرق

فِيَّ شمْسَ معرفتك الساطع، وحيّرني في فضاء أحديتكَ الواسع، ودلني إلى مقامِ عبوديتكَ الجامع، وعلمني من لدنكَ علماً لا يدرَكُ بغَوصِ الفكرِ وإلقاء المسامع».

هذا، حفظك الله، وقد أجزتُك في هذا، وفي جميع حزوبِكَ وأورادكَ، ونشر العلم والدعوة إلى الله، والتذكير بآلائه ونعماه، وذلك لما طلبْتَ مني، وإلا فلا أرَى أني أهلٌ لما هنالكَ، ولولا الأملُ لكانَ منَّا الخَجلُ مما نقولُ ونعمَل. هذا، حفظكم الله، وادعوا لنا، واذكرونا، فإنا إن شاء الله لكم داعُونَ وذاكرونَ. والحمدُ لله ربّ العالمين».

* * *

(١٨) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه وعافاه آمين
[للحبيب أحمد بن محمد المحضار، والمشايخ آل باحمدون]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله، الذي عمت رحمتُه أولاً وآخراً، وكفلتْ نعمتُه مؤمناً وكافراً، وألهمَ رشْده من عرفه طريقَ طاعتِه وتقواه، من أرادَ به من خلقه خيراً، وجعل له جزيلَ نواله وإفضاله نصيبا وافراً. فسبحانه لم يزلْ عظيماً قادراً، حليماً غافراً ساتراً، حاكماً على الإطلاقِ بسطوته، قاهراً عادلا في حكمه، لا خائناً ولا جائراً، من عامله ربحَ بعد أن كان خاسراً، ومن التجأ إليه بذلّه وفقرِه كان لذلّه راحماً ولكسره جابراً، ومن عصاهُ بجهله ثم تابَ إليه من قبيحِ فعْله كان لذنوبه غافراً، ومن ذكره في نفسه كان له بين ملائكةِ قُدْسِه ذاكراً، ومن تقرّبَ منه شبراً تقرَّبَ إليه ذراعاً وافراً، ومن طلبَه ودعاهُ عند شدته وكربته، وجده لضره كاشفاً ولخذلانه ناصراً.

أحمدُه على ما أولى به من النعماء، ودفع ما به من البلوى، حمداً يستنزل مزيد برِّه دنيا وأخرَى. وأصلّي وأسلمُ على سيدنا محمّدٍ الذي نبع الماءُ من بين أصابعِه وجرى، وعلى آله سادات الدنيا وملوك الأخرى، وأصحابِه ما حَدا الحادي إليه وسرَى.

أما بعدُ؛

فقد طلبَ مني الوصيةَ، السيدُ الشريف، والعالم المنيفُ، خلاصَة الأحبابِ، ونسل الجهابذة الأطياب، ذو الأخلاق الرضية، والشمائل المرضية، والهمة العلية، والسيرة السوية، الأكرم الأفخَمُ، أحمدُ بن سيدنا البركة محمد المحضار، حفظه الله من جميع المضارّ، ولا زال متوجهاً بقلبه إلى جناب الكريم الغفار، سالكا بكليته طريق أسلافه الأبرار. وكذلك محبُّنا المحبوبُ، الذي هو إلى الخير وأهل الصلاحِ مسمًّى ومنسوبٌ، علي بن البركة عبدالله باحمدون، وأخويه المباركين سعيد وسالم، أصلح الله لنا ولهم جميع الشئون، وأسبل على الكل منا عطاء غير ممنون.

فأوصيكُم، حفظكم الله، بما حفظَ به خاصّته من أهل أرضه وسماه، بملازمَة تقوى الله وطاعته، والفرار والحذر من مخالفتِه، في كل ما أمركمْ به، أو نهاكم عنه من معصيته ومخالفته، فإن خير الدنيا والآخرة في تقواه وطاعتِه، وشرّ الدنيا والآخرة في معصيته ومخالفته.

وعليكُم بالتقرّبِ والانتماء إلى أهل ودّه وقربه، الذين يتودّدون إليه بالطاعة ويتقربون إليه بالعبادة، ومجانبة أهلِ بغضِه وسخَطه، الذين يتبغّضون إليه بالمعاصي، ويتجاهرونَ بالمساوي، فقد وردَ: «**أن المؤمن من جليسه**»، و: «**مع من أحب**»، و: «**يحشر على دين خليله**»، إلا من رأى في ذلك مصلحة دينيةً، من جلبِ خيرٍ، أو دفع ضرٍ، أو جلب نفعٍ للدين والمسلمينَ، وقصدَ بذلك النفع والانتفاعَ، فلا بأس به، ففي الخبر: «**نية المؤمن خير من عمله**»، والله ينظر إلى القلوبِ والنياتِ، لا إلى الصور والأعمال.

وعليكُم بالمحافظة والمواظبةِ، حسبَ الاستطاعة، على رواتب العبادة،

فإن بها ترفَعُ الدرجاتُ، بل وتجبر بها مع ما نقصَ من الفرائضِ، وفي ضِمنها والعمل عليها الثوابُ الجزيل الوافر، ويكون بها السلامة والنجاة من كل ما يخافُ منه الإنسانُ ويحاذر.

والحذرَ كل الحذر من أن تتبعا من يخذلكم من المقصرينَ فيما يقربكُم إلى الله من القربات والكراماتِ، ووظائف العبادات، فلا لهم تشاورون، ولا للجاهلين والمضيعين تجاورونَ، فإن الطباعَ تسرقُ الطباع. وكلُّ من يساير خبيثاً ضاعَ، ولا تفرحوا إلا بمَنْ يرغّبكم في الآخرةِ، ويخوفكم من ربكم، ويبصركم بعيوبِ أنفسكم، ويقوي عزمكم في أمور الخيرِ، ويحسّنُ ظنونكم بربكم.

وعليكُم بمحبة تابعي الشريعَة، أهل الخصوص والخلوص، لاسيما أهل بيتِ النبوةِ، ومعدن الرسالة، والتوددِ إليهم، فإنهم سفينةُ النجاةِ، من ركبها سلم، ومن تخلف عنا غرقَ، كذا جاء في الخبر، قال تعالى في محكم كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

وعليكُم بامتثال أوامر ربكم، واجتناب نواهيه، وأن يراكم حيث أمركم، وأن لا يراكم حيث نهاكم، فإنه يرى العبدَ على طاعته فيثيبه، ويرى العبد على المعصية فيعاقبه، إذ هو الناظر إلى كل شيءٍ، والشاهد على كل شيءٍ، والحاضر مع كل شيءٍ، والقريبُ من كل شيءٍ، احمدوه على التوفيقِ، واستغفرُوه من التقصير.

وعليك، يا محبّ علي، بالاغتنام فيما أنعم الله عليك به من الدنيا، فإنها مطيةُ المؤمن إلى دار الآخرة، وإلى ما أعده الله فيها من النعيم المقيم، والملك الكبير السرمدي الذي لا يحول ولا يزولُ، صحبة أنبيائه وأوليائِه، وليس

للإنسان من دنياه، إلا ما قدّمه وادخره منها لأخراه، وذلك بتفقد الكبُود الجائعة، والأجساد العارية، والإحسان إلى ذوي الحوائج الداعية، وكل فعل وعملٍ يدَّخر لك في الآخرة، من المكرمات، ومتجر الباقيات الصالحات، فإن ذلكَ هو المغنمُ الرابحُ، والفعل الجميل السعيد الصالح.

وقد أجزتكُم، أحبّتي وأهل مودتي، فيما سأوردُه من الأوراد النبوية التي تشتمل على ما لا يحصَى من الأجورِ، وكفاية الشرور، من ذلك ما روي عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال عند منامه: اللهُمَّ لا تؤمنّا مكرك، ولا تنسنا ذكرك، ولا تكشفْ عنا سترَكَ، ولا تجعلنا من الغافلين. اللهم ابعثنا في أحبِّ الساعاتِ إليكَ حتى نذكرك وتذكرنا، ونسألك فتعطينا، وندعوك فتستجيب لنا، ونستغفرك فتغفر لنا. إلا بعث الله إليه ملكاً في أحب الساعات إليه، فيوقظه، فإن قامَ وإلا صعد الملكُ، ويبعث إليه آخر ملكاً آخر، فإن قامَ، وإلا صعد الملكُ، فقام الملك معَ صاحبه الأول، فإن قام بعد ذلكَ ودعَا استجيب له، وإن لم يقُم كتبَ الله له ثوابَ أولئكَ الملائكة**»[1].

وورد أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: «**من قرأ عند نومه آخِرَ سُورة آل عمران و﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ الآيةَ، كفتاه**»[2]، أي قيام ليلتِه.

وروِيَ: أن رجلا أتاه ﷺ فقالَ: دُلّني على عملٍ يدخلني الجنة؟ قالَ: «**لا تغضب**»، قال: إذا لم أطقْ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**استغفِر الله عز وجلَّ**

---

(١) أخرجه ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد»، والديلمي في «الفردوس».

(٢) حديث قراءة أواخر سورة البقرة متفق عليه، من حديث أبي مسعود البدري، ولفظ البخاري: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه».

كلَّ يومٍ بعد صلاةِ العصْرِ سبعينَ مرةً، يغفرِ الله لكَ سبعينَ سنةً»، قال: فإن لم يكن عليَّ ذنوبُ سبعين سنة؟ قال: «يغفر الله لأقاربك».

وروي عنه أيضاً أنه قالَ: «من قالَ: أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الذي لا يموتُ وأتوب إليه ربِّ اغفر لي، خمساً وعشرين مرةً بعد الصبحِ والعصر، لم ير في بيته ولا في أهل دارِه ولا في مدينتِه ولا في البلدِ الذي هو فيه ما يكرَهه».

وعنه ﷺ: «من قالَ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميتُ وهو على كل شيء قديرٌ، مئةَ مرةٍ، كانت له عدلَ عشر رقابٍ، وكتب له مئة حسنةٍ، ومحيتْ عنه مئة سيئةٍ، وكانت له حرزاً من الشيطانِ يومَه حتى يمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضلَ مما جاءَ به، إلا رجلٌ أكثر منه. ومن قالَ: سبحان الله وبحمده، كلَّ يومٍ مئة مرةٍ، حُطّتْ عنه خطاياهُ وإن كانت مثل زبد البحر»[١].

وقال ﷺ: «من قالَ، حين يصبحُ وحين يمسي: رضيتُ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً ورسولاً، كان حقاً على الله أن يرضيه»[٢].

وفي «السنن» عن عبد الله بن حبيب قال: قال ﷺ: «قُل». قلتُ: وما أقول يا رسول الله؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتينِ، حين تصبح وحين تمسي، ثلاث مراتٍ، تكفيك من كل شر». وقال: «ما من عبدٍ يقولُ، في صباح

---

(١) أخرجه الترمذي وغيره.

(٢) رواه أبوداود والترمذي وغيرهما.

كل يوم ومساءِ كل ليلةٍ: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمِه شيء في الأرضِ ولا في السماء وهو السميعُ العليم، ثلاث مراتٍ، لم يضرَّه شيء»[١].

وفي البخاري: «سيدُ الاستغفارِ: اللهُمّ أنت ربي لا إله إلا أنتَ خلقتني، وأنا عبدُك وعلى عهدك ووعدكَ ما استطعتُ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنتَ. من قالها حينَ يمسي دخل الجنة». وقال: «من قال حين يصبح وحين يمسي: اللهُمَّ إني أصبحتُ أشهدك وأشهدُ حملةَ عرشكَ وملائكتكَ وجميع خلقكَ، بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدكَ لا شريك لكَ، وأن محمداً عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار، فمن قالها مرتين أعتق الله نصفه، ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه، فإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار»[٢].

فعليكُم كان الله لكم بملازمةِ هذه الأذكار، وبعضُها حسب الإمكانِ، ففي المواظبة عليها جميعُ الخيور، وكفايةُ الشرور، فلا ينبغي إهمالها لشدّة الحاجة إليها، وعظم الانتفاع بـها في العاجل والآجل. هذا؛ حفظكم الله، وأسعَدنا وإياكم بما يوجب لنا رضاه، ونيل الزلفى عندَه لنكون من الفائزين المفلحينَ، إنه على ما يشاء قديرٌ، وبالإجابة جدير. وهذه الوصيةُ لكما ولإخوانكُما سعيد وسالم، واغتنما إشارةَ الوالدِ، يبنى لكما قصر في جنة المأوَى، من ذهبٍ، لا نصبَ فيه ولا تعَب».

* * *

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) رواه أبوداود وغيره.

(١٩) وصية أخرى

[للحبيب عبد القادر بن محمد بن حسين الحبشي، الغرفة]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله المتجلي بالصفات الذاتية على القلوب العرشية، لما تزكت عن الحظوظ البشرية، والأخلاق الشيطانية، والأوصاف البهيمية، وتحلت باتّباع صفوة البرية، صلى الله عليه وعلى آله الفائزين بالأسرار الملكوتية، وصحبه هداة الأنام إلى سبيله المرضية.

أما بعدُ؛

فقد سألني أخي ووليي، وحبيبي في الله، البارع في قيام الدياجر، وظمأ الهواجر، العضُد المؤازر، على مراضي الأول والآخر، عبدُ القادر بن محمد بن حسين الحبشيُّ، جلَا الله بنوره ظلام القلوب، وزكى به النفوسَ من أدناس العيوب، وأدناه من حضيرة علام الغيوب، أن أوصيَه، فأجبتُه مسارعة في ذلك الأمرِ، رجاء أن يكون من الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحاتِ وتواصَوا بالحق وتواصوا بالصبر.

فالوصيةُ، لي ولأخي، بما انطوتْ عليه هذه الآيةُ الكريمة، ذاتُ الأسرار العظيمة، والأخلاق الرحيمة. فالحقُّ جامعٌ لجميعِ ما جاء عن الله من الأوامرِ

المقرِّبة إليه، من وظائف العبادات البدنية، وهي تسعةُ أوصافٍ، متباعدَة الأكنافِ، وهي أجسامٌ، وإنما أرواحها وجودُ الإخلاصِ فيها، فمتى وجدَتْ أرواحها طارتْ إلى حَضيرة الحقِّ، وآبت إلى سرِّ مهديها بتجليات الأنوار، وغرائب العلوم والأسرار، وأنهضت همته إلى حلَبة السباقِ، فلا يزال يتحرَّى الصدقَ والإخلاصَ، إلى أن ينيخَ به جوادُ همته في حضرة التلاقِ، فحينئذٍ يحصل له الطمأنينة والوفاقُ، ويزول عنه التلوينُ والاضطرابُ، ويصفو له الشرابُ، ويسمع الخطاب، ويتلذذ بالعقابِ، ويفنى عن نفسه وعن مراداته والآرابِ، فيأتيه نداءُ رفيعِ الجناب: ارجعْ إلى تلك المعالم والأسبابِ، فقد رفعْنا عنك الحجابَ، فتنعّم بنا في داخل الفؤادِ، وادخل في حيّز سائر العباد.

فحينئذٍ تتأصلُ في القلبِ شجرةُ اليقينِ، تسقى من عين السحياةِ بأربعة أنهارٍ: نهر الزهد، ونهر الصبر، ونهر الخوف، ونهر الرجاءِ. ثم تطلِعُ تلك الشجرة أربعَ ثمراتٍ، من كل نهر ثمرةٌ: فنهر الزهدِ يُطْلع ثمرة التوكل، ونهر الصبر يُطلع ثمرةَ الرضا، ونهر الخوفِ يُطْلع ثمرة الجلالِ، ونهر الرجاء يطلِعُ ثمرة المحبة.

فإذا نضجت تلك الثمارُ، عُصرَت في حانة القلبِ في أربع كاساتٍ من الرضا، كأنس الأنس، والاستبشارِ، وإجمال الطلبِ.

ومن الجلالِ: الهيبةُ والخمودُ تحت سلطان الرهَبِ، ولزوم بدِّ الأدَب.

ومن المحبةِ: الاشتياقُ، والاحتراق بنيران الهجر والفراق.

ومن التوكلِ: الالتذاذُ بإرسال النظَر إلى مصنوعاتِ الرحيم الخلاق.

ثم يبنَى من تلك الشجرة وأثمارها وأنهارها سورُ التمكينِ، فلا يبقى منها

شيءٌ إلا لربّ العالمينَ، وبهذه الشجرة وأنهارِها وأثمارها قامَتْ العوالم أجمعينَ.

فعليكَ، رحمكَ الله وحفظك، بتحقيق أصُولها، لتدرك فروعَها، وتعثر على ينبوعها، والله المستعانُ على تلبيسِ أنفسنا وغرورها، وإطفاء نيران شرورها، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم والحمد لله رب العالمين».

❋ ❋ ❋

(٢٠) وصية أخرى
[إلى الحبيب علي بن عمر السقاف، سيون]

بسم الله الرحمن الرحيم

«وحسبنا الله ونعْمَ الوكيلُ»

«الحمدُ لله الذي أطلعَ في سماء السرائرِ نورَ الإيمان الصادعِ لظلام ليل البشرية، بفيضَانه من حضرَة القلبِ في مراتب الإحسان، المتأجّجة من لوامعِ طوالع شمس الإيقان، الغامرَة لجميع عوالم الأكوانِ، البارزة من إحاطة نقطة قبْضَة الرحمنِ، التي اندحَتْ منها نسخةُ الوجود الكبرَى، المندرجة في النسخة الصغرَى، التي هي حقيقة الإنسانِ، المتجلية بمظهَرَها الكليّ في صفوة ولد عدنان، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلمَ، ما خرقت الهمَمُ المطرحة في بساطِ الذلة والافتقارِ حجُبَ الأكوانِ، حتى تعمَر بها الأزمان، وتنقلبَ بها الأعيان.

أما بعدُ؛

فقد سألني الوصيةَ الأخُ الصفوة، الحبيبُ العلامة، علي بن سيدنا وشيخنا فرد الزمان وعينِ الأعيان شُجاع الدين عمر بن الإمام السقاف بن محمد الصافي، أسعفه الله بنيلِ كل مطلوبِ، وجذبَ لطائفَه المستقيمة إلى حَضيرة

علامِ الغيوب، فأجبته محقِّقاً من نفسي بفقرها، وإفلاسها عن تلك البضاعة، مؤملاً ومعولا على من يجب لأمره الطاعة.

فاعلَمْ سيدي، أنّ أولَ ما يتعين عليك أن تجريَ من قلبك نَهْرَي الصدق والإخلاص، فبهما تبنى قصورُ المعالي، ومن سوحهما تلتقطُ نفائسُ الدرر واللآلي، ثم توجُّه الهمةَ، وتجرُّدُ العزْمَ لقطع مألوفاتِ النفسِ، وتشجعها على اقتفاء آثار السلفِ، مستعيناً بالله، ومتوكلاً عليه، فإن مع حسن التفويض وصدقِ التوجه تذهبُ الرعونةُ، وتحصل المعونَة، وترتقَى المعالي، وتذَلَّلُ الصعوب، وتهزم جنود النفس والشيطان وتستولي جنودُ الرحمن. فإنك متى أقبلتَ عليه بهمتّكَ وقصدكَ، كفاكَ أعداءَكَ، ونصركَ عليهم، فأقبل عليه، ولا تعبأ بمن سواهُ، فبيده أزِمَّةُ الخير والشرّ، والأمر أمرُه، وهو معك بالنصر والهدايةِ، ما لم تعرِضْ عنه برؤية غيره فيكلَكَ إليه.

وأوصيكَ بمُلازمة الذكرِ، واستحضار عظَمة المذكور، تُدرَجْ به في مدارج أهلِ الحضور، فإنه الإكسير الذي به تدرَكُ جميعَ السعادة الأبدية، والمغناطيسُ الذي تفتح به الخزائن الغيبيةُ، والمركَبُ الذي تصل به إلى حضَرات العندية، والريحُ المثيرة لسَحائب الرحمة المحبوبية، المخلّصَة من رقِّ المسالك النفسية، المنقذَة من متاعب ظلماتِ البشرية، المعلقة بالهياكلِ الجسميةِ. ثم إرسال النفْسِ في مجاري الأقدارِ، مع تعلق القلبِ بالاشتياقِ إلى مجريها بحسن الرحمة والإشفاقِ، وكمالِ اللطف والإرفاقِ، تظهر لك من هاهنا علومٌ مخزونةٌ، وأسرار مصونةٌ، ثم لزوم العبودية الذي هو الانكسارُ والافتقار، في جميع الحالات والأطوار، والقيام بحقّ الربوبية، وملاحظة أنه يراكَ وحاضرٌ معكَ في ظاهر

العلانية وباطن الإضمار، وتجعل في قلبكَ حارساً لدفع الخواطرِ، وقيّماً على حركات الظواهر.

فأوصيكَ بنشر العلمِ، ودعوة العباد إلى مراضي المولى، رحمةً وشفقةً عليهم، ومعاملةً مع الله، مع شهود التقصير، والاستعانة على إرشَادهم باللينِ والرحمةِ لأهل النفوس، والمحبة والتآلف لأهل القلوب، فإن بذلكَ تُطْفأُ نيرانُ النفوس لأهل النفوس، وتظهر أنوارُ القلوبِ، فإذا لزمتَ هذا، فعما قليلٍ تقرُّ منك العينُ، وتطوَى عنكَ مسافةُ البين.

حرَّر الله قلوبنا من رقِّ الأغيارِ، وبارك فيما بقي من الأعمار، وأنهض همَمَنا بالاستعداد لدار القرارِ، وأبدلنا فيما سلفَ منا من السيئاتِ والأوزار، إنابة تامةً تهدينا إليه، وترغّبنا فيما لديه، إنه على ما يشاء قديرٌ، وبعباده لطيف خبيرٌ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلمَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين».

* * *

(٢١) وصية أخرى
[إلى الحبيب طه بن شيخ بن عمر بن طه الصافي السقاف]

بسم الله الرحمن الرحيم

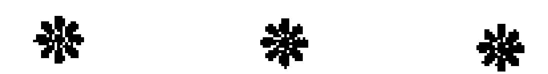
«الحمدُ لله الذي جعلَ المحبة فيه من أكملِ الوظائف الدينيـة، وأزكى الأعمالِ القلبية، وهي مركبُ الوصولِ إلى حضرة الربوبية، وبها نيلُ السعادة الأبدية، وفيها يتنافسُ خاصة الله من البرية، وصلى الله على سيدنا محمد إمامِ الحضرة الذاتيةِ، وعلى آله وصحبه وسلم ما توجهَت الـهممُ بالاتجارِ للحياة السرمَدية.

وبعدُ؛

فهذه تذكرةٌ لسيدي الوالدِ السعيد، بالسعي الحميد، للربّ المجيد، طه ابن الحبيبِ الفاضلِ شيخ بن عمر بن طه الصّافي، ألبسَه الله أجمل العوافي.

فاعلمْ سيدي أنّ أكملَ السعاداتِ، وأرفعَ الدرجاتِ، وأعظم الكراماتِ، في لزوم تقوى الله، وهي عبارةٌ عن التزامِ ما به أمرَ، والفرار عما عنه زجَر، واغتنامُ الأوقاتِ الماضية للحياةِ الباقية، بإخلاصِ العملِ لله، وسلامة الصدْرِ، لجميع عباد الله، والجدُّ في أرباحِ تجارة الآخرة، وتذكيرِ القلبِ ما أعدَّ الله للمحسنينَ من نيل الزلفَى والتكريمِ، والفوز العظيمِ بالنعيم المقيم، ورضوان الرب الرحيم.

ثم التفكرُ في سرعة ذهابِ الدنيا، وتناوب أهلها فيها، وكثرة تقلبها بهم، وغضُّ البصَر عن زهرتها الفانيةِ، وعدَم الفرَح بوُجْدانها، وعدم الحزن على فقدانها، ليكون فرَحُك بربكَ دائم، وقلبك بين يديه قائم، أدام الله سرورنا به، ووجَّه كلياتنا إليه، وجعلنا ممن يحبه ويرتضيه، إنه وليّ كلّ خيرٍ، وكلٌّ بيدِه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».



(٢٢) وصية أخرى
[للشيخ حسن بن عبد الله العمودي، دوعن]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي تضاءلتْ عن إحصاء شكْرِ اليسير من نعمِه سوابقُ همم الحامدينَ، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ علَمِ الهدَى للمهتدينَ، وعلى آله وصحبه أجمعينَ، السالكين على نهجه القويمِ، وصراطه المستقيمِ، ثم على من ألبسته العنايةُ جلبابَها، وسامرت بخطابِها، لطيفَةَ سرِّه الوجُودي، حسن بن عبد الله العمودي، أثار الله من قلبه لوعَةَ الاقترابِ، ومحقَ عنه كل حجابٍ، حتى يُسمِعه لذيذَ الخطاب، ويُسكرَه برحيق الشراب، بشَراب الصفوةِ الأنجابِ، الذين لم تهِمَّهم لوامعُ السراب.

فيا سيـدي، سألتني أن أوصيكَ، وليس عنـدي إلا اليسيـرُ مما عندكَ، ولكني أجبتكَ امتثالاً لأمركَ، ورغبة في وصْلكَ، وإن كنتُ بليداً عن المداركِ، بعيداً عن المسالكِ، معرضاً نفسي للمهالك. فالذي أوصيكَ به ملازمةُ ذكرِ الله في كل حالٍ، مستشعراً الجلالَ والجمالَ والإقبالَ، بعلو الهمة على كل نفيس عالٍ، موقناً أنه ليسَ ببعيدٍ، ولا بعزيز على ذي الكرم والإفضالِ. متملقاً إليه، مسلماً نفسك بين يديه، مستشعراً قربه فعسى أن يكونَ محقّقاً، مشغولاً بنفي

الأغيارِ، متمسكاً لعظمته بالوقار. ولا تهمَّكَ هذه الدارُ، ولا تلك الدار، متدرِّعاً بالاصطبارِ، من صوارم الأغيارِ، فما يحظَى بمطلوبه إلا كلُّ صبارٍ، واقفاً بالاضطرار والانكسارِ، متعرضاً لرؤية الآثار لفجأة الأنوار، حافظاً للأسرار، راكباً للأهوال والأخطار، في قرب الملك القهارِ.

فعسى تناجيكَ أشعةُ الحضرة العلية، وتستريح نفسُك الأبية، و(يا أيتها)، النداءُ من عالم الطوية، بعد فنائها في الحضرة العندية، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، ثمرة إسعادي وإرشادي، في جنةِ (يحبهم ويحبونه)، فنسأل الله الكريمَ، بمحض جوده وسعة كرمه، أن يمُنَّ علينا بقربه، ويجعلنا من خاصته وحزبه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

* * *

(٢٣) وصيةٌ أخرى
[إلى شيخه عبد الله بن سعد بن سمير، ذي أصْبَح]

بسم الله الرحمن الرحيم

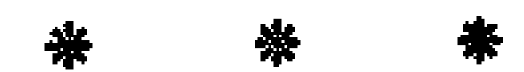
« الحمدُ لله، أبرز في نسخة الوجودِ لطيفة السرِّ المكنون، وغطَّاها حتى لا تراها العيون، ولا تدركُها الظنون، وما ذلك إلا لسرٍّ مصونٍ، وعلمٍ مخزونٍ، ثم لاح من سماءِ رحمته بوارقُ تحدوها إلى المعهد الميمون. وصلى الله على سيدنا محمد الذي انتقشَ في مرآة قلبِه ما كان وما يكونُ، وعلى آله وصحبه القائل فيهم: «بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وبعدُ؛

فقَد سألني من هو في نيل قصدي أقرب جنابٍ، وأقوى الأسباب، وهو الفقيه الصوفي، عبدالله بن المؤمن الصالح سعد بن سمير، أغرق الله لطائفه المستقيمة في بحر الشهود، وغيبه به عن جميع الوجود، وألقاه على ساحل العبودية ليوقفه على سر الأوامر وماهية الحدود؛ أن أجيزَه وأوصيه.

فالوصيةُ بالجد والتشمير، وملاحظة العجز والتقصير، وإنهاض الهمة بحول القوي القدير، ثم رمي الأعمال والأحوال أولا في تيار العدل، ثم رميها في بحور الفضل. واملأ جوارحَك وجوانحك بالشكر العظيم، ثم غيص

شهود شكرك في سابقة الفضل القديم، واركب سفينة الرضا والتسليم، وأخذ أمواج مرغوب الملك والملكوت بلاحول ولاقوة إلا بالله الحي الذي لا يموت، وكرر مع الخلوة: يا ذا الطول أنا الفقير، وياذا العزة أنا الحقير، وقل بعده: الله معي، الله شاهدي، الله حاضري، الله ناظر إلي، الله قريب مني. واستشعر معاني ذلك. هذا سيدي، وقد أجزتك إجازة عامة في هذا، وفي جميع أورادك، ولا تنس الفقير بالدعاء وحضوره في خيالك، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».



(٢٤) وصيةٌ أخرى
[إلى الشيخ محمد بافارس باقيس، دوعن]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله الذي جعل التعارف بين الأرواح بعد أن تناكرت في ظلم الطبائع والأشباح، لما آنست من معهدها القديم شعاع لامع النور الوضاح، وشمت شذا كأسها الدائر عليها بغير اتصال ولا انفصال ولا أقداح، وصلى الله على سيدنا محمد أب الأرواح، وعلى آله الممزوج لهم من كأسه، وصحبه المعطرين بأنفاسه، الفائزين بمتجر الأرباح.

ثم على من ألبسته العناية أفخر الحلل، وألحقته إن شاء الله بسابق الفريق الأول، السمير المؤانس في المعهد النفيس، الشيخ العلامة محمد بافارس باقيس، أرتع الله لطائفه المستقيمة في رياض معرفته الخاصة، وأسقاه من رحيق حميا محبته الخالصة، وألحقه بالرفيق الأول من خاصة الخاصة، وإيانا آمين رب العالمين.

فيا سيدي، سألتني أن أجيزك، فأجبتك لذلك، وإن لم أكن أهلاً، امتثالاً لأمرك، ورغبة في وصلك، وإني كما قيلَ:

ولستُ بأهل أن أجاز فكيفَ أن ... أجاز ولكن الحقائق قد تخفى

(٢٥) وصيةٌ أخرى
[إلى الشيخ عبد الله بن أحمد باسودان، الخريبة]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي أدار على أرواح أهل عنايته راح سلافة أسمائه وصفاته، فتزكت منهم القلوب، وحنت إلىٰ لقاء المحبوب، وخضعت لمحكم بيناته، وباهر آياته، وتدل بواسطة الأنفس الزكية إلىٰ الهياكل المضية، فسارعت تلك الهياكل إلىٰ القيام في محاريب طاعاته، فلا جرم أن خلعت على تلك الهياكل خلع الوقار، وسرى منها إلىٰ تلك الأنفسِ تعطير الائتمار والانزجار، وفاضَ على القلوب رَوحُ سرور حياة تلك الأقاليم والأقطَار، وصارت متلقيةً عن الأرواح ما يرِد عليها من الأنوار والأسرار، الفائضة من حضيرة الملك القهار، فحينئذٍ ثبتتْ لها الخلافة والنيابة عن النبيّ المختار ﷺ وعلى آله ما تزكّت النفوسُ بالعزوف عن دار المحن والأخطار، وسرحَت أبصار بصَائرها في ميادينِ الاعتبار والادّكار، وأنابَتْ إلىٰ باريها بذلَّة الخشُوع والاضطرار، وسكينةِ الذبول والانكسَار، وعلمَتْ وتحققتْ أنها مسافرةٌ من دار إلىٰ دار، فأخذتَ زادَها من الدار الزائلة لدار القرار.

أما بعدُ؛

فقد سألني نخبة الزمان، وصفوة الإخوان، عبد الله بن أحمد باسودان،

أتحفه الله بتحفة العرفان والإيقان، حتى تخمُد حواسّه في حضْرة الشهود والعيان، وتقومَ بكامل العرفان، في عبدية الإحسَان، وإيانا يا كريم يامنان. أن أوصيَه، وابنه محمدٌ تابعٌ دليلَه، وسالكٌ سبيله، إن شاء الله، فأجبته، وإن لم أكن من فرسان ذلك الميدان، إجابة المعدم الولهان، الخائفِ من شهود القلم والحروف بما سطره البنانُ، بين يدي الملك الديانِ، طمعاً في أن يدخلَني وإياه في زمرة أهل الإيمان المتواصِينَ بالبرِّ والإحسان.

فاعلَمْ، حماك الله، وأدخلك في جيلِ من أحبه ووَالاه، وقربه وأدناه، وأسقاه فهنّاه، ولا أتعبه وعنّاه، أنَّ السعادة الأبدية، والكرامة العالية العلويةَ، التزامُ تقوى الله بمعانقة ما بِهِ أمر، والفرار عما عنه زجر، باتّباع صفوة البشر، وعمارة أوقاتك الغُرر، قال عزَّ من قائلٍ قدَر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ فما أعلاهُ من مفخرٍ، وما أربحه من متجَرِ.

فمن تذكّر ذهابَ أجلِه، سارعَ في اغتنام عمله، وهرب من وجود زلَلِه، ومن تذكر أن هذه الدارَ ليسَتْ له بدارٍ، أعرضَ عنها استحقاراً لها واستصغاراً، ومن تذكّر أن الآخرة هي دارُ القرار، بادر بالاستعدادِ لها مع وجود الفرح والاستبشارِ، ومن تذكّر يوم الحسابِ خافَ من سوء المنقلب والمآب، ومن تذكر أنّ مولاه يراه، اشتد منه حياه، وسارع إلى ما يحبه ويرضاه، ولم يلتفت إلى غيره شغلاً به عما سواه، وراقبه في سره ونجواه، وآثره على مراده وهواه. فجعل رسيسَ المراقبة على قلبِه، فلم يزل يقطعُ عقباتِ النفسِ في قربه، ويحل عنه كلَّ نسبِ غير نسبه، ويبطِلُ عنه كل سبَبِ غير سببه، ويحرقُ بنار وجده علاقة كل محبوب يشغله عن حِبّه.

فحينئذٍ يكمُل تعلقه بمولاه، ويذكره ولا ينساه، ويصرف في مراضيه أوقاته وساعاته، بل حركاته وسكناته، بل لحظاته وخطراته، وينسى ما تركَه لأجله من مألوفاته، فلا جرم حينئذٍ تظهرُ شواهد الإحسانِ، وتلوح على صفحات وجهه دلائل الرحمة والرضوان، وتتلاطَم في سرّه أمواجُ بحْر المعرفة والإيقان، وتغوص فيه لطائف سره، فتطلِعُ جواهرَ يأبى من سعيها أن يبيعها بنفائس غرائبِ الأكوان، ثم تحملها سفينةُ لطيفةِ النفسِ إلى ساحل الصّدر، ثم تقذفها النفسُ في سوق ترجمان اللسانِ، فتتلقاها سماسِرَة القلوب المطهرة عن الأرجاس والأدران، فيا له من شَأن أي شأنٍ، ومزيةٍ يخْضَعُ لها كل عالٍ ودان.

فتعطى من أولِ عطاءِ سُكَّان الجنان، وهو بإذن الله قولُ: (كن فكان)، فهذا من معنى قوله ﷺ: «لا يزال عبدي»، إلى آخره. وهو أن يغلّبَ الوصف الباقي على الوصف الفاني، فيستعمل الوصْف الباقي في العمل الفاني، ولنَقْبض العنان في هذا الميدانِ، فإنه من السر المصون، والعلم المكنونِ.

فما أعظم حسرة المعرضِ عن هذا الشأنِ العظيم، مع وجُود القابلية، المشْغول بعرَض زائل عن تلك المزايا القدسية، القانعِ بالحضيض الأسفلِ في مرتبة البهيمية والشيطانية، ولم يطلب الحضائر العندية، والملة الإبراهيمية، والهداية المحمدية، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، سفِهَ نفسه بارتكابِ الخطايا المهلكات، سفه نفسه باتّباعِ الشهوات، سفه نفسه بترك الطاعاتِ، سَفه نفسه بوجود الغفْلات، سَفِه نفسه بإضَاعة نفائس الأوقات، في الترّهات، سفه نفسه في عدَم بذله الجهدَ في الباقياتِ الصالحات، سفه نفسه بتضييع الأنفاسِ التي يدركُ بها الدرجاتِ العاليات، سفه نفسه بعدَم تطلعه

لقرب ربّ الأرض والسموات، سفه نفسَه بإتعابها في طلبِ ما ضُمن لها وترْكِ ما طلبَ منها، وأنزلَ به الآيات البينات.

فعليكُما، حماكا الله، بلزوم الذلة والانكسارِ، والالتجاء والافتقار، وكثرة الدعاءِ والاستغفارِ، خصُوصاً في الأسْحار، والتفكّر في تقلب الأطْوار، وانصرام الأعمار، وحفظ الأوقات والأنفاسِ في مراضي الملك الجبار، وعدم الرضا من النفس في سَائر حالاتها، وأخذ الحذر منها في جميع توجهاتها، والفرار منها ومن الشيطان إلى الله، فهما عدوّان لا تقدرانِ على دفعهما إلا بالفرار إلى مولاكما، فاجعلا عداوتهما ذريعةً تقدُمان بها إلى حضرتِه، وتلتجئان إلى عظيم عزته، ينصرْكُما عليهما، فيصيرانِ من جملة الجنود الموصِلة إليه، والأسباب الدالة عليه.

هذا سَادتي؛ والشأن كله في الصدقِ والإخلاصِ، ففيهما الخلاصُ، وعدم ملاحظة الخلق البتة، وسعة الصدر في تحمّل أذاهم، والجفاء منهم، والقيام بحقوقهم، معاملةً مع الله، وبذل النصيحة لهم بالرحمة والشفقة، ونسيان العلوم والأعمالِ، ليتمَّ وصفُ العبوديةِ، الذي هو محضُ الفقر، والله الموفق والمعينُ، لا رب غيره.

فنسأله أن يقينا شرَّ أنفسِنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعل ما قلناه حجةً علينَا، وأن يعاملنا بما هو أهله من العفو والغفرانِ، والفضل الإحسان، إنه كريم منانٌ، وصلى الله وسلم على من جعل اتّباعَه آيةَ حبّه، ووسيلة قربِه، وعلى آله وصحبه، وسائر أتباعه وحزبه، وعلينا معهم برحمته آمينَ، إنه أرحم الراحمين.

(٢٦) وصية أخرى
[لمحبه عُمَر بن عبد الله بالذياب]

بسم الله الرحمن الرحيم

«وبه نستعين»

«الحمدُ لله على جزيل نعماه، وحسن اختصاصه وذكراه، حمداً يشمل كليات الحمدِ وأجزاه، وإن كان هو الحامد والمحمود في أول الأمر ومنتهاه، فأنَّى لعبدٍ وإن جلتْ همته، واتسعت معرفته، يطيقُ شكر ما أولاه، كيف! وقد أحجمَ عن ذلك حبيبه ومصطفاه، وقد بلغ من قربه قابَ قوسين أو أدناه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه، وسلم.

أما بعدُ؛

فهذه تذكرةٌ وتبصرةٌ، لنفسي، وللمحب عمر بن عبد الله بالذياب، ولسائر الإخوان من المسلمين.

فاعلَم، وفقنا الله وإياكَ لطاعته، وأنهضَ هممنا في متاجرته، وجعلنا ممن جعلَ تقواه ربحه في سائر معاملته، وهي البضاعةُ الرابحة بغير كسادٍ، والخزانة التي لا تؤول إلى نفادٍ، وفيها تفواتَتْ مراتبُ العباد، وبها يدرك الفوز الأكبر يوم يقوم الأشهاد، ولن تظفر منها بالوصالِ، ولن تحوز منها درجةَ الكمالِ، إلا

بالتضرع والابتهالِ، بين يدي ذي الكرم والإفضال، في تطهير القلب من حبّ دار الزوال، والاستعانة على ذلك بالتفكر في الأيام والليال، فإنها مؤذنةٌ للنفوس بالترحَالِ، وللأعمار بالانحلالِ، وللآخرة بالاستقبالِ.

فاحضُر في أوانِ كل مساء أو صباحٍ يأتي عليكَ، أنه ربما لا يأتي عليك غيرُه، وأنت فقيرٌ إلى زاد في عمرٍ لا يفنى، فجهز نفسَك بعملٍ صالحٍ تسعدُ به يومَ التغابنِ، وقدّم إلى دارك التي لا تزولُ عنها ما أحببتَ أن يبقى معكَ، من نفيس ما عندكَ من الجواهرِ، التي ذكرها ﷺ: «**اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمكَ، وصحّتكَ قبل سقمك، وغناك قبل فقركَ، وفراغَك قبل شغلكَ، وحياتك قبلَ مَوتك**»، فمنها: شبابُكَ الذي به كمالُ القوة والقدرَة الإنسانية. فاصرفْه في فعلِ المكرماتِ، واكتساب الدرجات، المقرّبة من رب البريات.

فأولها: طلبُ العلم، الذي به فعلُ الطاعة الواجبة والمندوبة، على الوجه المأمور به، وتنتهي عن الوقوع في المعاصي، كما نهاكَ الله، ثم أفرِغ الطاقةَ من موسم الشبابِ، في الإكثار من النوافلِ واكتساب الفضائلِ، قبْلَ أن تحول بينك وبينه الحوائلُ، وتستغرقك الشواغلُ، فإذا صرفتَ قوة شبابِك في الخيراتِ، وأدركْتَ العجز وأنت على ذلكَ، كانت معدودةً تلك الأعمالُ التي كنت تعملُها في أيامِ شبابكَ، وفي أيام الكبر والعجْز أيضاً.

قوله ﷺ: «**قبلَ هرَمِك**»، أي: قبل أن تهرَم وتضعُفَ عن فعلِ كثير من الخيراتِ، ويفُوتك موسم الشبابُ، وإذا فاتكَ فأين تجدُه؟ ومن أين تدركه؟. فانتهز الفرصَة، وتدارك الغنيمةَ، فإن عند الموت لم تكُن إلا إحدى الخصلتين: إما الفرحُ والاستبشارُ برضوان الله والفوزِ الأكبر في مشهد القيامةِ على رؤوس الخلائقِ، بأن ينادي منادٍ يسمعُه جميعُ العالمينَ: أن قد سعدَ فلانٌ سعادةً لا شقاوةَ

بعدها أبداً، وإن كانت الأخرَى، والعياذ بالله، لم يكن إلا الاحتراقُ بنيرانِ الأسفِ، والندمُ حيث لا ينفع الندمُ، والفضيحة على رؤوس الأشهاد، بما أسلفته من عصيانكَ، وبارزت به ربكَ وأخفيته عن خلقِه، إن لم تكن قد غسلته بماءِ الندمِ، وصححته بمرهم التوبة الصادقَة، وأتبعته بالعمَلِ الصالحِ، فإذا فعلتَ ذلك انقلب لكَ حسناتٍ، قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

قوله ﷺ: «وصحَّتكَ»، فاعلم أن الصحةَ نعمةٌ عظيمةٌ، ومنة جسيمةٌ، مغبون فيها كثير من الناسِ، كما في الحديثِ. فعليكَ، رحمك الله، أن تصرفها في العمل الصالحِ، لتنال السعادة الأبديةَ، والمنزلة العالية العلويةَ، في دارٍ لا يخاف سكانها الزوالَ، ولا يطرق ملكهم الزوالُ، وما يطرق ملكهم وسلطانهم الذلّ والانعزالُ، بل دوامهم يدومُ بسيدهم ذي العزّة والجلال.

فينبغي للبصير بنفسهِ،المتحقّق لحلول رمسِه، أن لا يهتمّ في أيام صحته إلا بما يقدّمه لتلك الدارِ، فلا يلوي على شيء غير ذلكَ، إلا ما لا بدّ له في كفايته من غير تعويلٍ على دار المحنِ والأخطار.

«قبلَ سقَمِك»، أي: قبل أن تعرضَ عوارضُ الألمِ، وتحولَ عليك حوائلُ المرض والسقَم، فتندمَ حيثُ لا ينفعك الندم، حين يربح العاملون بجزيل العطايا وعظيم النعم، مع شبابٍ لا يهرَم، وسرورٍ لا يشوبه حزَنٌ ولا هم، وغنًى لا ينقص ولا يعدم، وصحةٍ لا يطرُقها وجعٌ ولا سقم، وأكبر من ذلك دوامُ رضوان الله ذي الإفضالِ والكرَم، فيا لها من سعادةٍ تمّ كمالها، ويا لها من كرامة فاز رجالها، ويا لها من تجارة ربحَ عمالها، ويا لها من دارٍ أكرم نزالها.

قوله ﷺ: «وغناكَ قبْل فقرِكَ»، فيه إشعارٌ بأن الغنَى كالشبابِ والصحة، فلا تقدر على إمساكه، وهو كذلك. فكم غنيٍّ ذهب مالُه، ولم يربح منه إلا بالعذاب وطول الحسابِ، وهمّ الحرص والاكتساب، بأن يتناقصَ ويذهبَ، أو تعرِضُ له آفةٌ، أو يغرق في بحرٍ، أو يسلطُ عليه ظالم يتلفه، أو يخلّفه لفاجرٍ ينفقه في معصيةٍ، أو طائعٍ يسعدُ به ويشقَى هو به.

فإذا كان كذلك؛ فعلى الإنسان أن يتدارك الغنيمةَ، ويقدم من ماله للنعمة الـمقيمَة، بصلة الأرحام والأقاربِ، وتفقد أهل المسكنة والضعفِ من أولى الضرورات والحاجاتِ، من الأراملِ والأيتامِ المنكسرة قلوبهم، خصوصاً أهل العفاف والديانة، المنزلين حوائجهم بمولاهم، ليلحظَ بعينِ عنايتهم، وتداركه صالحُ دعواتهم.

وكذلك ينفقُ منه في سدّ المفاسد، وجميل المقاصد، من إصلاح ذات البينِ، خصوصاً إن وقعت في الأقارب، صيانةً لهم، ومعاملة مع الله، ورجاء ثوابه العظيمِ، وكذلك إذا كانت بين أهل الحبورة والمنزلة، بل ذلك من مهمات الدينِ، إذ في حسْمها قطعُ الشر العام، والإصلاحُ كله خيرٌ، وهو من المهماتِ المقرّبة إلى الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

فليغتنم الإنسانُ من مالِهِ ليوم فقرِه وفاقته، يوم لا ينفعه مالُه، لو كانَ معه، بل الدنيا بأسرها لو كانتْ معَه يومئذٍ ما أغنتْ عنه من الله شيئاً، فكيف إذا ما كان بينه وبين ذهابها إلا خصلةٌ من الخصالِ التي قدّمنا، أو الموت، فإنها ذاهبةٌ بجميع مآربها العاجلة، ومقاصدها الحائلة، ولا باقي منها إلا ما كان مقدّماً لذلك اليوم.

فعن عائشة رضِيَ الله عنها: أنهم ذبحوا شاة فجاء سائل فأعطوه فجاء آخر فأعطَوه، فقال ﷺ: «ما بقيَ منها؟»، قالوا: كتفها، قال: «بقي كلها غير كتفها»(١)، أخرجه الترمذي وصحّحه. وعن أبي هريرة رضِيَ الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تصدقَ أحدٌ بصدقة من طيبٍ، ولا يقبلُ الله إلا الطيّبَ، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرةً، فتربو في كفّ الرحمنِ، حتى تكونَ أعظم من الجبلِ، فيربّيها كما يربي أحدكُم فلوّه، أو فَصيلَه**»، أخرجه الستة.

وعن أنس رضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لما خلق الله الأرضَ جعلتْ تميدُ، فخلقَ الجبال، فقالَ بها عليها فاستقرت، فعجبت الملائكةُ من شدّة الجبال. قالوا: يا ربّ، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الجبال؟ قال: نعَم الحديد. قالوا: يا ربّ، فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد؟ قال: نعَم، النار. فقالوا: يا رب فهل من خلقكَ شيءٌ أشدّ من النار؟ قال: نعَم، الماء. قالوا: يا ربّ، فهل من خلقك شيءٌ أشدّ من الماء؟ قال: نعم، الريحُ. قالوا: يا ربّ، فهل من خلقكَ شيءٌ أشدّ من الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدم، تصدّقَ بصدقة بيمينِه يخفيها من شماله**»، أخرجه الترمذي، انتهت من «تيسير الوصول».

قولُه ﷺ: «**وفراغك قبل شغلك**»، أي: اغتنم فراغَك، وأنفقه في الطاعات المقرِّبة إليه، المرضيّةِ عنده. والفراغُ: ما فَضلَ من وقتكَ بعد أداء الواجباتِ من حقُوقِ الله وحقوق خلقه الواجبة عليكَ، فما فضلَ من ذلك فلا تضيعْه في البطالة واللهْوِ، ففي الخبر: «**لم يتحسّر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم**

(١) لم يذكر بقية الحديث الذي فيه محل الشاهد لا أدري أتركه متعمداً أم سهواً منه أم من الكاتب.

يذكروا الله فيها»[1]، وإن الجنةَ لم تكن فيها حسرةٌ، إلا أنهم يستحيونَ مما آتاهم مولاهم من الكرامة والإحسان، التي يصغُر في جنبها التعبُ العظيم في العمرِ الطويل، فكيف بسهولة ذلك وخفّته؟ وكيف إذا كان النعيمُ المعجّل، والخير المؤمل، والحياة الطيبة، إلا في لزوم طاعة الله، والمسارعة إلى مراضيه التي بها شرفُ الذكر، وعلوّ القدر، وصفاء السرائر، وزينة الظواهر، فالعاقل البصير يغتنمُ أيامَ فراغِه ولا يهملها.

قوله ﷺ: «**وحياتَك قبل موتـك**»، أي: أدرك غنيمتـكَ ما دمتَ حيًّا، وعقلك فيك، فإن لم تستطعْ بعمل أعضائك الظاهرَة التي بها نيلُ الدرجاتِ، من نوافل الصلاة وغير ذلك من الطاعات البدنية، فأنت متمكنٌ من طاعات اللسانِ، مثل: الذكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا عجزْتَ عن طاعات اللسان، فأنت متمكنٌ من طاعاتِ القلب، مثل: الإخلاص، واليقين، والصبر، والزهد، والرضا، والمحبة، والشكر وغير ذلكَ من طاعات القلبِ، وقد منَّ الكريمُ بفضله بعد أن وفّقَ لسعادة الآخرة وتجارتها الرابحة، على عمر الإنسانِ، بأن أباحَ له عنوانَ السعادة في كل وقتٍ وزمانٍ، وحال وأوانٍ.

اللهُمَّ وفقنا لطاعتكَ في كل حالٍ، وارزقنا كمال الاستعداد قبل حلولِ الآجال، إنك سيدُنا ومولانا، وصلّ وسلم على خير خلقكَ، محمدٍ عبدك ورسولِكَ، وعلى آله وصحبه وسَلِّم».

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي.

(٢٧) وصية أخرى
[إلى السيد علي بن حسن بن عبد الله الحداد]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الهادي الكفيلِ، الولي الحميد الوكيل، الذي نشر رحمتَه وبسَط نعمته لمن سلكَ إليه أقصد سبيلٍ، وجعل فيه رغبتَه وعليه في مهماتِه التعويل، حتى يكونَ هُو له في كل مقصدِه دليل، وصلى الله على سيدنا محمدٍ الهادي إلى كل خلقٍ جميل، ومقام جليلٍ، وعلى آله وصحبه وسلم بالغدوّ والأصيل.

وبعدُ؛

فقـد سألني الوصيـةَ، الولدُ النجيبُ، والندبُ الأريب، علي ابن الأخِ الصابر الشاكر حسن بن عبد الله بن طه الحداد، أسعفه بنيلِ كل مرادٍ، وهداه وإيانا سبيل أهل الوداد.

فأوصيكَ بوصية الله رب العالمين، والتي توقفت عليها سعادة الأولين والآخرين، وهي تقوى الله، امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويتوقف ذلك على تعلم العلم النافع، واغتنام بر الوالدين، والمسارعة إلى رضاهما، يمدّ الله في عمركَ، ويوسع لك في رزقكَ، وينظر إليك بعين الرحمةِ، ويلهمك رشدك.

وأوصيكَ بالثقة بالله، والتوكل عليه، تجده معك في كل مقصدٍ تريده.

وعليكَ بحفظ اللسان، وصونها عن الغيبة والكذب، بل عن فضول الكلام، ولازم الصمتَ، ولا تتكلم حتى تعرِضَ كلامك على قلبكَ، إن كان هنا مصلحةٌ دينية أو دنيوية تعينُكَ على دينكَ، وإلا فاحذره. والضرر فيما ترى فيه المصلحة أكثر من النفعِ، فكيف بما فيه الضررُ، ولا سببُ هلاكِ غالبِ أهل هذا الزمان، وحرمَانهم كثيراً من الخيراتِ، إلا بالتساهل في الكلام.

وعليك بغضّ البصرِ عن المحارم، تجدْ بذلك حلاوةً في إيمانكَ، وسداداً في أحوالكَ. وعليكَ بسلامةِ الصدرِ على جميع عباد الله، تجد في ذلك الراحةَ والسلامةَ. وعليكَ بكفّ الأذى عنهم، واحتماله منهم، تجد بذلك السيادة والسعادة في الدنيا والآخرة. وعليكَ بحُسن التفويضِ، والثقة بضَمان المولى الكريمِ، وأنه لا يخلف وعدَه، ولا ينسى عبدَه، والاستغناء به عن كل قاصٍ ودانٍ، فإن الفقْر والذلَّ في التشوف إلى الخلقِ، والغنى والعز في الاستغناء عنهم.

وإذا رأيت من ابتلي بشيء من هذه القذارةِ فلا تغبطْهُ، فإنه معرّضٌ للهمومِ والمحنِ، وهي شاغلةٌ عن الله، قاطعة عن مراضيه ومحابه، التي بها نيل السعادة الأبدية، ومكتسبها يعرّض نفسَه بنفسِه لمناقشة الحسابِ، إذ اكتسبها من طيّبٍ وأنفقها في خيرٍ. فهو مسئولٌ: لماذا اكتسبه؟ وهلْ شغلَه اكتسابها عن شيء من وظائفِ دينه؟ ولماذا توسع في مطعمه وملبسِه مع ضرورةِ غيره واحتياجه؟ ولماذا دعا إلى طعامِه فلاناً وقريبُه فلانٌ أحوجُ منه؟. ويقال له: لم تغافلتَ عن حاجة فلانٍ، واستنكفتَ عليه، وأعرضتَ عنه، استحقاراً له واستهزاءً لفقره؟ ظنًّا منك أنكَ خيرٌ منه!. وهيهاتِ، إن عطاءَه في عمر لا يفنَى، وملكٍ لا يزولُ، وإكرامه على رؤوسِ العالمينَ، بأن يقالَ للفقراء يوم الأشهاد: خذوا بيدِ من وصَلكم وأحسنَ إليكم، واذهبوا إلى الجنة.

ظننتَ أنكَ أعطيتَ المال إيثاراً لكَ!، بل اختباراً لكَ. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾. ثم قالَ تعالى ردًّا عليهم، كلا، ما أعطيُت الغنيَّ لكرامته، ولا منعتُ الفقيرَ لإهانتِه، بل لتعريض الغنيِّ للابتلاءِ والاختبارِ، كما يفهم من سياق قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾، الآياتِ.

وكذلك يسدّ عليه بابَ التضرع، إذ الحاجةُ معترضةٌ للعبدِ لمناجاة ربّه، ورفع يديه بالدعاء لمولاه، وإنزال ضروراته به تعالى، ورحمةُ المولى له في تلكَ الحالة وإقبالُه عليه، وتلبية دعائه، ومحبته إياه.

وإذا كان الغنيّ في أكملِ الحالاتِ من وظائف الخيرِ وأنواع البرِّ، فهو منحطٌّ عن درجة الكمالِ، إذ الكمالُ المطلقُ أن يكمُلَ فقرُه إلى ربه غيباً وشهادةً، فإنه إذا كمل انقطاعُه إلى ربّه، وافتقاره إليه في باطنه، وكانت في ظاهره فقد نقصتْ مرتبته عن درجةِ الكمالِ، فكيف إذا كان اكتسبها من المحارم والشبهاتِ، وأنفقها في اللهْوِ والبطالاتِ!. وكيف إذا ألهتْ عن الخير، وأُنفِقتْ في الشر، وحمَلتْ على الكبر والبطَر، وحبست عن أهل المجاعات والضرورات!.

فعليكَ بالصبر لـمولاكَ، تربحْ عليه، وتسعد لديـه، وإذا نظرْتَ بعينِ البصيرة رأيتَ أموراً عجيبةً، وأحوالاً غريبةً، في صنع المولى ولطيف حكمته.

فنسألُك اللهُمّ السلامةَ من كيد النفوس وبلواها، وأن تزكيها فإنكَ خيرُ من زكاها، فأنت سيدُها ومولاها، وصلِّ على أشرَفِ خلقكَ، وأفضل قائم بحقّكَ، عبدك ورسولِكَ محمدٍ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم».

(٢٨) وصية أخرى
[لمحبه عمر بن عبد الله الصبحي]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الـحمدُ للـه شارحِ القلوب والأسـرار، لذوي التيقظ والاستبصار، ومفيضِ المواهب والأنوار، لأهل التذكر والاعتبار، في انصرام الأوقاتِ وتقلّب الأطوار، وكيف تسعى بهم ساعاتُ الليل والنهار، وتؤذنهم بانتهابِ الآجال وانخرَامِ الأعمار، وترقلُ بهم مسرعةً من دارٍ إلى دار، فإما إلى جنّة وإما إلى نار.

والصلاةُ والسـلام على أكمـل من قامَ بحـقّ الملكِ القهار، وعلى آلـه وصحبه الأمناء الأبرار، ما شمّر أهلُ الإنابة في الاتجار لدار القرار.

أما بعدُ؛

فقد سألني الـمحبُّ الصادقُ، عمر بن عبد الله الصبحيّ، أن أوصيَه، فأجبته إلى ذلكَ، وإني أفقر منه إلى الوصيةِ، لكوني كثير المخالفةِ والعصيان، قليلَ التقوى والإحسان، فأوصي نفسي وإياه بما أوصَى الله به الأولين والآخرينَ، وهو التزامُ تقوى الله، وقطع الأوقات والأنفاسِ فيما يحبّه الله ويرضاه، واستشعارُ القلبِ أنه يراه، ومطلعٌ على سره ونجواه، وكنْس الضمير عن حبّ الدنيا القاطعة عن الله، المبغوضة عنده وعند أحبابه وأولياه.

فأوصيكَ بغضّ البصر عن مطالعها الرذيلة، ومرغوباتها الوبيلَة، ومن العجب أن تحرصَ عليها مع خستها وفنائها، وحقارة الحريص عليها وذلته في طلابها، وشحّتها بوصولها على طالبيها، وكثرة متاعبهم في طلابها، وإذا وصلتهم بعد النصَب، وأسعفَتهم منها بنيل الأرَب، وبلغتهم من منازلهم أعلى الرتَب، سلّت لهم سيف حمامها، وأرسلَتْ إليهم جنودَ أمراضها وأسقامِها، فأسرتهم إلى ظُلَم الحفر، وصيرتهم تحت الحصى والمدَر، وصاروا عبرةً لمن اعتبر، وموعظة لمن ادكر.

فإياكَ من الحرصِ عليها، والنظر بعين الرغبة إليها، ثم انظر كيف حال طالبِ الآخرة، وأن عزته بين الورى ظاهرة، وهو السعيدُ الرشيدُ باكتسابِ التجارة الفاخرة، والدار الباقية العامرة، والسعادة الأبدية الناضرة، في دارٍ أيِّ دارٍ، دار القصور العاليات، والأنهار، ودار الفواكه الجنية الزكيات والأثمار، دار الولدانِ والحور الحسان الناعمات النضار، دارٌ بوركت من دارٍ، دارُ مجاورة الرحيم الغفار، دارُ النظرِ إلى وجهه الكريم من غير حجابٍ ولا أستار، دار الأبد والقرار.

فأوصيكَ ونفسي بتداركِ ما فاتَ من الأوقات، ومغانمة الأيام الخالية باكتساب الأعمال الصالحات، وملازمة الصدق والإخلاص في معاملة رب الأرض والسموات، وأشعِل في قلبك مصباحَ الذكرِ، وراقبْ عليه حارس الفكر، ليندحِر عدوُّك المبين، إبليسُ اللعين. ولن يصفو لك ذكر الجنانِ، إلا بمداومة ذكر اللسانِ، ومجانبة أهل الغفلة والأدران، ووضعِ النفس في أدنى المراتب بين العشائر والأقران، فبذلك يشرق في قلبك نور الإيمان، وتلوح لك معالم الشهود والعيان، وتظفر بالسر المصونِ، والعلم المكنون.

ثم اعلمْ، أيها الأخُ، أن مثالَ الإيمان في القلبِ كمثل فتيلةِ المصباح، ومثالَ الطاعات فيه مثلَ الزيتِ ودوامه،وينقص عند نقصَانه، بل يطفئ عند فقدِه. ثم احفظْ مصباحَ إيمانك من ريحِ المعصيةِ أن تطفئ نورَه، وكن حريصاً على حفظه، واستعن بالله، وانتصر به، فهو نعمَ العونُ ونعمَ النصيرُ لمن لاذَ بحوله، واعتصمْ به، ومن يعتصِمْ بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم.

ولا تنسَاني، أيها الأخُ، من دعوةٍ صالحةٍ، أنجو بها يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون، وانتهيَ من شؤم المخالفةِ للمولى العظيمِ، إنه أكرم كريمٍ، وأرحم رحيمٍ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعينَ، وسلم كثيراً إلى يوم الدين».

* * *

(٢٩) وصية أخرى

[إلى الحبيب عبد القادر بن عمر بن طه السقاف، سيون]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله شارح الصدور والأسرار، بنور ذكرِه في تقلب الأطوار، الذي جعل الليل والنهارَ خلفةً لكل عبدٍ متذكرٍ أو شكّار، ليعلمَ بذلك قيوميّةَ الملك القهار، فيعكفَ عليه بالجدّ والأسماع والأبصار، فيحيشَ عن سرّه ظلماتِ الأغيار، حتى يتجلى له قرْبه، ويتصفّى له شربَه، في مقعد الصدقِ الذي حاضِروه الكمل الأبرار، فلم يزلْ بدوام الذكر والفكر حتى تغشاه من تلك الحضرة مشرِقاتُ الأنوار، فيحرِمُ فيها مقتدياً برسوله الأمينِ، متبعاً له حتى يتحلى بكمال الاتباع له في الظهور والاستتارِ، متحلياً متدرعاً بحلة التقوى والافتقارِ، ملتزماً لذُلّ العبودية الذي هو الذلّ والخضوع والانكسار، متلقياً لما يرد عليه حافظاً للأسرارِ، معتصماً بالله من طوارق الأغيارِ، غير واقفٍ مع شيءٍ، فيرتفعُ له المقدارُ، تالياً لكتاب الله بذكرِه وفكره، متأدباً بآداب العبوديةِ، ممتثلاً ما أمره، مجتنباً لما نهاه، شاهداً لرسوله الذي كان به محبته واقتفاهُ، ﷺ وعلى آله وصحبه والمتبعينَ له، ومن اتبعهم من كل منيب أوّاه.

أما بعد،

فقد طلب مني الوصيةَ والإجازةَ، الولدُ المنير الألمعيّ، عبد القادر بن

الحبيب عمر بن طه بن شيخ الصافي، صفّى الله له أعذبَ المشارب، من طاعة ربّ المشارق والمغارب، وشغلَه بما يحبه منه ويرضاه، ممتثلاً لما أمرَه به، حذِراً متقياً لما نهاهُ، عنه مجانِب.

[فأوصي نفسي وإياكَ، حفظك الله، بما أوصى به من أبدع خلق كل شيء وسوّاه، وأن يلهمنا باتباع الحق الذي هدى إليه أحبابه وأولياه. ويكون لنا ومن ثبت الله حاله عونا في ذلك، معتمدين عليه، ساكنين لسابق إحسانه الذي سبق به إلينا، لا نرى حولنا ولا قوتنا، بل متحققين أنه لا إله لنا سواه، لا لنا ملجأ ولا منجى إلا هو، تعالى علاه، قائمين بقوة العزائم بإحراز الغنائم، مما يقربنا إليه، ويدخر لنا عنده، ويسعدنا به في دنياه وأخراه، ويملأ سرائرنا وظواهرنا بخالص محبته، كما خص بذلك من أحبّه وتولاه، حتى يذيقنا برْدَ العفو، وحلاوة المناجاة، ويديمنا على ذلك حتى نلقاه، فهو الجواد الكريم، لطيف لـمـا يشه، مجيباً لمن أمّله ورجاه.

وقد أجزتُك في جميع حزوبك وأورادك، ما عتاد أن تقراه، كما أجازني به مشايخي، حريصاً على عمله بالدوام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إنا آل محمد إذا عملنا عملا أثبتناه**»، والدوام يثبت المقام، ويحصل العون من ذي الجلال [والإكرام]. ولا تدعل قول: رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.

وذلك قول: الله حاضري، الله ناظري، الله قريب مني. مستحضراً لمعانيها، مرتقياً في مبانيها، حافظاً للسان، والمسع والبصر، مرسلهما إلىٰ ما به يرضى عنك خالق البشر، مستعيذاً بالرحمن من شر الشيطان، مستحضراً لقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

والله يتولى هدانا وهداك ويرعانا، وإذا بدا لك شيء من النعم الحسية والمعنية، ...[١] فاحفظها بالشكر. واعلم أنها ممن له الخلق والأمر، فأدم له الشكر.

وأدم قول: الحمد لله رب العالمين، حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما حمدت به نفسك، وكما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، مني ومن جميع خلقك، عدد وزنة ذرات العوالم كلها، علويها وسفليها، عرشها وكرسيها، جنتها ونارها، مضروباً في عدد الأنفاس واللحظات، والحركات والكسنات، والخطرات والإرادات، والحروف متضاعفة.

وعنه عليه الصلاة والسلام: يا ربنا لك الحمد دائماً مع دوامك، خالداً مع خلودك، لا منتهى له دون مشيئتك. اللهم لك الحمد في بلائك وصنيعك إلىٰ خلقك، ولك الحمد في بلائك وصنيعك إلىٰ أهل بيوتنا، ولك الحمد في بلائك وصنيعك في أنفسنا خاصة، ولك الحمد بما هديتنا، ولك الحمد بما أكرمتنا، ولك الحمد كما سترتنا، ولك الحمد في القرآن، ولك الحمد في الأهل والمال، ولك الحمد في المعافاة، ولك [الحمد] حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وهذا مما يلازمه الفقير، ويحبه لأحبابه وإخوانه أن يلتزموه، فإنه من أجمع...، وبه رفع الدرجات، ودفع الملهمات والمعضلات، والله ولي التوفيق، لا رب غيره، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمدلله رب العالمين»][٢].

---

(١) عبارة غير واضحة.

(٢) ما بين المعكوفين أخذ من نسخة باخبيرة. وبهذه الوصية تنتهي الوصايا في تلك النسخة.

(٣٠) وصية أخرى
[إلى محبه الشيخ رضوان أحمد بارضوان، عينات]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعل التقوى أساسَ مشيدِ الدرجاتِ الساميات، وبها تفتحُ أقفالُ القلوبِ عند رب الأرضين والسموات، وعلى قدرها ترتفعُ المقامات بمتجَر الباقيات الصالحاتِ، وبها الأمنُ يوم الفزعِ الأكبر وأعظم البشارات، وبها الحياة الطيبةُ والحرزُ الحريز من المكارهِ التي تعقبها المسرات، وعلى قدرها تتفاوت منازل أهل السعادات، ولهذا تنافسَ أولوا الهمم العلياتِ والنفوس الزكيات، لما سمعوا قول ربّ البريات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فاشتدّت منهم الرغباتُ، فبذلوا في ذلك ما عندهم من النفائس النفيسات، والنفوس المكرَّمات، فنال كلٌّ منهم على ما أحرَزه في درجاتها من الكمالات، فأحرز أعظمها وأسعدها سيدُ البريات، وإمامُ أهل الأرضين والسموات، إذ هو أبو الأرواحِ، وبه أبديت وظهرت له جميعُ الكائنات، إذ هو القائمُ في محرابِ حضرة الذاتِ، فهو إمامُ من يقرأ ما سُطِّر في تلك الألواحِ من معاني الأسماء والصفاتِ، صلى الله عليه وعلى آله وعلى من اقتدى واهتدَى به، ومن أسهم له من رحمته المخصوصَة واتبع هديه إلى يوم الميقاتِ.

أما بعدُ؛

فقد طلب مني الوصيةَ والإجازةَ، الشيخ الألمعيُّ المنير، المتبتلُ إن شاء الله إلى الله العليّ الكبير، رضوان بن أحمد بارضوان بافضل، أسهمه الله من عظيم فضله الجزل، وجعله من أهل الاتصال والوصْل، الذين تروَّحت أرواحُهم بريحان القربِ والأنس بمواردِ العلِّ والنهل.

فالوصيةُ لنفسي ولك، حفظك الله، بوصية الله التي أوصى بها الأولين والآخرينَ، حتى قام بأعبائها سيدُ المرسلين، وكل من بعده ممن هداه بهديه من النبيين والصديقين، ومن اتبعهم بإحسان من المؤمناتِ والمؤمنين.

والمصطفى ﷺ هو المقدَّم بها وإن تأخرَ، فإن الباري عز وجل جعله أبَ الأرواح، لتلقيه من حضرة الفتاح، وكان أول نورٍ فاضَ من حضرة الله، ومن نوره انشقت جميع الأنوارِ، فكان أولها في سابق البروز الإلهيّ، فأهَّله لجميع المراتب العلية، والحضرات القربية، ثم تلا عليه ما تحقّق وتلحق به أهل تلك المراتب العلية النبوية، حتى قالَ جل وعلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فتلقى من هدْيهم ما صيرَهم به من الهدى.

فكان اقتداؤه بهديهم، فعرَّفهم ما شكرهم به وعتبهم عليه، فلذلك قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فتحرّى بعناية ربه وعظيم فضله لهديهم الكاملِ، إذ لم يزل بهمته العلية، ونفسه العالية الزكية، حتى سما تلك المراتبَ القدسيةَ، ولما كمُلتْ أوصافُـه، وجـاءه من ربّـه رعايتُـه وإسعافـه، قال في حقه: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فكانَ من بين الـمرسلين على الصّـراط الأتمّ الأقوم، وخلّقه بالـخلق الأعظمِ، بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، فكان في أعلى مرتبةٍ، من قرب مولده حتى أقامه مقام نفسِه جلَّ وعلا، إذ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾.

وأرسله رحمةً للعالمينَ، فأولُ إرساله من نورِ ذاتِه، الذي انشقت من جميع المظاهر الملكية والملكوتية، ثم أرسلَه رحمةً ثانيةً، ببعثته النبويةِ، فرحم به كلَّ موجودٍ، وكتبها لمن اتبع السنة المحمدية، بقوله جل وعلا لموسى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ الآياتِ، إلى قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، كما أخذَ جل وعلا المواثيقَ على الأنبياءِ، بقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾.

فأكرمْ بهذا المقامِ الذي أخذَ الله المواثيق على أنبيائه، تنويهاً بشرفه وكرامته، وحجة لمن اتبع شريعته، واتبع هديه وقام بنصرته، وحجتُه قائمة على من لم يمتثل أمره وطاعته، يشهد بها كل نبيٍّ على أمته، فما من أمةٍ إلا وقد أقام عليهم حجته، أو هداهم سبيل محجته، ولهذا لم يعتدَّ بإسلامٍ ولا إيمانٍ من آمن من مستقبَل الأمم وماضيهم، إلا أن يؤمنوا به وينصروه، بالنية والتصديق لمن سبقَ، والفعل والاتّباعِ لـمن لحق، لما أخذ الله بذلك الميثاقَ على الأنبياءِ بالإيمان به

ونصرته، وأَخْذُه على الأنبياءِ أخذُه على أتباعهم، ولهذا لم يكفِ إيمانهم وتصديقُهم بأنبيائهمْ من غير أن يتّبعوه، ويؤمنوا بكتابه القرآن مهيمناً على الكتب، وكذلك لا يصحّ إيمانُ أحدٍ حتى يؤمنَ بكلّ نبيٍّ، ويصدق بنبوته، وتحت هذا كلامٌ يطول شرحُه.

ولنرجع إلى الوصية بالتقوى، التي هي جماع الخير كله، وحزر حريزٌ من الشرّ كله، وهي عبارة عن امتثالِ أوامر الله، واجتناب نواهيه، مع إخراج حظ النفس في العاجلِ، ورتبة الخلقِ، مع انفراد الطلب بشهود الحق، فيما يأتي ويذر، ومن هداه رتبة الأعيان ومن قام بها رقَى إلى رتبةِ الإيقانِ، ومن قام بمرتبة الإيقَان رقى إلى مرتبة شهود العيان. ومن كان بهذا الحالِ لزمَه أن يحبَّ العزلةَ، وتكون أحبَّ إليه من الخلطة، ويكون الخمولُ أحبَّ إليه من الشهرة، والفقر أحبُّ إليه من الغنَى، والذلّ أحبَّ إليه من العزّ. وهو لا يتأتى إلا مع الوجدان والذوقِ، وهما لا يحصلان إلا مع الاستهتار في الذكر، واستحضار معية الحقّ، ونظره إليكَ، وإحاطته بسرك وجهرك. ومن أنفع الأسبابِ: قولُ الذكر بلسانه مع قلبه: «الله معي، الله شاهدي، الله ناظـر إليّ، الله حاضر معي، الله قريب مني». وبالدوامِ إن شاء الله يحصُل التأثير والذوق والحلاوة، بقربِ الحقّ، والأنس به.

وحينئذٍ، يعرف التشويش عليه بوجود خصلة من الخصال الماضية، وما في معناها، وبهذا يسهلُ عليه مخرجها من قلبه، وإذا قضَى الله له بشيءٍ منها، مع ثباتِ القلب باليقين، لم يضرَّه وجودُ شيء منها، إذا تمكنَ من شهود قبلها أو بعدها أو عندها، فإذا كان كذلك لم يرَ غير الله في عطاءٍ أو منعٍ، أو خفض أو

رفعٍ، أو عز أو ذل، أو غنى أو فقر، أو شهرة أو خمولٍ، وحينئذ يتصفُ بأوصاف العبودية، وتقابل أوصافُه أوصافَ ربه، فيتلقّى ما يجريه عليه من أوصافه، وما يتعرف به إليه بالنعماءِ، بقبولها، وبمقابلتها بالشكر، و....[1]، ومقابلتها بالرضَا والصبر، إلا أنه في مقابلة الإنعام يحصل معه الاهتمامُ، خشيةً من بقايا ظهورِ النفس بالافتتان، ولهذا قال أهل الكمال: بُلِينا بالضراء فصَبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر، وسلامة العبد في هذه الدار بملازمَة الذلّ والافتقار، الذي هي موضع الفتن والأغيار، ولا يأمن حتى يفضي إلى دار القرار، ومن دام بسيره بظواهره وسرائره إلى ربه، مع التبري من الحول والقوة، وبشهود المنة لله، لا تزالُ له من الله الرعايَة مع التفويض والتوكل عليه، في إبقاء ما أسداه إليه، فإن طريقَ الحق ليس فيها اعوجاجٌ ولا التباس، وإنما يأتي الالتباسُ من طريق النفسِ، وظهور حظوظِها، مع ترصد العدو الخناس، ومن يعتصمْ بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

هذا؛ حفظكم اللـه، وقد أجزتـكُم في هذا الذكر خصوصاً، وفي جمع حزوبكم وأورادكم عموماً، والدعوة إلى طريق اللـه بالقول والفعل والنية، إن شاء الله، والحال. وأما الفقيرُ، فإنه كما قيلَ:

ولستُ بأهلٍ أن أجـازَ فكيـف أن ... أجيز ولكنّ الحقائقَ قـد تخفـى

لأنا نقولُ ما لا نفعل، ونظهِرُ ما لا نعمل، فنسأل الله محو الخطأ والزلل، وأن يوفقنا لصالح العمل، فهو المرتجى والمؤمَّل، لا خيّبَ الله آمالنا وآمالهم فيه، ولا قطعنا من حبل من يحبه ويرتضيه، آمين يا مَن لا نظير له ولا شبيه».

---

(١) كلمة غير مفهومة.

(٣١) وصية أخرى
[إلى محبه الفاضل علي أحمد طرموم]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعل التواصي بالحقّ والتعاون على البر والتقوى شأنَ عباد الله المؤمنين، وجعل همّهم ومرغوبهم فيما يرضى به ربُّ العالمين، ليكونوا حظيين منه بالحياة الطيبة في هذه الدار، والزلفى والكرامة يوم يقومُ الناسُ لرب العالمين، أولئك هم السعداءُ والهداةُ المهتدين، وجعل شعارَهم التقوى، وسيماهم الحياءُ، وملأ قلوبهم بالرحمة لجميعِ المسلمينَ، وأخذوا الأيادي عند سيدهم، والحنانةَ والرحمة بالفقراء والمساكين.

والصلاة والسلام على سيد المرسلينَ، الشافع المشفّع المقدُوم به عند إحجام أولي العزْم من الرسل والنبيين، وقد قال عليه الصلاة والسلام، مع علوِّ شأنه وارتفاع مكانه: «**اللهُمَّ أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المسَاكين**»، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعدُ:

فقد طلبَ مني الوصيةَ، المحبُّ الراغب في الخير، والمنافس فيه، محبُّنا خلاصةُ الوداد، أحمد بن المؤمن الصالح علي بن أحمد طرْمُوم، حفظه الحي القيوم، وبلغه في الدنيا والآخرة ما يرومُ، وفوق ما يروم.

فالوصيةُ لنفسي وإياكَ، يا محبّ وسائر الإخوان من المؤمنين، بتقوى الله التي جمع فيها الخيرات، ورفع بها الدرجات، وأنزل بها البركات، وحَفت بأربابها منه العناياتُ، وكملت لهم منه السعادات، وهي عبارةٌ عن فعل ما به أمر من الوظائف الدينية، واللوازم الشرعية.

والأوامرُ على قسمين: فرائضَ، ونوافل. **فالفرائضُ**؛ الذي أوجبها الله على العباد، وهي أفضلُ ما تقربَ المتقربون إليه، وبأدائها السلامةُ من غضبه وعقابه، والفوزُ برضوانه وجزيل ثوابه، وهي رأس مال تجارة الآخرة. **والنوافلُ**؛ هي جبرانٌ للفرائضِ، وبها زيادة التقرّب إليه جلّ وعلا، وبالإكثار منها الفلاحُ والفوزُ الأكبر بمحَبته تعالى الموجبة لمحبةِ من أحبه، ومعاداة من عاداه.

وهي، أي الفرائضُ الخمسُ، بعد الشهادتين، منوطةٌ بالإيمانِ، لا تسقط بحالٍ، إذ هي حقّ الربوبية على العبدِ، وبمثابة الرأس من الجسَد في الدينِ، فكما أن لا حياةَ لمن لا رأس له، كذلك لا يدانِ لمن لا صلاة له. ثم الزكاة، وهي الثالث من أركان الإسلام، مانعها لا يتمّ إسلامُه، ولا ينجو من عذاب ربه، وهي طُهرةٌ للمالِ، وحراسةٌ له، ومنماة. ثم الصّوم، وهو الرابع من أركان الإسلام، وهو جنةٌ من العذابِ، وفوزٌ بعظيم الثوابِ، وفرضُه شهر رمضانَ، كما هو معلوم من الدين بالضرورةِ. ثم الحجّ؛ وهو خامس الأركانِ، لا يتم الإسلام إلا بأدائِه حين تعيّن، كما هو معروفٌ في الكتب الشرعية.

والقسم الثاني من موجبات التقوَى: تركُ ما نهى الله عنه من المعاصي، وبذلك السلامةُ من غضبِ الله، بالحوم في حماهُ الذي يغار عليه، فإن المعاصي حمى الله، فمَنْ عصى ربه فقد عرّض نفسه لزوال النعمِ، وحلول النقمِ. ومن

اجتنبَ المعاصي سلم وغنم، وفاز بالفلاح بتزكية نفسه عن قاذوراتها، والوقوع في ورطاتها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، يعني: طهّرها مما يكره الله، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، بأن أتبع نفسَه هواها، ولم يخش مخافة عقباها، وأسخط سيدها ومولاها، الذي إليه رُجْعاها، وهو المالك لنفعها وضراها، وهو قادر عليها، ومحيطٌ بها في دنياها وأخراها.

فنوصيكَ، يا محبُّ، باستحضار قربِه واطّلاعه عليكَ ومعيته لكَ، فكنْ معه كما يحب، يكُنْ لك كما تحب، ولا تعامل إلا هو، ولا تعتمد إلا عليه، ومن أفضل، بل أفضلُ، ما يحبه منكَ، ويرضى به عليكَ، جبر القلوب المنكسرة، والإحسان إليهم، أعني المسلمين والمسلماتِ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «اتخذوا الأياديَ عند الفقراءِ، فإن لهم دولةً يوم القيامة»، قيل: وما دولتهم يا رسول الله؟ قال: «إذا كان يومُ القيامة قيلَ لهم: انظروا إلى من أطعمَكُمْ كسرةً، أو سقاكم شربةً، أو كساكم ثوباً، فخذوا بيده إلى الجنة»[1].

ثم ينبغي للإنسانِ إذا فعلَ خيراً يتقرّب به إلى مولاه، أن يخلصه لوجهه، ليكون الجزاءُ منه عاجلاً بالخلف، وآجلا بالثواب العظيم، والإسرارُ به هو خير عندَ الله، وفي كلٍّ خيرٌ، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية، وإنما صدقة السر فيها مزيةٌ، إذ هي تطفئ غضبَ الربّ، وتدفعُ ميتةَ السوء، والبلاء النازل لا يتخطاها، وأهل البصائر يتحرَّونها أول نهارهم وأول ليلِهم، إذ لا يتعداها البلاء.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، وأورده الغزالي في «الإحياء»، وضعفه العراقي.

وأوصي نفسي وإياكَ، يا محبّي، بصلة الأرحام والأقارب، فإنها منسأةٌ في الآجالِ، مثراةٌ في الأموالِ، موجبة لرضوان الكبير المتعال.

وأوصيكَ بالصبر والاحتمال، لتحوز الزلفى عند ذي الكرم والإفضال، والمداراة، والحلم، والصفح واحتمال الأذى، وكفّه عن كل مسلمٍ، فبذلك الزيادة والسعادةُ، في عالم الغيب والشهادَة. واستعِنْ على ذلك بأن تعامل به سيدكَ ومولاكَ، حتى لا يلتفت قلبك برغبتكَ ولا رجواكَ، لغير من بيده نفعُكَ وضراكَ، فإنه إذا انقطعَ نظركَ عن غيره، جاءتك المجازاةُ العظمى، والعطايا الكبرى، ممن بيده خزائنُ السمواتِ والأرض، ولهذا فُضّلت الصدقةُ على ذي الرحم الكاشحِ لانقطاع الرجوَى من المجازاةِ، فحينئذٍ تحصلُ من الباري تعالى علاه، بما لا يخطر على بالٍ ولا يحيطُ بعلمِه إلا الله.

وأوصي نفسي وإياكَ، يا محبّ، حماكَ الله، بالصمْتِ إلا عن خيرٍ يعود عليك بركتُه في عاجل دنياكَ، وآجل أخراكَ، واحذَر من الاغتيابِ لأحد من المسلمين، ومن إضمار الشرّ، والحقدِ، والحسدِ، والتكبرِ على أحد من خلقِ الله، والإعجابِ بالنفس، أو مزية من المزايا، أو حالٍ من الأحوالِ، وإذا استحسنتَ شيئاً، وأحببتَ بقاءَه، فقل: ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولازم التواضُعَ، وارحم الصغيرَ، ووقّر الكبير من المسلمين.

واستعِنْ بربك فيما ترغبُ أو منه ترهب، واجعله بدَّكَ اللازمَ، في كل مهماتك ترجعْ إليه يكون معكَ ونصيرُكَ، فإنه الحافظُ لمن حفظه، والراعي لمن استرعاه وفي وصيته ﷺ لصاحبه أبي العباسِ، عبد الله بن عباسٍ رضِيَ الله عنهما: «**احفَظ الله يحفظكَ، احفظ الله تجدْه تجاهكَ، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا**

استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه الله لكَ، وإن اجتمعوا على أن يضروكَ بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليكَ، رُفعَت الأقلامُ وجفَّت الصحُف»، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

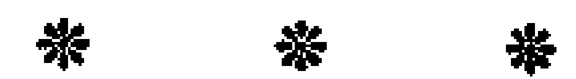
وفي رواية غير الترمذي: «**احفَظ الله تـجده أمامَك، تعرفْ إلى الله في الرخاءِ يعرفْكَ في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبكَ، وما أصابك لم يكن ليخطئكَ، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرجَ مع الكربِ، وأن مع العسر يسراً**». وفي الحديث فوائدُ عظيمةٌ، وإشاراتٌ كريمة، يعقلها من تفكَّر فيها، ونوى العملَ بها.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «**احفظ الله يحفظك**»، وهو استشعار معيته، وحضُوره معكَ، ونظره إليكَ، ومن هاهنا يستشعر الحياء منه، والهيبة له، والمحبة له، ورؤية أن كل النعمِ والمكرماتِ منه، فلا يتجاسر العبدُ أن يراه سيّده حيث نـهاه، ولا يفقده حيث أمره، فإذا فعل العبدُ ذلك قرّبه مولاه، واصطفاه ورعاه، وعمره برحمته ولطفِه في عاجل دنياهُ وآجل أخراه.

ونوصيكَ، أيضاً، يا محبُّ، بملازمة شيء من الأذكار صباحاً ومساءً، كورد الحبيب عبد الله الحداد «اللطيف»، و«حزب الإمام النووي»، فإن فيهما حفظٌ وحراسةٌ، ولهما ثوابٌ عظيم، وإذا همك أمرٌ تخشَاه أو تنتظر صلاحَه فانهض إلى الوضُوءِ، وصلاة ركعتين، وادعُ ربك في حصُول المطلوبِ، أو دفع المرهوبِ.

وإذا صاحبتَ أحداً أو عاشرتَه، فأمره بأمر الله، من أداء الفرائض المكتوبة،

وحذّره من سخط ربّه بمخالفة أمره وعصيانه، على حسب ما يقتضيه الحالُ، بالرفق لمن يقتضي حاله [الرفق، وبالزجر لمن يقتضي حاله] الزجر. واجعلْ ذلك معاملةً مع الله، وابتغاءَ ثوابه العظيم، واجعل همتك طلبَ رضاه ونيل الزلفى والكرامة عنده. وكذلكَ جميعُ ما تعمله من خيرٍ، أو تتركه من شرٍّ، فلا ترى فيه إلا جزاه، وغيّبْ نظرَك عمن سِواه يحصلْ لك المأمولُ، وتحصل على غاية الطلب والسول، والله يتولى رعايتكَ في دنياك وآخرتكَ، وإيانا، يا ذا الكرم والإحسان، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».



(٣٢) وصية أخرى
[إلى الحبيب حسين بن عبد الرحمن بن سهل، تريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي حَمَى من وثَقَ به، وأذعن لربوبيته، وتوجه إليه، منيباً شاكراً لنعمته، ملتزماً لتقواه وطاعته، معتمداً متوكلاً عليه من عدوه وفتنتِه، فلا جرمَ إن رعاه بعنايته، وأيده بجنود رحمته، وحَفظه من جميع قطاعِ طريقه بنصره ومعيته، حتى يتمرّر عليه ما اجتناهُ من معصيته، ويذيقه حلاوة خدمته، ثم يدخله جنةَ معرفته، فيتنعّم في عمره ما بقي من مدته، ثم يقدم إلى قصارى مرغوبه ومسَرّته، في جوار مولاه، بداره التي أعدها لعظيم كرامته، ومواطن رضوانه وأعظم نعمته، صحبةَ محمدٍ رسول الله وآله وصحابته، وسائر أنبياء الله والمصطفَينَ من بريته، صلى الله وسلم عليه وعليهم ما غشِيَت القلوبَ من أنوار هديِه والتزام سنته، الموجِب لمغفرة الله ومحبته.

وبعدُ؛

فقد سألني الوصيةَ، الشريفُ العفيفُ، المنير الألمعيّ، حسين بن الحبيب عبد الرحمن بن سهلٍ، حفظه الله ذو الكرم والفضل، وخلع عليه خلعَ إحسانه وعطاه الجزل، وبلغه إلى مراتب أهل الاتصال والوصل.

فالوصيةُ لنفسي ولكَ يا وليّي، بإدمانِ التوجه إلى باريكَ، واجمع عليه وعلى ما يحبه منك ظواهرك وخوافيك، واعلمْ بأنه حاضرٌ معك وناظرك ومراعيك، فجهّز إليه همتك ونيتكَ ومساعيك، فإنه يسرُّه إقبالُك عليه ويصطفيك ويرتضيك، ويسعفك ببلوغ مراغبِك وأمانيكَ، فأصْغِ أذُنَ قلبك إلى ما يخاطبك به ويناجيك، فإنما يدعوك إلى طاعته، وما يدعوك إلا إلى رحمته وكرامته، وما يحذرك من معصيته إلا لإحسانه ورأفته، لما سبق به من علمه ومشيئته، لما تضمن من عصيانه ومخالفته، من عذابه ونقمته، فتركُ المحذور وفعلُ المأمور جناحانِ يطير بهما العبدُ الموفّق إلى منتهى سعادته، ويبلّغانه إلى ربه في مقعدِ الصدق من حضرته، بالاختصاص من معرفته ومحبته، ثم بالفوز الأكبر والنعيم السرمدِ في دار السلام برؤيته، والخلود الدائم في مجاورته، وعظيم ما يهبه من كرامته، بدار الملك الكبير والمستقرّ، بما لا عينٌ رأتْ ولا يخطر على قلبِ بشَر، فهذا هو الظفرُ كلّ الظفَر، فيا سعد من أنابَ وتذكّر، وأقبل على طاعة الله وشمّر، فيا له من مقامٍ عالٍ ومفخر، يمضي بحياةٍ طيبة في دار الممَر والمعبر، حتى يلقى مولاه بغايةِ الفرح المستبشَر، في سرور وحبورٍ لا يتغير ولا يتكدّر.

فأوصي نفسي وإياكَ، يا أخي، بإدامة ذكر مولاكَ، فإنه معك إذا ذكرتَه، واشكره على ما به أنعمَ، وأولُ نعَمِه ابتداءُ وجودك من العدم، وتربيتك في ظلمة الرّحم، بأيدي الألطاف والكرَم، حتى أخرجك وحنّن عليكَ أبويكَ، وهو بك منهما أرأفُ وأرحَم. ثم أجرى عليك صنوفَ النعم، حتى دعاك إلى سبيله الأقوم، ثم توحده وتعبده، إذ جعلك من صفوة خير الأمم، فتذكّر

إحسانه إليكَ وتعلم، وما أوجدَ وما أنعم عليكَ إلا لتحمدَه وتشكره، فتربح عليه وتغنم.

فإذا علمتَ ذلك؛ فبالضرورة أن تحبه، وأن تسعَى جهدكَ في محبته وقربه، إن كنتَ ممن استنارت بصيرتُه وعقلَ لبّه، أن ما في الوجود نافعٌ ولا ضار ولا متصرفٌ سوى ربه، فحينئذٍ يستغفرُ ويستقيله من ذنبه.

فعليكَ، حفظك الله، برفع الهمة إلى جنابه، واعكف بذُلّكَ وانكسارك على بابه، فإن المطالبَ والمراغب والمراهبَ كلها به، وأخْرِج من قلبك ملاحظةَ الأغيار، وعامل الملك الواحدَ القهار، تشرقْ عليك تجلياتُ الأنوار، فتشهد ما عنده في دار القرار، فلا تضيعْ شيئاً من معاملتكَ في دار البوار، والسَّفْر المرتحلِ المار، فحينئذٍ عليك [أن] تعرض عن ملاحظة الأغيار، فلا تعامل إلا الكريم الغفار، النافع الضار، متوجه القلبِ إليه بالإعلان والإسرار، فتتحرَّى ما هو الأحب إليه، والأقرب والزلفى لديه.

فإذا كنتَ فِي صلاةٍ، فأقبل بكليتك عليه، فقُمْ فرَحاً واستبشاراً، وغبطةً وافتخارا، إذا دعاك الكبير المتعال، وشاهدَ منك قيامكَ بين يديه بالخشوع والخضوعِ لعظيم الجلال، وفسَح لك بالتضرع إليه والابتهال، وهو حاضر معكَ يرى منك ويسمعُ الأقوالَ والأفعالَ، فاشهد سلطان الجمالِ، واخضع للكبرياءِ والعظمة والجلالِ، وأحضر قلبكَ مع ما تقولُ وتفعلُ، وتستعيذ وتسأل، فإن حضر قلبك فقَد دنا إليك برحمته، ورضوان ربّك، فلا جرم أن يذيقَك حلاوةَ المناجاة، وحسن المصافاة، فحينئذٍ تذوقُ نعيماً ما أهناه، وتشرب كأسا ما أصفاه، فلا يبقى لك مرغوبٌ فيما عداه، ولا مطلوبٌ لما سواه.

فهذا مطلعٌ لا يبلغُ منتهاه، ولا تحويه الطرُوس والأفواه، بل في خزانة سائر أنبيائه وأولياه، يعثر عليه كل منيبٍ أواه، إذا أدام التعرّضَ لنفحاتِ مولاه، ولا يرضى بالدون إلا من تدنّت همتُه عن علياه، واشتغل بحظّ نفسه وزخارف دنياه، وإذا كنتَ معاملاً له بإنفاقٍ، فاجعله فيمَن ترضَى به من أهل الحاجة والاستحقاق، ليكون لكَ بذلك البشارةُ العظمى والمسرّة الكبرى يوم التلاق، وأشعِر قلبكَ أنه أخذَ منك صدقتكَ لتعظُم بذلك مسرّتُك، فيأتيك الجزاء في عاجل دنياك وآخرتِك، واجعل قصدَك كلّه رضاه، واحذَر من ملاحظتك لأحدٍ سواه، وزد رغبةً أن تكونَ صدقتُك فيمَن لا ترجو نفعَه ولا تخشى أذاه، ليكون الجزاء ممن لا منتهى لعطاه، إذ الكل في تصريفه وفيما يشاه، ولا بايبلغك ولا يصلُ إليكَ إلا ما جرَى به حكمُه وأمضاه، وقد طلب منك أن تطلُبَ ما عنده في دار جَزاه، وتجرِّدَ القصد لوجهه الكريم ورضَاه، والدنيا ملكُه والآخرة أخراه، فما معَ من يلاحظ غيره إلا ضياعُ مسْعاه، وخزيه آخرتَه ودنياه.

فارفعوا الهممَ، يا معشر الإخوانِ، إلى من الأرضُ أرضُه والسماءُ سماه، ولا تكونوا ممن باع آخرته بدنياه، فلا يصفو عيشُه بل يتنكّد ويتكدّر وتبقَى حسرته ونداماه، فاسْمَعوا نداءَ مولاكم، فيا سعد من أجابَ داعيَه ولباه، فهو السعيدُ الرشيدُ الفائز بالفلاحِ والحسنيـين في دنياه وأخراه. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾.

فقوله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، ففي هذا تنبيهٌ وتحذير وترغيبٌ. أما الترغيبُ، فإنه ناداكم بإيمانكم به، وتصديقكم بوعده، وأنكم من حزبه وجنده، ثم حذّركم برأفته ورحمته وودّه، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، فأمركم بالتقوى إذ هي سبيلُ من طال سعده، وعظم مفخره ورشده، وهي سبيله القويمُ، وصراطه المستقيم، الذي بلغ به أنبيائه وأوليائه المقامَ العظيم، فأنال كلا منهم على قدَر ما رزقَ منها من المقام الكريم، إذ قال جل وعلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، فكل من بلغ من التقَى حدًّا، نالَ به عند الله بمقداره كرامة ومجداً.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾، يعني: حاذروا وخافوا بطشَه، ولا تتساهلوا بأمره، فإنه ناظرٌ إليكم، وحاضر معكم، فأشفِقُوا من أن يراكم حيث نهاكم، أو يفقدكم حيث أمركم.

ثم قوله: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، من خير تسعدُ بِه، وتفلح باكتسابه، وتنتظر جزيل ثوابه، أو شرٌّ تجزَى به، وتذوقَ أليم عذابه. فإمّا يثير لها الفرحَ والاستبشار، بما قدمته لدار القرار، مخلصةً فيه لوجه الواحدِ القهّار، نعندَ ذلك تعظم لها المسار، وتشدّ رغبتها في متجَر الفخار. أو قدمت شرًّا، نترجعُ بذلها والاستصغار، وتنكسر بين يدي عالم الأسرار، ملتزمةً للندم والاستغفار، مستقيلةً باريها من تلك العثار، خائفة واجفةً من غضبه ومن عذاب النار، فتلك سابقةٌ بالخيرِ، وهذه مجدّة إلى باريها بالسير، محبوبة عنده، مرعية بعنايته من كل بُؤْسٍ وضير.

ثم قال جلتْ عظمته، وتعالى عُلاه: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾،

يشرفُ على سرائركم وظواهركم، فاحذروا أن تتركوا شيئاً أو تفعلوه إلا وأنتم مخلصين به مجرِّدينَ القصدَ فيما تركتموه، خشيةً من غضبه والإنزال في دار العقاب، أو تفعلوا شيئاً وأنتم تطلبون به وجهَه الكريم، وعظيمَ ثوابه في دار الخلد والمآب.

ثم قال جلتْ عظمته وتقدست أوصافه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾، نسُوا أمره فخالفوه، وتعدَّوا حدودَه فأغضبوه، فلم يمتثلوا أمره فالتزَموه، ولم يجتنبوا نهيه فحاذروه، وعلى مراد أنفسهم آثروه، فأولُ من نسيَ أمر باريه أعظم من خسرَتْ صفقته وهوى في مهاويه، إذ فسقَ عن أمر ربّه، ولو سجد لآدمَ فما سجدَ إلا لمبدع الكون وباريه!.

ثم قال: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، بكونه أنشئها من العدَم، وأسبغ عليها النعم، وهو قادر عليها أن يبدل نِعَمها بالنقم، ولا لها منه محيد ولا مجير ولا معتصَم، فنسيتْ مبتدأها ومنتهاها، لما نسيت سيدها ومولاها، وخابت وخسرت في حياتها ورُجعاها، ولا يفلح إلا من زكّاها، وأخرج منها رعوناتها وكبرياها، و.....[1] عقلها في حظها بشُغلها بدنياها، اللهُمَّ يا سيدَ أنفسنا ومولاها، آت أنفسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها.

ثم قال في شأنِ الذين نسوا الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، كما قالَ في مقدم الخاسرين: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، فكان ذلك سببَ خسرانه وهوانه، وخلوده في دار عذابه ونيرانه، أجارنا الله

---

(١) كلمة غير مفهومة.

وعصَمنا منه ومن مكره، وسائر حزبه وأعوانه، وأدخلَنا في حزبِ أهل طاعته ورضوانه، حتى يدخلنا في دار رحمته وأمانه.

ثم قال تعالى تحذيراً من عقابه، وترغيباً في ثوابه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، فتدَبّروا أو تفكروا يا معشرَ أهل الإسلام والإيمان، هل يستوي النزولُ في دار الغضَبِ والهوانِ، والخزي والخسران، في دركات النيران؟ أو دار الأمان والرضوان، والنعيم المقيمِ، والملك الكبير، في رفيع الجنان؟!. وذلك هو المقام الأسعدُ، والنعيم السرمدُ، والملك المخلّد، والسرور المؤبد، بدوام رضوانِ الملك الأوحَد.

اللهُمَّ [يا مَن] لا مانعَ لعطاه، ولا راد لفضله ونعماه، ولا يؤمل غيره ولا يرجى سـواه، تكـرم علينـا بمحضِ إحسانـكَ، وأجرنـا من دار سخط وهوانكَ، وامنُنْ علينا بعافيتك وأمانك، وأدخلنا بمحض الجود والكرم دارَ رحمتك ورضوانك، إنا ظلمنا أنفسنا بمخالفتك وعصيانك، وقد رَجعنا إلى بابك، فقراء إلى رحمتك وإحسانك، مستجيرين بوجهك الكريم، فتكرم علينا بعفوك وامتنانك، فلا لنا ملجأ سواكَ، ولا مجير غيرك، وأنت ملجأ اللاجئينَ، ومأمن الخائفينَ، وأرحم الراحمين».

* * *

(٣٣) وصية أخرى
[للحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، الغرفة]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعلَ الذكر مفتاحَ القلوبِ والسرائر، وبالاستهتار فيه تنكشف الحجب والسواتر، وتعْمَرُ الظواهرُ بطاعة الأول والآخر، وتحدق أبصار البصائر رؤيةَ الأوائل والأواخر، ويعرف به حقيقة الطيفِ العابر، ويتحقق معرفة قيوميته الحاضر الناظر، فيستحي العبدُ أن يراه ملابساً لما عنه زاجر، فيقبل عليه الإقبال الكلي بعمارة السرائر والظواهر، فلم يزل على ذلك حتى تشرق عليه أنوار تلك الحضائر، فيسمعُ به ما لا تدركه العقولُ وتبلغه الخواطر، من عجائب ملك الله وملكوته فيما أبدعه الملك القادر، فليجأ إليه ويدومُ على طاعتِه مثابر، فتأتيه جذَباتُ الحق فتنزله في مقام العبودية الجامعِ لكل السعادات والمفاخر.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياءِ المقدَّم على كل أول وآخر، وعلى آله وصحبه وسائر الأتباع والعشائر، ما سار على سَنَنه القويم وصراطه المستقيم سَائر، وبلغَ محبوبَه ومطلوبه وأصبحَ على ما منحَه مولاه لنعمائه شاكر.

وبعدُ؛

فقد طلبَ مني الوصيةَ، ذو الفطرة الطيبة والنفس الزكية، عيدروسُ بن

عمر بن عيدروس الحبشي، علوي، بلغَه الله الآمال، وحلّى ظواهره وسرائره بصلاح الأعمال، فأسعفته بذلكَ، وإن كنتُ قاصر الباع عن تلك المسالك، عسى أن تكون من المؤمنين الذين استثناهم الملك الحق المبين، من جنس الإنسان الذين وسمَهم الله سبحانه بالخاسرينَ، بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، الآية.

فالوصيةُ لي ولكَ، بالتزام ذكر الله في كل حالٍ، والعكوف على طاعته بالغدايا والآصال، ومجانبة أهل الغفلة المشغولين بالمحال، المفتونين بدار الزوال، قال تعالى لنبيه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، والذكرُ على مراتبَ شتّى، وكلها جامعةٌ للخيراتِ، رافعة للدرجات، ومبشرة بطوالع السعاداتِ.

ومما يشيرون به لحصُولِ الفتح، ذكرُ المعية والحضُور والقرْب، بقولكَ: «الله معي، الله حاضري، الله قريبٌ مني». وبملازمة هذا الذكر يشرقُ في القلب إن شاء الله نورُ الاقتراب، فيثمر له الحياء من الكريم الوهاب، فتنتفي عنه رؤية الأغيار والأسباب، وربما ينقله هذا الذكر إلى ما هو أدنَى في القرْبِ من شهود واجب الوجود، فتنتفي رؤية المجاز عن كل موجود، ثم يبقى به في حضرة القرب في السابق الأول في علة وجود مظهر المبتدأ والممدود، ثم يرى الحاضرين في حضرة الرب عند الإلـه المعبود، مذعنيـن لمولاهم بالخضوع والركوع والسجود، بعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين بإذن الله الرحيم الودود، فيرى الكائنات الجزئيات والكليات خاضعةً بالإذعان له وبالتسبيح والسجود.

وربما يوصله إلى الحضرة المحمّدية، ويرى خلفَه المصلين من النبيين

والمرسلينَ، وسائر الأولياء والمكرمينَ، ويرى امتدادهم من الحضرة الأحمدية، ويرى سريانها إليهم، وفيضانها منهم إلى العلوم الحسية والمعنوية، فلا يزيغُ منه البصر، ولا يطغى بما ظهر، ويلزم بدّ عبوديته اللازم، وفقره الدائم، إلى من هو على كل نفس قائم، فيلزم اتّباع الرسول الأمين دائماً على ذلك ملازم، إن قربُوه شكَر، وإن أبعدوه خضع وخشع واستغفر، فيبقَى عنده ومعه فيما يفيضُ عليه في البواطن والظواهر، فعند ذلك ينتظر الإذنَ بأن يرجعه إلى الخلقِ بالدعوة المحمديةِ، مبشراً ونذيراً، ويقعده في مقعدِ الصدق حاضراً مع مولاه في ظواهرِه والسرائر»[1].

* * *

(١) هذه الوصية أوردها الإمام عيدروس بن عمر الحبشي في «عقد اليواقيت»: ١/ ٤٣٧-٤٣٩.

(٣٤) وصية أخرى
[للحبيب حسين بن عبد الله بلفقيه، تريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعل التقوى حرزاً حريزاً وحصناً حصيناً من طوراق الآفات والمحن الحسية والمعنوية، واختصّ بها من ارتضاه لنفسه من أولي النفوس الزكية، ليرفعه من الدركات السفلية إلى الدرجات العلية، بالتزام ذكرِه وطاعتِه بكرةً وعشية، وذلك منّاً وكرماً وإحساناً على من شاءَه خالقُ البرية، باقتفاء السنة المحمدية، والملة الإبراهيمية، والحجة القائمة في السور والآيات القرآنية، فتلك الشمس المشرقة المضيّة، التي لا تخفى إلا على أولي البصائر العمية، الذين عليهم الشقاوةُ بالمقادير الأزلية.

والصلاة والسلامُ على محمد حبيبِ الله ونبيه، الذي أرسله بالمعجزات والحجج القطعية، بعد أن ظهر جل شأنه فيما خلقَه وسواه وفي المبدَعات الكونية، فهي شاهدة له جلّ وعلا بالوحدانية، وانفراده بالقيومية والصمدانية.

فسبحان من اختفَى شدة الظهور، وأفعاله وأسماؤه ظاهرة جلية، مع أنها لا تدرك بعلمٍ ولا إحاطةٍ ولا تمثيلٍ واشتباهِ ذاتُه العلية، ولكن يدرك أهلَ هذا الشأن في هذا المقام حيرةٌ نورانية، فيا لها جنّة الاقترابِ يُسقَون فيها بكأس المحبة العرفانية، فإذا شربوا من ذلك ذَهلوا عن جميع الأكوان الحسية والمعنوية.

فهذه لـمن كانت نفسه زكية، وهمته علية، فيلقي خلف ظهره بجميع المظاهر بالكلية، ويقبل بظواهره وسرائره الخفية، حتى يبلغ تلك الحضرات فتنَادَى نفسه المطمئنّة من السرادقات العلوية، بـ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾، فما الذي ذهبتْ عنه غيرَه، فتُرى في أفعاله وأسمائه وصفاته أنواره مشرقة مضية، فما هاهُنا ولا ثمَّ إلا هو، فادخلي في غيري عباده، لا تصدي عنه بالحجب الظلمانية ولا النورانية. وكيف لا! وما هو إلا هو، عند من بصرُ بصيرتِه مجلية، وأحقّ بذلك آله وصحابته السائرين على قدمه السوية، الذين لم يعبأوا ولم يلتفتوا إلى البهارجِ الدنيوية، ولم توقفهم الحظوظُ البشرية الدنية، بل كل همهم ومقاصدِهم متوجهةٌ إلى ربهم والمعالم الأخروية.

ولما شاهدوها بالعيان، ذهلوا عن الأهل والولدان، فكانت الشهادة عندهم أقصَى الأمني، ولم تلههم ولم تشغلهم الأعراضُ الدنيوية، والحظوظ النفسانية، بل ولا حياتهم ولا أهليهم والذرية، رضِيَ الله عنهم وأرضَاهم، ونفعنا بهم، وأنزلهم أعلى المنازل بقربِ متبوعهم الذي اصطفَاه الله على سائر البرية، حتى حول وجه قلبِه وقالبه فلم تبق فيه من حظوظ هذه الدار بقيّة، ولذلك استبدّ بالشفاعة والمقام المحمود يوم يقول كلّ نبيٍّ لا أسألُك إلا نفسي وإليك الأمر والمشية، وقد تجهزوا لذلك اليوم بكل الجدّ والاجتهاد بفطَرِهم الطيبة ونفوسهم الشريفة الزكية، ولكن فضّل الله بعضَهم على بعضٍ بما قدّره بإراداته الأزلية.

أما بعدُ؛

فقد طلبَ مني الوصيةَ، من أنا أحقّ منه بطلب الوصية، لأن ظواهره

وسرائره بالعلوم والمعارف ملية، ويدي عن تلك العلوم والعطايا صِفْراوين خلية، ولكني أجبته لما أعلمُ من صدقِه، ولما أمرنا به معْشرَ المؤمنين، واستثناهم من جنس الإنسان، الذي عمّه بالخسران، لما خصهم بالحق والصبر، فكانوا بفضله وإحسانه خير البرية. وهو الحبيبُ عفيفُ الدين، الجمالُ المتصفُ بصفات أهل الكمال، بتحقيق العلوم والأعمال، المتعرض للنفحاتِ الذي أمرَ بالتعرّض لها الذي لا ينطقُ عن الهوَى في ساعاتِ الأيام والليال.

أعني به سيدي الأخَ المحقّق، الحبيب عبد الله بن الحبيب الحسين بلفقيه، بلغه الله أقصى أمانيه، وجعله من أجل وأكمل من يحبه ويرتضيه، وأسعد برعي عنايته مقاصده ومساعيه، وأتمّ عليه نعمَه بحفْظه وتوليه.

فالوصيةُ لنفسي وله، حماه الله، ولسائر الإخوانِ، بتقوى الله في السر والإعلان، وإخلاص القصد والنية في معاملته عن كل قاصٍ ودان، وامتلاء القلب بخشيته، والإشفاق عن مزاحمة من قعدتْ به همته في حضيض النقصان، وإن جمعوا العلم والعملَ، لكنهم أخلدوا إلى اتّباع الهوى بتلبيس إبليس الشيطان، وغفلوا عما كان عليه السلف الماضون الذين استوَى عندهم حالُ الفقر والوجدان، ولم يبالوا إذا مولاهم راضي عليهم عند الخلق بالهوان، فلذلك اختاروا الذلَّ على العز، والفقر على الغنى، والتواضع على الرفعة، حتى تحققوا بالتمكين وشهود العيان، فكانوا مع مولاهم لا مع غيره في كل شأن، وكانوا في مقام العبودية بالقيام بحق الربوبية، مسرورين بذلك الإنزال الذي اختاره لهم من لا يشغله شأنٌ عن شأن.

فلاحظوا التقصيرَ في التشمير، بالإلهام من ملائكة الرحمن، من قدَمِ

الصدق بصادق الوعد في فراديس الجنان، فعرَفوا أن ذلك من توليه لهم في الدنيا وهو المتولي لهم في دار الخلد مع دوام الرضوان، فكانوا له ومعه من غير ما تفريطٍ ولا نقصان، فلما أن كمُلت صفاتهم العلية، وزكت نفوسهم الطيبة الفطرية، وكانوا عنده في الحضرات العندية، ناداهم أن ادخلوا في عبادي، وتنعموا بمرادي، واجتنوا ثمرات إسعادي وإرشادي، والبسوا خلع الجمال المحبوبية العرفانية.

وألقى عليهم الروح ليدْعو عبادَه إليه، وينذرونهم يوم الوقوف بين يديه، فيتوجهوا إلى العباد بقوّة الهممِ وصادق العزائم، بإنقاذهم من ورطات الخسران، إلى مراتب السعادة والرضوان، بتعليمهم شرائع الإسلام وتحقيق شواهد الإيمان، ويظهروا عليهم ما أظهر لهم مولاه من قدرتِه في مبدعات الأكوان، وأرسل به الرسل بأوضح الحجج والبرهان، ثم يلتجوا إلى مولاهم إذا أمرهم بذلك، أن يوفق المدعوين إليه من طاعته، ويجتنبوا معصيته ومخالفته، لما علموا أن الأمور كلها جارية بقدرته، وبها ظهر بشئون عزته ورحمته.

والداعون في هذا الحال على ضَربينِ:

أمّا من يرى تصريف الحق فيهم، فيقبلُ إليهم بالرحمة، وإلى مولاه بالدعاءِ لهم بالهداية والإرشاد، ليسعدوا برضوانه وأمانه يوم التناد.

وأما من لم يتحققْ بشهود جرَيان أوصاف الحق ذوقاً ووجداناً، فلينظر إلى ما فيهم من الأوصافِ الحميدة، وإن قلّتْ، وكانت السلامة غير مفيدةٍ، لكن لتكون الرحمة في قلب الداعي سبباً لإجابةِ المدعوّ، إذ للنفوس بالحكمة الإلهية إحساسٌ من بعضها البعضِ، فمن دعاهم بالرحمة لانتْ قلوبُهم وأذعنت، ومن

دعاهم بالفظاظة والغلظة استعصَت عليه ونفرَتْ. يشهد لذلك قوله تعالى لأكمل رسلنا وأنبيائه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

وأوصيكَ، حفظكَ الله، بالدعوة إلى الله، والنصيحة لعبادِ الله، لأنه جل وعلا أخذَ بذلك على العلماء المواثيقَ والعهودَ، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، إلى آخر الآيةِ. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

وقد خرسَتْ في هذا الزمان ألسنةُ العلماء، فتلك المصيبة البكماء، لأنهم الأمناءُ على عباد الله، لمعرفتهم حدودَ الله، وأحكام الله. وأنتم بحمْدِ الله قد أهّلكُم الله لوراثة الأنبياءِ وخلفائهم بالعلمِ، وقد قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾. ولتكن منكُم بقوّة الهمة والعزيمة، والاستعانة بالمولى جل وعلا، والالتجاء إليه، والافتقار بين يديه، والدعوة باللين والرفق.

ولا يخلو الداعي بالنظر فيما بينَه وبين مولاه، ويقبل بكليته عليه، ويستشعر أنه أحوجُ المحتاجين بالقيام بأوامره، والتأدب بآداب العبودية له، حتى يثمر له الاضطرار والانكسار، وبهذا تشرق عليه الأنوار، ويفيض مددها على من يدعوه، ويروا له الحال بينه وبين مولاه، ويأتيه المزيد من فائض الرحمة، كما لهم

بذلك وراثة من إمامهم ومتبوعهم عليه الصلاة والسلام، حيث قال: «لي وقتٌ إذا أقبلَ عليَّ لا يسعني فيه إلا ربي»(١).

ثم إذا أقبلَ عليهم فليبدأ بنفسِه، لافتقارها لامتثال الأوامر واجتناب الزجر وأنه يتحمل الأمانة التي أشفقت عن حملها السموات والأرض، وأنه لا سلامة له ولا نجاة إلا بتأدية حقوق الله، وهو لا يقوم بذلك حقّ القيام، وأنه مستهدفٌ للعوارض النفسانية، والحظوظ الشهوانية، والنزغات الشيطانية.

حينئذ يخشع ويخضع، فيقبل على العبادِ خالٍ عن الترفع والإعجاب. فلا جرم أن يثبتَ الله جنانه، ويطلق بالحقّ لسانه، فتكون بعون الله الآذان سامعةً، والقلوب خاشعةً، والعيون دامعةً، فتنهض النفوسُ الزكية في الأعمال الصالحاتِ، وتتحامى عن القاذروات، ثم تنزل السكينة على الكلّ، فتغشاهم الرحمة، ويعزموا على المتاب، والرجوع إلى رب الأرباب، ويرى الداعي من فضل ربه ما ليس له في احتساب من الكريم الوهاب.

ثم إن نفسه لا تبقى على حال الاستقامة في جميع الأحوال، لأنه تأتيه عوارضُ وأشغال، وابتلاءاتٌ يبتلي بها من قامَ في هذا المقام الكبيرُ المتعال، ليحقّق صبرَهم فيرجعون إليه بالدعاء والابتهال، ولهم أسوةٌ بإمام أهل الكمال، إذ قال له تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وهذه

---

(١) حديث: «لي مع الله وقت لا يسع فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»، وردَ في «رسالة القشيري» بلفظ: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»، قال السخاوي: «يشبه أن يكون معنَى ما للترمذي في الشمائل ولابن راهويه في مسنده عن علي في حديثٍ طويلٍ: كان إذا أتى منزله جزأ دخُولَه أجزاء: جزءا لله تعالى، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزءا جزأه بينه وبين الناس»، انتهى من «المقاصد الحسنة» للسخاوي: ص٥٦٥.

الخصلةُ العظيمة الذي قام بها الذي انفرد بالكمال، وأرشد إليها أصحابه السابقين إلى مذهبِ الامتثال، حيث قال له ولهم: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾.

ولما نزلَ عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾، علمُوا أن هذا الأمر من بشرياتهم لا يطاقُ، وأرشدهم من أعطاه المقامَ الكريمَ العظيمُ الخلاق، فأجابهم خيرُ البرية: **«أتريدون أن تقولوا كما قال بنوا إسرائيل سمعنا وعصينا ولكن قولوا سمعنا وأطعنا»**. ورجعوا إلى من بيده الأمر والمشيئة، والتجئوا إليه بالاضطرار والافتقار.

فمكارم جوده لمن توجّه إليه بعظيمِ المواهب ملية، فأخذوا نفوسهم بالإعراض عن الدار الدنية، والحظوظ البشرية، والبهارج الخيالية، وأقبلوا على مولاهم وعلى الدار الآخرة بنفوس زكية، حتى لم يبقَ لهم من حظوظ الدنيا وشهواتها بقيّة، بل ولا من أهليهم ومحبوباتهم والذرية، حتى كان عندهم أجلَّ ما يطلبون الشهادة لإحرازهم السعادة الأبدية، ولم يطلبوا في مجرّد هذه كرامةً ولا مزية، لما أمرهم بالاستقامة كما أمَر متبوعهم، ووجَّهوا بالهمم إليه أن يتقوه، كما أرشدهم وأمرهم بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾.

فعلموا أن الأمر بيده، وله الحول والمشيئة، فأعطاهم من لا تتناهى منه عظيمُ المواهبِ، وأعلى المراتب العلية. حتى قال في حقّهم بالخصوصِ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ وقال لغَيرهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، ولذلك لم يبلغْ شأوَهم غيرُهم، وإن ظهرت منهم الكرامات، وظهرُوا بخوارق العادات، فهم نازلون عن تلكَ المراتب العلية.

كما قال من لا ينطقُ عن الهوى: «لو بلغَ أحدُكم ما بلغ، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»(١).

فليأخذ بنفسه من أراد هذا المسلك السويّ، خصوصاً من شرفه الله بالعلمِ، مع قصر مدة العُمر، وقرب النزولِ بالدار الأخرة، أن يختار الأمورُ الذي فيها محض السلامة، بأن يخرج شوائب الحظوظ الدنيوية، باختيار الفقر على الغنى، والذل على العز، والخمول على الشهرة، اختياراً منه لما تقتضيه الخشيةُ لله، وعظم المطلوب والمرغوبِ عندَ الله، فيكون مخلصاً لله، محرّراً من جميع المرغوبات والمحبوبات من دار الفوات والمهات، فيكون ذلك منه جدًّا واجتهاداً، حتى يذيقه الله ما في ذلك من النعيمِ الصرفِ، من قرب الحق وتوليه، ويفنى مراده في مراد مولاه، فحينئذ يكون قيامُه بالحقّ لا بنفسِه، وما قسمه الله له من الشهرة، أو من الغنى، أو من العز، يكونُ في ذلك مكينٌ، لا تأخذ منه نفسُه شيئاً، إذا كانت مطمئنةً في مراد مولاها، ممتلئةً لله بشكره، متأنسةً بقربه، ملتجئةً إليه، مفوضة كل أمورها إليه، تحب ما يحب، وتكره ما يكره، إذ كان الحقّ في هذه الحالة لمن أقامَه الله فيها سمعاً وبصراً، على وِفق ما ورد عن رسول الله ﷺ من هذا المقام العالي، والمنصب السامي، والله ولي التوفيق.

فنسأله أن ينقلَنا من حضيضِ حظُوظنا وشهواتنا وميلِنا إلى الأعراض الفانية، ويعصِمَنا من الفتن حتى نلقاهُ وهو راضٍ عنا، محبين للقاه، مشتاقين إليه في غير ضراء مضرةٍ، ولا فتنةٍ مضلةٍ، آمينَ اللهم آمين، يا ذا الجلال والإكرام».

---

(١) الحديث متفق عليه، وأورده المؤلف بالمعنى، ولفظ البخاري: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم، ولا نصيفه».

(٣٥) وصية أخرى
[للحبيب أحمد بن عبد الرحمن الحداد، تريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله على ما أفاضَه من نعماه، وظهر به من صفاته وأسماه، فيما خلقه وزينه وسوّاه، ليُشهِدَنا أنه لا إله لنا سواه، لنعبده ونطيعه فتكون لنا السعادة الأبدية يوم نلقاه، ويحيينا الحياةَ الطيبة بمشاهدةِ محاسن كرمه ونعماه.

والصلاة والسلام على من ختَم الله به رسُله وأنبياه، وجعل محبَّته ومغفرته في محبته واقتفاه، وعلى آله وصحبه ومن اتبعه ووالاه.

من حسن بن صالح البحر الجفري، إلى الولد أحمد بن الحبيب عبد الرحمن ابن الحبيب شهاب الدين أحمد ابن الحبيب الحسن ابن سيدنا القطب عبد الله الحداد، بلغَه لله من كل خيرٍ أقصى المراد.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صدر هذا الكتابُ بعدَ وصول مشرِّفكم الكريم، شكر الله سعي الجميع، وزاد الكلّ من فضله وإحسانه ورقّى إلى المقام الرفيع، الذي خصَّ به الأسلاف من التحلي بمحاسنِ الأوصافِ التي بلغوا بها المراتبَ العلية والمحلَّ المنيع، ففازوا بالحسينين الدنيويةِ والأخروية بحِفْظ الله لهم من الإهمال والتضييع،

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، فناهيك بها لهم من مزية، كانوا في البلاد وبين العباد مصابيح مضية، أولئك صفوة الله وخيرته من البرية.

فأوصي نفسي وإياك، يا حبيبي، بتقوى الله عالم السر والخفية، فهي جامعةٌ للخيرات العاجلة والأخروية، والتزام ذكر المولى بكرة وعشية، ومجانبة أهل النفوس الدنية، المتعلقة بالحظوظ السفلية، والشهوات الدنيوية، حتى أخروا وراهم المطالب العلوية، التي سلك عليها أربابُ الفطرة حتى وضعوا نفوسهم في أدنى المراتب طلباً وإيثاراً لرضوان رب البرية، فاختاروا الفقْر على الغنى، والذل على العز، والخمول على الشهرة، لتطهُر ظواهرهم وتصفى سرائرهم السرية، حتى تتعلى إلى الحضرات القدسية، فتنظر منهم النواظر فتطير بالأجنحة من مولاها بيا أيتها النفس المطمئنةُ ارجعي إلى ربك راضية مرضية، وادخلي بين العباد، واشربي بكأس الوداد، واجتني ثمرات الإمداد والإسعاد، في جنة يحبهم ويحبونه، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، أي: كثير الأيادي.

واذكر حفظكَ الله قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، فتفكر في هذه الآية، فإن فيها الكنوز الذي لا تقوّم، ولا يحيطُ بحقيقة علمها علم عليم، ولا يعبر بما فيها من الفضل العظيم، فأولها ذكرُ الله تعالى، فإنه منشور الولاية، وجواد المتبتلين إليه، وهو أفضل الأعمال، وأفضلها درجة عند الكبير المتعال، فمن جد فيه باللسان، مع حضور الجنان، والتزمه واستهتر فيه، ارتفع عن قلبه الحجاب، وشاهد منه

نوراً سارياً في الأكوان، من جمال الكريم الوهاب، وإلى ذلك أشار سيدنا الحداد، رضوان الله عليه، في قصيدته بقوله:

فإنـــك إن لازمتـــه بتوجـــه بدا لك نور ليس كالـشمس والبـدر

إلى آخره.

وهذا نور يعثر عليه المتبتلون إليه؛ وهو نورٌ عرفاني ذوقيٌّ، لا يدرك بالوصفِ، إلا لمن سلك ذلك المسلك. كما قال أيضا الحبيب عبد الله، رضوان الله عليه:

ولكنـــه نـــور مـــن الله وارد أتى ذكره في سورة النـور فاسـتقر

ولننوّه بما ينشّط الهمةَ، وينهز العزمة، في ذلك النور الحقيقي، تشويقاً وترويحاً وهو النورُ الذي أظهر الله به الوجود، فأخرجه من ظلمة العدم إلىٰ نور الإيجاد، وليس كالنور المجازي الذي يظهر به الموجود كنور الشمس والقمر، فإنما أظهر نورها إلا موجوداً، ولكنه لا يعرفُ إلا لأهل الطريق، المجدّين فيها بالهمم العلية والصدق والتحقيق، فمن له همةٌ علية، ونفسٌ زكية، فليُدِم ذكر مولاه في سره وجهره، ويحفظ حدوده وأحكامه في أمره وزجره.

وأجمعُ الذكر وأنفعُه، قول: «لا إله إلا الله»، مع استحضَار معانيها لجمع اللسان والجنان، وإن وقع أولا تكلفاً، فمع دوام ذكر اللسان يتعَشعشُ إلى القلب، وذكر القلبِ هو اللبابُ المقصودُ الذي تشرق به الأنوارُ، وتذهبُ به الظلم والأغيار، ويستحضر الذاكر نفيَ العبودية لغير الله، كأن يقصِدَ بقوله: «لا إله إلا الله»: لا معبودَ إلا الله.

ثم بقوله: «لا إله إلا الله»: حيث لا يستحق العبودية غيرُه، بالخلق

والتصريف، لا يقصَد غيرُه، لا موجودَ يستبد بخلقٍ، ولا إيجادٍ، ولا عطاءٍ، ولا منعٍ، ولا خفضٍ، ولا رفعٍ، ولا عزٍّ، ولا ذلّ، ولا حياةٍ، ولا موتٍ، إذ هو خالق كل شيءٍ، وهو على كل شيء وكيلٌ. ومجمع هذا الذكر: «لا إله إلا الله، لا معبودَ إلا الله، لا إله إلا الله، لا مقصود إلا الله. لا إله إلا الله، لا موجود إلا الله. لا إله إلا الله، لا مشهودَ إلا الله». حينئذٍ؛ إذا بلغ العبد إلى هذا المقام ذوقاً ووجداناً، فني في شُهود من أشهده، وهنا تظهر مواجيدُ وأحوالٌ ومقاماتٌ علية، وأسرارٌ خفية.

ومن الأسرارِ المفيدة مع دوام هذا الذكر: الأركانُ الأربعة، التي ذكرها الحبيبُ عبد الله في «عينيته» بقوله:

والـنفسَ رُضْـهَا بـاعتزالٍ دائـم ... والصَّمْتِ مع سهَرِ الدُّجى وتجوُّع

والهمةُ قالب التوفيق، ومن طلب عزيزاً بذل فيه نفيساً، ولله نفحات ونظرات يختصّ بها من يشاء من عباده، وإن ساء الزمان وأدبر أهله، وغلب عليهم الحرمان، واستحوذ عليهم الشيطان، وأقبلوا على الشأن الخسيس الدان، والحظوظ الدنيوية، وغفلوا عما خُلِقوا له وأمروا به، وعن نهج السلف الذي مضوا عليه، وارتفعت لهم به المقاماتُ، وأحرزوا السيادات، وسعدوا في الحياة وبعد المهات.

هذا، حفظكم الله؛ ولا تنسَوا الفقير من صالح دعواتكم، فإنه يقولُ ما لا يفعل، ويأت ما لا يعملُ، والسلام».

* * *

(٣٦) وصية أخرى
[للشيخ أحمد بن أبي بكر باعباد، الغرفة]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي خصّ بالاتصال الذي تنتجُ منه صدق الأقوالِ وصلاحُ الأعمال، المنيرة لأهل السرائر والظواهر بالأحوال، التي تشهد بها مظاهر الجمال والجلال، حتى تستقيم على طاعة الكبير المتعال، فتعزف عن دار الزوال، وتتأهبَ لدار البقاء والمآل، صحبة الفائزين المفلحين من النبيينَ والصديقينَ والأقطاب والأبدال. والصلاة والسلام على سيد أهل الكمال، وعلى آله وصحبه بالغدوِّ والآصال، ما انتهضت الهمةُ بحثّ سيرها إلى التقرّب الأزلي الذي لا يزال، وتحظى منه بالنعيم المقيمِ والملك الكبير صحبةَ من أنالهم مرادَهم خير منال.

أما بعد؛

فقد طلب مني الوصيةَ والإجازةَ، الشيخُ الخيِّر، أحمدُ بن أبي بكر بن حسين باعباد، أناله الله من كل خير أوفى مراد، وسقاه بكأس الصفا والوداد، حتى يغيّبه به عن كل حاضرٍ وباد، وإيانا يا كريم يا جواد.

فالوصيـةُ لنا ولكَ، ولسائر الإخوان من المؤمنين والمؤمنات، بالتزام

تقوى الله التي هي ارتفاع الدرجات، وفيها وبها جميعُ السعادات والمكرمات، في الحياة وبعد المهات، وهي وصية الله جلّ وعلا لسائر البرياتِ، وهي امتثال أوامره جل وعلا بالظواهر بفعلِ المأمورات، التي هي الجناحُ الأول في العرُوج إلى المقامات العلويات، وترك المنهيات الذي هو الجناحُ الثاني الذي تطير به الأرواح إلى الحضْرات الساميات، مع تصفية السرِّ عن ملاحظة غير الله وعكوفه على المولى في جميع الحالات. وبهذا تطوى من البعدِ المسافات، ويظهر النور المشرق على صفحات الكائنات، فيرى نورَها الحقيقيَّ الذي ظهرَتْ به بعد الظلمات، وهو النور الذي اقتضته الأسماء والصفات، كما شهد به البراهين والآيات، فمن شهد وجهه الباقي في جميع الكائنات، وهو الذي شهده أرباب النهايات.

فمن أرادَ هذا وله همة علية، ونفس زكية، فليقبل بوجْه القلبِ على خالق البرية، وليترك نفسَه من الحظوظ النفسانية والشهوات البهيمية، والأخلاق السبعية والشيطانية. ثم يدمن السير ظاهره وباطنَه إلى خالق البرية قاطعاً للحجب الظلمانية، غير مكترثٍ بها ولا معولٍ عليها، قاطعاً للحجب النورانية غير مغتر بها ولا ملتفتٍ إليها، حتى تفْجأه الأنوار القدسية، فيفنى عن نفسه وعن سائر البرية.

وخفيرُه وظهيره في هذا السيرِ، التزامُ الذكر بالقلبِ واللسانِ، بقوله: «لا إله إلا الله»، ويستحضر: أنه «لا معبودَ إلا خالقُ الوجود»، أولاً. ثم: «لا مقصود»، ثم: «لا مشهود»، وليتكلفْ به، فإنه إن شاء الله إذا دامَ عليه، ارتقَى من الدرجة الأولى: أنه لما شهد أن لا يستحق العبادة إلا خالقُ الوجود، ثم يرتقي إلى الدرجة الثانية: أن إذا كان لا معبودَ يُرى، أولاً، أن لا مقصود غير

هذا المقصود، فيرى أن لا مانعَ، ولا معطي، ولا نافع، ولا ضار، إلا واجبُ الوجود. فإذا تحقق أن لا مقصُودَ لجلب الخيرِ، ولا لدفع الضرر في الوجُود سواه. ثم يرتقي إلى الشهودِ، أن لا مصرّف في الوجود غيرُه. وهذه درجاتٌ عالية، ومقامات رفيعة، لا سبيل إليها إلا بالجد والتشمير، وهي ذوقية حالية، لا تدرك بالوصْفِ، ولا تعرف إلا بالعيانِ، ومن أراد فليشمر بظواهره وسرائرِه.

ونفحات الله لا تزالُ للمتوجهين والراغبينَ بالصدْق بتجريد القصد، وما معَنا في ذلك إلا الوصفُ. فنسأل الله أن يمنحنا بها منحَ أحبابه وأولياءَه، فعليه المعول، وهو المؤمل لما قصدناه وأملناه، فنستغفرُه، ونشهد أن لا إله لنا سواه، وصلاته وسلامه على عبده ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه».

* * *

(٣٧) وصية أخرى
[للسيدين عمر وعبد الله ابني أحمد بن عمر بلفقيه، تريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعل العلمَ والعمل به شأن السعداء من العباد، ليكونوا أئمة يهدون إلى سبيل الرشاد، تحيى بهم البلاد، وتندفع بهم الأسواء والفساد، ولا تزال ترعاهم عين عناية الرحيم الجواد، إذ كانوا بالعلم والعمل به في ازدياد، حتى يصيروا بالحق بين العباد أطواد، لا يضرهم من ناوأهم من أهل العدوان والعناد، حينئذٍ لا يكونون مؤثّرين على مراد مولاهم مراد، ويذوقوا قرة العين من خالص الوداد. والصلاة والسلام على الشفيع المصدّر يوم الأشهاد، وعلى آله وصحبه أولي الهمم العلية الحظيّين من مولاهم بأعلى مقامٍ وأقصى مراد، وتابعيهم بأحسن استقامة وأقوى استعداد.

وبعدُ؛

فقد طلبوا من الفقير الوصيةَ، السادةُ الكرام، الراغبين في سلوك سبيل سلفهم الأئمة الأعلام، المقتفون لجدهم خير الأنامَ، وهم الحبيبُ المنير الصافي الألمعيُّ، عمر، وأخوه الأمجدُ عبد الله، بنو الحبيب الفاضل أحمد بن عمر بلفقيه، وكذلك الحبيب المنيبُ، أحمد ابن الأخ المرحوم الشهاب عبدالله بن أبي بكر بن

سالم عيديد، بلغهم الله من كرَمه كل مقام عميدٍ، وسلك بهم المسلك الرشيد، فيما يحبهم منهم مولاهم الحميد المجيد.

فالوصيةُ لنفسي أولاً، إذ نفسي أحقّ بالوصيةِ، ولكم، حفظكم الله، بتقوى الله خالق البرية، التي هي كل خير عاجل وآجل حرية، وهي معراج للدرجات العلية، ومفتاح للكنوز المطوية في الفطرة القلبية، من العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، ومن نهَج ذلك الصراط المستقيم بلغَ ذلك المقام الكريم، ونال فيه ما لا يخطر على بالٍ من فضل المولى العلي العظيم.

والتقوى امتثالُ أوامر الله، واجتنابُ نواهيه جل وعلا، ظاهراً وباطناً. فالظاهرُ: امتثال أوامره الشرعية ووفق المشروع، وترك المنهي، رجاءً لثواب الله ومخافةً من عقابه. وباطناً: بالصدق والإخلاص لله سبحانه وتعالى.

فالإخلاصُ: أن لا تقصدوا بما فعلتم من مأمورٍ، أو تركتم من منهيٍّ، إلا وجهه الكريم. وأمر مباحٍ، كأكلٍ للتقوّي به على طاعة الله، واستخراجِ الشكر من النفس، والاعتراف لله بالصمدية، إذ يطعم ولا يطعَم، ومحبة المنعِم، ومشاهدة الإحسان منه جل وعلا. قال رسول الله ﷺ: **«أحبوا الله لما يغذوكُم به من نعَمِه، وأحبوني بحب الله»**.

واتباع رسول الله ﷺ فيما يتعاطَاه من فعل مأمورٍ، أو ترك محذورٍ، أو أمر مباحٍ، هو المفيدُ لمحبة الله. فالمنيب المتيقظُ يتلمّح الأسرارَ في معاملة الرحيم الغفار، ومن هاهنا تشرق الأنوار، وتعتمر الأوقات بطاعة الله آناء الليل وآناء النهار، فيعثر المريد على الكنز الأكبر، والكبريت الأحمر، بخلع أوصاف المحبوبية من الكريم الرحيم، الملك القهار.

وأن تخرجوا من قلوبكم ملاحظةَ السِّوَى، بطلب منفعةٍ أو دفع مضرة.

والصدقُ: أن لا تطلبوا في مقابلة ذلك العمل ثواباً من عاجلِ الدنيا وآجل الآخرة، ولاحظّ من الحظوظ. ووجود اللذة بالفعل أو الترك، معتمدون على كرم الله وعظيم إحسانه، وشهود أن ذلك كله من منّه وكرَمه وفضْله، فيشغلكم الشكرُ عن ملاحظة الجزاء، ومقابلة أوصاف العبودية بأوصاف الربوبية، وطلب الوفاء بها على العبودية من حقّ الربوبية.

فمن قام بهذا، ظهرت له أسرارٌ، وأشرقت عليه أنوارٌ، وظهر له الكنز المطويّ في قلب البشرية الفطرية، فشاهد أنموذجاً من الحضراتِ القدسية، فتفيض على ألسنتها من العلوم الكشفية الذوقية، إذ كانت لها عروجٌ إلى المقاعد العندية. وسبيل ذلك كله التزامُ التقوَى، فهي السبيلُ الأضوأ، والمجاهدة فيها بها الظفر والحضور.

وإدمان المجاهدة في الظواهر يثمر إشراقَ الأنوار في السرائر، وفي استنارة البصائر، قال ربنا جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فسبيله تعالى هي معرفته الموجبةُ لمحبته، التي هي شأن المقربين من خاصته. فمن المجاهدة تحصلُ المشاهدَة للأسرار الحقية، والتعلي إلى المعارج القدسية، والحضائر العندية. فمن هاهنا تظهر أسرارٌ تخفى على سائر البرية، إلا على أولئك العصبة المهدية، فمن قام بالإحسان في تلك الشئون العلوية، كانت له المعية، ممن بيده العطايا الوهبية.

والإحسان أن لا تكونَ نفع العبد بما شاهدته طَغية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾. طغيان هذه النفسِ إفشاؤها للسر المصون. فمن

مخاوف هذا المقام: السلب، والاستبدال، وتغير الحال بالالتفات إلى عالم الخيال، وموطن الارتحال والزوال، وقطع المريد بالانفتالِ عن حضرة الجلال والجمال، وعن حد العبودية في تلك المنازل العوال.

ومن لازَم الإحسانَ، وتجافى عن كل فانٍ، غضَّ بصره عن كل قاص ودانٍ، وكان معه مولاه في كل شأن، ورقى إلى أعلى المراتب من شهود العيان، وكانت له الرعاية والعناية من معية الملك الديان.

ومن عزَّ عليه ما يطلبُ هانَ عليه ما يبذلُ، وسلعة الله غاليةٌ، لأن فيها كل السيادة والسعادة في الدنيا والآخرة، وإنما الدنيا حظ يسير، وعمر قصير. ولكن اللذائذَ الروحية، والنفائس العلويةَ، متصلةٌ بالمعارج العلويةِ والحضائر القدسية، وبكلٍّ تمامُ النعيمِ بها عند القدومِ على من يناديها بيا أيتها لنفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيةً، فادخلي في عبادي الذين اصطفيتُهم لودادي، وادخلي جنتي التي لا يرون فيها بؤساً ولا تكديراً، منعَّمين مكرَّمين بالملك الكبير، لا يحزنهم المماتُ، ولا يخشون الفوات، بل يتجدد لهم السرور والإنعام بجوار رب الأرضين والسموات، وأكبر من ذلك دوامُ رضوانه عليهم، وزيادة النظر إلى وجهه الكريم التي ينسون بها كل نعيمٍ، فيا له من مقامٍ عظيم، ونعيم مقيمٍ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

* * *

(٣٨) وصية أخرى
[لمحبه المكرَّم عبد الله بن عمر بن ثعلب الحضرمي]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الفاتح للقلوب بنوره، وصلى الله على سيدنا محمد القائمِ بأمره في غيبته وحضوره، وعلى آله وصحبه، وسائر أتباعه وحزبه.

أيها المحبُّ صافي السريرة، ومنور البصيرة، عبد الله بن عمر بن ثعلب، اعلم وفقكَ الله، وأنهض همتك إلى ما يحبه ويرضاه، وزادك حباً للخيرِ وتنافساً فيه، وأسعفك بألطافه وعوافيه:

أن القلبَ سلطانُ الجوارح، فمهما توجه إلى أمر كانَ القيادُ له، إذ هو الحاكم والجوارحُ محكومٌ عليها، فإن توجّه إلى الله وإلى الدار الآخرة كانتِ الجوارحُ معمورةً بالطاعة، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، إذ هي مقهورةٌ تحتَ حكمه، مسارعة إلى أمره. فالواجبُ على الإنسان تفقد أحوال القلب، وتزكية أعماله، وتوجيهه بحسن الالتجاء، والافتقار إلى الله، في إصلاحه، إذ هو محل نظر الربِّ، فإن كان همته وقصده رضا الله والدار الآخرة، كانت الجوارح كلها فيما يرضي الله، إذ هي لم تفعل إلا ما يريده، أعني القلبَ. سواءً باشرتْ بفعلها أموراً دينية أو دنيويةً، لأنها مقهورة تحت حكمِ القلب الصالح، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا يهم إلا في خير، ولا يريد إلا خيراً.

فإذا باشرت الـجوارحُ الطاعةَ كانت في أحسن استقامة، وهو مراقبٌ مولاه في نفي الرياءِ والعجب والكبر والحسد، وغير ذلك من من الخواص المذمومة، والحظوظ المتهومة، وإذا كانت مباشرةً لأمور دنياويةٍ، كان الحامل لها منه النيات الحسنة والمقاصد الجميلة، من إعفاف النفس، وصلة الرحم، والتصدق في وجوه البر، وغير ذلك من الأفعال المحمودة، وكذلك لا يطلبها إلا على الوجْه المرضي، الخالص من الغش والخديعةِ وما لا يحله الشرع، غير قاصدٍ للتكاثر والتفاخر، والحرص المذموم الحامل عليه خشيةُ الفقر، ولا شبع البطن من تنوع أنواع الطعام وألوان اللباس، ولم يشغله أيضاً عما أوجبَ الله عليه من الفرائضِ، ورغبه فيه من النوافلِ؛ فحينئذٍ يجعلُ الآخرة نصْبَ عينه.

فينظر إلى نعيمها في دار النعيم والملك العظيم، وما أعدّ الله فيها من الزلفى والتكريم لأهل طاعته، الثابتين على الصراط المستقيم، وينظر إلى الجحيم، وما أعده الله فيها لأهل العصيان، المؤثرين للدار الزائلة، الممزوجة بالمحن والأكدار، المشبهة بالسراب، الآيلـة إلى الـخراب، الموجبة لمناقشة الحساب، وبسوء لمنقلب والمآب، لجهلهم بغرَّتها، وافتتانهم بزهرتها، فما أشبهها بالخيالِ، وما أسرعها إلى الـزوالِ، قال ﷺ: «**الدنيا دارُ من لا دارَ له**»، إذ الـحقيقةُ أن الإنسانَ مسافرٌ فيها على ظهور الليالي والأيام، كلّ ليلةٍ أو يوم يقطعه من عمره شاهدٌ عليه أو له، بعصيانه أو برّه، فمن أين لهذا أني تكون له دارٌ، وهو فيها مسافر مار، مع ما يقاسي فيها من المحن والأخطار. فحينئذٍ، فهي ليست له بدارٍ، ولا لمبتغيها قرار.

و«**مال من لا مالَ له**»، لأنه لم يكن له إلا ما أكلَ فأفنى، ولبس فأبلى،

وغير ذلك هو مالُ غيره، ومعار بيده. فهذا لا مالَ له، إذ لم يبقَ له شيء منها لذهابها عنه، أو ذهابه عنها. «ولها يجمع من لا عقلَ له»، لركونه إلى المحالِ، وقنوعه بالخيالِ، فما أنكسَ عقلَه في طلب هذا الوهَم، وما أبخس قسْمَه عند حيازةِ أنفس القِسَم.

ومهما كان القلبُ متوجهاً إلى الدنيا، ومؤثراً لزينتها وزخارفها وشهواتها، وحظوظها ورسومها وجاهاتها، وغرتها والتفاخر بها، وغير ذلك من أطماعها الرذيلة، وبهارجها الوبيلة، استحالت، والعياذ بالله، أفعالُ الجوارحِ كلها شرًّا، لفساد متبوعها، وخبث ينبوعها.

فالقلبُ الفاسد لا يصدر منه إلا الفساد، لإعراضه عن المعاد، وطموحه إلى دار الفناء والنفاد، فإن قام بطاعةٍ كانتْ معلولةً بالرياءِ والعجْبِ والكبر، وإن أمر بمعروفٍ أو نهى عن منكرٍ يشهد تنزيهَ نفسِه، واحتقار المنهيّ والمأمور، لأنه يرى أنه خيرٌ منه، ولم يشعر أنهم أحسنُ منه حالاً، لاعترافهم بتقصيره.

وهذا المغرورُ، معاصيه كلها كبائرُ موبقاتٌ مهلكات، تكاد الكبائر منه أن تكون كفراً، لأنه لا يرى فيها كثير بأسٍ، لأنه غارقٌ في زهوِه وطغيانه، حائر في ميدان تجرّيه وخذلانه، قد استحوذ عليه الشيطانُ، واستولى عليه برَجِله وفرسِه، فهو مكبلٌ في حضيضِ الضلال، نازل في دركاتِ الهلاك؛ وصغائرُه كبائر، لإصراره عليها، وعدم احتفاله بها.

فهذا وإن سهُلتْ عليه الطاعاتُ الظاهرات، لخبث باطنه، وخسة مقصده، وصغرت المعاصي في عينه، تصير طاعتُه معاصيَ؛ لإقامَة ظاهرها مع الغفلة بالتفكرِ والجولانِ بالوساوسِ الشيطانية، والحظوظ النفسانية، وغفلته عمن

قام في الطاعة لأجله، فيَمقُته من حيثُ أقام جسمَه الذي هو موضعُ نظرِ الخلْقِ، ومالَ بقلبه الذي هو موضعُ نظره تعالى، هذا إذا قامَ قاصداً لطاعةِ الله.

وأما إذا قام لمراءات الناسِ، وطلب المنزلة عندهم، وحب الثناء منهم، فهو من أكبرِ الكبائر، إذ هو الشركُ المحبط للأعمال، فمن أسوأ حالاً ممن صارت طاعتُه عينَ الضلالِ!. وأصْلُ هذا كله فسَادُ القلبِ، بميله إلى الحظُوظِ العاجلَة الدنية، وانقياده للأوهام الخيالية، ومع ذلك يظنّ أنه على كلّ شيءٍ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾. هذا أقلّ ما ينبغي للإنسانِ أن يعرفَه من أحوال القلبِ، في صعوده ونزوله.

فنسألُ الله الإعانةَ على صلاحِه، وتثبيتـه على ما يحبه، ويرضى به عنّا، ويحيينا حياةَ السعداء المهديينَ، على الصراط المستقيم، ويتوفنا وفاةَ الشهداء، النازلين بجواره في دار النعيم، إنه أكرم كريمٍ، وأرحم رحيمٍ. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعينَ، والحمدُ لله رب العالمين».

* * *

(٣٩) وصية أخرى
[للنقيب، حاكم المكلا]

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الذي جعل الولاةَ سبباً لعمارة دينه، وأمدهم بهيبته وتمكينه، لا ليتمتعوا بالشهوات، ولا ليكتسوا الثياب الفاخرات، ولا ليجمعوا حطام دار الشتات، بل ليرشدوا الضالينَ، ويردعوا المفسدينَ، وينصُروا الضعفاء والمساكين، ويقيموا الدين، كما أمر رب العالمين، اقتداءً بالأنبياء والمرسلين، والأئمة الراشدين، ليسلكوا سنَنهم القويم، ويهتدوا صراطهم المستقيم، وذلك ليسعدهم السعادة الأبدية، ويحييهم الحياة السرمدية، لأنهم أمانَه على خلقه، فبهم يصلح العباد، ويزول البغي والفساد، وتهتدى السبل، ويقمع بهم أهل العناد، وتحيى بهم قلوب أهل السداد، فيمدونهم بالدعاء بطول البقاء والازدياد، ويكون ظلهم عرش الرحمن يوم المعاد، لأنه رعاة الأمة، تزول بهم الظلمة، وتنزل بهم الرحمة، وتخصب بهم النعمة. وصلى الله على سيدنا محمدٍ الشفيع المشفّع يوم الطامة المدلهمة، وعلى آله وصحبه الجهابذة الأئمّة، ما أزاحت الباطل نهضات الهمّة، وأزالت كل كربة وغمة.

وبعدُ؛

فهذه تذكرة وتبصرَة، من العبد الفقير، إلى ربه القدير، حسن بن صالح

ابن عيدروس الجفري، إلى جناب النقيب السعيدِ، إن شاء الله تعالى، حماه الله من المهلكات الدينية والدنيوية، وجعل به صلاح الشريعة المحمدية.

اعلَمْ، وفقك الله، أني سمعتُ في هذا البلدِ من القبائح الشنيعة، والموبقات الفظيعة، ما تحير العقولَ، وتوجب الذهولَ، وأشفقتُ عليكَ، وبادرتُ بهذه النصيحة خدمة إلى الله، ومحبة لك، وهداية لك، وذلك لأن الوالي شريكُ الرعية في أعمالهم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرّ. لأنهم بهديه يهتدون، ولأمره يطيعون، فهو شريكُهم في جميع أحوالهم الصالحة والفاسدة.

وأنتَ، حماكَ الله، لا ترضَى لنفسك بالهلاك، وأنت قادر على النجاةِ، فتسلم من شقاوةٍ بعدَ سخط الله ومقته، بحمل أوزارهم، إذا لم تنههم ولم تزجرهم، فعن أبي الدرداء رضِيَ الله عنه أن رسول الله ﷺ قالَ: «**والذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو يوشك أن يبعثَ عليكم عذاباً من عنده، ثم تدعوا فلا يستجاب لكم**». وعن علي رضِيَ الله عنه عن النبي ﷺ أنه قالَ: «**من رأى منكم منكراً فليغيرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسَانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعفُ الإيمان**». فالتغيير باليدِ للأمراء، وباللسان للعلماء، وبالقلب للعامة.

وعن معاوية الفزاري بإسناده عن رسول الله ﷺ: «**أنتم على بينةٍ من ربكم، فقد بيَّن لكم طريقكم، ما لم تظهر بينكم السكرتانِ؛ سكرة العيش، وسكرة الجهلِ. فأنتم اليوم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في سبيل الله، وستجلون، أي تخرجون، عن ذلكَ، إذا فشَا فيكم حبُّ الدنيا، فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر، ولا تجاهدون في سبيل الله، والقائمون بالكتابِ والسنة يومئذ سرًّا وعلانيةً، كالسابقين من المهاجرين والأنصار**»[1].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «الأمثال»، وأبو نعيم في «الحلية».

فماذا ينفعكَ من الدنيا إذا لم يرض عنك مولاك، ولو كان شرقها وغربها في ملكك، إلا أن تقوم بأمره، وتنفيذ حكمه وزجره، وتزيل القبائح والفواحش عما وصلته قدرتك، فحينئذ يأتيك نصرُه وتأييده، وتمكينه وتسديده. قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، الآيةَ. فإذا عملتَ بهذه النصيحة، فأبشر برضوان الله عليك في الدنيا والآخرة، بعفوه ورحمته، والخلود بجنته.

فقُم، حماك الله، قيام الغيور على دين الله، ابتغاء وجهه ورضاه، وأخرِجْ من هذه البلدة جميعَ أهل الفجور، ولا تأخذك في الله لومَةُ لائم، لتتمَّ لك سعادة الدارين، في الدنيا بالنصرة والتمكينِ، والفتح المبينِ، والثناء الجميلِ. وفي الآخرة بالفوزِ الخطيرِ، والملك الكبيرِ. فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام: «**إن الله تعالى يرسل إلى عبده في الجنة ملكاً، ومعه كتابٌ من ربّه، فيقولُ له: اذهب إلى عبدي، فإن أذن لك فادخلْ وإلا فارجع، فيستأذن عليه من وراء سبعينَ حجاباً، ويعطيه الكتاب، فيجد فيه: من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت، ويجد فيه: عبدي إني مشتاقٌ إليك فزرني، فيقول: أتيت بالبراق، فيقول: نعم هي هذه، فيحمله الشوق إلى ربه**». وفي الخبر: «**إن أدنى أهلِ الجنة، وليس فيهم من دني، من يزوَّجُ سبعين حوراءَ، على كل حوراء سبعون حلةً، يرى مخ ساقيها من وراء الحلل، وأن نور سوارها يكسفُ نور الشمس والقمر، وأنه لو وقع خمارها بالمغرب لملأ ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحه، وأنها لو بصقَت في البحر المالح لعذُبَ ماء البحر من عذوبة ريقِها، وإن كل شعرة**

من جسد المؤمن تجدُ لذةً بنعيم الجنة في الأكل والشرب وغيره، وأن الشرب والأكل فيها لذة آخره كما لذة أوله»، وغير هذا من النعيم الدائم لأهل طاعتهِ، فناهيك بالملك الذي كبّره الله وعظمه.

وأما الدنيا؛ فإنها تنادي يوم القيامة مع حسنها وزينتها: اجعلني لأندى أوليائكَ، فيقول لها الحق سبحانه وتعالى: «**اسكُني يا لا شيءَ، لم أرضك لهم في العمر الفاني، فكيفَ أرضاك لـهم في العمر الباقي، أنا أجعلك وأربابك في النار**».

وأنه منذ خلقَها ما نظر إليها، بغضاً لها، فعمرُها قصير، وعيشها حقير وهمها كثير، فأي مرغوبٍ فيها لعاقلٍ يسمع ويبصر؟ فهي أمرُّ من الصّبِر، وأنتن من الصديد المذِر، وهي موطنُ البؤس والشرورِ، ومحل التخييل والزور، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. قال الله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يعني: أن عمر الدنيا من أولها إلى آخرها إذا نسِبَ إلى عمر الآخرة الدائم الباقي إلا قليلٌ، فما أخزَى من باع الملك الكبير بالنزر الحقير، وشقْوةَ من ضيّع أمر الله، واتبع عدوه ومن والاه، فما أقبح مسعاه، وما أعظم بلواه، وما أشقى صباحه وممساه، وما أخبث سره ونجواه.

فإياكَ، حماك الله، أن تتساهلَ بهذه النصيحة فإنها ممن لا يريد بها أجراً ولا إكراماً، ولا شفاعة ولا تعظيماً إلا من مولاه، فهي جديرة بالقبولِ، إن كان هناك قلبٌ تقيّ، ونفس ترعوي، إذا أراد الله وساعدَه التوفيق، والعاقل كلمة واحدة تكفيه، لمن يريد الله ويرتضيه، ومن لم يرد الله صلاحه نفت فيه الأقاويل.

فأزل، حماك الله، جميع البغايا، ولا تبقِ فيها إلا من يريد الصيانةَ، فاحكم عليها بالتزويجِ، وأؤمر أهل البلد إذا أذن المؤذن للصّلاة أن لا يبقى أحد في السوق أو غيره إلا ويأتي المسجدَ للفرائضِ الخمسِ والجمعة، فبهذا تنال درجة السعداء المهتدين، والأئمة الراشدين، ولا يرضى بالدون إلا كل مغبون.

والشأن الكبيـر والأمر الـخطير، هو إزالة المفاسد الموبقات، والقبائح المهلكات، فهي الموجبة لهلاك الدنيا والدين، المشعرة بسخط رب العالمين، واحذر أن تسمع كلام من أعمى الله قلبه، وسلبَ عنه عقله ولبه، أن يزين لك بقاء هذا الأمر، ويبسط لك فيه العذر، فيهلكك إلى هلاكه، ويستأسرك في ورطات شباكه، فإن هجوم الآجال، أهون من بقاء الضّلال، وتسخيط ذي العزة والجلال، والخلود في دار الخزي والنكال، والقنوع بدار المحال والزوال، فما هي إلا سبيل إلى الآخرة، وسفر لارتباح التجارة الفاخرة.

فإياكَ ثم إياكَ، حماك الله، أن تسمع من يدعوك إلى سبيل الشيطان، فتخسَر أيَّ خسرانٍ، وتلحقك الندامة الكبرى في الدنيا والآخرى. فأعدَّ هذه الوصية، حماك الله، نعمةً مهدية، ونظرة وهبية، سترى ثمرها إن شاء الله، فإنها من محب مشفق وناصحٍ، رأى بعينه، وشاهد بقلبه، يخشَى عليك سوء الحساب وأليم العذاب، ولا تكن من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، فقد قال رسول الله ﷺ: «**أيما عبدٍ أتته موعظةٌ في دينه، فإنما هي نعمةٌ من الله سيقت إليه، فإن قبلها شكر، وكان من المؤمنين، وإن لم يقبلها فجر، وكان من الكافرين، الذين قالوا:** ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من وُعِظَ فلم يتعظْ، وزُجِر فلم ينزجر، كان عند الله من الخائنين**».

وإني ما أهديتُ هذه النصيحةَ إليك، إلا لأني شممتُ منك رائحة القبول، بخصلتين فيكَ: محبة أهل البيت، والسخاء. فإنهما لا يكونان إلا في أربابِ الأنفس الزكية، السامعة للحق، إن شاء الله تعالى. والله ولي الهداية والقبولِ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وإلا فقد عمّتْ في هذا الزمان المصائب، وفشت القبائح والمعائب، هذا ما وعد الله في آخر الزمان، وصدق المرسلون، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحمَ.

اللهُمَّ ارحمنا حتى تعصمنا ولا تعرضنا لسخطك ومقتك، وإذا أرادت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين، برحمتك يا أرحم الراحمينَ. وصلى الله على سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن أحيى هذا الدين، ودعا إلى الحق المبين، والسلام عليكم وعلى من عندكم من أهل الحق، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقينَ، والحمدُ لله رب العالمين.

تاريخ إنشائها، سلْخَ شوال سنة ....».

* * *

[القسم الثاني: الوصايا العامة]

(١) وصية أخرى له

نفع الله به آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

«الـحمدُ لله الفتاح العليم، الذي أرشد من اصطفاه من عباده للتعلم والتعليم، وجعل العلم سبب النجاة والفوز بالزلفى عند الملك العظيم، ثم ألبس العاملين به خلع الجلال والتكريم، وجعلهم مصابيحَ يهتدي بهم الأنام، وتنقشع بهم دجُنّات الظلام، يدعون إلى سبيل الغفور الرحيم، فمن أجابهم نال وفاز يوم الأشهادِ بدار البقاء والنعيم، ومن اتّبع هواه وآثر دنياه على أخراه صار مهاناً معذَّباً في الخزي في العذاب الأليم، فكان مذموماً مدحوراً مع أتباع الشيطان الرجيم. والصلاة والسلام على من أرسَله الله هاديا إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحبه الفائزين من صحبه وأتباعه بالمقام العظيم.

أما بعدُ؛

معاشر الإخوان، وفقنا الله وإياكم لطاعته، وجعل مآلنا وإياكم دار كرامته، إنه أمرني بعضُ الإخوان ممن لا تسعني مخالفته، أن أرتب مجلساً لمذاكرة الإخوانِ، والنفع والانتفاع، فامتثلتُ أمره، لما أعلم من صدق نيتـه، ملتمساً منه بركة دعوته، وأمرني أيضا أن ألقيَ وصيةً توطئة لهذا المجلس.

فاعلمُوا معاشر الإخوان، جعلنا الله وإياكم من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، أن مجالس الخير أسواقُ الآخرة، بل هي رياضُ الجنة، كما في الحديث. ولكن إياكم أن تدخلوا هذه الأسواقَ وتخرجوا منها مفلسين، فانووا أولا أنها رياض الجنة، وأن ثمرها العلم، وأن جناها العمل به، وتعليم الإخوان ابتغاء رضا الله، وإن فائدة ذلك الفوزُ بالدرجات في دار النعيم، فتلقوا العلم والحكمةَ بإصغاءِ السمع ويقظة القلب، واحرثوها بالفكر الصحيح.

واقبلوها من أهلها ومن غير أهلها، فالحكمة ضالة المؤمن، إذا هو نجاته وسعادته في الدار الباقية، لا يبالي على يد من يظفر بها من صغيرٍ أو كبيرٍ، أو شريف أو ضعيف، أو طائع أو عاصي، فهذا هو المؤمنُ الناصح لنفسِه، المقبل على شأنه، الحريص على دينه.

فتناصحوا وتعاونوا، معاشرَ الإخوانِ، على مرضات ربكم، فإن النصيحة من الدينِ، والتواصي بالحق شأن أهلِ السعادة، قال ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**». وخيرُ النفع ما تضمّن السعادة الأبدية، برضوان الملك الديان، وخلود الجنان، فهذا النفع الذي هو غاية الكمالِ، ومنتهى درجات الإفضال، إذ هو مقام الأنبياء وورثتهم من كمّل الرجال.

ففي الخبر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بأقوامٍ ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، لمنزلهم من الله عز وجل، على منابر من نور يعرجون عليها**»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**الذين يحببون عباد الله إلى الله ويحببون الله تعالى إلى عباده ويمشون في الأرض نصحاً**»، قلنا: يا رسول الله؛ هذا حببوا إلى الله عبادَه، فكيف يحبِّبون عباد الله إلى الله؟ قال: «**يأمروهم بمـا يحب الله وينهونهم عما نهى الله فإذا أطاعوهم أحبهم الله**».

واعلموا معاشر الإخوان، جعلنا الله وإياكم ممن جعل التقوى زاده لمعاده، وأمده بعونه وإسعاده، أن الله غني عن أعمال العباد وطاعتهم، ولكن أمرهم بذلك لما يعودُ عليهم من الكرم والإحسان، والرحمة والامتنان، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، فلذلك قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، لانتصابكم لنصح عباده، والنصيحة لهم، والشفقة عليهم، لينجوا من عذابه وسخطه، وأليم عقابه، ويرغبون فيما يرضى به عنهم ويحبه منه ويقربهم إليه.

فالطاعة جعلها الله تعالى سببَ القرْب منه، ومن كان في قربة فقد أعظمَ عليه منته، وخصه برحمته، وأخلده في جواره بدار كرامته، مع من أحبه من خاصته وصفوته. والمعصيةُ جعلها الله سببَ البعد عنه، ومن كان في البعد صارَ إلى شقاوة الأبد، والتخليد في العذاب الأليم، أجارنا الله وإياكم من عذابه، وسلك بنا وبكم مسالك أحبابه.

فانظرُوا، معاشر الإخوان، ماذا تختارون، وفيما ترغبون، أن تكونوا بجوار الملك العظيم، في دار البقاء والنعيم، والملك الجسيم، في قرب الحكيم الرحيم، الجواد الكريم؟. أو تكونوا في الخزي المبين، والعذاب المهين، بقرب إبليس اللعين. هلكَ والله من كان بقربه، وخسر من كان من جنده وحزبه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فإنه يدعوهم إلى معصيةِ ربهم، ليكونوا معه في دار الندامة والخسران، والخزي والهوان، فهو عدو بين العداوة، واضح الغواية، ولكن عميت القلوب عن إدراك مخادعه.

فأوقع الناس في شبكته، وأسرهم بجنود فتنته، ورماهم في بحار ظلمته، وأغرقهم بأمواج غربته، فصاروا صماً عن الحقّ لا يسمعون، وعمياً بظلمة الجهل لا يبصرون، بكماً عن فهم كلام الله لا يفقهون، يطلبون ما لا يدركون، ويطمئنون فيما هم عنه ظاعنون، وفي هلاك أنفسهم ساعون، يبنون ما لا يسكنون، ويرغبون فيما هم عنه راحلون، بالخزي يفاخرون، وعلى الرذيلة يتحاسدون، وبالأوساخ يتضمخون، يحسبون الشراب غدَقاً منه يشربون.

كلا والله! يا هدف سهام المنون، ويا ثمن ماء العيون، ما الغرض فيما تطلبون، ولا النجاء فيما تجمعون، ولا السعادة فيما تظنون، بل هذا تلبيس اللعين، يجعل القبيح في صورة الحسين، والخسيس في صورة النفيس.

ما السعادةُ بجمع المالِ، ولا بكثرة الخدم والعيال، ولا باستمالة كل طاغ وبطال، ولا بمدح السوقة والأنذال، ولا بالتشدق في مجامع الجهال، ولا بزينة الحياة الدنيا وترهات الخيال. إنما النجاة والسعادة الكبرى، في الدنيا والأخرى، بلزوم تقوى الله، والمسارعة إلى ما يحبه ويرضاه.

قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فالتقوى أساسُ الخيرات، ورأس الدرجات، ومنبع القربات، ومجمع الحسنات، ومعدن البركات، وطهارة السيئات، بها المخرجُ من الشدائد، والرزق من حيث لا يحتسب، وتعظيم الأجر، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾، وغير ذلك من الآيات والأحاديث الواردة في فضل التقوى.

ففي الخبر: «إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يومٍ معلوم، ناداهم صوتٌ يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم، فيقول: يا أيها الناس، إني أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، فأنصتوا إليَّ اليوم. إني جعلت لي نسباً ولكم نسباً، فرفعتم أنسابكم ووضعتم نسبي. قلتُ: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وقلتم: فلان ابن فلان، وفلان أعلى من فلان، اليوم أرفعُ نسبي وأضع أنسابكم. أين المتقون؟ ليقم المتقونَ، فيعقدُ لهم لواء، فيدخلون الجنة بغير حساب»، أو ما هذا معناه.

فاتجروا عباد الله، رحمكم الله، لهذا اليوم العظيم، بفعل الخيرات، والأعمال الصالحات، وكل ما هو آتٍ آت، والبعيدُ ما ليس بآتٍ. اللهُمَّ لا تقطع آمالنا من كرمك، وجميل فضلك، وإن كنا خاطئين ظالمين، فعاملنا بما أنتَ له أهلٌ، ولا تعاملنا بما نحن له أهلٌ، يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمدٍ عبدك ورسولك، وعلى آله وصحبه وسلم».

* * *

(٢) وصيةٌ أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله الملك العلام الديان، الكريم المنان، مبدع الأكوان، ومجري الملَوان، وخالق الإنس والجان، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يعزب عن بصره شاسع ولا دان، كل الخلائق بين يديه؛ أهلُ السعادة والخسران، ناظراً إلى أهل طاعته بعين الرحمة والإحسان، يبشرهم بالكرامة والرضوان، وأنهم لا خوفٌ عليهم ولا تغشاهم الأحزان. وناظراً بعين السخط إلى أهل المخالفة والعصيان، يحذرهم وينذرهم بأسَه وعذابَ النيران.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً نستوجب بها الخلود في فراديس الجنان. وأشهد أن سيدنا محمداً عبدُه ورسوله سيد ولد عدنان، أرسله إلى كافة الإنس والجان، بشيراً للمؤمنين بسكنى الجنان، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة روضات ورضوان، وحور ناعمات وولدان، خالدين في النعيم الـمقيم بلا انقضـاء ولا نقصان، في سرور وحبور وريحان، ورَوحٍ بلا تعب ولا أذى ولا إدمان، لا يغيب عنهم النعيم ولا تطرقهم الأحزان.

فإذا كمُلَ عندهم النعيمُ وعرَفوا سابقَ فضله القديم، ناداهم الرؤوف الرحيم: عبادي سلوني إني أنا الحميد، فيقولون: سيدنا ما على هذا مزيد. فيقول سبحانه: عندي لكم أحسن مما تتنعمون، وألذ مما أنتم فيه خالدون، فيكشِفُ

عنهم الحجابَ، فينظرون إليه بلا شك ولا ارتيا، فحينئذ تتضاعفُ أنوارهم بنَضْرة النعيم، فينسون بها كل نعيم مقيم، ويخلع عليهم خلع الجلال والتكريم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

سبقت سعادتُه لأناسٍ فهم في مرضاته يسارعون، ومما يقربهم إليه من طاعته لا يملون، إذا هجعت أعينُ الغافلين هم ساهرون، وإذا لَهَا البطالون هم لربهم خاشعون، هانت عندهم فما لعمارتها يطلبون، وهانت في صدورهم بها...، وسقطت من أعينهم فهم من عُمّارها يتعجبون. عرفوا قدرها فهم على طلابها يترحمون، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فسبحانَ من يجزي بفضله أهلَ السعادة المهتدين، ويعامل بعدله الطغاة الملحدين، فهم في الدنيا وإن تنعّموا بها قليل، فمقيلهم بها شر مقيل، ومصيرهم إلى عذاب وبيل، في دار مجمع الأحزان، دار الخزي والهوان، دار الندامة والخسران، شراب أهلها الحميم، وعذابهم أبداً مقيم، فهم في نيرانها وعذابها يضْحُون، وبالويل والثبور يهتفون. إن دَعوا لا يُسمَعون، وإن بكوا لا يُرحَمون، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. فيا حسرةَ من عصى مَن هو عليه قدير، ولا له من عذابه مجير ولا نصير.

فيا أسير اللهو والضلالة، ويا قرين الحمق والجهالة، ويا من خاب في سعيه آماله، كيف تخفي القبائح من الطفل الصغير، وتبارزُ بها اللطيفَ الخبير!.

فيها أنت الا بهلاك نفسك جدير، أم كيف تعاملُ من يسدي إليك الإحسانَ بشؤم القبائح والعصيان؟. أما تستحي من الملك الديان؟ أما تنتهي عن قبيل الوزر والبهتان؟ أما تستحي من وقوفك بين يديه خجلان؟ أما تخشَى الفضيحة بين الإنس والجان؟ أما تخشى عذاب النيران؟ أما تذكر أنك صائرٌ إلى بيت الوحشة والأحزان؟ بيت الـهوام والديـدان؟ والله إن ذلك لمحض الشقاء والحرمان، ودرَكَ الهلكة والهوان، وأبين الندامة والخسران.

معاشِرَ الإخوان: اعلموا أن شهر رمضانَ قد أزمع للرحيل، وآل إلى الفراق والتحويل، فهل من مسيلٍ على فراقه هواطلَ الدموع؟ وهل منكم من نفَي عن عينه لذّة الكرَى والهجوع؟ وهل من متملقٍ إلى ربه بقلبٍ محرَّق وكبد موجوع، ألا وهل من باكٍ على دينه، وخائفٍ من سُوء المنقلب والرجُوع.

إخواني؛ هذا شهرٌ ربحَتْ فيه تـجارة العامليـن، وأزلفت فيه درجـة المخلصين، وقبلَتْ فيه توبة الصادقين.

إخواني، ما أحسنَ حالَ من التجأ إلى رب العالمين.

إخواني، ما أطيب حالَ من انتمى إلى عباده الصالحين.

إخواني، ما أعطرَ أنفاسَ الذاكرين.

إخواني، ما أنفعَ بكاءَ المحزونين.

إخواني، ما ألذَّ عتابَ المشتاقين.

إخواني، ما أعجبَ مناجاةَ القائمين.

إخواني، ما أبعدَ عيشَ المبْعَدِين.

إخواني، ما أذلَّ نفوسَ الخاطئين.

إخواني، ما أسوأ حالَ المحرومين.

إخواني، ما أعظمَ حسرةَ الغافلين.

إخواني، ما أقبحَ حالَ المطرودين.

إخواني، ما أعصَى قلوبَ الظالمين.

إخواني، ما أظلمَ وجوهَ العصاةِ والمذنبين.

إخواني، ماذا يهمكم إذا كنتم لربكم طائعين، وماذا يضركم إذا كنتم عليه متوكلين؟ ومن ذا الذي يخذلكم إذا كنتم به معتصمين؟.

إخواني، أسبِلوا على ما مضَى في التقصير واكِفَ العبرات، واغسلوا بماء الدموع درَن الخطايا والسيئات، واستعدوا بالعمل الصالح قبل المهات، قبل أن تحلَّ بكم المِقلاَّت، وتصعد عليكم الزّفرات، وتقتحموا سبل الشتات.

أما تعتبرونَ بمن سلفَ من الآباء والأمهات؟ أما آنَ لكم أن تبادروا بالأعمال الصالحات؟ أما آن لكم أن تنتهوا عن قبائح المخزيات؟ أما ترهبون من ارتكاب المنكرات؟ أما ترغبونَ في الباقيات الصالحات؟ أما تشمرون في خِطبة الحوار الناعمات؟ فسبحانَ من نوَّر بمعرفته قلوبَ أحبابه، وطهر سرائرهم فتنعّموا بخطابه. و[عامل قوماً] بعدله، فقطعهم عن بابه، ورَدَّ قوماً بحكمته فعذبهم بحجابه. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

فيا خيبةَ من لم يؤيّده الحكيمُ العليم، ويا حسرة من لم يقبله الملكُ العظيم، ويا مصيبة من فاته الفضل العميم، ويا رزية من سمعَ الموعظةَ وهو على خطأه مقيم!. ويا فضيحةَ من بارزتَه بالقبائح في الخلوات، أتبارزُ بالقبيح من جاد عليك

بالجميل؟ أتجاهر بالعصيان من غمرك بفضله الجزيل؟ أترضى بالبعاد بدلاً عن الودادِ؟ فبئس البديل! ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

إخواني، أين البعيدُ من القريب؟ وأين الطريدُ من الحبيب؟ أين المخطئ من المصيب؟ أين المحروم ممن هو وافر النصيب؟ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾. مالكُم لا تنهضون إلى الغنائم بقيةَ هذا الشهر، فقد تضاعف فيه الثواب والأجر، وللطائعين العزُّ والفخر، وإن ليلةً منه خير من ألفِ شهر، المشهورة بليلة القدْر.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ رمضَان.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ تزخرُفِ الجنان.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ تبختُرِ الحورِ الحسان.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ العتقِ من النيران.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ مزيد البرِّ والإحسان.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ العفْو والغفران.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ المواهبِ والامتنان.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ اعتكافِ المساجد وتلاوة القرآن.

السلامُ عليكَ يا شهْراً تضاعَفُ فيه الأعمال.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ الدعاء والابتهال.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ إنجاحِ المقاصد والآمال.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ الإنابة والإقبال.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ الصيام والقيام.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ الفتوح والإلهام.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ الوفاء للذمام.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ مجانبة اللغو والآثام.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ التراويح.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ المتجر الرابح.

السلامُ عليكَ يا شهْرَ يقظته عباده ونومه تسبيح.

اللهم نوِّر بمصابيح التوفيق بصائرنا، واعمُر بانفتاح التحقيق ضمائرَنا، وأعظمْ لنا الأجرَ في المصيبةِ بفراق شهرنا، وأكرمنا بحُسنِ الرجوع إليك في باقي أعمالنا. **اللهم** لا تدَع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا هماً إلا فرجته، ولا مريضاً إلا شفيته، ولا مجتهداً في الخيرات إلا بلغته، ولا ضالاً إلا هديته، ولا ظالماً إلا كفيته، ولا عدوًّا إلا أهلكته، ولا مظلوماً إلا نصرته. **اللهم** لا تجعله آخر العهدِ منَّا في هذه الليالي العظام، وأعدها علياً سنيناً بعد سنين، وأعواماً بعد أعوام، وآمنَّا يوم الزحف والزحام، وعافنا من الأمراض والأسقام، وطهرنا من الدنس والآثام، واجعل مآلنا إلى دار الخلد والمقام في جنتك التي لا يسمعون فيها لغْواً إلا سلاماً، ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشياً. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير البرية، وعلى آله وصحبه البررة الكرام، مصابيح الظلام، وسلّم تسليماً كثيراً، والحمدُ لله رب العالمين».

* * *

(٣) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

يا عبادَ الله، اسمعوا خطابَ ربكم، وارفعوا رؤوسكم، وأصغوا أسماعكم، وأوعوا بقلوبكم، فإن هذا هو النبأ العظيم، الذي أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله، وقد أخذ عليكم العهودَ، إذ أخرجكم من صلب آدم في عالم الذرّ، وقال لكم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، فأجبتموه بقولكم: ﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ﴾، وهذا هو العهدُ الذي أقررتم به.

ثم أهبطتم إلى العوالم النفسانية، والحظوظ الشهوانية، والعوالم الدنيوية، نسيتم عهد ربكم، ولم يذكُر هذا العهد إلا من شاء الله من الأنبياء والمرسلين والمخصوصين، وصارت قلوبكم كالميتة لا تعرف ولا تعمل لماذا خلقت، وبماذا أمرت؟ وإلى أين مصيرها، إلى نعيم مقيم، أو عذاب أليم.

فاسمَعُوا داعي الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، فإنه إذا ذكرتموه ذكركم وهداكم، وبصركم فلا حكم ونجاتكم، وإذا نسيتموه أنساكم ما تستعدونَ به وترشدون من الحياة الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة، وحال بينكم وبين قلوبكم بعدم التذكر والاستبصار، ونسيان العواقب، والوقوع في المعاطب، واقتراف المعاصي والغفلة بدار الغرور، حتى يأتيكم وعده، إما بالموت وهو القيامة الصغرى، وهو أول اليوم الآخر يقدُم عليه كل حيّ، بسعادته أو شقائه. فتأهّبُوا، رحمكم الله، لهذا اليوم الطويل، والوقوف بين يدي الملك الجليل، والحساب الجليل، هنالك تجدون ما قدمتموه، وتندمون على ما ضيعتموه، فلا الندمُ حينئذٍ ينفع، ولا الاعتذار يومئذ يسمع.

فيا معشرَ أهل العلم تذكروا، ويا حملة القرآن تدبروا، فقد حملتم الأمانة التي أشفقَتْ عن حملها السموات والأرضُ والجبال، وحملها أبوكم، وكان في الجنة، فلم يلبث فيها إلا كما بين الظهر والعصر، ثم هبط إلى دار الشقاء والإبعاد، وقد كُلِّفْتم حملها، كما حملها أبوكم آدم، فأين القائمون بهذا الأمر العظيم؟

وأنتم يا أهل العلم هداة الأمة، أين ذبكم عن دين الله؟ وأين تعظيمكم لحرمات الله؟ وأين نصيحتكم لعباد الله؟ وقد علِمتُم ما نهجَ عليه سلفكُم الصالحون، وما أخذوا فيه بالجد والتشمير أبلغَ الغاياتِ. فأين أحوالنا من أحوالهم؟ وأعمالنا من أعمالهم؟ فحقَّ على هذا الخلف عن ذلك السلف أن يصدُقَ فيهم قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾، ولم يصْدِقوه التوبة والرجوع فيما أخذوه، حتى أخذوا مثله وأمثاله، حتى انتكست منهم القلوب،

وعميت منهم البصائر، فخرسَتْ ألسنتُهم عن الدعوة إلى الله، والنصيحة لعباد الله، فنسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فما أعظم هذه المصيبةَ، وما أكبر هذه الرزية، إن كان هناك قلوبٌ تعقل، وآذانٌ تسمع، وأعينٌ تبصر.

ويا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، أنتم فروع الشجرة الطيبة، وقد علمتم ما مضى عليه سلفكُم المهتدونَ، بإيثار رضا الله والدار الآخرة، وتنافسهم في ذلك، ومسابقتهم إليه غاية الاستباق، حتى بلغوا المقامات العالية، والمنازل الرفيعة، وصرفهم مولاهم في الوجُود، لما قاموا بحقه وأقبلوا عليه بكنه هممهم، فتقربوا إليه، وادخروا عنده الباقيات الصالحات، لما رغبهم في ذلكَ، وإلا فهو أجلّ وأعظم في قلوبهم مما سواه، ولا يحبون إلا ما أحبه.

أولئك الأسيادُ، أولئك الأمجادُ، أولئك تحيى بهم الأرضُون، وتستنير القلوب وتعمر البلاد، أولئك حزبُ الله، أولئك خاصته، أولئك محل نظره من عباده، وأين اليوم طريقتنا من طريقتهم؟ وقد هجرنا مسالكَهم، وخربنا ما عمروه، ولبسنا ما خلعوه، وأخذنا ما نبذوه، ووصلنا ما قطعوه. فحُقّ لنا أن نبكي على أنفسنا إذ أضعناها، ونحزن عليها إذ غبنَّاها، وعن سبيل رشدها قطعناها، وبأبخس القيم بعناها.

فالدراكِ الدراكِ يا أولي الفطرة الزكية، المتفرعة من البضعة النبوية، قوموا بأمر الله، واستقيمـوا على طاعة الله، واجتنبوا محارم الله. ولا فوزَ ولا فلاح إلا باتّباع سنة جدّكم المختار، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «يا فاطمة بنت رسول الله اعملي لنفسِك فإني لا أغني عنْكِ من الله شيئاً»، والشجرةُ العظيمة إذا يبس منها غصنٌ قطعَ وكان وقود النار، فلا تهجروا سبيلكم القويم، وصراطكم

المستقيم، ومفخركم العظيم، بالحظوظ السافلة، والخيالات الباطلة، وتضيعوا مع من ضاعَ، كالذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

فيا معشر المؤمنين، ناصحوا الله في دينكم، واعملوا بالتقوى، إنها العروة الوثقى، وهي سبيل النجاة، الموصلة إلى السعادات، والكرامات الدنيوية والأخروية، وهي الـحرزُ الحريز، والحصن الحصينُ من الآفات النفسية والمالية، وسخط الرحمن، وعذاب النيـران، ولا طاقة لكم بعذابه، فإنكم إذا اقترفتم معاصيه، وختم عهوده بالحيل والمخادعات، فإن الناقد بصيرٌ، إذا فعلتم ذلك أغضبتموه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، فارحموا أنفسكم، رحمكم الله تعالى، وزكوها مما لا يرضى به، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا *وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾.

واعلموا معاشر الإخوان، أن المصيبة المهلكة للدنيا والدين، المؤدية لسخط رب العالمين، الرّبا، قال جل جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، الآيةَ إلى آخرها. فأي مصيبة أشدُّ مما آذنَ الله على فعله بالمحاربة، وأي إنسانٍ، وأي سماء، وأي أرضٍ، وأي جبلٍ، يطيقُ محاربة جبار السموات والأرض، وأي عذابٍ وأي بلاءٍ وأي خزيٍ يحيطُ بمحاربة من له جنود السموات والأرض.

وأشد الربا وأعظمُه عقوبةً، وأسرعُه ضرراً، وأقبحُـه مصيبةً، وأبعدُه سلامةً، تعاطي الحيَل فيه، تلبيساً في الدين، وتدليساً على عامة المؤمنين، من علماء السوء، ممن لا خلاق له، ممن ضلّ وأضلَّ بحب الدنيا، جراءةً على حدود الله، وإلحاداً في دين الله، فاحتالوا بحيلٍ ليأكلوا الرّبا، مع إظهار أنهم يأتون على

وجهٍ شرعي، استهانة بجلال الله، واستهزاءً بآياته، وليُمضوا حيلَهم على الناقد البصير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

والربا الصريح أهونُ من الذي احتالوا به، وأضلوا به الجم الغفيرَ من خلق الله، فأكلوا الربا استحلالاً فأخرجوهم من دين الله، والعياذ بالله. وذلك لأن من استحلَّ ما حرّم الله كفر، وصار أغبياءُ الناس وعوامُهم يتبعونهم، وهم الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام: «**أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال**»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**علماء السوء**».

فإضلال الدجال ظاهرٌ لا يخفى، إذ هو يدعو إلى الكفر، وإلى عبادته، وعلامته ظاهرةٌ في جبينه، مكتوب في وجهه: هذا الدجال الكافر بالله. وأما هؤلاء، فاحتالَ لهم الشيطان بحب الدنيا، وأسكرَهم به، ثم فتح لهم أبواب المكر والحيل، فأدخلوا في دين الله ما ليسَ فيه، بتأويلاتٍ باطلةٍ، وترويجاتٍ ضالة. فيا سوء عاقبتهم ويا خسر قبح خزيهم ويا عظم مصيبتهم ومصيبة أتباعهم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فالنجاءَ النجاءَ يا عباد الله، اطلبُوا السلامةَ، قبل حلول الندامة، واستمعُوا النصائحَ، قبل حلول الجوائح، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾. اللهُمَّ يا من رفع السماءَ بغير عمادٍ، ويا من بسط الأرض بغير مهادٍ، ويا من يحيي الأرض بعد موتها، أحيِ قلوبَنا من موت الغفلة، وارزقنا حسن الإنابة إليكَ، وحلِّنا بطاعتكَ، واحفظنا من معصيتكَ، وتُب علينا توبة نلقاكَ بها وأنت راضٍ عنا، يا ذا الجلال والإكرام، يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

(٤) وصية أخرى له رضِيَ الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

يا عباد الله، إنكم في غفلة مُسكِرَة، وحيرة مذهلة، غافلون عن هذا اليوم العظيم، اغتررتُم بإهمالِ حلم الله، وكأنكم لا ترون ما أوقعه بأعدائه، فلكَم أباد من قرونٍ، ولكم هدمَ من حصونٍ، ولكم أُخِذنا على غرةٍ مَن عصاه وخالف أمره، بعد أن دعاهم النذير، وقدم إليهم من سطوته التحذير.

عباد الله، إن الدنيا بحرٌ عميقٌ، وطريق سحيقٌ، لا سبيل فيها إلى الخلاصِ إلا لمن استعد ليوم القصاص. عباد الله، إن دين الله بينكم قد انمحت رسومه، وأفلت نجومه، وظهر الباطل واستطال، وقويت شقاشقُ المنكر والضلال، ولا آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر. فيا عباد الله، لا يقتنصنكم الشيطان بحبائل الدنيا، فيوقعنكم في غضب الله، فتعاديكم ملائكته وأنبياؤه، وسائر حزبه

وأولياؤه، وتتغير عليكم أرضه وسماؤه، بل تشهد عليكم أيديكم وأرجلكم بين يدي الله، وقد وافتكم من الله المعذرة، وبلغتكم النصيحة.

فهذه معذرة الله وداعيه، ألا فاسمعوا عباد الله، ألا فأوعوا يا عباد الله، إلا فاستجيبوا يا عباد الله، فإن ما بعد النصيحة إلا أخذُ الحذَر، بالهرب إلى جانب السلامة، وحلولِ البأس ووقوع الندامة. ألا فانتبهوا عباد الله ليوم لا ريب فيه، فقد أشرفت عليكم طلائعُه، وغشتكم فجائعه، وأنتم عنه غافلون، لا تسمعون أهواله ولا تعقلون.

أتظنون أنكم للدنيا خلقتم؟ أم بجمعها أمرتم؟ أما علمتم أن عمارتكم تنهبُ؟ وأموالكم وسيئاتكم تكتب؟ أعلى الله تجترئون؟ أم برسله تستهزئون؟ أم بآياته تكذبون؟ أم بوعده لا تصدقون؟ أفي أرضٍ لكم نافع؟ أفي سماء لكم ناصر؟ ألكم جند تستغيثون بهم؟ ألكم حصنٌ يمنعكم عذابَ الله؟ ألكم سلطانٌ يحرزكم من سخط الله؟ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾.

فوالله إن الذي أنزل المطر، قادر على أن ينزل الحجَر، فقد انتهكتم حرمات الله، وتعديتم حدود الله، وقد نبذتم حكم الله، فتحاكمتُم إلى الطاغوتِ، وتركتم الصلاةَ التي بتركها زوالُ الإسلام، وحلول الانتقام، ومنعتم الزكاة التي توعد الله تاركها في المشركين والكافرين، وتوعد تاركها بالويل، في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

وأكلتم الربا الذي آذن الله عليه بالمحاربة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا

بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. وأكلتم المكْس الذي اشتد عليه غضبُ الله، واستعبدتم الأحرار جرأة على الله، وقتلتم النفوس التي قال الله فيها سبحانه وتعالى: «**لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل نفس واحدة لعذبهم بالنار**». وظلمتم في المكيال والميزان، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. فهذه الأسباب التي هلكت بها الأممُ قبلكم، فوالله إنهم أشدّ منكم بأساً، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً.

فيا آل بيتَ رسول الله، كونوا قدوةً للناس في إتباع الحق وترك الباطل، فأينكم من سير أسلافكُم، وما كانوا عليه من الإقبال على الله وعلى الدار الآخرة، والإعراض عن دار المحن والبليات، وإيثار الباقيات الصالحات، حرصاً منهم على المتجر الرابح في دار النعيم، والملك الكبير المقيم، فأعطاهم الحسنيين، وفازوا بثواب الدارين، يتنافسون في الخيرات، ويسابقون على الكرامات، متآلفة قلوبهم على طاعة الله، متحابة بروح الله، لا يتحاسدون ولا يتباغضون، ولا يرضون بسخط الله، فتركتم سبيلهم، واغتررتم بها أكرمهم الله من جزاء أعمالهم، وغفلتم عن أقوالهم وأفعالهم، فقنعتم بالأثر عن العين، فغشيتكم ظلمات البين، وهجرتُم العلم والعملَ اتكالاً على أعمالكم. وهيهات!. فقد قال رسول الله ﷺ: «**يا فاطمة بنت رسول الله اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً**»، فلما أن تركتم سبيلهم ضعتم في مهامه الجهل فحار الناس إذ حرتم، وضاع الناس إذ ضيعتم، لأن الدين بكم استقام، وأنتم قدوة للأنام، فانتدبوا للاعتصام بحبل الله، وابذلوا النصيحة لعباد الله، وتواثقوا على القيام بأمر الله.

ويا أهل العلم، ما يمنعكم عن الدعوة إلى الله؟ والغيرة على دين الله؟ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟. وقد أخذ الله عليكم مواثيقه لتبيننّه للناس ولا تكتمونه، أخشيتم المخلوقين ولم تخشوا عقوبة ربّ العالمين؟ أم تهاوناً منكم بالنبأ العظيم، الذي أنزل الله به كتبه وبعث به رسله، وأشفقت منه السموات والأرض والجبال؟. يا أهل العلم من الأمة، إذا سكتّم عن الحق، وداهنتم في الدين، ولبستم الحق بالباطل، واتبعتم الأهواء، وملتم إلى إدخال الحيل في دين الله، فانصحوا، وفقكم الله، لله ولرسوله، وللمؤمنين، تبييناً للحق، وتزهيقا للباطل، فإن الحق يعلو ولا يعلى، والمؤمن عزيز بربه، ولا أحد يتعالاه.

ويا أهلَ القبائلِ وأهلَ الشوكة، أما آن أن ترجعُوا إلى الله وإلى أمره، وتتركوا التعصب على الباطل وحكم الطاغوت، وتحكموا الله ورسوله على أنفسكم، وتهجروا سبيلَ عدوكم اللعين، وتجعلوا قوَّتكم نصرةً لدين الله، ينصركم الله ويزدكم قوةً إلى قوتكم. وإن خالفتم وعصيتم؛ فأبشروا بعذاب الله وحلول نقمته، وغيرته على دينه، وسل سيف سطوته، فإنكم لن تعجزوا الله، ولن تفوتوه، ولا تمنعكم منه قوتكم ولا كثرتكم ولا حصونكم.

فارحموا أنفسكم، فإنكم لا تطيقون غضبَ الله الذي لا تطيقُه السموات والأرض، وإني ناصحٌ لكم، شفيقٌ عليكم، فاقبلوا النصيحةَ. وإن تواضعتم للحق، واتبعتم دين الله، وامتثلتم أمر الله، وتركتم معاصيه، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فابشروا بعزّه ونصره، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾. وإن أعرضتم عن نصيحة الله، وبقيتم على قتل النفوس، واستحلال الربا والمكوس، واتبعتم حكم الطاغوت، وقد

أخبركم الله أن تكفروا به، وتركتم حكم الله، فإن آيلتكم إلى القلة، وعزتكم صائرةٌ إلى الذلة، فوالله إني لا أخبركم إلا بالحق، ولا أدعوكم الا إلى النجاة من البطش الذي لا تطيقونه، ولا تقوم له السموات والأرض، يوم العرض الأكبر، يوم اجتماع الخلائق وانكشاف السرائر، وبلوغ القلوب الحناجر، وافتضاح كل بذنبه. في يوم لا تسمع فيه شكوى، ولا تدفع فيه بلوى، ولا سلامة فيه إلا لمن تاب إلى ربه، واستقاله مما جناه، ورفع إليه شكواه، وعظُمَ وَجَلُه وبُكاه، وقد قرب والله ميعاده، وظهرت أمارته، ولاحت علامته، وستبدوا لكم آياته وبيناته، فاقبلوا النصيحة، وبادروا إلى التوبة، قبل أن لا تقبل منكم، فهذا أوانها عباد الله، وهنا يوم الاعتصام بالله يا مؤمنين، وهذا يوم الغيرة على دين الله يا متقين، فخذوا لأنفسكم الخلاصَ، بأن تتوبوا إليه، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتظهروا شعائر الإسلام، فارجعوا عن موقفكم هذا بالتوبة النصوح، وعادوا عدوكم اللعين.

فيا عباد الله، اقبلوا هذه النصيحة الكافية، فهي لقلوبكم المريضة شافية، ضاعتْ أعماركم في الترَّهات، وتصبحون وتمسون في غفَلات وسكراتٍ، آثرتم الدنيا على الآخرة، وأقبلتم على الحقيرة البائرة، فيا ويلتاه لمن خالف الله وعصاه، وأحبَّ دنياه وترك طاعة مولاه، أسواق الدنيا معمورة، وأسواق الآخرة مهجورة، تتجالدون على الدنيا بالليل والنهار، وتطلبونها بالغش والبوار، ولا تخافون عالم الجهر والإسرار، فإن دمتم على هذا الحال، جاءتكم العقوبة والنكال، وسلط الله عليكم الظلمة والولاة الضُلَّال، وإن أقبلتم إلى باب الكريم، وتبتم من كل فعل الذميم، ظفرتم بالأجر العظيم، والنعيم المقيم.

اللهُمَّ يا من ترفعُ إليه الشكوى، يا عالم السرِّ والنجوى، يا من لا يعوَّلُ إلا عليه، ولا يلجأ في المهماتِ إلا إليه، ولا يرجى الخير إلا من يديه، يا من هو لعباده رحيمٌ، يا من هو لمن قصَد بابه جوادٌ كريم، يا ذا الإحسانِ القديم، يا ذا الفضْل العظيم، ارحمنا ورُدّنا إلى سبيل هداك، واجعلنا من أهل طاعتك وتقواك. في لطفٍ وعافية يا أرحمَ الراحمينَ، وصلّى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم والحمدُ لله رب العالمين».

* * *

(٥) وهذه تذكرةٌ له
رضي الله عنه ونفع به آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

يا عباد الله، اسمعوا وأنصتوا، وفقكم الله لسعادتكم، وألهمكم لنجاتكم.

اعلموا، رحمكم الله، أن ربكم تبارك وتعالى ما خلقكم للدنيا ومتاعها، فما الدنيا وما متاعُها! فما هي إلا سفرٌ راحل، وظل زائل، فعما قليلٍ يذهَبُ أربابها، وينجلي سرابها، ويأذن الله بخرابها، ويبقى إما للنعيم وإما للجحيم اكتسابها.

يا عباد الله، ما خلقكم إلا للآخرة، وجعل الدنيا معبركم إليها، فاعبروا طريق السعادة القادمة بكم إلى دار النعيم المقيم، والملك الكبير، والفوز الأكبر في رضوان الله، والسلام من عذابه وسخطه.

خلق الله لكم ما في هذه الدنيا من متاع، ليختبركم أيكم أعقل، فلا يؤثر على طاعته بشيء، وأيكم أجهل يسعى سعي البهائم في مراعيها، لا يعقل ولا يتدبر ماذا يقدم عليه من سعادة أو شقاوة، أساخط عليه جبار السموات

والأرض، أم راضٍ! فيا حسرة هذا المغبون، ويا خراب قلبه، ويا ضياع رشده، ويا عظيم حرقته، ويا سوء عاقبته، إن لم يرجع إلى ربه، ويقلع من ذنبه، فلا يصيبكم غرض يسير في الدنيا الفانية، تطول به حسرتكم وندامتكم في الآخرة الباقية.

أقيموا الصلاةَ، فإنها عماد دينكم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «من ترك الصّلاة فقد كفَر جِهاراً». وقال رسول الله ﷺ: «بين الرجُلِ وبين الكفر والشرك تركُ الصلاة».

وآتوا زكاة أموالكم، قبل أن تنزع من أيديكم، ويبقى عليكم العذاب الأليم في الآخرة. فيا مانع الزكاة؛ قبحَ الله حالكَ، ماذا يغني عنك مالك، إذا وقفت بين يدي الله، وشدد عليك الحساب، وأمر بك إلى النار، يقودونك ملائكة غلاظٌ شداد، لا يعصون الله ما أمرَهم، ويفعلون ما يؤمرون؟.

ويا آكل الربا؛ خبْتَ وخاب سعيك، كيف حالك إذا جئت في موقف القيامة وقد عظمت بطنُك، فصارت كالبيتِ، فقمْتَ مرّةً وسقطت مرةً، والخلائق تَدْحقك بالأقدام، والنار من وراك، ومن مر بك يلعنك، والملائكة يضربونك؟.

ويا آكـل الصدقـة، ما أعظم خزيـك، وما أكبر بليتـك، بضياع دنياك وآخرتك، فإنها مـمحقة لرزقك، متلفة لمالك، قاطعة لعقبك، لا يقبل منك عمل، ولا يتجاوز عنك من زلل، فياويلك إن لم تتب وترجع إلى ربك، فوالله

أكل السموم القاتلة، أهون من أكل الصدقة، فاتقوا المظالم عباد الله، فإنها تسلب النعم وتوجب النقم، وتخرب الديار، وتمحق الآثار، وتوجب الفضيحة والعار وعذاب النار.

ويا أهل الحرف والصنائع؛ انصَحوا لأنفسكم، فإن الناقد بصير، فأوفوا ما عليكم يطب مطعمكم، ويعظم أجركم.

ويا أهل الاستئجارِ؛ أوفوا أجرةَ الخدامة والمستأجرين حقّهم، ولا تهلكوا أنفسكم بالشحّ والبخل، فتضيعوا أعراض الآخرة الباقية، بالأعراض الخبيثة الخاسرة، قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمُهم يوم القيامة: رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا ثم أكلَ ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العملَ ولم يوفِّه أجْرَه**»، رواه البخاري.

ويا أهل المكيال والميزان، اتقوا الله ولا تشتروا الويل بحظ لا خير فيه، ولا بركة، واتقوا المكيال والميزان، اللذين هلكت بهما الأمم قبلكم، فاسمعوا النصيحة عباد الله، فإن النصيحة معذرةُ الله إلى عباده، فارفُقوا بأنفسكم من المعاصي، فإنها مثيرة لغضب الله، فاستجيبوا لله، وارعوا أنفسكم، لا خذلكم الله، وساعدكم ووفقكم، وجعلنا وإياكم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقينَ والشهداء والصالحينَ، وحسن أولئك رفيقاً.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

* * *

(٦) تذكرة لأهل الحراثة

«معاشر الإخوان، اعلموا أنا جمعناكم لكلمة تسعدون بها، إن شاء الله، في الدنيا والآخرة. قد ظهر لنا أن ما بكم من الفقر والفاقة والإهانة، ما سببها إلا خصلتين؛ **أحدهما**: ترك الصلاة. **والثانية**: سرقة حقّ الناس. فإنها من أكبر المناكر التي توجب العقوبة والسخط ومحق الأرزاق.

وقد علمتم أن الحرّثان السابقين كانوا يتعففون عن حق الناس، وأنتم الآن مرادُنا بكم تسلمُون من شرّ حق الناس، ونرجو من الله أن ترجعوا في خيرٍ وسعة، ويبارك لكم في أرزاقكم، فإن ما سببُ محق الأرزاق إلا الحرامُ، وقد منّ الله على غالب أهل جهتنا الموفّقين بالتوبة من الرّبا، ومن بقي فإن تاب الآن، وإلا فإنها تعجّل له العقوبة، بأن ندعو الله أن يهلكه، أو يفقره ويريح الناس من شرّه، ومن تاب يبارك الله فيه، ويرزقه رزقاً حلالاً، ومن كذبَ فسوف يعلم، والله شاهد على ما نقول.

فالله الله، تورّعوا من حقّ الناس، تسعدوا وتنجوا من عذاب الله وأليم عقابه وإهانته، ومن اجترأ بعد هذه النصيحة على حقّ الناس سيسلّطُ الله عليه الفقر والمرَض، وما سرقَه من حقّ الناس لا يقطعُ له فاقة، ولا يقضي له مغرم، وإن أعطى منه كان عليه الإثم، وإثم من أكل منه، والكلُ مأثومٌ، ونحن إن شاء الله بانلقي وصية لأهل المال، أن يفرقوا الزكاة عليكم، فإنها واجب تفرقتها

على أهل موضع النخل، ولا يجوز لهم نقلها إلى غيرهم، فإنهم يعتذرون إلا بأنكم تسرقون الثمر، وإذا تركتم السرقة فلا حجة لهم في نقلها.

الزموا هذه النصيحة، وسوف ترون جزاءها قريباً، إن شاء الله تعالى، بالخير والبركة وسعادة الدنيا والآخرة، وإن خالفتم فإنها بايقع لكم الفقر والمحن والأمراض، وإن علمتم إني ناصحٌ لكم، وأنتم مصدقين، فاقبلوا هذه النصيحة لا خذلكم الله، ولا ضيعكم، فإنا نحب لكم ما نحبه لأنفسنا، ولا نرضى لكم عذاب النار، وسخط الجبار، فإن عذاب الدنيا منقطعٌ، وعذاب الأخرة دائم.

فأنقذوا أنفسكم، رحمكم الله، من هذه المصيبة العظيمة، فإنها من أقبح المصائب، وشر المكاسب، ومن غلبه هواه وشيطانه، وسولت له نفسه أن يبقى على حاله، فليبْكِ على نفسه، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنها وصيةُ حقٍ، ونصيحة صدقٍ، وتجربوها. والسلام على من اتبعَ الهدى ورحمة الله وبركاته.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم».

* * *

(٧) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

قالَ ﷺ: «**أيما عبدٍ أتته موعظةٌ في دينه، فإنها هي نعمةٌ من الله سيقت إليه**»[١]، فإن قبلها شكرَ، وكان من المؤمنين، وإن لم يقبلها فجرَ وكانَ من الكافرينَ، الذين قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾. وكان عليه الصلاة والسلام يقولُ: «**من وُعظَ ولم يتعظْ، وزجر ولم ينزجرْ، كان عند الله من الخائنين**».

واعلموا معاشر الإخوان، أني حريصٌ على نصيحتكم وهدايتكم، ورجائي وظني في الله جميلٌ أن يرشدَنا ويرشدكم إلى الهدى والصواب، وقد تعين عليّ إحذاركم وإنذاركم، وها أنا شفيقٌ عليكم، محبٌّ لكم، غير راجٍ منكم ولا طامع في دنياكم، فإن قبلتم النصيحة فذلك من فضل الله عليَّ وعليكم، فهو ولي الهداية والتوفيق، وإن لم يرد الله هدايتكم فلا تنفعكم نصيحتي.

ولكن قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، يعني: أولي العقول. وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب.

مَن يَخۡشَىٰ﴾، أي: يخاف عظمة الله وعقابه، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾، يعني: أشقى الخلائق، ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، أي: ليست النار هذه، بل هي نار الله الموقدة، التي لو وقعَ منها شعالٌ في الأرض لماتَ أهل الأرض من شدة الحر.

وقد رأيت غالبكم هجروا المسجدَ، وتركوا الجماعةَ، إلا من وفقه الله.

وهذه نصيحتي، فاقبلوها، فإني محب لكم، يسرني ما ينفعكم، ويسوءني ما يضركم، فاسمعوا هذه النصيحة سماعَ قبولٍ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وإني إن لم تقبلوا النصيحةَ مفارقكم وسائرٌ من هذه البلدة إلى حيثُ شاء الله. وأقولُ ما قال إخواني المؤمنون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾. ويبدلني الله خيراً منكم».

* * *

(٨) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله المختصّ بالبقاء والعدم، المتطول بجزيل الكرم، ودافع قواصد النقم، وموني سوابغ النعم، أوجدنا من العدم، وربانا في ظلمة الرحم، ودعانا إلى أرشد نَقَمٍ. فله الحمد كم من نعمة أولاها، ومن من حسنةٍ من علينا بها، ثم شكرها منا وربّاها، وكم من سيئةٍ سترها علينا وأخفاها، أحمده والحمد من أكبر النعم التي خولها إلينا وأسداها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، شهادة في يوم الحشر ألقاها، وأجده عند كل شدة تجاها، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه، أفضل من قام بحبلها وأعباها، ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وانتمى إليه، ما عرف نعم الله عبد فاستحيى نمه وأناب إليه.

أما بعدُ؛

فإني لما رأيتُ من نفسي ومن غالب أهل بلدي، التثاقل عن الصلوات، وترك الجماعات، وعدم المسارعة في الخيرات والقربات، وتضييع الأوقات في البطالات المخزيات، قصدتُ أن أذكر وأحذّر بما علمني العليمُ الخبير، مع اعترافي بالقصور والتقصير، رجاء من الله أن يلهم الصواب من سمع الخطاب،

وفتح له الباب، فشمر ليوم الحساب، وعرف عظيم نعم الله، واستغفر ربه وإليه أناب.

فله الحمدُ كمْ ظاهرَ علينا نعماه، من خيرٍ إلينا أسداه، وكم من شر دفعه عنا وكفاه، فيا فوز من دعاه فلباه، ويا شقوة من أعرض عن بابه وعصاه، فما أعظمَ مصيبته، وما أبين خسارته، يوم إظهار ما يخفيه، وإبراز ما يواريه، وتشهد عليه بالخطيئة أرجله وأيديه، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

يوم تسكبُ العبرات، عند ظهور المخبآت، من ظهور السيئات، بين يوم جميع من في الأرض والسموات، يوم العرض على الجبار، يوم لا ينفع فيه الاعتذار.

إخواني؛ هذا وقت التزود لسفر الآخرة، وهذا موسم الربح لمريد التجارة الفاخرة، فاستعدوا للرحيل، فما إلى الإقامة من سبيل. كيفَ! وأنتم ترون آباءَكم يمضون جيلاً بعد جيل، فهل يحتاج من يرى هذا إلى دليل!.

فالبدار البدارَ، قبل أن يستقبلكم اليوم الطويل، وتقيلوا فيه شر مقيل، ويحق البكاء والعويل، عند معاينة الخطب الجليل، والحساب الثقيل، والفحص عن الكثير والقليل، هنالك تجدون ما قدمتموه، وتندمون على ما ضيعتموه، فلا الندمُ حينئذٍ ينفع، ولا الاعتذار يومئذٍ يسمع، ولكن من نهض فأقلع، وشمر فأزمع، وتدارك في هذه المدة القصيرة ما ضيع.

واعلموا، رحمكم الله، أن أعظم المصائبِ، وأقبح القبائح والمعايب، التهاون بالصلوات، وتضييع الجمعة والجماعات، التي رفع الله بها الدرجات،

وكفر بها السيئات، وتعبدَ بـها أهل الأرض والسموات. قال عليـه الصلاة والسلام: «**أطت السماءُ وحقَّ لها أن تئط، ما من موضع قدم إلا وملكٌ ساجد وقائمٌ لله عزّ وجل**».

ثم إنه ما يترك الصلاة وتلهيه، إلا سبقت شقوته، وعظمت عقوبته، وخسرت صفقته، وطمّت مصيبته، وطالت حسرته وندامته. فتارك الصلاة ممقوت، وعلى غير الإسلام يموت، الجحيمُ مأواه، والهاوية منقلبه ومثواه، وهو ملعونٌ عند الله، مطرود في أرضه وسماه، وقد أتعب كاتباه وضاق مسكنه ومأواه، فبيته يلعنه ويهجاه، وثوبه يبغضه ويقلاه، فيقول له: لولا أن سخّرني الله لكَ، لما ثبتّ عليك يا عدو الله، تأكل رزق الله، وتضيع فرائض الله!.

فأنصتوا، رحمكم الله، لما أوردوه في تاركِ الصلاة، وما عليه في حياته ورجعاه، فرحم الله امرأً سمع القول فوعاه، وقام بما أوجبه عليه ربه فأداه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

وعن أبي هريرة رضِيَ الله عنه أنه[1] قال: خرجت أنا وعمر بن الخطاب رضِيَ الله عنه في حاجة إلى بيت أبي بكر الصديق رضِيَ الله عنه بعد العشاء، فلما صرنا على باب رسول الله ﷺ سمعنا أنينا فقمنا ساعة فسمعناه يبكي وينتحب ويقول: «آهٍ، ليتني كنت أعيشُ حتى أنظرَ كيف تصنعُ أمتي بالصلاة. واحسرتي على أمتي، واحرقتي على أمتي». فقال لي عمرُ: يا أبا هريرة، قف حتى ندقّ البابَ. فقالت عائشة رضِيَ الله عنها: من بالباب؟ فقال عمر: أنا وأبو هريرة معي. فأذنّا بالدخول، فأذنت فدخلنا، فوجدناه ساجداً باكياً حزيناً،

(١) في الأصل زيادة: عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وهو يقول في سجوده: «يا ربّ أنت وليي على أمتي، فافعل بهم ما أنت له أهلٌ، ولا تفعل بهم ما هم له أهل». فقلتُ: يا رسول الله، فداك أمي وأبي، وهل جرى أمرٌ؟ ما لنا نراك باكيا حزيناً؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر لـمـا خرجنا من المسجد، وقضينا الصلاةَ، خرجتُ إلى بيت عائشة، فنزل جبريل عليه السلام، وقال: يا محمد الحقّ يقرئك السلام، ويقول لك: اقرأ. قلتُ: «وما أقرأ»، قال: اقرأ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾. فقلتُ: «يا جبريلُ، وهل تضيّع أمتي الصلاة من بعدي؟»، قال: نعم يا محمد، يأتي آخر الزمان ناسٌ من أمتك يضيّعون الصلاة، ويؤخرون الأوقات، ويتبعون الشهوات، دينار عندهم خير من صلاتهم.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾. قال ﷺ: «هي الصلوات الخمس». وقال ﷺ: «**ما افترضَ الله على العباد بعْد التوحيد شيئاً أحبَّ إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحبَّ إليه منها لتعبد به ملائكته، فمنهم راكع وساجد، وقائم وقاعد**».

ويقال: إن المصلين من الملائكة في السماواتِ يسمَّون خدَم الرحمن، ويفخرون بذلك على سائر الملائكة. ويقال: أن المؤمن إذا صلى ركعتين عجبتْ منه عشرة صفوفٍ من الملائكة، كل صفٍ منهم عشرة آلافٍ، ويباهي الله به مئة ألف ملكٍ، فالمصلونَ صفوة الله من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من غضبه وإبعاده، جعلنا الله وإياكم من المحافظين عليها، الخاشعين فيها، القائمينَ بها.

وقال أبو الدرداء: أخيار عباد الله الذين يراعون الشمسَ والقمر والأظلةَ

لذكر الله، يعني: الصلاةَ. ويروى: أولُ ما ينظر الله في أعمال العبدِ إلى الصلاة، فإن وجدت ناقصة ردت وسائر أعماله. وقال ﷺ: «يا أبا هريرة، مُرْ أهلك بالصلاة، فإن الله يأتيك بالرزق من حيثُ لا تحتسب».

وقال عطاء الخراساني: ما من عبد يسجدُ لله سجدةً في بقعة من بقاع الأرضِ، إلا شهدتْ له بها يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت. وقال ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر». وقال ﷺ: «من لقيَ الله وهو مضيعٌ للصلاة لم يعبأ الله بشيءٍ من حسناته». وقال ﷺ: «من تركَ الصلاة متعمداً فقد برئتْ منه ذمةُ محمد». وقال ﷺ: «خمسُ صلواتٍ كتبها الله على عباده، فمن أداها لمواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيعها حُشر مع فرعونَ وهامان».

وقيلَ: أنه لما نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ قالَ: «يا محمدُ، لا يقبل الله من تارك للصلاة صومه ولا صدقته ولا حجه ولا عمله ولا زكاته. تارك الصلاة ملعونٌ في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. يا محمدُ والذي بعثك بالحقّ نبياً، إن تارك الصلاة ينزل عليه كل يوم وليلة ألفُ لعنةٍ، وألف سخطٍ، وإن الملائكة يلعنونه من فوق سبع سمواتٍ. يا محمدُ تارك الصلاةِ ما له نصيبٌ في حوضكَ، ولا في شفاعتكَ، ولا هو من أمتك. تارك الصلاة لا يعاد في مرضِه، ولا يتبع في جنازته، ولا يسلم عليه ولا يواكل ولا يشارب، ولا يصاحب ولا يجالس، ولا دين له، ولا أمانةَ، ولاحظّ في رحمة الله، وهو مع المنافقين في الدرك الأسفلِ من النارِ. تارك الصلاة يضاعفُ له العذابُ ضعفينِ، ويأتي يوم القيامة وقد غُلّت يده إلى عنقه، والملائكة يضربونه، ويفتح له جهنم،

فيدخل في بابها كالسهم، فيهوى على رأسه إلى عند قارون وهامانَ، في الدرك الأسفل من النار. تاركُ الصلاة إذا رفعت اللقمةُ إلى فيه، قالت له: لعنك الله يا عدو الله، تأكل من رزق الله، ولا تؤدي فرائضه!. قاطع الصلاة إذا خرجَ من بيته قال له البيتُ: لا صحبَك الله في سفرك، ولا خلفكَ في أثرك، ولا أعادكَ إلى أهلك سالماً. قاطعُ الصلاة يموتُ يهوديا ويبعثُ نصرانيا».

وقال الإمام الشعراوي رضِيَ الله عنه في «العهود»: «أخذ علينا العهدُ العام من رسولِ الله ﷺ أن نبين لتاركِ الصلاة من الفلاحين والعوام وسائر الجهال ما جاء في فضل الصلوات الخمس، وفضل من يواظب عليهن، ويخص ذلك بمزيد تأكيد، كما أكده الله ورسوله، وقد أغفل ذلك غالبُ الفقراء وطلبة العلم الآن، فترى أحدَهم يخالطُ تارك الصلاة من ولدٍ وخادم وصاحب وغيرهم، ويأكل معه ويضحك معه، ويستعمل عنده في التجارة والعمارة وغير ذلك، ولا يبين له قط ما في ترك الصلاة من الإثم، ولا ما في فعلها من الأجر، وذلك مما يهدم الدين».

فبيّن، يا أخي، لكل جاهلٍ ما أخلّ به من واجباتِ دينه، وإلا فأنت أولُ من تسعر بهم النار، كما ورد في «الصحيح»، فإنك داخلٌ فيمن علم ولم يعمَلْ بعمله، وإن كنت لم تسمَّ فقيهاً في عرف الناس، وإنما قالو: إن الفقهاء يعرفون ويحرّفون، لكونهم المقصودين ببيان العلمِ للناسِ، دون العوام عادةً، وإلا فكل من يعرفُ شيئاً من أحكام الشريعة ولم يعمل به، فهو كذلكَ يعرف ويحرف.

واعلم يا أخي، أن البلاء يرتفع عن كل مكانٍ أهله يصلون، كما أن البلاء ينزل على كل مكانٍ يتـرك أهله الصلاةَ. ولا تستبعـد يا أخي وقوعَ الزلازل

والصواعق والخسف على حارةٍ يترك أهلها الصلاة أبداً، ولا تقل: إني أصلي، فما عليَّ منهم، لأن البلاء إذا نزل يعمّ الصالح مع الطالحِ، لكونه لم يأمرهم ولم ينههم، ولم يهجرهم في الله، والله على كل شيء شهيد.

وعن رسول الله ﷺ: «أنه قال يوماً لأصحابه: «**قولوا: اللهم لا تجعل فينا شقياً ولا محروماً**»، ثم قال: «**أتدرون من الشقي المحروم؟**». قالوا: ومن هو يا رسولَ الله؟ قال: «**تاركُ الصلاة**». ومن حديث البزارِ قال: لما أتى يعني النبيَّ ﷺ على قوم ترضخُ رؤوسُهم بالحجارة، كلما رُضِخَت عادتْ كما كانتْ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء. قال: يا جبريلُ، من هؤلاء؟. قال: الذين تتثاقلُ رؤوسهم عن الصلاة».

وعن أبي يعلى بسند حسنٍ، عن مصعب بن سعدٍ، قال: قلتُ لأبي: يا أبتاه، رأيتَ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: ليس المعنى ذلكَ، إنما هو إضاعةُ الوقت.

والويلُ، قيل: هو وادٍ في جهنم، لو سيّرت فيه الجبالُ، أي: جبال الدنيا، لذابتْ من شدة حرّه، فهو مسكَنُ من يتهاون بالصلاة ويؤخرها، إلا أن يتوب إلى الله عزّ وجلّ، ويندم على ما فرط.

ويروَى: أن امرأة من بني إسرائيلَ جاءت إلى موسى ﷺ وعلى نبينا وعلى سائر المرسلينَ، فقالت: يا رسول الله، إني أذنبت ذنباً، وقد تبتُ إلى الله تعالى، فادع الله تعالى يغفر لي ويتوبَ عليّ. قال لها موسى: وما ذنبك؟ قالتْ: يا نبي الله، زنيتُ وولدت ولداً وقتلتُه. فقال لها موسى: اخرُجي يا فاجرة، لا تنزل نار

من السماء فتحرقنا بشؤمك. فخرجَتْ من عنده منكسرة القلبِ، فنزل جبريلُ عليه السلام، وقال: يا موسى، ما وجدت أشرَّ منها؟. قال: تاركُ الصلاة أشرُّ منها.

وعن بعضِ السلف: أنه دفن أختاً ماتتْ له، فسقط منه كيسٌ فيه دراهم في قبرها، ولم يشعر به حتى انصرفَ من قبرها، ثم ذكره، فرجع إلى قبرها، فنبشه بعد ما انصرف الناسُ، فوجد القبر يشتعل عليها ناراً، فرد الترابَ إليه، ورجع إلى أمه باكياً حزيناً، فقال: يا أماه، أخبريني عن أختي وما كانت تفعل؟ فقالتْ: وما سؤالكَ عنها؟ قال: يا أمي، رأيتُ قبرها يشتعل ناراً. فبكتْ، وقالت: يا بني، أختك كانت تتهاونُ بالصلاةِ، وتؤخرها عن وقتها.

وقال العامري في «بهجته»، بعد ذكره لكيفياتِ صلاة الخوف: «هذا أدلّ دليلٍ على أن الصلاةَ لا رخصة في تركها، ولا تحويلها عن وقتها المؤقتِ لها، إذلو كان ذلك لكان هؤلاء المجاهدون لعدوّ الإسلام بين يدي رسول الله ﷺ أحقَّ بذلك، وبهذا تميزتْ عن سائر العباداتِ، إذ كلها تسقط بالأعذار، ويترخص فيها بالرخص، وتدخلها النياباتُ، ولا يجب القتلُ في ترك شيءٍ منها».

وتارك الصلاة كسلاً يقتلُ حدًّا، ولا يحقن دمه إسلامه، ثم إن موجبها منوطٌ بالعقلِ، لا بالقدرة، بدليل ما ذكروا: أن العاجز عن القيام يصلي قاعداً، فإن عجز فمضطجعاً، فإن عجز فمستلقياً على جنبه الأيمن، فإن عجز فمستلقياً على قفاه، ويومئ بطرْفه. ولهذا شبهتْ بالإيمـان الذي لا يسقطُ بحالٍ، قال رسول الله ﷺ: «**بين الشرك والكفر ترك الصلاة**»، رواه مسلم، و: «**العهدُ الذي بيننَا وبينهم الصلاةُ، فمن تركها فقد كفر**»، رواه الترمذي وصححه.

إلى أن قال[١]: «قال العلماءُ: لو جاء محرمٌ من شُقةٍ بعيدةٍ، مكابداً أن يدرك عرفة قبل طلوع الفجر ليلة النحر، وكان حينئذٍ لم يصلِّ العشاءَ، وبقي من وقتها ما لو اشتغل بأدائها فاته الحجّ، قالوا: ليس له تركها، ولا أن يصليها صلاة شدة الخوف على الأصحّ، لأنها ركنٌ أفضلُ من الحج، والحج موسع بالعمر.

ومن أخلاق العامّة: عظيمُ إنكارهم على المفطر في رمضانَ من غير عذرٍ، وتركهم النكير على تارك الصلاةِ، وليسا في التغليظ سواء.

ومن أخلاقهم أيضاً: إنكارهم على ترك الجمُعات، ولا ينكرون على ترك الجماعات، وشأنهما واحدٌ. وما أجدر تاركَ الصلاة بأن يجنّب مساجد المسلمين ومحاضرهم الكريمة، وتستقذر مؤاكلته ومناكحته، ويبكّت ويقرّعُ، ويعرف بسوء حاله، وأنه مباح الدم، فربما ينزجر بذلكَ، والله ولي التوفيق»، انتهى.

وعن النبي ﷺ: أن من حافظَ على الصلاة أكرمه الله بخمسِ خصالٍ: يرفعُ عنه ضيق العيش، وعذابَ القبر، ويعطيه الله كتابه بيمينه، ويمرّ على الصراط كالبرق، ويدخل الجنة بغير حساب. ومن تهاون بالصلاة عاقبه الله بخمس عشرة عقوبةً: ستٌ في الدنيا، وثلاثٌ عند الموت، وثلاثٌ عند خروجه من القبر، وثلاثٌ عند لقاء ربه. أي: في موقف القيامة.

أما التي في الدنيا؛ فالأولى: [تنزع البركة من رزقه][١]، والثانية: تنزع البركة من عمره، والثالثة: يمحو الله سيما الصالحينَ من وجهه. والرابعة: كل

---

(١) أي العامري.

(١) لم يذكرها في الأصل لعله نسيها أو سها عنه. (الناسخ).

عمل بعلمه لا يؤجر عليه. والخامسة: لا يرفع الله له دعاء إلى السماء. والسادسة: ليس له حظ في دعاء الصالحين.

وأما التي تصيبه عند الموت؛ فالأولى: أنه يموت ذليلاً. الثانية: يموت جائعاً. الثالثة: يموت وهو عطشان، ولو سقي بحار الدنيا ما روي من عطشه.

وأما التي تصيبه في القبر؛ فالأولى: يضيق عليه القبر حتى تختلف أضلاعُه. والثانية: يوقد عليه قبره ناراً، يتقلب على الجمر ليلا ونهاراً. والثالثة: يسلط الله عليه في قبره ثعبان اسمه الشجاع الأقرع، عيناه من النار، وأظفاره من حديد، طول كل ظفر مسيرة يوم، يكلم الميتَ، فيقول: أنا الشجاع الأقرع، وصوته مثل الرعد القاصف، أمرني الله تعالى أن أضربك على تضييعِ صلاة الصبح إلى بعد طلوع الشمس، وأضربك على تضييع صلاة الظهر إلى العصر، وأضربك على تضييع صلاة العصر إلى المغرب، وأضربك على تضييع صلاة العشاء إلى الفجر.

فكلما ضربه ضربةً غاص في الأرض سبعين ذراعاً، فلا يزال في القبر معذباً إلى يوم القيامة، فإنه يأتي يوم القيامة وفي وجهه ثلاثُ أسطر مكتوباتٍ، السطر الأول: يا مضيعَ حق الله. والسطر الثاني: يا مخصوصاً بغضب الله. والسطر الثالث: كما ضيعت في الدنيا حقّ الله، فاليوم آيس من رحمة الله.

وأما التي تصيبه عند لقاء ربه: إذا انشقت السماء يأتيه ملك وبيده سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، فيعلقها في عنقه، ثم دخلها في فيه ويخرجها من دبره، ثم يخرجها تارةً من وجهه، وتارة من ورائه. وهو ينادي عليه: هذا جزاءُ من يضيع فرائض الله.

وعن ابن عباس رضِيَ الله عنهما: لو أنّ حلقة من السلسلة وقعتْ في الأرض لأحرقتها. والثانية: لا ينظر الله إليه، والثالثة: لا يزكيه وله عذاب أليم.

ورويَ: إنّ في جهنمَ وادٍ يقال له لملم، فه حياتٌ، كل حية ثخْن رقبة البعير، طولها مسيرةُ شهرٍ، تلسعُ تارك الصلاة، فيغلي سمها في جسمه سبعين سنةً، ثم يتهرّى لحمه.

وقد مرّ في الأحاديث الكثيرة السابقة التصريحُ بكفره وشركه، أعني: تاركَ الصلاةِ، وبأنه تبرأ منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ . وبأنه يحبط عمله، وبأنه لا دينَ له، وبأنه لا إيمانَ له.

وأخذ بها كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فقالوا: من ترك الصلاة متعمداً حتى خرج جميع وقتها كان كافراً، ومراقَ الدم. ومنهم: عمر، وعبد الرحمن بن عوفٍ، ومعاذ بن جبل، وأبو هريرة، وابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وأبو الدرداء. ومن غير الصحابة: أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعبد الله بن المبارك، والنخعي، والحكم ابن عينية، وأيوب السختياني، وأبو داود الطيالسي، وأبو بكر ابن أبي شيبة، وزهير بن حربٍ، وغيرهم. فهؤلاء كلهم قائلون بكفر تارك الصلاة وبإباحة دمه قال ابن نصر: كان رأي أهل العلم من لدنه ﷺ أن تارك الصلاة من غير عذر حتى ذهب وقتها كافر

وناهيكم، يا إخواني، بهذه الأحاديث الواردة في تارك الصلاة، ولو لم يكن إلا إعراضُه عن مولاه، الذي خلقه فسواه، ونهاه ورباه، وأطعمه وعرفه سبيل النجاة، وحذره مصائد أعداه. فكيف يكون لهذا العبد الضعيفِ الذميم،

أن يعصي الربَّ الكريمَ، ويطيع الشيطان الرجيمَ، الذي أخرج أباه من الجنةِ وإلى سبيل الهلكة دعاه، ويلٌ لمن اتبعَه وأجاب نداه، وخالف أمر سيده ومولاه، الذي إلى كل خير دعاه، وهو القادر على نفعه وضرّاه، فما أقبح مسعاه، وما أعظم بلواه، وما أشقى صباحه ومساه، وما أخبث سرّه ونجواه.

فبادروا يا إخواني، رحمكم الله، عند سماع الأذان إلى طاعة الرحمن، واحذروا أن يلهيكم الشيطان، ويقتنصكم بالتكاسل والتوان، فإنه الخزي والخسران.

قال أبو هريرة رضِيَ الله عنه: لأن تمتلئ أذن ابن آدم رصاصاً مذاباً خير له من أن يسمع المنادي ثم لا يجيبه. وقال ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. قال: «هي تكبيرة الإحرام مع الإمام»[1].

واعلموا معاشرَ الإخوان، وفقكم الله وهداك، أنه يلزمكم ويتعين عليكم أمر نسائكم وأولادكم بالصلاة، والمحافظة عليها، فإنهن أمانة الله عندكم. وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «اللهَ اللهَ في النساء فإنهن أمانات عندكم». فمن لم يأمر امرأته بالصلاةِ، ولم يعلمها، فقد خان الله ورسوله، واستحق من الله العقوبة وشرَّ المثوبةَ، ودخل في الخمسة الأشقياء المشار إليهم في قوله ﷺ: «خمسة غضب الله عليهم ومقرهم النار»، وذكر منهم: «رجل لا يأمر أهله وأولاده».

---

(١) يروى موقوفاً على أنس رضي الله عنه، كما أخرجه ابن المنذر، وذكره الطبري في تفسيره، والسيوطي في «الدر المنثور».

وقد رأى بعض المنورين أن النبي ﷺ يقول: إن آل فلان نساؤهم طَلُقنَ. ويذكر أناساً ممن نساؤهم تاركاتُ الصلاة. وهذا مذهبُ الإمام أحمد فإنه يقولُ بكفر تارك الصلاة، وانفساخ عقده، وهذه برؤياه ﷺ : «من رآني فقد رآني فإنه لا يتمثل على صورتي شيطان». فأي خيرٍ في امرأة لا دينَ لها، وأي خير في رجلٍ لا يأمر امرأته وابنته أو أخته بالصلاة، فإنها ملعونة مطرودة من رحمة الله. إذا ما أطاعتْ زوجَها فليفارقها، فإنها عدوة الله ورسوله، وعلى وليها أن يساعد زوجها وإلا دخل النارَ، واستحق سخطَ الله وأليم عذابه.

فتساعدوا، رحمكم الله، على طاعة ربكم تسعدوا وتفلحوا وتنجوا من عذابه، ولا تحملوا سهلا بهذا الأمر، فوالله إنه لا يتساهلُ بهذا الأمر إلا من لا خَير فيه ولا دين له، وحقت عليه كلمةُ العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾.

واعلموا، رحمكم الله، أنه لما كان ثوابها عظيم، وعقابها أليم، ثقلت على الأنفس وكبرت، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾، وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. ففي الصلاة تكليف العبودية بالقيام بحق الربوبية، لكل على قدره، فالعوام يحتاجون إلى الصبر على طهارتها وأدائها لمواقيتها، وفي ذلك الثواب العظيم والخير الجسيم، وقد قال عليه الصلاة والسلام لما سئلَ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الصلاة لمواقيتها**». وصبر الخواص على القيام بمسنونها، وحفظ القلوب على غفلاتها.

فاسعوا، رحمكم الله، إليها في المساجد، فلازموها في الجماعة، أخرج الحاكم في مستدركه عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**ثلاثة لعنهم الله**»،

وذكر منهم: «رجل سمع حي على الصلاة فلم يجبه». والشيخان عن ابن مسعود رضِيَ الله عنه قال: «من سره أن يلقى الله غداً مسلماً، يعني يوم القيامة، فليحافظ على هؤلاء الصلواتِ حيثُ نادى بهنّ، فإن الله تعالى شرع لنبيكم سُنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلى المتخلف لضللتم» ـ وفي رواية أبي دواد: «لكفرتم» ـ «ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف».

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن ابن مسعود: «الجفاء كل الجفاء، والكفر والنفاق، من يسمع منادي الله تعالى للصلاة فلم يجبه». والطبراني أيضاً: «بحسب المؤمن من الشقاء والخيبة أن يسمع المؤذن يثوب بالصلاة فلا يجيبه».

وأبو داود أن ابن مكتوم أتى النبي ﷺ، [وقال]: يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوام والسباع، وأنا ضرير البصر، شاسع الدار بعيدها، وليس لي قائد يلائمني، فهل لي رخصة أصلي في البيت؟ فقال ﷺ: «تسمع النداء؟»، قال: نعم، قال: «فأجب، فإني لا أجد لك رخصة».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾، قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في المتخلفين عن صلاة الجماعة.

وسئل ابن عباس رضِيَ الله عنهما: عمن يصوم بالنهار ويقوم بالليل، ولا يصلي الجماعةَ ولا يجمّع؟ فقال: «إن مات هذا ففي النار».

فأي وعيدٍ أشدّ وأبلغُ من هذا، لمن ترك الجماعة من غير عذرٍ، وقال ﷺ: «بشر المشائين في الظلم بالنور التام يوم القيامة»، وقال ﷺ: «لا صلاة لجار

المسجد إلا في المسجد»، وقال ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»، وقال ﷺ: «لقد هممتُ أن آمر رجلا يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجالٍ يتخلفون عن الجماعة، فآمر بهم فتحرقَ بيوتهم عليهم بحزم الحطب».

وقد قال بعض الأئمة: أنها فرضُ عينٍ.

وورد في فضلها من الأحاديث والأخبار ما لا يحصى، ولو لم يكن في فضلها إلا أنه يكتب للساعي إليها بإحدى خطوتيه حسنةٌ، وتمحى عنه بالأخرى سيئة، عن أبي هريرة رضِيَ الله عنه: «من توضأ فأحسنَ الوضوء، ثم خرج إلى المسجدِ فإنه في صلاةٍ ما كان يعمَدُ إلى الصلاة، وأنه يكتب له في إحدى خطوتيه حسنةً، وتمحى بالأخرى سيئة».

وقال حاتمٌ الأصم: فاتتني صلاة الجماعة فعزّاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو ماتَ ولدٌ لعزّاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين أهونُ عند الناس من مصيبة الدنيا. ومن حديث كاهلٍ عن رسول الله ﷺ: «من صلى أربعين يوماً جماعة لا تفوته تكبيرةُ الإحرام، كتبَ الله له براءتَين: براءة من النار، وبراءة من النفاق». وقال ﷺ: «من صلى صلاةً فقد ملأ نحرَه عبادة».

ويروى عن ميمون بن مهران، أنه أتى المسجد، فقيل له: إن الناس قد صَلوا، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فضل هذه الصلاة أحبّ إليَّ من ولاية العراق.

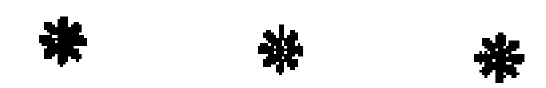
ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قومٌ وجوههم كالكواكب الدرية، فتقول لهم الملائكة: ما كنت أعمالهم؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى

الطهارة، لا يشغلنا غيرها. فتقول لهم الملائكة: يحق لكم ذلك، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون. ثم تحشر طائفة وجوههم كالقمر، فتقول الملائكة: ما كنت أعمالكم؟ فيقولون: كنا نتوضأ قبل الوقتِ، فتقول لهم الملائكة: يحق لكم ذلك، ادخلوا الجنة. ثم تحشر طائفة أخرى وجوههم كالشمس، فتقول الملائكة: ما كنت أعمالكم؟ كنا نسمع الأذان ونحن في المسجد، فتقول الملائكة: أنتم أعلى مقاماً، وأحسن وجوهاً، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون. والأحاديث في فضل الجماعة لا تحصى.

فلتحرصوا، رحمكم الله، على حضورها، واستعيذوا بالله من تضييعها وتهميلها، وأحسِنوا المسارعة إليها، وأديموا العكوف عليها، فهو مغنم الرابحين، وفوز الأتقياء المشمرين، وراحة الزهاد الصالحين، ودأب السعداء المبتدئين، وسلوة الصفوة المحبينَ، وبغية السادة العارفين، ومرهم العلماء العاملين.

لم يشغلهم عنها شاغل، ولم يبالوا عند حضورها بطالع ولا نازل، فقلوبهم إلى حضورها تحنّ، وعند فواتها تأسف وتئنّ، فلهم به الجذل والحبور، وأشواقهم إليها تنجد وتَغُور، فعند فواتها يعزّون على المصيبة، كمحب أحزنه فراق حبيبه، فيكثر وجله ونحيبه، ما أغرب هذا الشأن في هذا الزمان! فقد درست معالم الأديان، وطمّ الفسق والعصيان، وفشا الزور والبهتان، أصبح فيه الحليم حيران، فرحم الله امرأ بادر إلى الطاعة، وحافظ على فرضه في الجماعة، فهي المغنم الخطير، والفوز الكبير. وإني أهدي كتابي هذا إليكم، محبة لكم، وشفقة عليكم، فإن سمعتم وأطعتم سعدتم وأفلحتم، وإذا أبيتم وأعرضتم، فقد بلغت المعاذير، والحكم لله العليّ الكبير، والظن في الله جميل، وكرمه لمرتجيه جزيل.

اللهُمّ سلمنا من المخزيات، ودلنا على الخيرات، وضاعف لنا الحسنات، واغفر لنا السيئات، وأسعدنا في الحياة وبعد الممات، يا ولي الخيرات، ويا رافع الدرجات، يا رب الأرضين والسموات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».



(٩) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

الحمدُ لله ولي التوفيق والهداية، محيط أهل طاعته بالحفظ والرعاية، كما منحَهم بالتقوى والولاية، ومهلك ومدمّر من عصاه بارتكاب الجناية، قاصم الملوك والجبابرة، وهادم المعاقل والحصون العامرة. وصلى الله وسلم على من أرسله رحمة للأنام، وبعثه لتعريف الحلال والحرام، وجعل جزاء من اتبع شريعته في دار السلام، ورجوع من خالفه وعصاه إلى دار الانتقام.

أما بعد؛

فاعلموا معاشر الإخوان الحاضرين، من أهل جهتنا، من دولة وقبائل، أنا ندعوكم إلى الله سبحانه وتعالى، بامتثال أوامره، من صلاةٍ، وزكاةٍ، وصيامٍ، وحج بيته من استطاع إليه سبيلا. واجتناب نواهيه التي يكون سببها الدمار والبوار، وخراب الديار، وسخط الملك الجبار، والخلود مع الكفارِ في قعر النار، من الربا والزنا، والفسق والخنا، وقتل النفوس بغير حق شرعي، والتسلط على

رقاب الناس بالخدمة، وأموالهم، وغير ذلكَ مما يسخطُ الرحمن ويرضي الشيطان، فمن بات وهو مصرٌّ على ذلك فمأواه النيران.

ومرادنا منكم، الآن، أن تنقذوا أنفسكم، وترضوا ربكم، يصلح لكم دنياكم وأخراكم، ذلك بأن تعطونا عهد الله، أنكم سائرون على شرع الله، محكمينه على أنفسكم وسائر معاملاتكم، والسمع والطاعة لمن استقامَ على طريق الله من ولاتكم، إذا بايعتم على ذلك فابشروا بتأييد الله ومعونته، وكثرة الرزق وسهولته، والعزة والقوة بكثرة الرجال، وبركة الأموال.

فاسمعوا تسعدوا وترشدوا، ولا تلووا وتعرضوا فتندموا وتخسروا، وإياكم والعناد والاستخفافَ بداعي الله، إن أردتم النجاة من سخطه وأليم عذابه، وكونوا من السابقين إليه إن أردتم السعادة الأبدية، والحياة السرمدية.

واحذروا التواني والتخلفَ عن داعي الهداية والسداد، والتعصب على الباطل والفساد، الموجب للخزي والبعاد، والتنكيل والنكاد، فإن داعيكم لا يريد منكم جزاءً ولا شكوراً، إنما يريد أن تسعدوا برضوان الله عليكم، إذا امتثلتم أوامره واجتنبتم نواهيه، وهي سهلة لمن كان خطامُه التوفيق، والعناية صعبة على من استفزه الشيطان بالخذلان والغواية.

فبادروا رحمكم الله إلى داعي الله، واعتصموا به، وانصروا دينه، ولبوا داعيه، واعلموا أن الله لا يرسل عذابه على قومٍ حتى يحذّرهم وينذرَهم، إما على لسان نبيٍّ أو داعٍ من دعاة الحق، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً، فإذا دعا داعيه سعد من أجاب ولبّى، وهلك من أعرض وتأبّى.

ولا تظنوا أن داعي الله لا يستجاب، وأن دينه لا يظهر، وقد قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾. ولا تظنوا أن العزةَ والرفعة في التعصّب على الباطلِ وبطَر الحقّ، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ولا تحسبوا أن النصرة لحزب الشيطانِ، المتعاونين على الظلم والعدوان، لكثرة أهل الفساد والطغيان، فإن كثرتهم قلة، وعزتهم ذلة، وزخارفهم مضمحلة، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ولا تظنوا أن من أدى ما أوجبَ الله عليه من زكاة، وفعل خير برضاه، أو ترك الحرام لله، أن الله لا يأتيه برزقه، وقد قال وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

بل السعيدُ الرشيد، الذي سبقت له العناية من الله، الذي لا يشغله عن إجابة داعي الله أهلٌ ولا مال ولا عشيرة، بل يبادر إلى مرضَاة ربه، وينهض إلى المبايعة، ليكون من سابقي حزبه، ولا يتوقف على الحق بقول قائلٍ، أو عذل عاذلٍ، يقعده عن حزب السيادة، وفريق السعادة. فالشيطان وحزبه من الأنس والجن، يدعون إلى النارِ، وسخط الجبار، والخلود في دار البوار، ليكونوا من حزبه، ويصيروا في خزيه وكربه، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

فشتانَ بين من تولاه الرحمن، وأسعده بالرضوان، وبوأه رفيع الجنان، وبين من استحوذ عليه الشيطان، وأسره بالتسويف والخذلان، ليكون معه في دار الخزي والهوان، والندامة والأحزان، والهلاك والخسران. قال الله تعالى

حكايةً عن الجن لما رجعوا إلى قومهم بعد سماعهم القرآن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

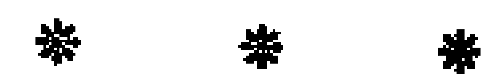
أتختارون سخط الرحمن برضا الشيطان؟! وتختارون النيران على خلود الجنان؟! إن هذا لشرّ المهالكِ والهوان، وأبين الندامة والخسران، وإن كنتم في شك من هذا التبيين، وكنتم في سخرية منه ومين، ووليتم عن داعيه مدبرين، ونكصتم عنه معرضين، وكنتم به مستهزئين، فستعلمون نبأه بعد حين، قال ربنا أصدقُ القائلين: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

فوالله إني ناصحٌ لكم، أخاف عليكم إن لم تجيبوا داعيه، أن يرسل عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يسلط عليكم من يهينكم ويسومكم سوء العذابِ، بما كنتم تعملون. فاقبلوها ممن لا يريد بها عاجلَ الدنيا، ولا ملكها الفاني المنغّص المكدّر، إنما يريد الله والدار الباقيةَ، والنعيم المخلّد والملك الكبير، وإني بحمد الله موجهٌ الهمةَ والقصدَ فيما يرضي سيدي ومولاي، سائلاً منه الزيادة والمعونة في محابه ومراضيه.

ثم إني لما كنتُ أمكث بالحرمين الشريفينِ، قذف الله في قلبي دعوةَ الخلق وإرشادهم إلى الحق، وتوالت في ذلك المرائي الصالحة، والإشارات الواضحة، وبقيتُ بعد ذلك متحيراً، ومنتظراً ما يبدو من الغيبِ، لم أبد شيئاً من ذلك حتى أذنَ الله بجمع العصابة العلوية، والسلالة الهاشمية، على المبايعة بأمر السيد الفاضل الكاملِ، طاهر بن حسينٍ، وحصل معي غايةُ الضيقِ والتعب، لصعوبة هذا الأمر، وكثرة خطره، لفساد الزمانِ، وكثرة أهل الظلم والعدوانِ، وأدخلوني

هذا الأمر مكرهاً، وأسأله العصمة والسلامةَ، والثبات على الـملة الحنيفية، والهداية المحمدية، حتى يتوفاني على ذلكَ، إنه أكرم كريمٍ، وأرحم رحيم.

وهذا أوانُ المبايعة منكم، فمن أسعدَه الله وأرادَ أن يكون من حزبِ الرحمن، له ما لنا وعليه ما علينا، فليقسم وليبايعني، على ما قاله الله ورسوله، ومن أبى وأراد أن يكون من حزب الشيطان، فليذهبْ عنا، وليس منا، ولسنا منه لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويرجع خائباً ذليلاً، بحَول الله الجليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».



(١٠) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

«وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»

«الحمدُ لله الذي صفَّى سرائرَ أوليائه من أقذار حبِّ الدنيا، والتحاسدِ عليها، وصقل مرايَا بصائر أبصارهم عن كدر طيفها، فضلاً عن النظر إليها، شاهدوا حقيقة أقذارها، فهم من أوساخها يتنزهون، صغُرت في أعينهم فما بها يحتفلون، وهانتْ في قلوبهم فيهم في طلابها يتعجبون، وبانت لهم غوائلُ مكرها فهم على مؤثريها يتراحمون، أولئك حزب الله المفلحون، وأولياؤه المتقون، وخاصته المقربون، فما إلى غيره ينظرون، ولا على مراضيه يؤثرون، ففي هذا والله يتنافس المتنافسون، ويتسابق العارفون، كما أن في العاجلة يتسابق الهالكون، ويتنافس الجاهلون، ويتحاسد الأرذلون، أولئك حزبُ الشيطان هم الخاسرون.

والصلاةُ والسلام على سيدنا ومولانا محمدٍ إمام المهتدينَ، وصفوة المقربين، وعلى آله سفينة النجاةِ، وحبل الله المتين، وصحابته الباذلين مهجهم في طاعته ابتغاءَ وجه الله الكريم، وثوابه العظيم، إذ علموا أن الدنيا والآخرة في قبْضَته، فسارعوا إلى طاعته، وهربوا من معصيته، وقاموا بنصر دينهِ وإعلاء كلمتهِ، أولئك حزبُ الله، ألا إن حزب الله هم الغالبون.

أما بعدُ؛

معاشر الإخوان، المتَدَيين لطاعة الرحمن، فقد أتيتموني بأمرٍ من الأخ المسعود المنصور بأمر الله، طاهر بن حسين، أحيى الله به الملة الحنيفية، والسنة المحمدية، بأن أقامني نائباً عليكم، وإني والله لم أرَ نفسي أهلاً لذلكَ، ولا ممن يدركُ المدراكَ، ويسلكُ تلك المسالك.

فأجبته وأجبتكم، معتمداً على الله، منتصراً به، معوِّلاً على هممكم الأبية، وأنفسكم الزكية، لإجابة داعي الله، ونصرة دين الله.

فأنتم يا آل بيت رسول الله معدنُ الحقِّ، وأهلُ الهدى. فالذي آمُركمْ به إقامُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وامتثالُ أوامر الله، واجتناب نواهيه، وموالاة من أجابه، أعني: أهل طاعته، ومعاداةُ أعدائه، أعني: أهل معصيته. وأن تكونوا إخواناً في الله، أعواناً على طاعة الله، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾، فإنما الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية، هي تقوى الله، ولزوم طاعته التي هي عين النجاة، والسيادة الكبرى في الدنيا والآخرة.

وآمُركم بأمر نسائكم بالصلاةِ، وعدم التساهل بها، وتعليمهنّ شروطَها وواجباتها. وآمركم أن تقوِّموني إذا اعوججتُ، وتعينوني إذا استقمتُ، والله شاهدٌ عليَّ وعليكم».

* * *

(١١) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

«رحمةُ الله وبركاته عليكم أهلَ البيتِ، بما جاهدتم في الله حق جهاده، وصبرتُم على دعوة عباده، وأوضحتم سبل رشاده، فحمداً لربٍّ وفقكم لمرضاته، ومنَّ عليكم بجزيل هباته، حتى اجتمعتْ كلمتكُم على الاعتصامِ والائتلاف، وإحياء الشريعة، وتشييد بنيانها المنيعة، بعد اندراس طرائقِها، وخفَاء حقائقها، في الجهة التي كانت معدنَ الصلاح، وموضع الفلاحِ، والآن أفلتْ أقمارُها، وخفيت أنوارُها، حتى منَّ الله على ساداتنا بالقيام بهذا الأمر العظيمِ، والسير على المنهج القويم.

فاعلمُوا سادتي، حماكم الله وأسعدكم، ووفقكم وأيدكم، أنكم فتحتم هذا البابَ المسدود، وطلبتم من أخيكم الانتصابَ لخدمة هذا المنصبِ الشريف، وجنابكم العالي المنيف، فامتثلَ أمركم طمَعاً منه في صدقِ نياتكم الصالحات، وطوياتكم الطيبات.

ومرادُنا الآنَ دعوةُ أهل جهتنا، لأنهم أحق بدعوتنا، ونريد نسطِّر لهم مساطيرَ، ونبتدئ بآل كثير، فمن أجابَ فهو توفيقٌ من الله، ومن أبى فإنما أمره

إلى الله، ويرجعُ إن شاء الله ذليلاً صاغراً، بحول الملك القاهر. ولكن لا يصلح ذلك إلا بعد ما يكملُ حالنا أهل البيت، على الطريقة المرضية، والشريعة المحمدية، فقد توافقنا على ذلكَ بعهْد الله، ونرجو أن لا نتفشّلَ، بحول الله.

فليكُن منكم، حفظكم الله، القيامُ على أنفسكم، وأهليكم وخدمكم، ومن في جدلكم، بدقيق الشرع وجليله، وكثيره وقليله، فإنه خبأ رضاه في طاعته، وسَخطه في معصيته. وليكن منكم رفْعُ الصدر عما ساويتم فيه الظلمةَ، من تولي أمور الناسِ، وهذا من أكبر المناكير الفظيعة، وأفحش الفواحش الشنيعة. ويكونُ بذلك تطروبٌ في الأسواق: أن السادَة رافعون الصدر من الولي الباطل، ومن خابروه أهلُ المال فلا بأس. فإذا تأتّى هذا الأمرُ العظيم، فكلّ المخالفات تتبعه. وإن شقَّ عليكم فالفقير معذورٌ من هذه العهدةِ، وكفاية الله له أكبر عُدّة. وإن أبى بعضُكم وأطاعَ بعضٌ، فاليدُ على المخالف واحدةٌ، وإن اجتمعتم وفرحتم بزوال المنكرِ منكم، فأنا بشيركُم بتأييدِ الله ونصره، وكثرة رزقه وبرّه، والناسُ تبعٌ لكم.

وحاشاكم أن تجرّكم الدنيا الخسيسةُ إلى نقضِ عهد الله، وفَصْم عروة الله، وما أنا إلا واحدٌ منكم، غير أنكم قدمتمُوني للنّهي والأمرِ، والوعظ والزجر، وصار الحرج عليَّ، ومردّ الإثم عند ترك النهي إليَّ، والله يأخذ بأيدينا إلى ما فيه نجاتنا في الدار الباقية، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا، سادتي، والله الله في التودد والائتلاف، واحذروا التفرق والاختلاف، إن أردتم من ربكم الفتحَ والإسعاف، وكونوا بحبل الله معتصمين، ولأمره ونهيه مطيعينَ، وفي مراضيه راغبينَ، ومن عذابه مشفقينَ.

واحذروا أن تغركم دارُ الغرور، وتقتنِصَكم بالتلبيس والزور، وتقطعكم عن دار السرور والحبور، والولدان والحور، وترميكم في سخط الله المحذور، وعذابه المحظور، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

وأطيعوا الله الملكَ الجواد، وأعدوا زادكم ليوم المعاد، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. وصلى الله على سيدنا محمد الهادي إلى سبيل الرشاد، وعلى آله الأمجاد، وصحبه وسلم إلى يوم التناد».

* * *

(١٢) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

«ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل»

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

«يا أهل بيت النبوةِ ومعدن الرسالة، ومن حذا حذوكم، واتبعَ طريقكم، تفطنوا لهذا الخطاب، وأعدّوا الزادَ ليوم الحسابِ، وأحسنوا المعاملة مع ربّ الأربابِ، ومسبب الأسباب، ليجزيكم في هذا الدار بخير الجزاءِ وفي الآخرة بعظيم الثواب. وقد ألزمتم أنفسكم عهدَ الله، بالمبايعة على الالتزام بشرع الله، وإحياء سنةِ رسول الله، وذلك هو الفوزُ الأكبر، والكبريت الأحمر، إذا وفّيتم بعهدكم، وأطعتم أمر ربكم.

وإني أنـهاكم عما نهى الله عنه، من تحلية أسْلِحتكم وآنيتكم بالذهبِ، والتختم به لذكوركم، ولبس الحرير لرِجَالكم، ومن استعمله بعد اليوم فقد وجبَ عليه التعزير.

وآمركم أيضاً، بحَجْب نسائكم عن كلّ من لم يكن محرَماً، بنسبٍ أو رضاعٍ أو مصاهرةٍ، فقد أمر الله نبيه والمؤمنين بذلكَ، وأن تأمروهن بالمحافظة

على الصلاة، وعدَم المسامحة في ترك شيء منها، مع جمعهنّ أو تفرقهنّ، وترك القحيف بالتمر في رؤوسهنَّ، فإنه من أعظم المناكيرِ الموجبة لترك الصلاة، وعدَمِ التطهر لها، إذ هو بدعَةُ البغايا. وآمركُم بتخفيف الجهازِ، وعدم الزيادة على عشَرة قروشٍ، وثوبِ حريرٍ، وتخفيف الولائمِ، إذ هو أجدرُ لعدَم التكلفِ والتفاخرِ الموجبانِ لحبّ الدنيا المبغوضة عند الله ورسوله، القاطعة لمراضيه ومحابه.

وأوصيكم بالجدّ والتشميرِ في مراضي ربكُم، من التزام الطاعاتِ، وفعل الخيراتِ، من نوافل الصلواتِ، وكثرة البرّ والصدقاتِ، لتسعدوا بقرب ربّ البرياتِ، ويسعفكم بجزيل الهبات، وعظيم البركات، والفوز في الحياة وبعد المات. وأوصيكم بمجانبة الفحشِ في الكلامِ، والهزلِ مع الغشام اللئام، فإن ذلك أخصّ في ترك الآثام.

وأوصيكم بتخفيف الزينة المباحَة في لباسكم وفرشكم وآنيتكم، وتقليل الرفاهية في مطاعِمكم ومشاربكُم، فإنه أحرى بكم، وأجدر لاتّباع سنة نبيكم، وأولى بالتواضع لأمر ربكم.

الزَمُوا هذه الوصيةَ، أحدِقُوا فيها أبصارَكم، وزكّوا بها نفوسكم، واشرحُوا بها صدوركم، إن أردتُم السعادة الأبدية، والحياة السرمدية، برضوان الله عليكم، ونصره لكم على الأعداء، والله معكم إذا قمتم بأمره، ولبيتم داعيه، والله يدعو إلى دار السلامِ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

* * *

(١٣) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

«معاشر الإخـوانِ، قد منَّ الله عليكم بالاستماع والاتباعِ لداعيكم، شكر الله مساعيكم، إذ هو سيدكم وواليكم، وبنصْره وعينِ عنايته مراعيكم، فأخلصوا في معاملته، وراقبوه واتبعوا أوامره، وناصحوه، وابتغوا الزلفى لديه، وتاجروه، واحذروا أن تفتنكم دار الغرور، ومواطن التلبيس والزور، فإنما هي دهليز القبور، فاتخذوها قنطرة ليوم النشور.

فاعبروها ولا تعمروها، وخذوا زادكم منها ولا تؤثروها، فاعتبروا بما فعلتْ بأربابها، وكيف كشرت فيهم عن أنيابها، وروّقت لهم مسمومَ شرابها، والله ما ظفر مؤثـروها إلا تعبَ الأبدان، وكثرة الهموم والأحزان، وخراب القلوب والأديان، وعذاب الخزي والنيران، وسخط الملك الديان.

وانظروا كيف كانتْ مع مبغضيها، المؤثرين لمراضي باريها، فشتّان بين الفريقين، وشتان بينَ الطريقينِ، فهل يستوي الأعمى والبصيرُ؟ أم هل تستوي الظلماتُ والنور؟ أم تستوي دار الجحيمِ ودار البقاء والنعيم؟ فما يستريبُ في هذا ذو بصيرةٍ، ولا يؤثر الخبيث الفاني على الطيب الباقي إلا مكدَّرُ السريرة.

واحذروا من حبّ المنزلة والرياسة، فإنه بناءٌ على شفَا جرفٍ ساسُه، لا يثمر غراسـه. وعليكم بالتواضع لإخوانكم، فإنه الإكسير الأكبر في صَلاح أحوالكم، ونزاهة أديـانكم، ومراضي ديَّـانكم، ونجاح شأنكم.

واحذروا الحسدَ، فإنه شرّ الأوَد، وبئس المستند، وهو النار المحرقة للدنيا والدين. واحذروا الغيبةَ، فإنها طعام الهالكين، والكبيرة المسخطة لرب العالمين، وللغافل عنها شغلٌ بمـا يقرّبه من ربه، ويلهيـه عن ذلك تفكره في ذنبه.

وأنهاكم عما يفعله الناس من المسْحة في الزواج بحضرة النساء، فإنه من البدع المنكرة، والأفعال المستقبحَة المسقطة للعدالة.

وأنهاكم عن التَّسْييدِ والتَّشْييخ عند الموتِ، فإنهما أيضاً من البدع الخبيثة، بل الإعلامُ بالصّلاة على وفقِ السنة المحمدية، والطريقة المرضية.

وآمركم أن تنهوا النسَاء عن النياحةِ، فإنها كما في الخبر «موجبة لدخول النار»، وسخط الجبار. وأوصيكم أيضاً بكفّ الأذى، واحتماله من الناس، وإن لم يتبعوكم في نصرة الحق وإزالة الباطل، حتى يأذن الله بملاقاة أهل الظلم والعدوان، ومعاداة أهل البغي والطغيان، وأعوان الشيطان، فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً، وصاحب الباطل مخذول مستدرَجٌ بمكر ربه من حيث لا يشعر، فلا تريبنكم كثرته، ولا تحزنكم بهرجته، فإن حزب الله هم الغالبون، والنصرة والعاقبة للمتقين، ولا نصرة لباغٍ، ولا عاقبة لطاغ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾، فيكفيكم نصرة الله معيةً ومعزةً، أن تكونوا حزبَ الله، وأن تنصروا دين الله، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

(١٤) وصية أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمدُ لله العليةُ كلمتُه مع تغاير الأوقاتِ، وتقلب الزمان، الموكَفة رحمتُه على أهل الإيمان والإحسان، السابقة نعمته على أهل اليقين والعرفان، الواضحة حجته بصريح الآيات والبرهان، القاصِمة نقمته لأهل الظلم والعدوان، المهلكة سطوته لأهل المخالفة والعصيان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، ولا نظير ولا أعوان، شهادةً أتقى بها محذور سخَطِه ووعيدِه للعاصين في دار الهوان، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله البشير النذير لكافة الإنس والجانّ، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ما تعاقبَ الملَوانِ، صلاةً وسلاماً أعدُّهما ذخيرةً يوم تطايُر الصحفِ ونصْب الميزان.

أما بعدُ؛

معاشر الإخوان، تعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله حقَّ تقاته، وسارعوا إلى سبيل مرضاته، واجهدوا في البذر يومَ الحصاد، وأعدّوا الجوابَ يوم ينادي المناد، ونزّهو النفوس والأعمال من دواعي الفساد، فإن ذلك يوم تبدو فيه المخبآت بالانتقاد، وتطير القلوب

فرَقاً من شهادة البقاع والأجساد، ويحاسب الجبار على ما لمحَ بالبصر أو سنحَ في الفؤاد.

ثم إنه قد وافاكم شهرُ القبولِ والبركات، فاغتنموا نفائسَ أوقاته بكسب الخيرات، والأعمالِ الصالحات، وتعرّضوا فيه للنفحاتِ، وجزيلِ الهباتِ، واتجروا فيه بفعلِ المكرُمات، وصالح الحسنات، وتقرّبوا فيه من ربّ البرياتِ بنوافل الصلوات. واحذَروا تدنّسوا غرر أيامِـه ولياليـه بشـؤم المخالفاتِ، وقبيح السيئات.

وامنعُوا النساءَ من خروجهنَّ لليالي الختومِ، فإنه من أعظم المهلكاتِ، المسخطة لربِّ الأرض والسماوات، فإن حصلَ المنعُ وإلا فتركُ الختمِ وإسْرارُه أولى من وجود القبائح المخزياتِ، إذ تركُ المفاسدِ أولى من جلبِ المصالح عند أولي النفوس الزكياتِ، والقلوب المخلصات.

واحذَرُوا أكلَ الحرامِ، وظلم الأنام، وجانبوا أهل الظلم المصرِّين على الفحشِ والآثام، فإنهم إن لم ينتهوا لترَوُنَّ فيهم عاجلَ العقوبةِ، وشرَّ المثوبةِ، بالدمار والبوار، وخرابِ الديار، فإنهم قد أعرضوا عن الله، وبارزوا بالمخالفة والعصيان، وقد أقام الله عليهمُ الحجّة، بأن دعوناهُم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتُهم، بامتثال أوامر الله واجتنابِ نواهيه، ولكن أعمَى الله بصائرهم، واستولى عليهم الشيطان بالمكر والخسرانِ، ليكونوا معه في عذاب النيران.

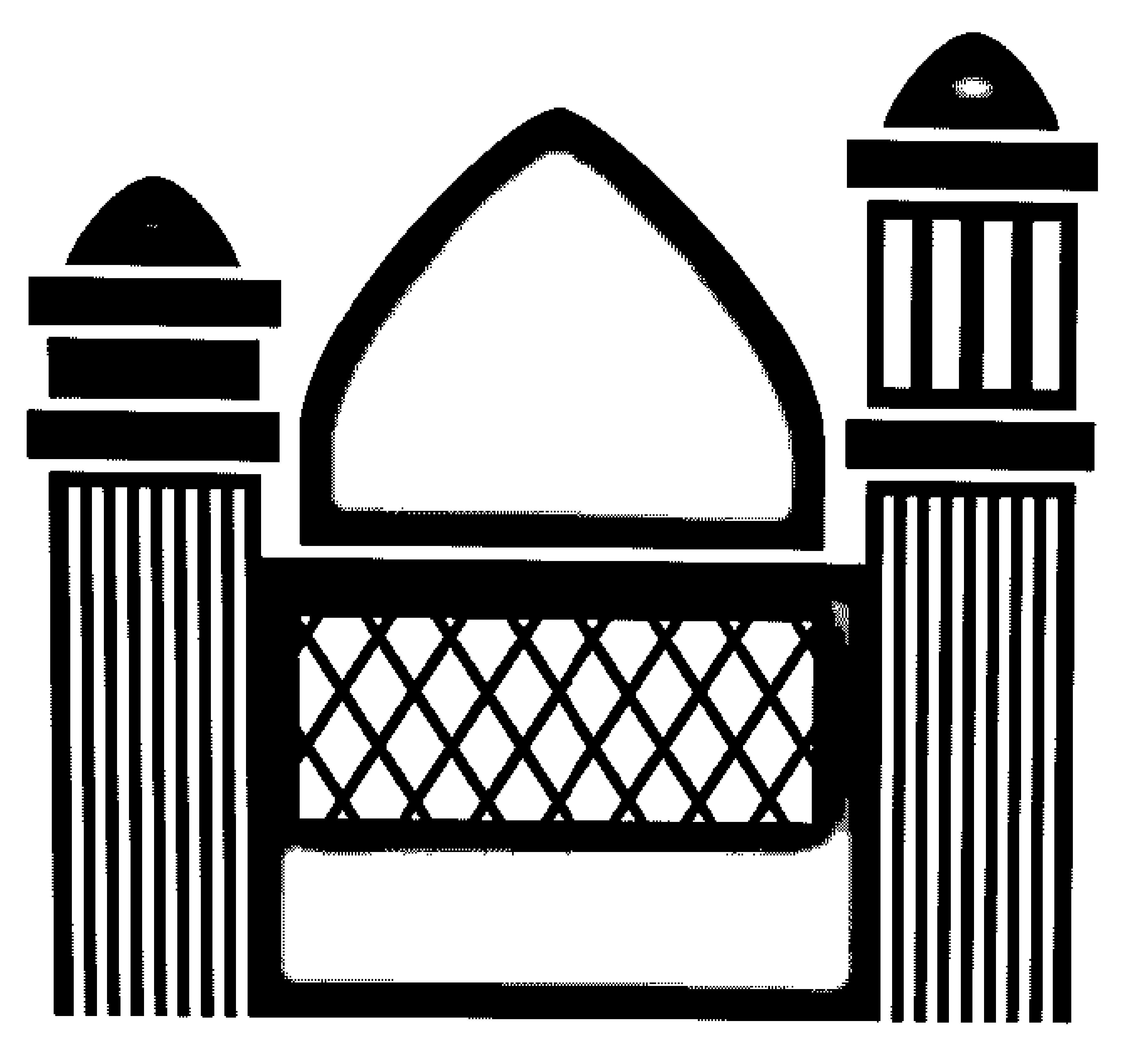
فنسأل الله العصمةَ من مكرِه، والسلامة من شرّه، وأن يوفقنا لمرضاته، وأن يخلع علينا جزيل هباته، وأن يورثنا دار أهلِ تقاته، إنه الجواد الكريم، الرؤوف الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

[تمت الوصايا المباركة]

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

* * *



زاوية العيدروس العلمية

بحوطة آل أبي علوي بتريم